

نادية هاشمي

مكتبة

حين يقترب القمر

"حكاية الخوف والقلق"
Library Journal

"رواية رائعة عن الحدود والحواجز"
The Oprah Magazine

ترجمة:

إيمان حرز الله

kalemat

حين يقترب القمر

حين يقترب القمر

نادية هاشمي

ترجمة:

إيمان حرز الله

دار كلمات للنشر والتوزيع

بريد إلكتروني:

Dar_Kalamat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www.kalamat.com

مكتبة

t.me/soramnqraa

16 4 2023

رقم الإيداع: 2022/5448

الترقيم الدولي: 978-977-6972-13-1

حين يقترب القمر

مكتبة | 1119

نادية هاشمي

ترجمة:

إيمان حرز الله

2022

kalemat

تمهيد

فريباً مكتبة

t.me/soramnqraa

أحبُّ رؤية أطفالِي نائمينَ آمنينَ في هدأةِ قيلولتهم، مع ذلك يأبى ذهني القلقُ إلا أن يستعيد رحلتنا، كيف صرْتُ هنا مع اثنين من أطفالِي الثلاثة مُتكوّرينَ على فراشٍ ذي ملاءٍ خشنة في غرفة فندق بعيد تماماً عن الوطن، وعن الأصوات المألوفة؟ في شبابي، كانت أوروبا أرضَ الحداثة والثقافة الرفيعة، ومستحضرات التجميل والعطور، والسترات المصممة في بيوت الأزياء، والجامعات المرموقة. كانت كابول معجبة بالإمبرياليين بيض البشرة خلفَ جبال الأورال. كنا نتطلعُ إليهم بأعين حاملة ونمزج ثقافتهم بغرائبيّتنا القبلية.

حين انهارت كابول، انهارت أحلامُ جيلي المرصّعة بالنجوم، لم نعدُ نرى جاذبية أوروبا، كنا بالكاد نرى ما وراء شارعنا نفسه، إذ كانت وطأة الحربِ ثقيلةً جداً. حين قررت وزوجي تركَ البلد، تقلصتْ كلُّ مميزات أوروبا إلى معناها الأوحِدِ والأشدَّ جاذبيةً، السلام.

لم أعد عروساً جديدةً أو شابة صغيرة، أنا أمٌ، بعيدةٌ عن كابول مسافة لم أقطعها من قبل قط. عبرتُ وأطفالِي جبالاً وصحاريّ ومحيطاتٍ كي نصلَ إلى غرفةِ الفندق الرطبة تلك،

الخالية تماماً من العطور والثقافة الرفيعة. هذا البلد ليس كما توقعته. الخبر الجيد أن كل ما تطلعتُ إليه في شبابي لم يعد مهماً بالنسبة إليّ الآن.

كل ما أراه وأسمعه وألمسه ليس ملكي، تحرقُ غُربة أيامي كلَّ جوارحي.

لا أجرؤ على إزعاج نوم طفليّ، بقدر ما أتمنى أن يستيقظا ليبددا أفكارِي، لكني أدعهما ينامانِ لأنني أعرف كم هما مرهقان! نحن أسرة مرهقة، أحياناً لا يسعنا حتى الابتسامُ أحدنا للآخر. وبقدر حاجتي أنا إلى النوم، أشعرُ بأن عليّ البقاء مستيقظةً والاستماع للضجة العصبية في رأسي.

أنتظرُ سماعَ وقع خطوات سليم الواثقة في الرواق. معصمي عار، ذهبَت أساوري الذهبية وصلَّصلَّتْها الحزينة، كنت أنوي بيعها. فراغ جيوبنا ليس عاملاً مطمئناً في رحلتنا، ما زال الطريق أمامنا طويلاً قبل أن نصلَ إلى وجهتنا.

يتشوق سليم إلى إثبات ذاته، يشبه أباه لدرجة لا يدركها قلبه الغض، يعتبر نفسه رجلاً، وقد ساهمتُ في هذا بقدر كبير. منحته مرات كثيرة جداً السببَ ليعد نفسه كذلك، لكنه ليس سوى فتى صغير، والعالم القاسي لن يفوت فرصةً لتذكيره بهذا. «أنا خارج، مادر جان، إن اختبأنا في الغرفة كلما خفنا قليلاً، لن نصل إلى إنجلترا أبداً».

ما يقوله حقيقيٌّ إلى حد ما، أعضُّ لساني، لكن الشعور القارص في معدتي يدينني. إلى أن يعودَ ابني سأظلُ أهدقُ إلى الجدران البيضاء البائسة. لوحات موان، زهور صناعية باهتة.

سأنتظرُ حتى تنهار الجدران، حتى تنتهي المواني باليابسة وتتحلل
الزهورُ إلى تراب، يجب أن يعودَ سليم.

أفكرُ في زوجي الآن بقدرٍ أكثر مما اعتدتُ حين كان إلى
جانبي، قلوبنا ونحن صغار حمقاء وجاحدة.

أنتظرُ تحركَ مقبض الباب، دخولِ ابني، تفاخره بفعله لأسرتنا
ما لم أستطعُ أنا فعله. كنتُ لأضحّي بأي شيءٍ في سبيل أمانه
من الأخطار التي يتعرضُ لها، لكن ليس لديَّ شيءٍ لأقايضُ به
تلك الأمانة الساذجة، كل ما لديَّ أمامي روحانِ بريئتانِ تتقلبانِ
بخفة في اضطراب أحلامهما الخاصة.

يُمكنني لمُسهما. حتى الآن، أذكرُ نفسي: سيعود سليم -بإذن
الله- وسنقتربُ بذلك من اكتمال عددنا بأقصى ما نأمله. يوماً
ما، لن ننظرَ خلفنا قلقاً أو نبيتَ في أماكنٍ مستأجرةٍ بأعين
مفتوحة، أو نرتبك لرؤية زِيٍّ رسمي. يوماً ما سيكونُ لدينا مكانٌ
ندعوه بيتنا، سأحملُ أطفالي -أطفالَ زوجي- ما استطعتُ وأدعو
الله أن يعيننا على الوصول إلى ذلك المكان، إلى حيث سيمكُنني،
في هدأة قيلولتهم، أن أستريحَ أنا أيضاً.

الجزء الأول

فريباً

1

خُتِمَ قدري بالدماء يومَ ميلادي، فيما كنتُ أكافح للدخول إلى هذا العالم، كانت أمي تتركه، لتَمَحِّيَ معها فُرْصِي في أن أكون ابنةً حقيقية؛ قطعت القابلةُ الحبلَ السري وحرّرت أمي من آخر التزاماتها نحوي. شحَبَ لُونُ جسدها فيما يتحوّل لوني إلى الوردِي، توقفت أنفاسُها وأنا أطلقُ أولى صرخاتي. نظّفوني، لفّوني ببطانيةٍ وقدّموني إلى أبي الذي صار الآن أرملٌ بسببي. خرّ على ركبتيه، امتقع وجهه. أخبرني بادر جان بنفسه أن ثلاثة أيام كاملة مرّت عليه قبل أن يتمكن من حمل الابنة التي تسببت ولادتها بوفاة زوجته. ليتني لا أستطيع تخيّل أفكاره حينذاك، لكنني أستطيع، أكادُ أجزم أنه لو كان قد خيّر، لكان اختارَ حياة أمي ووفاتي.

بذلَ أبي ما في وسعه لكنّه لم يكن مؤهلاً للمهمة، لم يكن الأمر سهلاً في تلك الأيام، أو في أيّ يومٍ آخر، في جميع الأحوال. كان ابنٌ وزيرٍ يتمتعُ بنفوذٍ محليّ. كان الناس في مدينتنا يلجؤون إلى جدّي للاستشارة والوساطة والاقتراض. وكان جدّي، بابا جان، هادئاً وحازماً وحكيماً، يقرر بسهولة وبلا ترددٍ في وجه من يُعارضه. لا أعرف إن كان عادلاً دائماً أم لا، لكنّه كان يتحدث بطريقةٍ مقنعةٍ جداً تجعلُ الناسَ يصدقونه.

بعد زواجه بوقتٍ قصير، كسبَ بابا جان مساحةً كبيرةً من الأرض من تجارةٍ جيّدة. من تلك الأرض أطمع جدي وآوى أجيالاً من عائلتنا. أنجبت له جدتي، التي توفيت قبل ولادتي بعامين، أربعة أبناء، أصغرهم أبي. كبروا جميعاً في رفاه الامتيازات التي يتمتعُ بها أبوهم. كانت عائلةً محترمةً في المدينة. تزوجَ جميعهم زيجاتٍ موفّقة، ورث كلُّ منهم قطعة أرض أسسوا عليها أُسْرهم الخاصّة.

كان أبي، هو الآخر، يملك أرضاً -بستاناً على وجه الدقّة-، ويعملُ مسؤولاً محليّاً في مدينتنا، كابول، عاصمة أفغانستان الصاخبة، المكنونة بعمق في صدر آسيا الوسطى. سأعرف أهميتها الجغرافيّة لاحقاً فقط. كان بادر جان نسخةً باهتةً من جدّي، نسخةٌ لم تُنقش بقوةٍ كافية لتوضيح حروفها، له طابع بابا جان الحسن، لكنّه يفتقرُ إلى حزمه.

حظيَ بقسمه الخاص من الأرض، البستان، حين تزوج أمي؛ كان يقضي نفسه في ذلك البستان، يعمل فيه ليلاً ونهاراً، يتسلق الأشجارَ ليقطفَ أفضل الثمارِ والأعشاب لأمي. كان في ليالي الصيف الحارة ينامُ بين الأشجار، يرتعُ بين الغصونِ الوارفة والرائحة الطيبة للثمار اليانعة، يقايض جزءاً من محصول البستان بطعامٍ وحاجاتِ الأسرة، وبدا راضياً بما يمكنه ادخاره بهذه الطريقة. قانع لا يرغبُ في نيل شيءٍ أكثر من نصيبه. كانت أمي، مما سمعته عنها -حينما كبرتُ- جميلة، ينسدلُ شعرها الثقيلُ الداكنُ كالأبنوس على كتفيها. عيانان دافئتان وخدّان ملكيّان، كانت تُدندنُ وهي تعمل، ترتدي دائماً عصابةً

رأسٍ خضراء، وتشتهر بطبق الأوش الشهّي الذي تعدّه، شعيرية رفيعة ولحم مفروم بالبهارات في مرّق الزيايدي، ليُدْفئ البطون في الشتاء القارس. كان زواجهما القصيرُ سعيداً، بدا هذا من لمعان عينيّ أبي في المناسباتِ النادرة التي يتحدّث عنها. مع أنّ ذلك قد استغرقَ مني عمراً بكامله تقريباً، لكنني جمعتُ ما أعرفه عن أمي، وأقنعتُ نفسي بأنها غالباً غفرتُ لي اعتدائي غير المقصود عليها، لن أراها أبداً لكنني ما زلتُ في حاجةٍ إلى الشعور بحبها.

بعد سنةٍ من زواجهما أنجبتُ أمي ولداً بصحة جيدة. نظر أبي إلى رضيعه القوي وسمّاه أسد. ردّد جدي الأذان في أذنيه كطفلٍ مسلم، ظني أن أسد لم يكن ليختلف كثيراً لو لم يردد جدي الأذان في أذنيه، في الغالب لم يسمعه، كان سوء الحظ قد شتته بالفعل فتجاهل الدعوة إلى الفلاح.

وُلد أسد بشعور من يملكُ العالم، إذ كان -رغم كلّ شيء- أول أبناء أبي، فخر العائلة الكبير، سيحملُ اسم عائلتنا، سيرث الأرض ويعتني بوالديه حين يبلغان الكبر. وكان من ناحيته، كأنه يعرف ما يتوقّعانه منه حين يكبر، يستنزف أمي وأبي. ظل يرضعُ من أمي حتى تعبتُ ونحلتُ. أسرع أبي يصنعُ لابنه الألعابَ ليلهو بها، يخطط لتعليمه، يكدّ ليضمن لزوجته، الأم الصغيرة، صحةً جيدة وتغذية سليمة.

كانت أمي فخورةً بإنجابها ابناً لأبي، وابناً قوياً أيضاً، خاظت له في ملابسه، خوفاً من حسد الجيران وأفراد العائلة، حجراً أزرق صغير، تميمة، أهدتها لها أختُ زوجها لإبعاد الحسد. لم

يقتصر الأمر على هذا فحسب، بل كانت لديها ترسانة كاملة من الحيل لدرء أعين الحساد المتعددة، كأن تنظر إلى أظفارها حين تشعرُ بزيادة وزن أسد بين يديها أو حين يعلّق زائرٌ ما على خديهِ الورديين الممتلئين، تعلّق على إطرائهم بأن ترددَ في سرها «نام إي خودا» أي ما شاء الله تبارك الله. الكبرُ يجذب الحسد بقوة صاعقة البرق في حقلٍ مفتوح.

ظل أسد يسمُن على حليب أمنا. بمرور الأيام، اتخذ وجهه شكلاً وازدادت فخذاه سُمكاً. بعد مرور أربعين يوماً على ولادته، تنفست أمي الصعداء؛ إذ تجاوز ابنُها المرحلة الأكثر خطراً. كانت قد رأت رضيعَ إحدى الجارات بعد أسبوعين من ولادته، يتخشّب ويرتعش كأنّ روحاً شريرة تلبّسته. صعدت روح الوليد قبل تسميته. علمت فيما بعد أن قطعَ الحبل السريّ بنصلٍ غير مُعقم قد يُلقي ببذور بكتيريا سامة في دم المولود. سواءً أكان هذا حقيقياً أم لا، نحن الأفغان نؤمنُ بشدةٍ بعدم عدِّ الكتاكيث إلا بعد مرور أربعين يوماً على خروجها من البيض.

كأمهاتٍ أخرياتٍ كثيرات، استخدمت أمي قوَى بذور الحرمل المسماة «إسفنند». كانت تُلقي بحفنة من البذور السوداء لتتقافز وهي تتقدُّ في النار، ويتماوجُ دخانها أعلى رأس أسد وهي تغني:

«بذر إسفنند يدرأ الحسد

ببركة الملك نُقشبند:

من عين العدم، من عين الأهل

من عين الصحاب، من عين العدو

هذا الجمرُ في عين الحسود.»

ترنيمهٌ تعود إلى الزرادشتية، وهي ديانةٌ من عصر ما قبل الإسلام، لكن حتى المسلمين يؤمنون بقوتها. كان أبي يراقبُ أمي سعيداً برعايتها الجيدة لأول ذريته. لا بد أنها أفلحت، إذ لم تتأثر حياة أخي بوفاتها مثلما حدث معي. ظلُّ أولُ ولدٍ لأبي يحقق نجاحاً في الحياة، على حساب الآخرين عادةً. يؤذي باستهتاره من حوله، أنا في أغلب الأحوال، ويظلُّ مع ذلك يخرجُ من أي مشكلة دون عناء، اكتسب بالرضاعة منها طوالَ عامين قوةً كافية لتأمين موقعه في العالم.

لكنها ماتت قبل أن تخط لي تيممةً في ثوبي، قبل أن تهمسَ في سرِّها «ما شاء الله تبارك الله»، قبل أن تنظرَ إلى أظفارها وقبل أن تحركَ بخورَ الإسفند بحُبِّ أعلى رأسي. كانت حياتي سلسلةً أحداثٍ حزينة، الأرجح لأنها لم تتسنَّ لها الفرصة لدرء عين الحسود عني. ارتبطتُ ولادتي بوفاتها، وفيما كان بابا جان يهمسُ بالأذان في أذني، كانت صلاةٌ مختلفة تماماً تُتلى على جسدها المُكفَّن. تخلل الأذانُ بصوتِ جدِّي في أنسجة كيائي كله، يُخبرني بأن أظلُّ مؤمنة. كانت نجاتي في استماعي له.

دُفنتُ أمي في مقبرةٍ حديثة بالقرب من بيتنا، لم أزرها كثيراً، لأن أحداً لم يأخذني إلى هناك، ولشعوري بالذنب أيضاً. كنت أعرفُ أنني من تسببتُ في وجودها هناك وكانوا جميعاً يذكرُوني بهذا.

صار أبي شاباً أرملَ وأباً لابنٍ عمره عامانٍ وابنةٍ مولودة حديثاً. ظلُّ أخي، غيرَ عابئٍ بغيابِ أمي، على شقاوته المعتادة كطفل صغير، فيما كنتُ أطالب بصدرِ أمي بسذاجة. بفرخين في العشِّ الآن دفن أبي كبرياءه، وبدأ البحثُ عن أمٍّ جديدة لطفليه.

أسرع جدِّي يبحثُ له؛ يعرفُ أن المولودة لن تتلقَى الرعاية اللازمة من رجل. كان، بصفته وزيراً، يعرفُ جميع العائلات في المدينة. كان يعرفُ فلاحاً محلياً أنجبَ خمسَ فتيات، أكبرهن في سنّ الزواج، وكان متأكداً من أن الفلاح الذي يتعذّرُ عليه إطعامُ خمسِ فتياتٍ حتى يصلنَ إلى سن الزواج، سيجدُ ابنه عريساً جيداً.

ذهب جدِّي إلى بيت الفلاح، وظلَّ يُشيدُ بابنه؛ إنه رجلٌ محترمٌ وشخصٌ جديرٌ بالثقة، جعله سوءُ الحظِ أرملٌ في وقتٍ مبكرٍ من حياته، ورتّبَ زواجه بابنة الفلاح الكبرى. أكّد جدِّي على الفلاح برفقٍ أن يضعَ في اعتباره وجودَ طفلينِ صغيرين. سارتِ الأمورُ بسرعة. خلالَ أشهرٍ دخلتُ محبوبةً بيتنا حيثُ أُعيدت تسميتها، مثل كلِّ العرائسِ الأخريات، باسمِ منزلي، إذ ليس من اللائق دعوةُ امرأةٍ باسمها الحقيقي. لكنني أظنُّ أن الأمرِ يحملُ ما هو أكثرُ من هذا، ظنّتي أنها طريقةٌ لإخبارِ العروسِ بالألّا تنظرَ خلفها ثانيةً. هذا أمرٌ جيدٌ أحياناً.

اعتادت «كوكوكل»، لكونها الأخت الكبرى، رعاية أخواتها الأربع منذ نعومة أظفارها، فكانت أهلاً تماماً لرعاية طفلين. قررتُ سريعاً ألاّ تعيشَ في جلاباب أمي. أعادتُ ترتيبَ قطعِ الديكورِ القليلةِ في بيتنا، أخرجتُ ملابسَ أمي ومحتُ كل أثرٍ لها في البيت، ما عدا أخي وأنا. كنّا الدليلَ الوحيدَ على أنها ليست الزوجة الأولى؛ مكانة مهمة حتى وإن كانت الزوجة الأولى متوفية. كان من الشائع حينها أن يتزوَّج الرجلُ أكثرَ من امرأةٍ، ممارسة نشأتُ في أوقات الحربِ من أجل رعاية الأرامل، كما أخبروني.

عملياً، يخلق هذا توترًا باطنياً لدى الزوجات. كان وضعُ الزوجة الأولى لا يُقارَن بمنْ بعدها. حُرِّمَتْ كوكوكل من فرصتها لتكونَ زوجةً أولى بسبب امرأةٍ لم تقابلها قط، امرأةٌ لا يمكنها منافستها، بل وأجبرتْ على تربية طفليها.

لم تكن كوكوكل امرأةً شريرة، لم تتركني أتضور جوعاً، ولم تضربني أو تطردني خارج المنزل، بل أطعمتني وحممتني وألبستني وفعلتْ كلَّ ما تفعله الأم. حين بدأتُ الكلامَ دعوتُها ماما، سرتُ خطواتي الأولى نحوها، المرأة التي مرّضتني خلال نوباتِ الحمى وضمّدتْ لي خدوش الطفولة.

مع ذلك، كانت تفعلُ كلَّ هذا من مسافةٍ ذراع، أحسستُ بسخطها سريعاً، مع أنني لن أعرفَ اسمه إلا بعدَ سنوات. كان أخي مثلي مع بعض الاختلاف، تحوّل، خلال أشهر قليلة، من كلمة ماما إلى كوكوكل، ونسي تماماً المرأة التي سبقتها. كانت ترعاه باجتهادٍ أكثر قليلاً، تعرف أنه مفتاح قلب أبي. وكان أبي القانع، حين يُوجد في البيت، يرضى لعثورهِ على أمّ مناسبةٍ لطفليه. مع ذلك، كان جدي المخضرمُ يعرفُ أنّ عليه رعايتنا، لذلك كان حضوره دائماً.

لم أكنُ يتيمة، لديّ والدان وأخوة، وبيتٌ دافئٌ وطعامٌ كافٍ. كان لي أن أشعرَ بالكمال. لكنّ غيابَ الأم يُشبه الوقوفَ عارياً في الجليد. يظلُّ خوفي الأكبرُ، الرعب الذي ينمو باضطرادٍ مع حبي لأطفالي، أن أتركهم على النحو نفسه.

أتساءلُ إن كان هذا الخوفُ سيزول يوماً ما.

مكتبة

t.me/soramnqraa

فريباً

2

كان وجهه كوكوكل بشوشاً، لكنه غير ملحوظ في غرفة مزدحمة، طولها كطول أبي تقريباً، بشعرٍ أسودٍ كثيفٍ لا يكاد يصلُ إلى كتفَيها، من النوع الذي ينفرد بعد دقائق من فك البكرات منه. كانت عامرة الصدر بحيث لا تبدو رشيقةً، ونحيلةً جداً بحيث لا تبدو متسلطة، رُسمت بدرجات متوسطة من الألوان.

بعد عامين من زواجها بأبي أنجبت طفلها الأول، فتاة، خيبة أملٍ ظلت تلقي باللوم فيها على شبح أمي. سُميت أختي غير الشقيقة «نجيبة» تيمناً بجذتي الراحلة. كان لها وجهه كوكوكل المستدير، وعينان داكنتان مُكللتان بحاجبين مقوسين وكثيفين. كحلت كوكوكل عيني مولودتها، كما جرت العادة، لتتمتع ببصرٍ جيدٍ وعينين رائعتين. في الشهرين الأولين، ظلت تقضي ساعاتٍ في إعداد شرابِ الشمر لتخفف من مغصِ نجيبة وتوقف بكاءها. ظلت الأم والمولودة محرومتين من النوم حتى تحسن مزاج نجيبة. كانتا ثائياً عنيداً.

قلَّ صبرُ كوكوكل على طفلي زوجها بعد ولادة طفلتها، صارت تعي أكثر من أي وقتٍ مضى أننا لسنا طفلها، تتعبُ بسرعة فينال أحدها منها لكمة سريعة كالأفعى. تأدبنا بظهر كفها. كانت

تعدّ طعامنا بلا مُبالاة وبشكلٍ غير منتظم حين لا يكونُ أبي في البيت. وكنا نجتمعُ على الطعام كعائلة فقط حين يعودُ في آخرِ اليوم.

بولادة نجيبة طابت لرحم كوكوكل فكرةُ حملِ الأطفال فأنجبتُ خلال السنوات الأربع التالية ثلاثَ فتياتٍ أخريات. ومع كل حمل لها كان صبرها يقل مع ازدياد غيابِ أبي، الذي يفضّل الهدوء لكنه يعجزُ عن طلبه. وُلدت سُلطانة بعد عام من ولادة نجيبة. لم تُخفِ كوكوكل أنها كانت تأملُ في إنجابِ فتى، خلافاً لوالدي الذي لم يهتم بالأمر بشكلٍ يثير الفضول. في حملها الثالث بعد ذلك بنحو عامين، ظلتُ تُصَلِّي وتتصدّقُ على مريضٍ وتأكلُ كلَّ الأطعمة التي سمِعتُ بأنها تضمنُ إنجابَ طفلٍ ذكر. خاب أملها بولادة مورية، وأيقنت أن روح أمي أَلقت بلعنةً قوية على رحمها. حين وُلدت مريم، أختي الرابعة، لم تُدهش كوكوكل ولم تُحبط كذلك. شعرتُ بأن أمي المتوفاة تعوقها فاستسلمت بمرارةٍ ولم تُنجب أطفالاً آخرين. سيظل أسدُ ابن أبي الوحيد.

كان يجبُ أن تتفتَحَ أولى ذكرياتي عن شيءٍ ما مثل المدرسة أو دميةٍ مفضلة، لكنّ طفولتي لم تكن كذلك. كنتُ في السادسة من عمري حين كانت كوكوكل تقتعدُ وسادةً في غرفة المعيشة، بجانبها «مورية» المولودة حديثاً، نائمةً وملفوفةً بإحكامٍ في طرحة صلاة.

صاحت كوكوكل بصوت عالٍ: «فريباً!»، فتلوّى وجه مورية الصغير في لفتها الضيقة جداً لتأتي بأي ردّ فعلٍ آخر. «نعم، مادر جان». كنت على مقربةٍ خطوات قليلة منها، ما

زالت تتعافى من الولادة، ليس عليها فعلُ شيءٍ سوى إرضاع المولودة، أعرف هذا لأنها ذكّرتني به مرارًا.

«فريبًا، غادرتُ خالتك وتركّتِ يخنةَ الدجاج على النار، لن تكفينا جميعًا، لماذا لا تأتينَ ببعض البطاطسِ من الخارج ليكونَ لدينا ما يكفي لإطعام الجميع؟».

يعني هذا شيئين، أولاً، أنّ أبي وأخي هما الوحيدان اللذان سيأكلانِ الدجاج الليلة، وسيكفي بقيتُنَا بتناول البطاطس. وثانيًا، أنّ عليّ الخروج إلى الفناء الخلفيّ في البرد القارسٍ لجلب بعض ثمار البطاطس. كنا في بداية الموسم قد دفنّا ما يكفي من البطاطس والفجل والجزر واللفتِ خلف المنزلِ لحفظها في برودة الأرض.

«مادر، ألا يمكنكِ طلبُ ذلك من أسد؟» كان البردُ قارسًا، وتخيّلتنِي بالفعل أكافحُ لإمساك الجاروف.

«إنه ليس هنا، ونحنُ بحاجة إلى البطاطس الآن، وإلا فلن نجدَ الوقت لإعدادها على العشاء، ارتدي المعطف والقفازات التي اشتراها لك والدك، لن يستغرق منك الأمرُ سوى دقائق.»
لم أكنُ أريدُ الخروجَ من البيت.

«هيا تحرّكي عزيزتي، ساعدي أمك من فضلك.»
كان تحببها كسكرٍ بودرة على خبزٍ محترق. مع ذلك، كنتُ أزدرده.

أتذكّر كفاحي مع الجاروف الذي كان طولُه مماثلًا لطولي تقريبًا، فتركته ووجدت مقلعًا يمكنني إمساكه، بدا كأن أنفاسي تتجمّد أمامي في الهواء المثلج، وتخدّرت أصابعي من البرد رغم

القفاذات. أسرعُ ألتقطُ أربعَ ثمرات بطاطس، وكنت على وشك دفنِ الباقي حين رأيتُ بعضَ ثمار الفجل. التقطتُ الفجلَ أيضاً دون سببٍ محدّد، دسستُهُ في جيبِي إذ كانت يداي مملوءتَيْن.

«أحضرتُها، مادر جان»، صحّتُ من المطبخ.

«فتاةٌ جيدة، فربيا. ليباركك الله. الآن اغسليها وقشريها وضعيها في الإناء لطهيها مع صلصة الطماطم». بدأتُ موريّة تغمغم.

فعلتُ كما قالتُ وقطعتُ البطاطسَ كما علمتني، بحرصٍ لئلا أجرخَ أصابعي بالسكّين. استكملاً لنزوة الفجل، غسلتهُ أيضاً وقطعتُهُ ووضعتُهُ في الإناء، من باب الابتكار قليلاً في الطبخ. قلبتُ الإناءَ ثم غطّيته وذهبتُ لأتفقد أخواتي.

«ما تلك الرائحةُ الكريهة؟ فربيا! ماذا فعلتِ؟» يتردّدُ صوتُ كوكوكل في بيتنا كأنّ له ساقين وإرادة خاصة. كنتُ قد لاحظتُ الرائحةَ بالفعل لكنني نسيتهُ بلا مبالاةٍ طفلةٍ في السادسة.

لم أظن أنّ لي أدنى علاقةٍ بها حتى اضطرّرتُ كوكوكل إلى النهوض، سارتُ إلى المطبخ ورفعتُ غطاء الإناء. عبّأتِ المطبخَ سحابةً بخار حريّف. غطّيتُ أنفي بيدي، مذهولةٌ من تجاهلي تلك الرائحة.

«فربيا، أيتها الغبيّة!» ظلّت تردّدُ تلك العبارةَ مراراً وتكراراً، وهي تهزّ رأسها وتتأفّف، وإحدى يديها أسفل ظهرها.

أخبرتُها قطعُ الفجلِ الحمراءً كاللحم بما فعلتهُ بالضبط. تعلمتُ يوماً أن تلك البُصيلات الصلبةُ الفوشيا تبعثُ تلك الرائحةَ حين تُسلق. رائحةٌ لن أنساها ما حييت، وشعور سأظل أتذكره دوماً.

حين حان وقتُ التحاقِي بالمدرسة، أفتعتُ كوكوكل أبي بأنها بحاجة إلى مساعدتي مع الأطفال الآخرين، وافقها أبي الذي لا يستطيعُ الدفعَ مقابلَ مساعدةٍ أخرى، وأجلّ دخولي إلى المدرسة عامًا آخر. كنتُ صغيرةً لكنني مفيدة، يُمكنني إحضار الأشياء وقضاءَ مهامِّ صغيرةٍ خارج البيت. في العام التالي، ظلّت الحجة نفسها ومكثتُ في البيت فيما كانت كوكوكل حاملةً في مريم. ظل الأمرُ نفسه يتكرّرُ بعد كل ولادة، تكحيلُ عينيّ الرضيعة، توزيعُ الحلوى بعد إتمامها أربعين يومًا، وحلاقةُ رأسها لتتمتع بشعيرٍ كثيفٍ وخصلاتٍ ثقيلة. كنتُ أحزنُ وحدي على ضعف بصري وشعري وسوء حظي إذ لم يفعلَ لي أحدٌ كل هذا.

لحُسنِ الحظ، كان جدّي، بابا جان، يتابعنا عن كثب، يزورنا بشكلٍ متكررٍ فيتغيّرُ سلوكُ كوكوكل بشكلٍ ملحوظٍ في حضوره. يدعوني وأسد للسير معه وتتبعث من جيوبه صلصلةُ العملات وخشخشةُ أغلفة الحلوى. لم نكن نتطّلع لزيارةٍ أحدٍ آخرٍ أكثر من بابا جان. كان يُطلبُ منا ترديدُ ما حفظناه من القرآن فيما يتفقّد ملابسنا ويقرّصُ أذرعنا ليتأكّد من تغذيتنا جيدًا. كانت كوكوكل تراقبه بطرفِ عيناها، تشعرُ بعدم ثقته بها وتفتاظ لذلك في صمت.

لكنّ زيارته لم تُغيّرِ الكثير في البيت بالنسبة إليّ. فيما كانت أخواتي يكبرن وكوكوكل تشغلُ برعايتهن، كانت مهامّي في المنزل تزدادُ شيئًا فشيئًا. كنتُ أطمعُ الدجاج، أنظفُ فضلات الماعز، أحملُ دلاء الماء من البئر، أنقضُ السجاجيد يوميًا وأراقب الصغيرات. حين وصلتُ نجيبة إلى سنّ المدرسة زعمتُ كوكوكل

أنَّ عمل البيت أكثر من أن يُمكنها القيامُ به وحدها، وافقها أبي وتأجَّلَ دخولي المدرسةَ عامًا آخر. كانت أخواتي الصغيرات يذهبن إلى المدرسة ليتعلَّمن الحروف والأرقام فيما أتعلَّم أنا الطبخ! كانت يداي مُلتهبتين ومُتشققتين من غسل الملابس المبقَّعة بالطعام الذي أعدّه. مع ذلك كان ما يُؤلمني حقًا بقائي في المطبخ فيما تشغُلُ الأخريات بارتداء ملابسهنَّ للذهاب إلى المدرسة في الصباح.

كان هوسُ كوكوكل بالخرافات يُضاعفُ من جنون الموقف، تزخرُ ثقافتنا بالخرافات بالطبع، لكن كوكوكل تتعاملُ معها بحماسة خاصة. يجب ألا ننامَ مُرتدين جواربنا وإلا سيصيبنا العمى! وإنَّ أسقطَ أحدُ شيئاً من الفضة، فعليَّ تنظيفُ البيت عاليه سافله ترقبًا لمجيء ضيوف! إنَّ شَرَقَتْ وهي تشربُ أو تأكل، تلعن من يتحدثُ عنها بالسوء بلا شك في مكانٍ ما! ظني أن هذه كانت المفضلة لديها، فناعتهُا أن الأخريات يحسدنَّها على هنائها.

كان الخرافات العامة لا تكفيها، كانت تخترعُ الكثير من الخرافات الأخرى الخاصة بها. فتحليقُ طيرين فوق رأسها يعني أنها ستدخلُ في نقاشٍ مع إحدى الصديقات المقربات، وإن احترق البصلُ في أثناء تشويحه على النار فهذا يعني أن أحدهم يتحدثُ بالسوء عن طبخها، وإن عطستُ أكثر من مرتين فهذا يعني أن الأرواح الشريرة تتلاعب بها. لم يكن بادر جان يقول شيئاً، لكنه كان يخبرنا بهدوء أن هذه تفسيراتها الخاصة بها التي اخترعتها هي، وأن علينا ألا نشارك فيها مع الآخرين. لم تكن تحذيراته مهمة، لأن كوكوكل ليست من النساء اللاتي يحتفظن بأفكارهن لأنفسهن. كان جيراننا جميعاً يعرفون نظريَّاتها الخيالية.

في أحد أركان بُستاننا توجد مجموعةٌ من أشجار التوت، تتدلى فروعها الوارفة بثمارها الصغيرة الدانية، كانت أشجاراً كبيرة بجذوع ضخمة وراسخة، لواحدة منها لحاءٌ مُتغصنٌ وعقديٌّ، تُقسم كوكوكل أنه يمكنها تمييزُ وجه الروح الشريرة في تلافيفه الخشبية. ورغم رعبها من الوجه المحفور في الجذع كانت تعشقُ مذاق ثمار التوت التي تحملها فروعها، وحين تشتاقُ إلى هذا التوت تُرسلني إلى هناك.

«فريباً جان»، تنادي برقةٍ وهي تأخذُ إناءً خزفياً من خزانة الأواني، «أريدك أن تأتينا ببعض التوت من البستان، أنتِ تعرفين، لا أحدٌ غيرك يمكنه قطفُ تلك الثمار الرقيقة مثلما تفعلين، إن أرسلتُ أحداً غيرك سيعود حاملاً مُربى وليس ثماراً».

لم يكنْ تزلفها ضرورياً لكنني كنتُ أبتسم لعلمي بخوفها من الخروج بنفسها. كنتُ، كفتاةٍ نحيلةٍ بشعرٍ خفيف في التاسعة من عمرها، أخاف كوكوكل أكثرَ من خوفي من متاهة الأشجار الغامضة في البستان. في الحقيقة، كنتُ في أثناء النهار، حين يحفل البيتُ بالأشخاص والطلبات، ألوذُ بالبستان.

ذات مساءٍ في منتصف الأسبوع، وأخواتي منكبات على واجباتهن المدرسية، أعلنتُ كوكوكل عن اشتياقها إلى التوت، فخرجتُ مذعنةً من الباب الخلفي بإناءٍ فارغ، وشققتُ طريقي إلى الشجرة المعروفة. كان لحاؤها الملتوي عابساً تحت نور قمر كهروماني. دون ضوء النهار، تحسستُ أوراق الشجر بيدي بحثاً عن الثمار. كنتُ ما زلتُ لم أجمع سوى اثنتين أو ثلاثٍ حين شعرتُ بنسيم ناعمٍ خلفي، رقيق كالهمس.

استدرتُ فرأيتُ قامةً رجلٍ يقفُ خلفي، لم أجروءُ على التنفسِ وهو يضعُ يدهُ على كتفي برقةٍ شديدة حتى أنني بالكاد شعرتُ بلمسته.

تتبعتُ عيناى أصابعه الطويلة النحيلة وصولاً إلى ذراعه، قبل أن تسعني رؤيته كله. كان عجوزاً، لحيته بيضاءً وقصيرة ووجهه تملؤه التجاعيد، حاجباه كثانٍ أبيضان يظللان عينيه الزرقاوين الرماديتين المسبلتين. إنه صديق، عرفتُ ذلك على الفور، فهدأتُ دقاتُ قلبي المتسارعةً مع نبرة صوته الودودة.

«فريباً جان، حين تسيرين في الظلام، سأتبعكِ وأبصرُ لكِ طريقك، وحين تظنين أنكِ وحدك، سأكون حارسكِ. أمضِ في طريقكِ وأنتِ تعرفين هذا».

طرفتُ بعيني فاختمتُ! درتُ حول نفسي أتوقّع رؤيته يسير مبتعداً بين الأشجار لكنني لم أرَ شيئاً. ترددتُ كلماته في ذهني، سمعتُ صدى صوته، رددتُ كلماته لنفسى لتظلُّ في ذهني، نادراً ما نطق أحدٌ اسمي بهذا الحب.

«فريباً!» صاحت كوكوكل تُناديني من البيت، لا يُمكنها الانتظار. أسرعتُ أقطف ما استطعتُ من حبّات التوت، واصطبغتُ أصابعي بعصيرها القرمزي، هرولتُ إلى البيت أنظرُ خلفي من حين إلى آخر لأرى إن كان قد عاد. ارتعشتُ يداي وأنا أضع الطبقَ أمام كوكوكل، التي تجلسُ لمراقبة أخواتي وهن يعملن بكد في دفاترهن. بدأتُ تتناول فاكهتها. وقفتُ أمامها لا أتحرك.

صاحتُ فجأة: «ما الأمر؟ ما خطبك؟»

«مادر جان، كنتُ في الخارج... عند شجرة التوت».

«ثم؟»

«ثم، وأنا هناك... رأيتُ رجلاً عجوزاً جاء من النور، من الروحاني، ناداني باسمي وقال لي إنه سيتبعني وسينير لي دربي، قال إنه يحرسني». كنت أسمع صوته في ذهني في أثناء حديثي. «رجلٌ عجوز! أين ذهب إذن؟» ضيقتُ عينيها ومالت إلى الإمام باهتمام.

«اختفى. ظهر فجأة؛ شعرتُ بيده على كتفي، واختفى على الفور بعد أن قال ما قاله. لم أرَ أين ذهب، اختفى فحسب! لا أعرف من كان». كنت ألهث، لكنني لم أكن خائفة. انتظرتُ تفسيرها لما حدث.

«بسم الله!» قالت؛ «لقد رأيتُ ملاكاً! هذا ما كان، أيتها البهاء! ألا تميزين الملاك حين يلمسُ كتفك ويعد بحراستك!»
ملاك؟ أيعقلُ هذا؟ حكى لنا جدي، وهو يحفظنا سور القرآن، عن الملائكة وقواهم السماوية. يا لغبائي إذ لم أميز ملاكاً أمامي! واصلتُ كوكوكل تأنيبي لأنني لا أقدر قيمة هذا اللقاء الروحاني. نظرتُ إلينا أخواتي بأعين متسعة، تلاشى صوتها الحاد فيما تتردد كلماتُ الملاك في ذهني.

سيحرسني، ملاكي الحارسُ سينير لي دربي، لن أكون وحدي أبداً.

يوم الجمعة التالي، انتظرنا عودة أبي من المسجد، كانت كوكوكل قد طلبتُ منه أن يدعو الله أن تتلقى هي الأخرى وفتياتها زيارةً من ملاك حارس. لم يقل أبي شيئاً عن لقائي بالملاك. لم أعرف شيئاً عن معتقداته ولا مدى قوتها.

كنتُ وكوكوكل نعتقدُ معاً، اتحدنا في هذا الأمر، رأيتُ هي
تغيّراتٍ صغيرةً فيّ، ورأيتُ أنا ماذا تفعلُ بها تلك التغيّرات.
سرتُ برأسٍ مرفوع، ما زلتُ أنفذُ تعليماتها لكنني لم أعد أنكمشُ
أمامها مثلما اعتدّت. صرتُ أتجوّل في أرجاء البستان بجرأة،
ليلاً ونهاراً، أتوقع أن يُعاودَ ملاكي الحارسُ الظهورَ ليردّدَ على
مسامعي كلماته المُطمّنة.

جُنّ جنون كوكوكل. كانت تتفاخرُ أمام صديقاتها بأنني، ابنتُها،
قد زارني ملاك. هذه الزيارة بشرى بالخير الكثير، وهي تتمنى
أن ينالها نصيبٌ منه. راحت تفسر أحلامها باجتهاد، تبحث عن
دلائلٍ لاتصالها بالسموات هي الأخرى. كنت أسمعُ دعواتها التي
تجددت قوتها وهي تُصلّي في البيت، غدت تتحدّثُ معي بطريقةٍ
أرقّ قليلاً، وتمسّدُ شعري بيدها برفق.

اهتمّت أخواتي بالأمر كلّهُ رغم عجزهن عن فهم توق كوكوكل
إلى رؤية الرجل الذي رأيتُهُ في البستان. حارتُ نجيبه، أقربهنّ
إليّ عمراً، بشدة من ردود أفعال كوكوكل.

«كيف بدا الملاك يا فريباً؟ أكنتِ خائفةً منه؟» سألتني بفضول،
كنا نجلسُ مُتربعتين على الأرض، نفرطُ حبوبَ الفول من قرونها.
«بدا رجلاً عجوزاً فحسب، كأنه جدُّ أحدٍ ما». شعرتُ بكلماتي
بسيطةً جداً لكنني لم أعرفُ إجابةً أخرى.
«جدّ من؟ جدُّنا؟»

«لا، ليس أحداً نعرفه، مجرد جدّ»، فكّرتُ جيداً لأوفيه حقّه،
ثم قلتُ «كانَ منيراً.. وكان يعرف اسمي»، وألقيتُ بحفنةٍ من حبوب
الفول في الإناءِ الموضوع بيننا.

سكنت نجيبه، تفكر في ما قلته. «حسنًا، أنا سعيدة لأنني لم أراه. ظنني أنني كنت سأخافه».

كنت سأخافه أنا أيضًا لو لم أر بنفسى عينيه الزرقاوين الرماديتين، وأسمع صوته الرقيق يبدد الظلام ويزيل كل أثر للخوف. مع ذلك، رأيتى نجيبه شجاعة.

لم تر كوكوكل الأمر كذلك، بدأت تعتبر لقائى يخصها هي، خبرة بالنيابة. سمعتها ذات يوم تتحدث مع صديقتها في أثناء زيارتهما لها في البيت.

سألت إحدى الصديقتين: «ثم اختفى؟ ببساطة هكذا؟»
«أتوقعين أن تأتي عربة تجرها الأحصنة لتقله؟» قالت بسخريتها اللاذعة المعهودة، التي كانت تروق لصديقتها جدًا ما لم تكن إحداها ضحيتها.

قالت صديقة: «لا بد أن الله يحبها ليرسل إليها ملاكًا».
قالت الأخرى بتعاطف: «من يعرف، إنها يتيمة، ربما ترعاها روح أمها في الجنة من هناك، لا بد أن الأمر له علاقة بها».
أثار ذكر أمى مخيلة كوكوكل: «أنا من طلبت منها الخروج إلى البستان تلك الليلة. أنا نادرًا ما أشتاق إلى التوت، لكن شيئًا ما غامضًا انتابني حينها، كان لساني يدغدغني شوقًا إلى مذاق تلك الفاكهة، حاولت أن أنسى الأمر لكنني لم أستطع، كأن شيئًا ما في تلك الأشجار كان يناديني، أردت أن أركض إلى هناك. لكنني كنت مشغولة في مساعدة الفتيات في واجباتهن المدرسية لذلك طلبت من فريبيا أن تقطف لي بعضها، إنها ابنة طيبة، ذهبت إلى البستان من أجلي، لذلك لست متأكدة من منّا التي كان الملاك

يريد لقاءها! ربما كانت لهفتي الشديدة على التوت حينها هي طريقته في دعوتي، لكنني أرسلتُ فريباً جان نيابةً عني، لذلك لا أحد يعرف حقاً».

لم يبدُ عليهما الاقتناع تماماً بنظريتهما لكنهما لم يعارضاهما. دخلتُ الغرفة أحمل بحرص صينيةً عليها ثلاثة أكوابٍ شايٍ ساخن في يد، وفي الأخرى طبقُ السكر.

«لقد فكروا في فريباً جان وهم يصنعون السجّاد الأفغاني»، أعلنت كوكوكل. «الفضلُ للون السجاد الأحمر، لأنكما لن تعرفا أبداً كم الشاي الذي سكبته عليه!». ضحكُن ضحكاً خافتاً وظلُّ رأسي مطرفاً، ابتسمتُ بأدبٍ وأنا أضعُ كوباً أمام كلٍّ منهما وأعرضُ مكعبات السكر، شعرتُ بنفسي تحت الفحص، «أفارين دُختار جان»، [أحسنِتِ يا بُنيّتي العزيزة]. عدتُ إلى المطبخ بالصينية الفارغة، أنا اليوم ابنتها!.

في الحقيقة، كنتُ ابنتها في أغلبِ الأيام، أقضي وقتاً طويلاً معها في البيت إذ لمُ التحقُ بالمدرسة، أحملُ عمل البيت كله تقريباً على عاتقي وحدي، وكانت تؤنّبني بقسوةٍ شديدة حين لا يُعجبها عملي، لكنني كنتُ معها في أغلبِ الوقت، نقضي ساعاتٍ في إعداد الوجباتِ وتنظيف البيت ورعاية الحيوانات. كان لسانها الحاد بحاجةٍ إلى جمهور أو هدف، لذلك كنتُ أحبُّ الذهاب معها إلى السوق. كانت تنظر إلى الطماطم المهروسة، وتساءلُ البائع إن كانت زوجته السمينة قد جلستُ على محصوله بالخطأ. في متجر الأدوات المنزلية تسألُ البائع إن كان الطبقُ باهظ الثمن لأنه من مجموعة أطباقِ الملكِ الخاصة.. كان حسُّها الفكاهيُّ إما أن

يتسبب في سوء فهم، أو يُقَابَلُ بـقَهْقَهةٍ، أو بتخفيض في السعر.
كنا نتحالف ونحن نساومُ لشراء حاجاتنا: اللحوم والخضروات
والأحذية، كنتُ أقلدُ سلوكها الصفيقَ في المساومة لأحصلَ
على أفضل سعرٍ ممكن، فتومئُ لي باستحسان. لم تكنِ أخواتي
الصغيرات ماهراتٍ في مثل مهارتي في السوق والمهام المنزلية.
«نجيبة، انظري إلى هذا»، تقولُ كوكوكل شاكية.. «ما زال
القميصُ يحوّل لونَ الماء إلى البني، كيف تظنينه نظيفاً؟ رأيتِ
كيف تغسل أختك الملابس جيداً؟ كم مرة عليّ أن أخبركِ بأن
القميص لا يغسلُ نفسه بنفسه! الحمد لله أن لديّ فتاةً واحدة
على الأقل يُمكنها مساعدتي في البيت حقاً».
كانت تلك اللحظات التي أشعر بقرابتي لها، تلك المرأة التي
كانت أمي، دون أن تكونَ كذلك.

فريباً

3

كلّ ليلةٍ، يستذكرُ أخي وأخواتي دروسهم، يُمسكُ كلُّ منهم قلمَ رصاص بيده اليمنى، وممحاةً باليسرى، يسندون مرافقهم إلى المائدة، ذقونهم في راحتهم في أثناء وهم يقرؤون، ويحفظون، ويجمعون، ويطرحون. يتعثرون مع الحروف في البداية، يتعلمون كيف يتشابك بعضها ببعض مع حركة القلم، يضعون النقاط وعلامات الضبط في أماكنها بحرص، فتدبُّ الحياة في الكلمات ثم الجمل، عباراتٌ قصيرة وبسيطة تصفُ الأنشطة اليومية لأولاد وبناتٍ مهذبين. حين بدؤوا تعلّم العربية الفصحى للقرآن زاد شوقي للتعليم. كان جدّي قد حفّظني بعض السور لكنني لم أتعلّم قراءة النص نفسه.

كنت أستمع لهم وهم يلعبون بالأرقام، يحفظون جدول الضرب بنشيد، وعلى الورق يتلاعبون بالأرقام والرموز، يتعلمون الحساب، منطق الأرقام.

يدرسون حكايات، تاريخ بلادنا، صعود الملوك وأبنائهم. كيف نُحِتت بلادنا من الصخر. كان أخي أول من تعلّم النشيد الوطني وكان يردده وهو يرفع إحدى يديه إلى الأعلى بالتحية. تعلّمت أخواتي أهازيج لعب من زميلاتهن في الفصل، كن يتقافزن في سيرهن على إيقاع الكلمات خاليات البال متشابكات الأيدي:

«كوكو كو، ورقة شجر بتولا»

الفتيات يجلسن بأدب ليفرطن الرمان

لو كنت حمامة لطرْتُ في السماء

وأكلت رمال النهر بهدوءٍ وشربتُ من أصفى برك الماء.»

في الصباح أراقبهنّ وهنّ يرتدين زيّ المدرسة الرمادي البسيط، يرفعنّ جواربهنّ ويحكمنّ ربط أحذيتهنّ بسرعة، يخشينّ التأخر ويخشينّ أكثر أن يبدون غير مهذّبات. كان المعلمون صارمين بخصوص كلا الأمرين. كنتُ كل صباح أتألم وأنا أراهن يغادرن بسرعة في حين أبقي أنا في البيت، أحسدهنّ لامتلاء حقائبهنّ بالأوراق والأقلام والقصص، أعرف أنني في نفس مستوى ذكائهن، وربما أذكى منهن.

كان أخي جيداً في الدراسة، لم يكن الأول على فصله، لكنه كان جيداً بما يكفي لتلّا يشكو منه أبي أو جدي، أنا واثقة أنّه كان بإمكانه التميز لو شاء، لكنه كان ينهي واجباته بسرعة ليفرغ لشؤونه الأخرى. لعب كرة القدم مع أولاد الجيران، تسلّق أشجار البستان، وقيادة الدراجة في الشوارع القريبة من بيتنا. كمراهق تحمّل أكثر مراحل ارتباكاً وحده ما أمكنه، بجلدٍ مبقّع بالتآليل وصوتٍ يصعب وصفه، لكنه حين وصل برّ البلوغ، أصبح صوته صوت رجلٍ واثق يُريد الخروج إلى العالم.

كنت كلما تحدثت مع أبي في موضوع المدرسة، يُجيبني دائماً أن كوكوكل تحتاج إلى مساعدتي في البيت ومع الصغيرات، لكن هذا العذر لم يعدّ يفلح الآن. كانت مريم، أختي الصغرى، في

السابعة من عمرها وفي المدرسة الابتدائية. لم يعد هناك رضعٌ في البيت.

ذات مساء تحدثتُ معه مجدداً بعد تناوله العشاء، كنت في الثالثة عشرة من عمري ومصرّة، أعرف أن الفتيات اللاتي لا يذهبنَ إلى المدرسة يتزوجنَ صغيراتٍ ولم أكنُ أرغب في ذلك. كان كل عامٍ يمر ببعْدُنِي عن فرصةِ الدراسة ويقرّبُنِي من أن أصبح زوجةً!.

«بادر جان؟» رفعَ بصره إليّ وابتسم برقة، أدار قرصَ الراديو ليُطفئه، انتهت نشرةُ الأخبار المسائية، وضعتُ أمامه كوباً من الشاي الأخضر الساخن، أذبت فيه مكعّبي سكر سريعاً، دائماً ما يشرب شايبه مساءً بالسكر.

«شكراً لكِ عزيزتي، هذا ما أحتاج إليه حقاً بعد عشاء جيد كهذا»، قال وهو يربت على بطنه ويتنفس بعمق.

«نوش إي جان»، أجبته، أتمنى له شهية طيبة. «بادر جان، أريد أن أطلب منك شيئاً»، رفع أحد حاجبيه وهو يأخذُ رشفة من شايبه بحرص.

«بادر جان، أريد أن أذهبَ إلى المدرسة مثل أخواتي». «أوه، هذا الأمر مرةً أخرى؟» تهتد قائلاً. مالت كوكوكل إلى شغل إبرتها، توقفتُ عن العمل حين ذكرتُ المدرسة.

«أستطيعُ مواصلة المساعدة في البيت، سأغيبُ عن البيت ساعات عدة فقط، جميع أخواتي يذهبنَ ولم يعد في البيت صفارٌ الآن، أريد أن أتعلّم الأشياء التي يتعلّمونها». كان هذا كل ما استطعتُ قوله قبل أن تغلبنى دموعي، أطرقت برأسي وأنا ألعنُ

نفسى لعجزى عن قول المزيد قبل أن يتهدج صوتى، انتظرتُ أن
تزولَ غصّة حلقى أو أن يتحدّث أبى، لا أعرف أيهما سيحدث أولاً.
«فربما جان، ظننتُ أن مسألة الدراسة لم تعد تهّمك، أنتِ
شابة صغيرة الآن ولم تذهبي إلى المدرسة ولو ليوم واحد».
سكت شاردًا في أفكاره، معقود الحاجبين.

زمتُ شفّتيّ، أحبس خيبتى.

«أعرف».. قلتُ ببساطة.

استأنفتُ كوكوكل شغلَ الإبرة على الفور، راضيةٌ لأن نقاش
الليلة لم يختلفَ عن أي نقاش آخر.

«أتريدين تعلّم القراءة؟ ربما يُمكن لنجيبه قضاءً بعض الوقت
معك لتعليمك، أو حتى سلطانة، إنها جيدة جدًا في الكتابة وتحب
قراءة الشعر».

لم أشعرَ بالغيظ من أبى بهذا القدر من قبل قط، جرح
اقتراحه كبريائي وكرهتُ ابتسامته الدافئة، لا أريد أن تُعلّمني
أختاي الصغيرتان القراءة. إنهن يعدن من المدرسة كل يوم ليرددن
ما يقوله معلّموهم، تؤكد أصواتهن كلّ ما يفوتني طوال الوقت.
«يقول معلّم صاحب إن خطّي يتحسنُ. يقول معلّم صاحب إن
علينا شربَ كوب من اللبن يوميًا لنظلّ أقوىاء وأصحاء».

لم أشأ أن تضحى أختي الصغيرة معلّمتى، ربما يمكنها تعليمي
الأبجدية ونطقَ الكلمات لكنها ليست معلّمةً حقيقية تقف أمام
الطالبات في الفصل، مهمّتها تحفيظهن جدولَ الضرب، ومراقبة
تقدمهن في الدراسة، كنت أريد المزيد.

«لا، بادر جان». شعرتُ بانفراج حلقي وعاد صوتي بعزم مجدداً: «لا أريدُ التعلّم من تلميذة، أريد أن أتعلّم في المدرسة». ربما فاجأه ردي، ربما رأى دوافعي طفولية، ربما ظنّني أريد ارتداء الزي المدرسي والتهرّب من عمل البيت، لكن ما أردته كان أكثر من أن يمكنني صياغته في كلمات، كنتُ أعرف أن الوقت ليس في صالحني. حدجني بنظرة ممعنة، زاويتا فمه إلى الأسفل. «لن يكون الأمر سهلاً عليك، سيكون عليك البدء من الصفر، في فصلٍ مع أطفال».

«مع حق، ستكونين كعملاقة تجلس بين الصغار، إنها فكرةٌ كريهة، كدجاجةٍ تحاول الرجوع إلى البيضة!» حذرتني كوكوكل. «لن يزعجني هذا»، وعدتُهما.

كانت كذبة للضرورة. كانت تلك أول مرة يفكر فيها جدياً في مطلبي.

«سأتحدّث مع ناظر المدرسة لنرى ماذا سيقول، مع أنني واثق من أن أمك ستفتقدك وأنت في الخارج نهاراً». «أليس هذا كلّه سخفاً؟ لماذا تهتمّ الآن بالمدرسة؟ إن لديها كلّ ما تحتاج إليه هنا في البيت». كانت كوكوكل مدهوشة بشدة من المنحى الذي اتخذهُ النقاش.

«أنا لم أعد بشيء، سأحدّث مع المدرّسة وسنرى هل سيوافقون أم لا»، قال أبي لئلا يُلزم نفسه بشيء كعادته دائماً، ليتركني وكوكوكل يراودنا الأمل.

ما فاجأه كثيراً وأحبط كوكوكل كثيراً أيضاً أن المدرسة وافقت على إلحاقني شريطة أن ألتحق من البداية، بدأت الصف الأول

متأخرة ثمانية أعوام عن موعدِي، في الليلة السابقة لأول يوم لي في المدرسة، كَوَيْتُ التتورة والقَميصَ جيداً جداً، أريدُ أن أترك انطباعاً جيداً عند المعلم صاحب. ضحكتُ مورية ومريم، أصفر أخواتي، حين رأتا في زيّ المدرسة ونحن نغادرُ البيت معاً في الصباح، كانتا تسبقانِي في الدراسة بعامِن أو ثلاثة.

بدتُ نجيبة وسلطانة مهتمّتين أكثر قليلاً بما سيقوله الآخرون حين يرون شابةً كبيرة تدخلُ فصل الصفّ الأول. في طريقنا إلى المدرسة حاولتُ نجيبة تحضيري لهذا:

«ستأكدُ المعلمةُ من أن لديكِ قلمَ رصاص وكراساً، وفي الغالب ستطلبُ منكِ الجلوس في آخرِ الفصل، أنت تعرفين، لأنك أطولُ من الآخريين».

قدّرتُ لها رقتها في تحضيري لهذا، أومأت سلطانةُ برأسها موافقة وقالت بدبلوماسية أقل: «نعم، لن يستطيع أحدُ رؤية شيء إن جلس خلفك»، رمقتها نجيبة بنظرةٍ فركزت سلطانة نظرتها على حذائها وأبطأت خطوها، واصلت نجيبة: «ستتقدمين سريعاً، أنت تعرفين الأبجدية بالفعل تقريباً، ستقرئين سريعاً».

ابتسمتُ لها بامتنان، لم تكن أنا وهي قريبتين لكنها كانت تتحدث بإخلاصٍ كنتُ في حاجة إليه ذلك اليوم تحديداً. «إن كانت سلطانة تستطيع القراءة فأنا متأكدة من أنني لن أواجه مشكلات».

تأففتُ سلطانة، نظرتُ أمامها مباشرة وأسرعت في سيرها، لم أكن أقصد بتعليقي أيّ إساءة، آسفة، نظرتُ إلى الخلف لأتفقّد مورية ومريم تسييران خلفنا، كانتا تسييران متشابكتي الأيدي، وحقبیتاهما على ظهریهما.

بددت أخواتي الصغيراتُ خوفي من يومي الأول في المدرسة، أشارت نجيبة لي نحو فصلي ما إنَّ عبرنا البوابات الحديدية، توجهت سلطانةُ إلى فصلها بسرعة، ولوحت لي مورية ومريم بمرح.

دخلتُ بيضاءً أمسحُ الفصلَ بعيني، لا أعرفُ هل عليّ الجلوس أم الذهاب إلى المعلمة لتقديم نفسي أولاً، كان التلاميذ الآخرون مشغولين باتخاذ مقاعدهم. فضلتُ الإبلاغ عن وجودي أولاً، بدلاً من انتظار أن تلحظني المعلمة فتلفت إليَّ الأنظار. كنت شابةً أكثر من كوني فتاةً صغيرة، مع ذلك ها أنا أجلسُ بين الصفار. في سياق آخر، كنت سأضحى المسؤولة عن رعايتهم، لكنني هنا زميلتهم في الدراسة.

«مرحباً عزيزتي، سمعت أنك ستتضمين إينا، سوف تجلسين في الصف الأخير، إنه المقعد الخالي الوحيد لدينا، تفضلي خذي هذا الكتاب، هذا ما سوف نتعلمه بدءاً من الآن، هل تعرفين الحروف؟»

كانت معلمتي الأولى صارمة لكنها طيبة القلب، أعجبتُ بي على الفور، الحمد لله. كانت تتحدثُ معي بشكلٍ مختلف عن حديثها مع زميلاتني في الفصل ولم تجعلني أشعرُ بغرابة لجلوسي بين الصفار، كنت ممتنةً وعازمة، عملتُ بلا كلل. كنتُ أستمع وأخواتي يتعلمن الأبجدية، لذلك كانت الحروفُ تتدحرجُ على لساني بسهولة كافية.

تقدمتُ إلى الصف الثاني خلال شهرين، سعدتُ بتقدمي لكنني حزنتُ لتركي معلمتي. بدا على معلمتي في الصف الثاني

أن وجود تلميذة كبيرة الحجم في فصلها يثيرُ حنقها . كانت كثيراً ما تطلبُ مني القراءة بصوتٍ عالٍ وتراقبني بسرور وأنا أتعثرُ مع الكلمات . وحين يغمزُ الطلبة بعضهم لبعض توبّخهم بمرح! «يكفي هذا! تذكروا أيها الطلبة، لا تتخذعوا بحجم فريبا، إنها جديدة في الصف الثاني».

عملتُ بكدٍّ أكبر، وباجتيازي الاختبار ، لم يكن أمامها خيار آخر سوى نقلي إلى الصف الثالث. كنت كلَّ ظهيرةٍ أعود من المدرسة إلى البيت لأبدأ مهامّي المنزلية التي لا يمكنني إهمالها؛ فقد وعدتُ بالاستمرار في مساعدة كوكوكل ولم أشأ أن تبدأ شكواها لأبي عن تقصيري في عمل البيت. ظللتُ أنفضُ السجاجيدَ، وأغسل الملابس، وأرعى الحيوانات في الفناء الخلفي، وبعد إنجاز تلك المهام، وتناول الأسرة الطعام يمكنني الجلوسُ لاستذكار دروسي. كنت أسهر حتى وقتٍ متأخرٍ من الليل، حين لاحظ بادر جان ذلك قال:

«دختار جان، لقد ذاكرتِ أكثر ممّا ذاكر إخوتك طوال دراستهم، وثبتت هذا بدرجاتك في الدراسة، هل أنت سعيدة؟»
«نعم، بادر جان، أريد فقط أن ألقَ بما فاتني لأكونَ حيث يجب أن أكون».

«وماذا عن زميلاتك في الفصل؟ هل تتوافقين جيداً معهن؟»
كنت أعرفُ ماذا يقصد . كان يسألُ إن كنتُ، وأنا شابة في الصف الثاني، ألفتُ الانتباه بشكل سلبي .
«إنهن جيّدات، لا يزعجنَ مني، أملُ أن أنتقلَ من هذا الصف سريعاً على أي حال».

تركني راضياً لأنهي واجباتي المدرسية. تكررت هذه المحادثة عدة مرات حتى وصلتُ إلى الصف الخامس ثم السادس، حيث تتطلبُ الموادُ الدراسية تركيزاً أكثر، صارت القراءة سهلةً عليّ، لكنّ الحسابَ كان مختلفاً.

كنتُ قد تعلّمتُ الحسابَ البسيط في السوق، حين يخبرني صاحبُ المتجر القريب بسعر شيءٍ ما، أحسبُ سعر خمسةٍ منه بسهولة. بإمكانني حساب سعر ربع أو نصف كيلو الزبيب، لعلمي بسعر الكيلوغرام الواحد، مع ذلك كانت الهندسة والجبرُ أصعبَ من تلك الحساباتِ البسيطة، لكنني تدبرتُ أمري.

كنت أذاكرُ على ضوء الشموع، أحفظ وأنا أكنسُ غرفة الجلوس، يتبع إصبعي كلماتٍ وفقراتٍ لا مرئية على قدمي وأنا جالسة إلى الطعام، أسترقُّ اللحظات ما أمكنتني لأستوعب كل ما عليّ تعلمه.

نجحتُ في اللحاق بما فاتني، كنتُ في السادسة عشرة من عمري وفي الصف الحادي عشر، مع فتياتٍ من سنّي، سأُخرُجُ خلال ثلاث سنواتٍ فحسب. كنت فخورة، وكذلك أبي. كان يقرأ كل تقارير تقدّمنا في الدراسة بحرص. كان ذات مرة يدقُّ النظر في الدرجات والملاحظات ثم رفع بصره إليّ، رأيت في عينيه ما لم يستطع اللفظ به، علتُ زاويتا فمه في ابتسامةٍ مستترة، يحاول أن يبدو غير مُبال في استحسانه. قال:

«أحسنيت».

كان جدّي يتابع ما يجري من ركنه، يستندُ بظهره إلى الجدار ويتكئ بمرفقه على وسادة، ويحرّكُ مسبحة ببطء، يخبرني تعبيرٌ وجهه بأنه ليس مدهوشاً البتة.

فريباً

4

رغم الصيام منذ شروق الشمس وحتى غروبها، كان رمضانُ شهرَ سعادة. كنتُ في العادة أستغرقُ تماماً في دراستي ومهامي المنزلية بطريقة تجعلُ ساعات الجوع تمرُّ في لمح البصر وبلا عناء يُذكر. تتلوَّى بطوننا خلالَ النهار، لكننا بعد غروب الشمس نلتهمُ الطعام الذي قضينا النهارَ كلَّهُ في إعداده، أصنافٌ خاصة لمكافأة أنفسنا على الصوم.

كان أخي أسد كثيراً ما يضيقُ خلقه خلالَ نهارِ رمضان. جاء في أحد الأعوام، ذات يوم من أيام رمضان، إلى غرفة الجلوس حيث كنتُ أضعُ وسادةً خلف ظهر جدي، ودون أن يقول شيئاً، ألقى بقميصه على ظهري، فاستدرتُ إليه مدهوشة.

«أسد، ماذا تفعل؟» قلت. كان قميصاً بكُميينِ طويلينِ غسلته منذ وقت قريب.

«أسد باجم، لماذا تفعلُ هذا؟» سألهُ جدي بعتاب.

«بابا جان، أنا أريدُ قميصاً نظيفاً، ما زالت البقعةُ عليه، وجب

عليها إزالةُ البقعة!»

«بقعةُ ماذا؟» سأله جدي.

«بقعةُ توت».

«أه. فهمتُ إذاً، إن بقعة التوت لا تزول، هل تعرفُ لماذا؟»

«لماذا بابا جان؟» لم أكنُ أعرفُ أنا أيضاً.

«اجلسا لأحكي لكما، هذه فكرةٌ جيدة لقضاء الوقت حتى موعد الإفطار، حين سننهي الصيامَ والتوتر المصاحب له، هكذا إذن، كان هناك ولم يكن هناك تحت السماء الحارقة...» وبالعبارة المعادلة لـ «كان يا ما كان» لبدء الحكى بالأفغانية، بدأ بابا جان حكايته:

«كانت هناك خادمةٌ صغيرةٌ جميلة...»

حكى لنا عن خادمةٍ وفارس التقياً مصادفةً في الغابة، حين سمعتِ الخادمةُ الجميلة صوتَ النمرِ بين الأشجار، تملكها الذعر وبدأ أنفُها ينزف، هربتْ على الفور تاركة خلفها طرحتها المبقعة بالدم، حين وجد حبيبها طرحتها وعليها البقع القرمزية وأحس بوجود نمرٍ رابض على مسافة، ظنَّ الأسوأ. حزن وأراد أن يثأر لمقتل حبيبته، فذهب إلى النمر الذي افترسه بلا جهد. وحين استجمعت الخادمة الصغيرة شجاعته وعاتت إلى الغابة، صرخت حين رأت حبيبها مسجى ميتاً. انهارت بجوار شجرة توتٍ سامة وفي حزنها العميق مدت يدها وقطفت حفنة من الثمار السامة والنقمتها، تتمنى أن تتحدَّ روحها مع روح حبيبها في العالم الآخر. «منذ ذلك الحين، تنتجُ شجرة التوتِ تلك وجميع الأشجار الأخرى ثماراً لبقعها لون الدم الذي وحدَ بين القلبين، بقعة لا شيء يمكنه إزالتها».

أصغى أسد باهتمام، لكنه بدا محبطاً حين أنهى بابا جان حكايته، إذ ليس أمامه أحد ليلومه بشأن قميصه الذي لن تزول عنه البقعة أبداً. التقطه عن الأرض بالقرب مني وهو يتأفف قائلاً: «إنه قميصٌ قديم على أي حال، لديّ قمصانٌ أفضل منه».

كنتُ أفكرُ في حكاية بابا جان تلك وأنا أتجوّل في السوق بعد ذلك بعام بحثًا عن تمرٍ جيد للإفطار، أُسرِع لأصلَ إلى البيت بأخباري الجيدة، لقد نلت ثاني أفضل درجة في اختبار الرياضيات، أعلنتُ معلّمتي بصوتٍ عالٍ ليسمعه الجميع: «فريبًا، الدرجة النهائية تقريبًا، الثانية بعد لطيفة، جيد جدًا».

كنتُ أعرف أن عيني بابا جان ستلتمعان فخراً بصمته المعهود الذي يعبّر بكلمات أفضل، أردت أن أشتري التمر بسرعةٍ لأعود إلى جدّي في البيت.

يملك «شير آغا» محلّ عطارٍ مكدّسًا ببراميل التوابل والثمار المجففة، جوز ولوز وهيل وملح صخري وكركم وفلفل حار. كنتُ أعتبر محلّه أكثر الأماكن تنوعًا في الألوان وإمتاعًا للحواس، مع ذلك بدا هو نفسه ليس معجبًا به مثلي. كان يسير بخطوات بطيئة وثقيلة بعرض رجلين، يلمع جبينه بالعرق حتى في برد الشتاء القارس، لم أكن أنجح في مساومته هو تحديدًا لكنه اليوم يبدو في مزاج جيد. أبقىتُ رأسي مطرقًا وأنا آخذ منه كيس التمر، حريصةً على ألاّ ألمس أصابعه السميقة المشعرة.

عدّلتُ طرّحتي على رأسي وعدّدتُ العملات التي في كيسي، ستنبهزُ كوكوكل، كنت سعيدة بنصري الخاص فلم ألحظ الظلّ الذي يتبعني على جانب الشارع الضيق، سقطت عُملتان من يدي على الأرض المترية، انحنيت لالتقاطهما فسمعتُ صوت خطواتٍ وكلماتٍ بذئئة جعلت وجهي يحمرُّ خجلًا. انزلقت العملتان من بين أصابعي وأنا أعتدلُ في وقفتي وألتفت. وقف على مقربةٍ بوصاتٍ قليلةٍ مني أحد فتية السوق السفلة، تراجعَت خطوةً إلى

الوراء وعبست. ينسدلُ شعره الطويل على جبينه، عيناها داكنتان وقربيتان من بعضهما، ابتسم بسماجةٍ كاشفاً عن أسنانٍ صفراءَ وتجاويف أسنان مفقودة.

«إلى أين تذهبين؟ لماذا لا تمكثين قليلاً؟ لديّ بعض الحمص في جيبِي، هيّا ضعي يدكِ وخذي بعضه»، قال بخبثٍ وهو يفتح جيب بنطاله لتساقط منه حبوب الحمص.

«بي تربية!» وقح، صحتُ فيه واستدرتُ وركضتُ آملَةً أن تصمد أربطة صندلي الجلدي البالية وأنا أسرع إلى الشارع الرئيس، ضحك الفتى من خلفي.

اندفعتُ إلى المطبخ متعرقّة. كانت كوكوكل هناك، تُقطّع لحمًا نيئًا وتُلقي بها في إناء فيه ماء يغلي ويصل.

«أوه، دختار!» قالت حين رأته وحجتني بنظرة دهشة وتحذير. أشارت بسكّينها إلى ركنٍ في المطبخ حيث توجد بجوار الجدار جَرّةٌ ملفوفةٌ ببطانيةٍ خضراءٍ خشنة. كانت كوكوكل تعدّ الزيادي الذي يحتاج إلى سكونٍ تام ليتخمّر. «خطواتك كخطوات الفيل». «سامحيني» قلتُ لاهثة.

«ماذا يحدث؟ تبدين متوتّرة».

شعرتُ بخجلٍ شديدٍ لأروي ما حدث.

«كنتُ أخشى التأخر على المساعدة في إعداد الطعام».

«أنتِ متأخرة جداً، الطعام جاهز تقريباً، اغسلي يديكِ وأعدّي السلطة على الأقل. بدأ ظهري يؤلمني. هل أحضرتِ التمر؟» سألتُ، تذكّرني بالمهمة التي وكلّتني بها صباحاً.

«نعم»، قلتُ وسحبت كيس التمر من بين أدواتي المدرسية

وناولتها ما تبقى من النقود. عدت العملات، ينقصها ما فقدته
في أثناء فراري من الفتى.

«بيدو طازجًا، من أين اشتريته؟»

«شير آغا، كان مزاجه أسوأ من المعتاد حتى»، قلتُ بأمل
تبرير النقص في النقود، طرقتُ بلسانها ووضعتُ كيس التمر
جانبًا.

«لا شيء يخرجُ من مخالف ذلك الدب، اذهبي إلى غرفة
الجلوس، جَدك في انتظارك».

مررتُ بغرفة الجلوس في طريقي لغسل يدي، كنت متأكدةً من
أن جدي سيعرف ما بي على الفور، خلاف كوكوكل، لم يسعني
النظر إليه وحمرةُ الخجل ما زالت في خدي.

في يوم آخر إذاً، فكّرتُ وأنا أضع ورقة الاختبار في غرفتي.

فريباً

5

في عامي الأخير في المدرسة العليا، كان البستانُ يجذبني أكثر من أي وقتٍ مضى، كانت الفروعُ الدانية بثمارها تبدو كأصابعٍ منثية تدعوني إلى الدخول إليه، كنت أجلسُ في ظلِّ شجرةِ خوخ، أتلذذُ بالعصارة الدبقة للثمرة الكهربائية، وأفكرُ في ما سأفعله بعد التخرج. بعض الفتيات سيذهبن إلى الجامعة، وبعضهن سيعملن مدرّسات، كثيرات منهن سيتزوجن، لم أكن متأكدةً مما أريده لكنني لم أكن مهتمةً بالزواج والعمل المنزلي الذي يأتي بصحبته.

كنتُ حين أنهي مهامّي المنزلية، أتسللُ إلى البستان ومعي كتاب، أشعر برطوبة العشب تحت قدمي، ودغدغة أوراقه الناعمة لأصابع قدمي، أستندُ بظهري إلى شجرة توتٍ لأقرأ، وأحياناً أرقدُ على بطني. سألنني أخواتي عن شغفي بأشجار التوت فأخبرتهنّ بأنني أحلم جيداً جداً هناك.

مكتبة

t.me/soramnqraa

«بم تحلمين؟» سألنني.

«بالغد.»

«ماذا سيحدثُ غداً؟»

«لا أعرف، لا أتذكر أحلامي، لكنني أستيقظُ بشعورٍ رائع، قصةٌ تستحق أن تُحكى للأخرين.»

في ذلك الصيف أصيبَ جدي بسعالٍ شديدٍ وقاسٍ، فرقد طريقَ الفراش لأيامٍ يحتسي أكوابًا من شاي الأعشاب لطردِ العلة من جسده، كنتُ أراقب تنفّسه الثقيل، العرق على شفته العليا. استدعى بادر جان طبيبًا أعطى جدي حقنةً وترك له قارورتَي حبوب، وضعتُ كوب الماء عند فمه ليسهلَ عليه بلعُ الحبوب الطباشيرية.

كنت أذهبُ لرؤيته يوميًا تقريبًا، على أمل أن أراه يتحسن، لكن وجهه كان يزداد شحوبًا مع ارتفاع حرارة الحمى. في زيارتي الرابعة أعددتُ له حساءً وشايًا حلواً، لم يكن قد تناولَ سوى رشفات قليلة قبل أن يتوسل إليّ أن أتركه ليستريح.

استدعينا الطبيب مجددًا؛ بدا بابا جان هشًا وصغيرًا جدًا في رقدته، كنت أتوق إلى رؤيته ينهض، يمدّ يده إلى عصاته ويسير إلى المطبخ. ظللتُ وأبي بجانبه معظم الوقت دون أن يتحدث أيّ منا عن مدى ضعفه الذي يبدو عليه، لم يكن بادر جان يتحدث كثيرًا في الأساس، لكن هذه طريقته، كأنه يخشى صوته.

«فريبًا جان» ناداني جدي.

«نعم، بابا جان؟»

«حفيدتي الرائعة، لقد أوشكتِ على الانتهاء من المدرسة العليا أليس كذلك؟»

«نعم بابا جان، لم يتبقَّ سوى هذا العام فقط.»

«جيد، جيد، وماذا سوف تفعلين بعد ذلك؟»

«لستُ متأكدة بابا جان، أفكّر في كلية لكن...» كانت عيناه نصفَ مغمضتين، تركتُ صوتي يتلاشى، ظننتُ أنه نام، لكنه لم ينام.

ليس لدي إجابة، رفعت كتفي ومسحتُ جبينه بقطعة قماشٍ مبللة.

«فريباً، لقد راقبتِ والدك وهو يعمل في البستان، أليس كذلك؟ تدبّ في مواهبه الحياة هناك، علّمته ما استطعت حين كان فتى صغيراً لكنني عرفتُ من قبل أن يصير رجلاً أن بإمكانه فعل المزيد، إنه أستاذ في زراعة وتطعيم الأشجار.»

كان محقّقاً. ذات شتاء، راقبتُ أبي وهو ينزِعُ عُقْلَةً من شجرة تفاح بعناية، سرتُ خلفه إلى حافة البستان حيث اختار شجرةً تفاح أخرى قديمة، لثمارها قشرةٌ حمراءُ فاقعة. ظل يريّتُ على لحائها وهو يدندنُ ويدور حول جذعها، يبحثُ عن الموقع المثالي لتطعيمها بدقةٍ جراح، قطعَ غصناً منها بزاوية مائلة صانعاً شفةً رقيقة شدها إلى الخلف قليلاً، ثم أزلق الطرفَ المدبب للعقلة في تلك الفتحة، وضع الوجهين النيّئين في اتصال مباشر، كيان واحد من فصيلتين. ظل يدندنُ وهو يربط العقلة بالشجرة المضيفة بشرائطٍ قماشيةٍ طويلة لفها جيداً حول الاتحاد الجديد، ثم غطّى طرف العقلة وبراعمها الثلاثة بكيسٍ ورقي، ليقمها الهواء الجاف. بحلول الربيع، صار لدينا نوعٌ جديد من التفاح من عقلة كانت ستذبلُ وتموت، لكنها بدلاً من ذلك صارت فصيلتين حيتين تتنفسان، فاكهة جديدة يتميزُ بها بستاننا فقط، فاكهة من صنْع أبي.

«كنت أتمنى لو أنه يحمل مواهبه معه إلى البيت، لكن يبدو أنها تجفّ على عتبة الباب؛ ما يجعلُ الأمر بين يديك أنتِ فريباً جان»، قال وهو يهز رأسه. أردت معارضته، إبلاغه أن أبي مختلف تماماً عن كوكوكل، لكنه واصل قائلاً:

«حتى أخوك وجدَ طريقه، من دون أن يلتزم بأحد، لا أعرف
مَنْ المَلوم، لديه جسدُ حصان وعقلُ حمار».

«لكنك ظللتَ معي دائماً». قلتُ وأنا أمسك يده.

«ربما كنتُ أقسو على أبيك لأنه يشبهني كثيراً، لكنك مختلفة،
أنتِ أكثر شبيهاً بأمك رحمها الله، كانت تشعر بالآخرين، كان أبوك
شخصاً آخرَ معها، خسارة، كانت ستصنعُ منه رجلاً».

تخدرت قدماي، كنتُ أجلسُ إلى جانبه لكنني لم أجرؤ على
التحرك، أردتُ أن أتذكّر كل كلمة مما يقول.

«هذا الكلام بلا طائل، أنتِ فتاة ذكية، ثقي بنفسك لأنك
تعرفين الأفضل لك».

«أنتَ تعرفُ الأفضل لي دائماً، بابا جان. يمكنني اللجوءُ إليك
دوماً».

«الأفضل ألا تعتمدني على العجائز، نحن قريبون جداً من الله،
فلا يعتمدنَ علينا أحد».

حذّرتني بتهيدةٍ تعب. كان مُرهقاً لذلك غيرتُ الموضوع وتحدثتُ معه عن شجيرات
الورود التي تنمو خارجَ بيته، أخبرته عن بائع الدجاج الذي طاردَ
دجاجاته وهي تصيح في السوق حين فتح طفلٌ مزلاج القفص.
ابتسم وأوماً برأسه، نعستُ عيناه وغلبه النوم.

لثمت يده ووعدهُ بالعودة إليه في الصباح لكنه في وقت
ما بين تلك اللحظة وشروق الشمس، انتقل إلى الرفيق الأعلى،
وأمي. تساءلتُ إن كان المَلّاك الذي رأيته في البستان هو من أتى
لاصطحابه، بكيّتُ لأسبوعين بعيداً عن أبي وكوكوكل وأخواتي،
أردتُ أن أكون وحدي حقاً بقدر ما أشعرُ بالوحدة، ولم يتسنَّ ذلك
سوى في ظلال البستان.

بعد مرور أربعين يوماً على وفاة جدي، ذهبتُ إلى البستان، جعلتني وفاته أفكر مجدداً في الملاك الذي رأيته وأنا صغيرة، مع أنني كنت مقتنعة تقريباً أنه ليس سوى لهو مخيلتي الجامحة، مع ذلك فكرتُ في أن أسأله -إن رأيته- عن جدي وأمي.

كان بستان جارنا خلف صف أشجار التوت يفصله عن بستاننا جدار طيني مرتفع.

بمرور الوقت وأنا جالسة في ظلال أشجار التوت، بدأت أشعرُ بأنني لستُ وحدي، كان الأمر مختلفاً عن المرة التي رأيت فيها ملاكي الحارس، هذه المرة شعرت بحضور دنيوي، هذه المرة عطس!

هبيتُ ناهضة، عدتُ إلى وعيي فجأة، أغلقتُ كتابي وسويتُ تنويرتي، التفتُ حولي أبحثُ عن مصدر العطسة، لا شيء في مجال رؤيتي، ولا طائر حتى، سرت حول الأشجار فسمعت خشخشة أوراق شجر من خلف الجدار الفاصل مباشرة، ثم صوت سقوط شيء، ثم ركض قدمين، كان أحدهم يراقبني!

في الأيام التالية، ترددتُ في العودة إلى ذلك الركن من البستان، لكنني كنتُ أعرف في أعماق قلبي أن شجرة التوت تلك لطالما جلبتُ لي الخير، لذلك رحمتُ أسير بين أغصانها مجدداً خلال أيام قليلة، سرتُ بهدوء وأنا أرهف السمع. بعد ذلك بأسبوع، تسلقت الجدار ونظرتُ إلى الأشجار المجاورة، فوجئتُ برؤية ساقين متدليتين من فوق فرع سميك.

كان هو، أنا متأكدة، حاولتُ أن أرى بقية جسده لكنني لم أر سوى ساقيه، صندله الجلدي يتدلى بهدوء من قدميه المتأرجحتين.

لا بد أنه ابنُ عائلة الجيران، كان أكبرَ مني بسنوات قليلة لكنني لم أره من قبل، لولا تأخر دراستي لكننت رأيته في المدرسة، ماذا يفعل فتى، أو شابٌّ، في سنه أعلى فرع شجرة؟

شعرتُ بجرأةٍ قليلاً، فدستُ عمداً على أغصان صغيرة وركلت حجراً وأنا في طريقي إلى شجرةِ التوت، حيث مكاني المعتاد في ظلّها الوارف، نظرتُ إلى أعلى خطفاً فلاحظت اختفاء القدمين، كان يختبئ! أخذت كتابي وحدّقت إلى الصفحة، تغيّشت الكلمات أمامي وأنا أسأل نفسي لماذا جئتُ إلى هنا، بعد فترةٍ طويلة من الصمت، نهضت وسرتُ إلى البيت آملة ألا أبدو مرعوبةً كما أشعر.

لا شيء يُعدُّ حماقةً إن صدرَ من مراهق، المراهقةُ في حد ذاتها اندفاع من دون سبب، ظللت أذهبُ إلى هناك كل يوم بعد ذلك، أتسللُ بين الأشجار، أتلصصُ على الصندل الجلدي المألوف ثم أجلس في ظل شجرة التوت، صار نظامي اليومي هو المدرسة، ثم عمل البيت، ثم البستان. اعتدتُ أن أستذكر دروسي في البيت حتى وقتٍ متأخر من الليل إذ لم أكن أركّز جيداً في البستان. بعد أسبوعين من الصمت، قررتُ أن أعرّف الغريب بعلمي بوجوده، كان الركودُ يصيبني بالجنون.

استجمعتُ شجاعتي في أثناء عودتي من المدرسة إلى البيت، حين تسللتُ إلى البستان تلك الظهيرة، كنت أشعرُ بجرأةٍ شديدة لم أعهد لها فيّ، سرتُ بخطوات واثقة أقترُبُ من الجدار، اتخذتُ موقفاً على مرمى السمع بالتأكيد، وقلت بصوتٍ عالٍ، وإنما ليس عالياً جداً «ليس من الأدب أن تحدّق، سيكون من اللائق لو ألقىت السلام».

لم أسمع ردًا، ولا كلمة واحدة! هل تخيلتُ الأمر كله أم أنه ليس هنا اليوم؟ الأسوأ أن يظنني وقحة لتحدّثي هكذا مع شخص غريب، كنت أقضي أغلب أوقاتي إما في فصل مملوء بالفتيات أو في بيتٍ كذلك أيضًا. الفتيان الوحيدون الذين أعرفهم من سنّي هم أبناء عمومتي، والتعاملُ مع أي فتى غريب مُحَرَّم أعرف هذا، كنت في سنٍّ يجب عليّ فيها الانتباه جيدًا لسلوكي، لكنه البستان، كنت فيه لا مرثية، فسمحتُ لنفسي ببعض الحرية.

أحبطني تجاهله لتجاوزي الحدّ للتعاملِ معه وأغضبني كذلك، فركضتُ مبتعدة.

عدتُ في اليوم التالي، يغلبُني الفضول، جلستُ بثقة تحت الشجرة دقائق قليلة ثم سمعتُ صوتًا.
«سلام».

اعتدلَ ظهري واحمرّ وجهي لأنني أنا من تجاوزت الحد بالطبع، شعرتُ فجأة بالعار والذعر، نهضت، تمتمت بردّ التحية دون أن أرفع بصري وعدتُ إلى البيت بخطواتٍ متعثرة.

كانت تلك الأيام مُربكة. لأسبوعين ظلّت كوكوكل تلمّح بمرحٍ إلى رغبة عائلة ميسورة الحال في زيارتنا، لديهم ابنٌ شاب وسيم، في الغالب سيكون ناجحًا مثل أبيه. قابل أبي أباه، أغا فروز، في شؤونٍ رسمية ما، هنا وهناك. يرى أغا فروز الآن إمكانية الاتحاد مع أبي، الذي ورث عن بابا جان نفوذه في مجتمعنا، جاء الطموح في الازدهار والنفوذ المحلي بزوجة أغا فروز عند بابنا.

شعرتُ بالقلق. كأني فتاةٍ أخرى، كنت أحلم بمن سيتقدمون للزواج بي، بأن ترفضَ عائلتي عددًا من العائلات الملحة قبل أن

نوافق على العائلة التي تناسبنا. كان أمرُ الخطبة مُفرياً، شعور الفتاة بأنها مرغوب فيها من عائلة بأكملها، فضلاً عن الاحتفالات والهدايا المصاحبة لها.

مع ذلك شعرت أن شيئاً ما في الأمر ليس صحيحاً، كان لتلك الخطبة ملامح صفقة تجارية، جاءت إليّ كوكوكل ظهيرة أحد أيام الجمعة فيما كان أبي في المسجد لأداء الصلاة. كانت ترتدي ثوباً مكوياً وأفضل شادوري لديها، من الشيفون البنفسجي ومؤطر بشريط أغمق درجة. كانت تدندن بمرح وهي تدخلُ المطبخ حيث كنت أعد شطيرةً من الخبز والمكسرات.

«ستزورنا اليوم زوجةٌ أغا فروز وابنتها، لماذا لا تذهبين لتصنيف شعركِ وارتداء شيءٍ أنيق، ثوبك الأرجواني ربما؟ حين تأتيانِ يمكنكِ تقديم الشاي والبسكوت المملح، لا حلوى من فضلك! أنا لا أعرف سببَ هذه الزيارة بالتحديد، ونحن لا نريد إحراج أنفسنا».

تقدّمُ الحلوى إلى عائلة المتقدّم للزواج كعلامة الرضا، إشارة بقبول طلب يد الفتاة للزواج، لذلك ليس من اللائق تقديم اللوز الحلو أو الشوكولاته إلى الضيوف في أول زيارة.

«إن ناديتكِ لتأتي بالشاي فهذا يعني أن تأتي به إلى الغرفة وتقدّميه للضيوف. وهذا كل ما ستفعلينه، هذه الزيارة ليست لرؤيتكِ والتدقيق فيكِ. بل لرؤيتكِ بشكلٍ موجز فقط. ستضعين الأكواب وتقدمين البسكوت ثم تستأذنين بأدبٍ وتعودين إلى المطبخ. لكن، إن ناديتكِ لتأتي بالبسكوت دعي واحدة من أخواتك تأتي بالصينية، لا تدخليني أنتِ».

كانت لعبة استراتيجية وكوكوكل لا ترغب في عرض أوراقها قبل أن تعرف ما يحمله الطرف الآخر.

فسدت شهيتي، ذهبت لأعد نفسي كما ينبغي، بحثت في دولابي، أحاول إيجاد طريقة للهرب من تلك الزيارة المدبرة ولا أعرف سبباً لنفوري مما تتمناه أي فتاة، أردت أن أختفي في البستان.

سمعنا طرقاً على الباب فركضت نجيبة إلى الخارج لتجيب وترحب بالزائرتين، قادتتهما عبر فناءنا وحديقتنا المتواضعتين. كانت كوكوكل في استقبالهما عند باب البيت بترحاب. راقبت من نافذة الطابق الأعلى المرأتين وكل منهما تخلع طرحتها المطرزة وتعلقها على ذراعها، بشكل متزامن تقريباً. تبادلت كوكوكل والمرأتان قبلات الوجنتين والمجاملات المعتادة قبل أن تقودهما إلى الصالون. سرت على أطراف أصابعي في الطابق الأعلى لأسمع ما يقلنه.

زوجة أغا فروز امرأة قصيرة وممتلئة بشعر أشيب وتؤلول داكن أعلى حاجبها الأيسر، برزت شفرتها السفلى بروراً يوحى بعدم الاستحسان رغماً عنها، جالت بعينيها في بيتنا تتفحصه وتقارنه ببيتها، قادتتهما كوكوكل إلى الأريكة المنحوتة باليد التي أهداها بابا جان إلى والديّ بمناسبة زفافهما.

كان للابنة سلوك أمها نفسه لكنها مختلفة تماماً جسمانياً، أطول منها بست بوصات، وبنصف عرضها، حاجبان ثقيلان محددان يتقوسان أعلى عينين مكحلتين، وطلاء شفاه بلون فوشيا فاقع يناسب ثوبها تماماً. بدت لي جميلة تقريباً حتى رأيتها تبتسم

بأدب لكوكوكل، فرأيت أسنانها . حتى من موقعي على مسافة،
بدت لي خشنة وقبيحة. انقلبت معدتي حين رأيتُ ابنتها، لم
أعرفُ حينها سببَ رد فعلي المِعْوِيّ هذا.

أعرفُ كوكوكل جيداً لأتخيلها وهي تزُنُ ابنةَ أغا فروز وتقارن
بيني وبينها، تحركت عينها سريعاً، كعيني زوجةَ أغا فروز، وهي
تحسب ماذا ستقولان حين تريانني، لم أكن باهرةً لكنني ورثت
عن أمي بشرتها الفاتحة الناعمة وشعرها الداكن. عرفتُ أن
كوكوكل كانت بالفعل تحسبُ الدخل الإضافي الذي سيعود علينا
من الاتحاد بين أغا فروز وبادر جان. إن ساعد أبي أغا فروز في
توسيع تجارة الأقمشة خاصته ومدّها إلى مناطق جديدة، سيَجني
الاشان أرباحاً كثيرة بالتأكيد.

«فريباً جان، من فضلك قدّمي الشاي للضيوف! لا بد أنكما
ظلماتان بعد الخروج في هذا الطقس، لقد ظل الجو دافئاً جداً
خلال الأيام القليلة الماضية، أليس كذلك؟» قالت كوكوكل بوقار
شديد.

نزلتُ على السلم ذي الصرير وذهبتُ إلى المطبخ، رتبتُ طقم
الشاي الصيني الخاص بكوكوكل على صينية فضية وحملتُها
إليهن في الصالون. احمرّ وجهي حين شعرتُ بأعينهن عليّ، ثبتتُ
نظري على الصينية، أمسكتُ مقبضها بقوة حتى أبيضت مفاصل
أصابعي.

«سلام» قلتُ بهدوء وأنا أضع الفنجان أمام زوجة أغا فروز.
«وعليكم عزيزتي»، ردت تحيّي بابتسامةٍ واسعة، شددتُ
طرحتي على وجنتي، لأواري حمرة وجهي. بذلتُ جهداً لئلا

أرتعش، وضعتُ الفنجان الثاني أمام ابنتها ثم قدمت طبق
البسكوت، ابتسمت الابنة وهي تلتقط قطعتي بسكوت من الطبق.
من هذه المسافة القريبة، أرسلت ابتسامتها الثانية بقشعريرة في
جسدي كله لكنني هذه المرة عرفت لماذا.

كانت الابتسامة نفسها ذات السن المفقودة التي كانت للفتى
السافل في السوق.

كانت الصينية ستهتز في يدي بلا شك لو لم أكن قد وضعتها
أمامهما إذ بدأت يداي ترتعشان بالفعل. أبقى رأسى مطرقاً
وخرجت مسرعة من الصالون، سمعت زوجة أغا فروز تقترح على
كوكوكل بعضوية أن أنضم إليهن في شرب الشاي، صرفت كوكوكل
الاقتراح وبدأت تشيد بأخلاقى. كانت نجيبة في المطبخ تشرب
كوب ماء، هادئة كعهدا دائماً، لا تدري شيئاً عما يجري حولها.
«نجيبة، أيمكنك البقاء هنا في حال أرادت مادر جان شيئاً؟
انتظري دقائق قليلة ثم أعيدي ملء فناجين الشاي من فضلك،
رأسى يدور وأريد أن أرتاح قليلاً».

نظرت إليّ وهي تبلل شفيتها.. «حسناً، فيرى»، أجابتي بود.
قبلت خدّها وخرجت من الباب الخلفي للمطبخ، صعدت إلى
الطابق الأعلى دون أن أحدث صوتاً ما أمكنني.
استندت إلى الجدار في الطابق العلوي، خفق قلبي وأنا أدعو
الله أن تغادر بعثة أغا فروز سريعاً.

فريبا

6

فقدت الخطوبة وهداياها كلَّ جاذبيتها بصدمة حقيقة أنني سأتزوج. لم أستطع تخيّل نفسي فرداً من عائلة أغا فروز، كيف أخبر بادر جان بشعوري هذا؟ كانت كوكوكل معجبةً بالعائلة أكثر من أبي نفسه، عرفتُ من تلميحاتها أن بادر جان يدرسُ صفقات العمل مع أغا فروز! لم أستطع البوح بقلقي لأخواتي أو لشقيقي، كان لديّ الكثير مما أريد البوح به، ولا أحد لأتحدث معه.

توقعتُ كوكوكل بحماسة زيارةً ثانية من زوجة أغا فروز. الخطوبةُ اللائقةُ بمثابة رقصة غزل بطيئة ومدروسة بين العائلتين. استعدتُ كوكوكل جيداً لتلك الزيارة، فرصتها لتصنّع الدهشة والتردد. تساهلتُ معي خصوصاً في الأسابيع التالية اللاحقة. أعفتني من الكثير من مهامّي المنزلية. ما أشعرنى بالقلق أكثر من السعادة.

«فريبا جان، لا يهّمُ الغسيل اليوم، الصابونُ سيؤثر في نعومة يديك، دعي أختك تساعدك» صاحت. تركتُ الملابس المغسولة وفتحتُ راحتيّ إلى الأعلى، جعلت سنواتٍ من غسيل الملابس وحك الأرز الجاف من قاع الأواني المحروقة أصابعي عُقدية بالفعل، جففت يديّ. البستان ينادينني.

فيما أقترَبُ من شجرة التوت، توقفت القدمان في صندليهما عن التآرجح فجأة. بذلتُ ما في وسعي لألمَحَ وجهه لكنه كان مختبئاً كالعادة خلف أوراق الشجر. بإمكانه رؤيتي من موقعه، ما لم يكن عدلاً قط، لكنني لم أجرؤ على الاعتراض، كان عليّ التزام الأدب.

«سلام»، استقبلني بتحية حذرة.

«سلام» رددتُ التحية؟ تتفستُ تنفُّساً أسهل في الصمت الذي تلى، كنتُ أشعر براحة أكبر مع ذلك المجهول، في حماية جدار البستان. انتظرتُ حتى يفكّر جاري ملياً في كلماته التالية، اليوم، يوجد بيننا توتر هادئ.

«لم تحضري كتاباً اليوم؟»

«ما عدتُ أرغب في القراءة مؤخراً»، اعترفت.

«هل يقلقك شيء ما؟»

إلى أيّ مدى يمكنني البوح؟ كنتُ وحيدة، لا أحد في عائلتي يعرف كيف أشعر، لا أحد يعرف لماذا، شعرتُ بغصةٍ في حلقي لم أستطع صرفها ولا بلعها.

«أنا آتي إلى البستان حين يوجد شيء ما أرغب في نسيانه، أو التفكير فيه... شيء خاص». خفّت صوتَه في نهاية الجملة. حملقت في العشب، لم أَرِدْ رؤية وجهه أو أيّ جزء آخر منه، في تلك اللحظة كان صوتَه بارتفاعه وانخفاضه هو كل ما أحتاج إليه. «أبي يحبُّ البستان بشدة لدرجة أنه يصلي الفجر هنا، يؤمن بأن صلواته تغذي الأشجار لكنّ في الغالب العكس هو الصحيح، إنه يبوحُ بما في قلبه لتلك الأشجار، لفروعها وجذورها، وفي

المقابل تُحلّي الأشجارُ فمه بفاكهتها، في فترات الظهيرة يكون البستان لي وحدي، أخواتي يخفنَ من المجيء إلى هنا». «بعضُ الناس يخافون مما لا يمكن رؤيته».

«لقد رأيتُ بالفعل. ولا شيء يخيف هنا، إن ما وراء هذا البستان هو ما يخيفني»، مرةً أخرى، صمت. «كنتِ تقرئين إبراهيم خليل آخر مرة».

فوجئتُ! كنتِ كذلك بالفعل، تحسنتِ قراءاتي تحسُّناً مهولاً وصرتُ أدرس الآن نصوص شعراء أفغان معاصرين. «نعم، حقيقي».

«لماذا؟»

لماذا؟ سؤال لن أستطيع الإجابة عنه بفصاحة. توجد قوةٌ ما في وضوح وإيجاز الشعر. الإعجاز في تكثيفِ أعمق الأفكار في سطور قليلة، وغليها معاً وصبها في قالبٍ موزون وساحر. كنت أحب تفكيك تلك القوالب إلى قطع متفرقة، كفضِّ غلافِ هديةٍ مقدمةٍ إلي وحدي وفك شيفرة السطور.

«إنه كالبوصلة»، أوضحتُ، أخيراً. «تمر بي أيام أنام فيها وأستيقظ وأنا أفكر في مشكلة، أظل أفكر طوال الوقت بلا جدوى، لكنني أكثر من مرة، كنت أقرأ كلماته ثم... لا أعرف كيف أقول هذا، يبدو كأنه يكتبُ إجاباتٍ عن أسئلةٍ لم أطرحتها عليه». «مم».

أيظنني سخيصة؟

«هكذا أرى الأمر»، أضفتُ، وشعرتُ بوجهي يحمرّ.

«هل أخبركِ بواحدةٍ من قصائدي المفضلة؟»

أومأت.. تتحنج وبدأ يتلو القصيدة، ميّزتها وتذكرت أنني
وضعتُ عندها علامة وتحتها خطأ من قبل:

«في طريقك إلى محرابِ هدفكِ الأسمى

ستقفُ مئاتُ الجبالِ

اعتلّ كلُّ واحدٍ منها بهمةٍ وعزيمةٍ

واجعلُ طموحكِ في متناولِ يدكِ».

«نعم».. فكّرت، ساد هدوء. فصلت الكلمات البسيطة المسافةَ
بيننا وجعلتها بلا معنى، شعرتُ من القصيدة التي اختارها بأنه
يعرف أفكارِي التي لا أجرؤُ على البوح بها، كأنه وضع ذراعَه
حولي برقّة، كانت تلك أولى تجاربي الحميمية، مثيرةٌ ومخيفةٌ
في آن.

«هذه قصيدة جميلة»، قلتُ أخيراً، «شكراً لك». تمنيتُ له يوماً
طيباً وعدت إلى البيت ببطء، ما زالت الغصة في حلقي ولا أريد
البكاءَ أمامه، بحت اليوم بما يكفي.

دخلتُ البيت، مررتُ بكوكوكل في طريقي إلى الأعلى، كانت
تخيط طرف تنورةٍ وبالكاد رفعت بصرها لتقول:

«اسقطي واكسري قدمكِ لتري من سيحملكِ، تصرفي بما
يليق بسنّكِ!»

بعد ذلك بأيام قليلة، تلقت كوكوكل الزيارة التي كانت تنتظرُها،
أعلنت عائلة أغا فروز نيّتها رسمياً وبوضوح. سُرتُ كوكوكل، كأنها
هي العروس ولستُ أنا.

«كنت أعرفُ، كنت أعرفُ أنهما ستتظران إلى وجه ابنتي مرة واحدة لترياً أجملَ عروسٍ قد تحظى بها أم لولدها! هذه المرأة محظوظة لتأخذك كِتَّةً وهم يعرفون هذا الآن، أنت أجمل كثيراً من أيِّ واحدة في عائلتهم، ولعائلتنا سمعة طيبة، يتمتع أبوك بالاحترام الذي كان يتمتع به جدك، رحمة الله عليه، سيكون على أغا فروز أن يثبتَ لنا أنهم جديرون بابنتنا، ولن نجعل الأمر سهلاً... لا، لا، لا. سأجعلُ تلك المرأة تأتي إلينا مراتٍ عدة، إلى حدِّ أنها لن تستطيع الرقصَ في حفل زفافك من آلام قدميها، ولن تهمني أموالهم».

أعرفُ أن هذا ليس حقيقياً، لأنها في الأيام التي تلت الزيارة الأولى حسبتُ بدقة ثمنَ أقمشة ثوبيهما، بإضافة كلفة الخياطة والتصميم، وعلقتُ حينها أن أمهرَ خياطة في كابول فقط من يمكنها صنع ثوبٍ يجعل تلك القامة البدينة تبدو أنثى.

ارتحتُ حين سمعتُ خطة كوكوكل ليوم عودتهما، أرادتني كما أردتُ أنا نفسي، أن أكون بعيدة تماماً عن رؤيتهما في زيارتهما الثانية.

«ستقدم أخواتك الشاي والبسكوت، لقد شاهدتاك في المرة الفائتة، لنشوقهما قليلاً».

«مادر جان، عادة يكون للفتاة خاطبون كثر، أليس كذلك؟ لقد قلت ذات مرة أن عريساً واحداً يجذب الثاني والثالث. سيبدو هذا أفضل لنا، أليس كذلك؟ ربما ينبغي لك رفض تلك العائلة».

لم ترحب كوكوكل بمنطقي.

«عريس ثانٍ وثالث؟ انظروا مَنْ التي تثقُ بنفسها بشدة! ابن أغا فروز ليس جيداً! فتى متعلمٌ من عائلة ثريةٍ ومحترمة كهذه ليس جيداً! اسمعي، يا فتاة، أن تطرُقَ عائلةَ بابنا لا يعني أن الجميعَ سيفعلون! كابول مملأى بالفتيات».

تغير سلوكها تماماً.

«فكّرتُ فقط في أن...»

«يجب أن تحمدي الله أن أحدهم جاء ليطرُق البابَ من الأساس! الفتاة التي تربتُ بلا أم ليست زوجة ترحّب بها العائلات كثيراً».

«بلا أم..!» لم تجلّدني كلماتها بهذه القسوة من قبل. لقد عشتُ حياتي ربيبة كوكوكل حقاً. كنت أعرف مع كل نفسٍ أتففسه أنني لستُ مثل نجيبة أو الأخريات، أنني ضمن التركة التي ورثتها، غريبة في بيت أبي. ضحكْتُ على نكاتها، تعلّمتُ إعداد الأطباق التي تحبها، دلّكْتُ لها ظهرها حين ألمها، قضيتُ حياتي أدعوها مادر جان.. أردت أن أستردّ كل هذا منها. كان قلبها مساحة ثابتة، حاوية ذات أبعاد محدودة يشغلُ أبي وأخواتي كل بوصة منها، نظرت إليها وحدّقت إليها، مرةً أخرى وبدهشة أكبر حتى، كنت بلا أم.

قالت: «هذه أفكارٌ سخيّة، دعي هذا الشأن لي أنا لأتدبّره، أنت أصغر من أن تعرفي مصلحتك».

راقبتُ خاتمها اللازوردي ينقرُ فنجانها بحدة. كانت امرأة نارية، انفعالاتها قويّةٌ تجاه كل شيء. لكنها في كل عناق، أو محادثة، أو نظرة إلي، كانت فاترة. تخيلتُ البيت دوني.. تضحك أخواتي في الأروقة، شقيقي إلى جانب أبي وكوكوكل، بيديها في خاصرتها تتراًس الجميع بفخر.

لماذا ماتت أمي؟

لم يحدث شيءٌ استثنائي في تلك الظهيرة. كانت كلمات قليلة لا تختلف كثيراً عن أي محادثةٍ يومية بيني وبينها، لكنها كانت لحظة خاصة، كارثية، حين نظرت إلى المرأة الجالسة أمامي بعينين زال عنهما الوهم.

«ستعودان قريباً بأسرع مما توقعت»، قالت كوكوكل، تفكّر بصوتٍ عالٍ. «لكنني سأجدُ طريقة للتسويق». راحت تغذي توقعاتها. ورأيتُ أنا مئات الجبال في طريقي.

فريباً

7

عائلةُ أغا فروز تريدُنِي، يجبُ أن أشعر بالفخر.

لكنني بدلاً من ذلك، تمنيت لو كنت فعلتُ شيئاً ما في أثناء زيارتهما الأولى ليصرفا النظر عني.

لكن الأم عادت بصحبةِ ابنها هذه المرة، ظللتُ مختبئةً إذ كنت ممنوعة من الظهور. تسللتُ إلى أسفل مرةً واحدة فقط لألقي نظرةً سريعة فتأكدت من شكوكي. كان هو فتى السوق جالساً بجوار أمه مهندياً كأميراً! تسللتُ مبتعدةً دون أن يلاحظني أحد. جلستُ على فراشي محبطة، أستندُ برأسي إلى الحائط، سمعت كوكوكل تتحدثُ بنبرتها المنغمة التي تستخدمها لإلقاء حكاياتها الفكاهية. كانت بارعةً في سرِّد القصص، تشوّق مستمعيها بإيقاع كلماتها، تلتمع عيناها حين تجذبُ الانتباه، كانت تنزعُ أسلحتهم بهذه الطريقة، تقلدُ الأصوات وتعبيراتِ الوجوه بطريقة تُضاعف ضحكهم.

كان الناسُ يحبونها، وكنت أحبها.

منذ وفاة جدي، صار أبي أكثرَ انعزالاً، ذات مرةٍ كنت أضع طبقاً من الخوخ المجفف والمكسراتِ بجواره وهو يقرأ، فرجع بصره عن جريدته مذهولاً، عرفتُ من غمغمته الهادئة وهزة رأسه أنه لم يرني أنا حين رفع بصره، ما زال مثلي حزيناً على

أمي، لم يكن يذكرها بكلمة لكن عينيه الحزبتين لم تخفيا شيئاً. ما عاد يُعنى بسؤالِي عن دراستي، ما عدنا نتبادلُ سوى كلماتٍ قليلةٍ طوال اليوم، أردتُ أن أطلب منه رفضَ هذا العريس.

سينظرُ إلى الأمر بطريقةٍ كوكوكل، كعادته دائماً، ليس لأنها حريصة على مصالحه المادية، بل لحفظِ السلام في البيت، تسيرُ حياته على نحوٍ أسهل حين يوافق كوكوكل.

صرتُ أقضي المزيد من الوقت في البستان. البقاء في بيتٍ مزدحم يُهين شعوري بالعزلة. كانت كوكوكل مرحة بشكل خاص، تقضي الصباحات في محلّ الأقمشة وفترات الظهيرة مع الخياطات. احتفل دولا بها بشرائط تَأطيرٍ جديدة، وطرحه رقيقةٍ ووشاحٍ صوفيٍّ أبيضٍ مطرزٍ بخيوطٍ ذهبيةٍ وزمرديةٍ رائعة.

استمرت عملية الخطبة، أعلنت المرأتانِ صراحةً الآن أنهما تبحثان عن زوجةٍ لابن أغا فروز. لا تريدان الانتظار طويلاً، إنه شاب متعلم وسيُرت تجارةً أبيه، لم يسُرّ استعجالهما كوكوكل، لم تكد الرقصةُ تبدأ بالنسبة إليها.

«فريباً جان فتاةٌ مجتهدةٌ جداً، أنتِ تعرفين، عرض عليّ زوجي كثيراً أن يأتي بخدماتٍ للمساعدة في عمل البيت لكنني، وفريباً، يمكننا تدبّر كل شيء معاً، وأنا لا أحبُّ وجود الغريباء في بيتي، لذلك رفضت.»

هززتُ رأسي، كان من الصعب تمييزُ الصدق من الكذب في كلامها، ظني أنها هي نفسها لا تميّز بينهما.

«أحسنيت أن ربيتِ ابنتك على العمل الشاق، أنا لم أطلب من بناتي فعل أي شيء في البيت، كنت أخشى أن يؤول بهن الأمر

إلى الخدمة في بيوت الآخرين، لكن أن أحظى بعروس يمكنها إدارة شؤون البيت، سيكون هذا تغييراً مرحّباً به!»
«نعم، بالفعل، بناتي الأخريات لا يقمن بشيء للسبب نفسه».
واصلت كوكوكل رقصتها، يتحرك إصبعها بخاتمه اللازوردي في الهواء وهي ترسم الحركات وتبادل الأدوار.
«فيرى، هل ستتزوجين حقاً؟» سألتني سلطانة الفضولية وأنا أذاكر مادة الأدب.

تجاهلتُ فضول أخواتي الصغيرات، كنت أتحدثُ وأكل وأنام بقدر ضئيل جداً. الدراسة أفضل ما لدي. حين يسمح الوقت كنت أذهب إلى البستان لأحزن وحدي.

كانت كوكوكل تجمعُ مستلزماتي «الشيرنيه» بهدوء، صينية حلوى رمزية تُقدّم إلى عائلة العريس كعلامة قبول رسمية. وجدت في أدراج ملابس كوكول صينية تقديم مطلية بالفضة، وقماش تول ذهبي، وعلبة حلوى من متجر حلوى في كابول. رغم رقصة المراوغة مع زوجة أغا فروز، كانت تتلهف على اللحظة التي تلبسني فيها ثوباً ذا شرائط وترسلني إلى بيت جديد. حملتُ إلى الأشياء التي اشترتها، وضعتُ قمصانها الداخلية المغسولة في الدرج وأنا أمنع نفسي بصعوبة من تمزيق قماش التول مزقاً صغيرة، وسحق الحلوى حتى لا يتبقى منها سوى كومة فتات في أغلفتها الذهبية.

«لماذا أنت حزينة؟»

كنتُ شاردة في أفكاري، فلم أسمع خشخشة أوراق الشجر تحت قدمي جاري وهو يقترب. ما دام الجدار يُخفي وجهي

الواجم، لا أمانع صحبةً المجهول، لمستُ الجدار، مرت أصابعي على خشونته، سقطتُ قطعة طين، فركتُ بقوة أكثر قليلاً فسقط المزيد من التراب على الأرض، استدرتُ واستندتُ بظهري إلى الجدار، تلطختُ أطراف أصابعي بالتربة البنية.

«توجد عائلة... لديها ابن»، حاولتُ صياغة الكلمات بطرائق مختلفة لكن الحقيقة انحسرت في حلقي.

«عريسك؟»

مع أنه لا يراني، لكنني أومأت برأسي.

«أنت تعرف؟»

«أمي وأخواتي تحدثن عن هذا، لقد رأين العائلة تأتي لزيارتكم وذكرتُ كوكوكل شيئاً ما عن الأمر حين زارتنا هذا الأسبوع».

«ذهبت لزيارتكم؟» لم أهتم البتة بالأماكن التي ذهبت إليها كوكوكل خلال الأسبوعين الماضيين.

«نعم». قال الصوت بهدوء..

«لا يمكنني القول إنني أحبُّ ذلك الفتى»

سألته بعد أن أكد لي حكمي: «أنت تعرفه؟»

«ليس عن قرب، من هنا وهناك ومن بعيد، لكننا كنا في

المدرسة العليا معاً».

«وحتى من بعيد تظلُّ على رأيك فيه؟»

«توجد أشياء لا تتضح إلا من بعيد، لا أعرفُ إن كان عليّ قول

المزيد».

«أيًا كان الأمر، يجب أن تقوله، لا أحد آخر يقول لي أي شيء

يستحق السمع».

أخبرني بمدى سوء الفتى، ومضايقتِه الفتيات، وتعاركه مع زملائه في الفصل، وبلادته في الدراسة. تدور الأقاويل عنه، أشياء رفض صديقي في البستان الكشف عنها. يتمنى والداه، منذ أن أنهى المدرسة العليا، أن يقوم الزواج سلوكه الذي لم تقومه سنّه.

ضممتُ ركبتيّ إليّ وقلتُ مني أنة قهر.

«آسف، لم أقصد إخافتك، ظننتُ أنك يجب أن تعرفي فقط، عائلتك يجب أن تعرف.»

كيف أخبرُ عائلتي بذلك؟ الأمر ليس ببساطة أن أنقل ما سمعته من شاب غريب قابلته في البستان.

«لا أعرف ماذا أفعل»، همستُ. «أمي ترى أن العائلة مناسبة لنا، وأبي... حتى حين يكون في الغرفة، فهو ليس موجوداً، يريجه أن يترك الأمر كله لأمي، حاولتُ إخبارها بأنني لا أريد الزواج الآن لكنها لا تهتم بما أريده، لن تصدقَ أي شيء قد أخبرها به عن الفتى، ستطلبُ مني ألا أستمع للشائعات فحسب.»

«فهمتُ.»

كان سلوكي هذا شائناً، لقد بحثُ بأفكاري الخاصة وشؤون عائلتي لابن الجيران، لصوتِ بلا وجه خلف جدار، أين أخلاقي؟ وكيف لي أن أثق به في كتمان هذه المحادثة؟ ارتبكتُ فجأة.

«اعذرني، أرجوك، يجب ألا أقولَ أي شيء، لا أعرف لماذا أزعجك بهذا، أرجو أن تنسى كل هذا»، قلتُ وأنا أفردُ ظهري وأحاول نقضَ الانفعال عن صوتي.

«أنتِ حزينة، لا تظني أنك أسأتِ الأدب...»

«لكن هذا ما حدث، أرجو ألا تذكر أياً من هذا لآخرين، لم أتوقع أن... أن أكون...»

«أعدك بشرفي، لن أقول أي شيء لأي أحد، لكنني سأخبرك بشيء أيضاً، أنا منزعجٌ من هذه الأخبار بقدر ما أنتٍ منزعجة». حبس البستانُ أنفاسه، علقتُ كلماته في الهواء أعلى الجدار الفاصل بيننا، ظلّت في الأعلى هناك بعيداً عن متناول يده فلا يمكنه سحبها، وعن متناول يدي فلا يمكنني أخذها، تمنيت ألا تحلّق بعيداً.

«لماذا تزعجك هذه الأخبار؟»

لم يُجب، كررت سؤالِي وظلّ الصمت إجابتي.

«أما زلتَ هناك؟»

«أنا هنا.»

«لم تُجبني.»

«لا، لم أجيبك.»

ازدادت كثافةُ الهواء بتردده، انتظرتُ، لا أريد كسر الصمت بافتراضاتي الخاصة، أردتُ كلماته فقط، عرفت، في ومضة أمانة ذاتية، لماذا ظللتُ أعود إلى هنا يوماً بعد يوم، لمستُ الجدار، ارتعشت يداي.

«سأعودُ إلى البيت، طاب يومك.»

«فريباً جان.»

أيعرفُ اسمي؟ تجمدتُ في مكاني، سرت في جسدي قشعيرة تُرقّب.

«اليوم، أنتِ تعرفين أن أخبارِ زواجكِ تزعجني، تعالي غدًا لنفكر معًا في كيفية تغيير الأمور، إن الله رحيم». سمعتُ صوت خطواته وهو يبتعد، تخيلتُ انحناء العشبِ تحتَ صندلهِ الجلدي. حملت في الجدارِ الفاصلِ بيننا، حاجزٌ يُيقِننا منفصلين لكنه لولا وجوده لما التقيت به، لولا وجوده لكنتُ قد ركضتُ خجلًا منذ وقتٍ طويل، كان الجدارُ حجابي.

عاد أبي ذلك المساء ورآني في المطبخ، كنت أقشّر الجزر الأحمرَ الذي حصده من حديقته، نهضتُ وحيثُته، قبلتُ خده. أومأ برأسه بهدوء، بدا حائرًا كأنه يريد قول الكثير لكنه لا يستطيع.

«أين كوكوكل؟ هل تستريح؟»

«بل ذهبتُ إلى السوق مع نجيبه وسلطانة، سيعدن قريبًا على ما أظن».

لم يكذب يبتعد عن المطبخ خطوتين حين تردد واستدار سائلًا:
«وأنتِ، كيف حالكِ؟» بدا مهتمًا حقًا.

«أنا، بادر جان؟ أنا بخير».

«حقًا؟»

«نعم»، قلتُ مترددة. عرفت من نبرة صوتهِ أنه يسأل عن المزيد، عرفت أنه يحبني بقدر ما يحبُّ إخوتي، ربما كان سيحبني أكثر لو لم أسلبه أمي.

«أتعرفين؟ أنتِ مساعدةٌ عظيمة لجميع من في هذا البيت، ظللتِ دائمًا تعملين بكد».

أطرفتُ رأسي احترامًا.

«ليحفظك الله ويمدّ في عمرك يا بُنيتي».

«وأنت أيضاً بادر جان».

«تزدادينَ شَبْهًا بها كلَّ يومٍ.. كلَّ يومٍ».. مثل الكلمات التي تركتها عالقةً في البستان، علقتُ تلك أيضاً في الهواء، كانت الكلمات المسكوت عنها في كلِّ محادثةٍ لي معه، المفهومةً ضمناً كلما نظرَ إلى وجهي بحزن، من كلماتِ الحب التي قد تصرخُ كوكوكل لسماعتها.

لو لم أكنُ أعرف جيداً لظننتُ أنه من الصعبِ الحزن على شخصٍ غريب، لم أكنُ لأتخيل قط أن هذا ما سوف أفعله طوال حياتي.

كم تمنيتُ أن أسحبَ كرسيّاً وأتوسلَ إلى أبي أن يواصلَ كلامه، أن يخبرني بكلِّ تفصيلاً عن أمي لأستطيعَ معرفةَ مَنْ أحزنُ عليها على الأقل. أردته أن يخبرني عن أول مرةٍ رآها، عن وقع صوتها، أكلاتها المفضلة، وشكل أصابعها. أردتُ أن أغمضَ عيني لأراها أمامي، أن أسمعها تتاديني باسمي ولو لمرة واحدة. لكن محاولة تصورِ أمي تشبهُ محاولة دندنةِ أغنيةٍ لم أسمعها قط.

سار بادر جان مبتعداً بسرعة، كأنه يعرفُ عن ماذا سأسأله إن ظلّ واقفاً أمامي. سمعتُ خطواته المتعجلة تذهبُ إلى الغرفةِ المجاورة وأنا أحملق ببيروود إلى يدي، مبقعة بخيوطٍ بنفسجية من الجزر الذي زرعه أبي.

بالتأكيد تحدثت كوكوكل مع أبي عن ابن أغا فروز، لكنني لم أستطع استنباط رأيه في الأمر من تصرفاته، لم أتوقع أن يحدثني عن الأمر مباشرة، تلك أمورٌ لا يناقشها الآباءُ مع

الفتيات، الأمهات هنّ وحدةُ التواصلِ فيها، قد يحجّبِن المعلوماتِ
عن أي من الأطراف أو يصبغُنها كما يعنُّ لهن. في حالتي، كانت
كوكوكل تتفنّى بابتِن أغا فروز كأنّها أمه هو.

هل أراد بادر جان تزويجي؟ أكانتُ لديه الفرصةُ لرفض طلبهم؟
تُركتُ أتساءل.

عدتُ إلى محادثة البستان، لم أرتبِكُ لسماع الصوتِ يخاطبُنِي
باسمي، زال الشعور بالغموض مخلفاً شعوري بالفرحة والاكتشاف،
أردت أن أعرفه.

عدتُ إلى أشجار التوت ظهيرة اليوم التالي، شعرتُ بوجهي
يحمّرُ حتى قبل أن تلمسَ قدماي العشب، كنتُ أعبُ لعبةً خطيرة،
لكننا لم نكن مذنبيّن أكثر من طائرتين ورقيتين تشابكت خيوطهما
في الهواء، ألسنا كذلك؟

حمل النسيمُ صوتَ صفيره، ابتسمتُ لِنفسي وتنفستُه، كان هو
النسيم، تتحنّحتُ لأعلنَ عن وصولي، سمعني.

قال: «سلام».

قلتُ: «سلام».

«كيف حالك اليوم؟»

«بخير.. وأنت؟» أزدادُ جرأةً في محادثاتي معه.

«جيد».

انثال ضوء الشمسِ من بين فروع شجر التوت، يُدْفئُ وجهي،
طرفتُ بعيني لكنني بقيتُ في مكاني، وهجُ الشمسِ يهدئني؛
تساءلتُ إن كان يشعرُ بالمثل.

«رأيتُ عريسك هذا الصباح».

أعادني من شرودي بتلك الكلمات القليلة:

«حقًا؟ كيف حدث هذا؟»

«عند المخبز، كنتُ أحملُ العجينَ لأُمِّي، وكان يسيرُ هناك مع أصدقائه، يتسكَّعون كعادتهم..»

كلماته محسوبة، حريص، تُتَبَّى نبرته بما لا تكشفه كلماته. «إنه من حسنِ حظك أنكِ بدأتِ الدراسة متأخرة، لم يكن المعلمون يقدرون على شيءٍ لوقفه، سمعتُ أنهم احتفلوا حين أنهى الدراسة أخيرًا.»

إنه يعرفُ عن دراستي، كيف يعرفُ عني الكثير هكذا في حين لا أعرفُ عنه شيئًا؟

«يبدو أنك تعرفُ قصتي جيدًا، وأنا لا أعرفُ عنك شيئًا، ما عدا أنك تحبُّ التلصص على جيرانك وقراءة الشُّعر على الأشجار.»

قهقهه..

«الارتفاع يمنحني منظورًا، لكن ربما كنتِ محقةً، ما الذي تودّين معرفته عني؟»

«ماذا تدرس؟» قلت وأنا ألتقط وريقاتِ العشبِ النحيلة، أحاولُ تخيّلَ وجهه.

«الهندسة، أوشكتُ على إنهاء دراستي الجامعية، ربما لذلك أحب الجلوسَ حيث تجلس الطيور، من أعلى تسهل رؤيةُ كيف تعمل الأشياء، كما تتدفقُ المياه من أعلى إلى أسفل.»

«يبدو أنك تستمتعُ بالأمر كثيرًا.»

«أنا كذلك بالفعل، نعم.»

«أود الذهابَ إلى الجامعةِ أنا أيضاً.»

«ماذا تحبّين أن تدرسي؟»

كنت منذ شهورٍ أفكّر في هذا السؤال كثيراً، ما زلت لم أصل إلى إجابة، خطر لي أنني في الأسابيع القليلة الماضية توقفتُ عن التفكير في المستقبل، توقفتُ عن التفكير في ما أريد فعله. كان بابا جان سيخيب أمله فيّ لذلك، وملاكي الحارس الذي يسكن البستان، إن كان موجوداً بالفعل، كان سيهزّ رأسه، ماذا أريدُ أن أفعل؟

تدحرجت الإجابة على لساني كأنني ظلت عازمةً عليها منذ سنوات، وكانت القرار الأكثر طبيعية.

«التدريس، ظني أنه لا شيء أهم من التدريس، الهندسة مهمة أيضاً، لكن حتى المهندسين في حاجة إلى مدرسين.»

«معك حق، إن المدرّسين هم الخميرة التي تجعلُ العجين يرتفع. ستكونين مدرّسةً عظيمة.»

«لا أعرف إن كنت سأحظّي بالفرصة»، قلتُ بصوتٍ خافت.

«هل قالت عائلتك شيئاً عن الأمر؟»

«لا. لا أظن أنني سأعرفُ شيئاً حتى يقرروا كل شيء، أشعر بأنني لستُ فرداً من العائلة بالفعل، أمي وأخواتي مشغولات جداً بالضيوف والهدايا والاحتفالات، كل شيء يدور حولي لكنني لا مرئية، فتاةٌ كانت تعيش في البيت... تهدّج صوتي في العبارة الأخيرة.

«أنتِ لستِ لا مرئية، يُمكنني إغماض عينيّ وتصورك، يُمكنني سماع صوتكِ حين أكون وحدي، قد تكونين أي شيء لكنك لستِ لا مرئية.»

بتلك الكلمات، صرّح الصوت بأشياء لا يمكن إخطاؤها، كان صوتُه هو الصوت الوحيد الذي أردتُ أن أسمعَه، الوحيد الذي يتحدثُ معي عني، بدا كأنه تجاوز الجدار الفاصل بيننا ووضع رأسي على كتفه.

«يجب ألا تقول أشياء كهذه»، قلتُ بهدوء، رد فعل تلقائي كخطِّ حماية.

فهم.

«لنفعل شيئاً ما إذن، هل نصلي؟ ما رأيك؟»

الصلاة ليست شيئاً غريباً عليّ، أشعر بهدوءٍ حين أسمع الأذان يرتفع من أقرب مئذنة إلينا، خمس مرات يومياً، تتاح لي فرصة البوح بأفكاري لله، فرصة طلب مغفرته والجنة لأمي وجدي. لعل الله سيستمع لصوتين معاً بدلاً من صوتي وحدي.

«حسناً، موافقة». تركته يبدأ.

«بسم الله الرحمن الرحيم....»

«بسم الله الرحمن الرحيم...»

ردد سورة قصيرة ورددتُ خلفه الكلمات بهدوء، عيناى مغمضتان، ثم ختم بدعاء بسيط.

«اللهم حلّ أنت موقف جارتى. اللهم جنبها المسار الذي يريده لها الآخرون وهذا العريس. إنها لم تستطع العيش بسلام في تلك الأسابيع وسيزداد الأمر سوءاً مع هذا العريس، وأنت بكلّ شيءٍ عليم. اللهم اكتب لها العيش في بيتٍ لا يعتبرونها فيه من المسلمّات. اللهم خذ بيدها لتتخذ قرارها بنفسها واهد عائلتها، لما فيه صالحها، اللهم حرّرها وأعنها على استكمال دراستها،

لتفديد بدورها الآخريِن، اللهم لا تدع أحداً يُعيقها عن أهدافها». سكت.. ثم واصل:

«وأعني اللهم على تحقيق أهدافي، في الدراسة والحياة. اللهم أنعم علينا بمستقبلٍ أكثر إشراقاً».

لو كان بإمكانني حينها رؤية المستقبل ومعرفة كيف سيُجاب دعاؤنا، أتساءلُ إن كنت سأدعو معه. أتساءلُ إن كان حينها سيصُرُّ على هذا الدعاء. أخاف حين أفكر في أننا كنا سندعو بالطبع. وأخاف أكثر حين أتخيّلُ ما كان سيحدثُ لو لم نفعل.

كان رأسي على الوسادة تلك الليلة، حين فكرتُ في «رابعة بلخي» الشاعرة الأفغانية الأسطورية من القرن العاشر. رابعة أميرةٌ حقيقية، كانت تعيشُ في بذخ قصر مملوء بخدم تحت إمرتها. حين مات أبوها صار أخوها الوصيَّ عليها. عاشت رابعة مرفهة في خلوتها، تملأ فراغ أيامها بأشعار من نظمها.

لكن الحبُّ قد ينمو حتى حين يكاد النفس ينعدم وهكذا وقعت رابعة في غرام الشاب الوسيم «بكتش». حين عرفَ أخوها بعلاقتهما، ورسائل الغرام والأشعار التي تبادلها سرّاً، أمر بأخذ أخته إلى الحمام حيث قطعوا معصمَيها وهي راقدة في مياه يتصاعد منها البخار.

كتبت رابعة، بدمها، قصيدتها الأخيرة على جدران الحمام وأعلنت حبها الخالد لبكتش.

لم يكن الحبُّ شيئاً يمكننا التحدث عنه، بل كنا نستكشفه كظاهرة فقط بالقصائد وكلمات الأغاني أو أفلام بوليوود

المستوردة حيث كلما زادت مأساوية القصة وباعدت بين الحبيبتين،
أوغل الحب في قلبيهما. هذا كل ما تعلمناه، بالمصادفة فقط
مع ذلك. كانت الأم المتوفاة، والعريسُ غير المرغوب فيه، وفتى
الباستان، هي العناصرُ المطلوب جمعها معًا لتصنعَ من حياتي
قصةَ حبٍّ ملحميةً. خفق قلبي اليافع بتوترٍ مترقبًا الغد.
حاولتُ، بعينين مغمضتين، تذكرُ قصيدةَ رابعةٍ الأخيرة، تذكرتُ
منها آخر بيتين فحسب:

«حين ترى القبح تخيله جميلًا
وإن تناولت سماء، تذوقه سكرًا» .

فريباً

8

كانت كوكوكل تقفُ عند الباب الأمامي حين خرجتُ من غرفتي، صوتُها يعبر الرواق، يعلو شيئاً فشيئاً، يتحوّل خلال ثوانٍ إلى صياح هستيري.

هرولتُ مرةً بي، مددتُ يدي أثبتتُ فناجين الشاي التي وضعتها بقعقة على زجاج الطاولة.

«ابقي هنا مع أخواتك وادعي الله ألا تكون تلك الأخبار حقيقية! سأخرج لأعرف ماذا حدث، أنا لم أسمع بشيء كهذا من قبل... إن كانت تلك كذبة، فمخترعها ملعون، يا الله يا رحيم، هذا مستحيل!»

ارتدتُ شادوريها بسرعة ولّفت طرفيه على كتفيها، صفقت الباب خلفها قبل أن يمكنني سؤالها إلى أين ستذهب أو ما تلك الأخبار الفظيعة؟ واصلتُ مهامّي بأمعاء مضطربة. انشغلت أخواتي بدروسهن لا يعرفن أكثر مما سمعته بالفعل، عليّ انتظار عودة كوكوكل.

بعد ذلك بساعتين زاد قلقي، خرجتُ إلى الفناء وفتحتُ البوابة، لم يمدني شارعنا الهادئ بأي مفاتيح للفرز. تطاردُ مجموعة أطفال كلباً هزياً، يقذفونه بأشياء التقطوها من القمامة. مر رجل عجوز يتعكز على عصا، لا شيء يبدو غير طبيعي.

عاد بادر جان إلى البيت مبكرًا ذلك المساء ووجدني أنفض التراب عن الوسائد في غرفة الجلوس، لا يمكنني البقاء ساكنة. قال: «أين أمك؟ لا تخبريني بأنها في السوق مجددًا».

«لا، بادر جان، بل ذهبت لزيارة صديقة، على ما أظن، لم تقل الكثير، فقط إنها سمعت أخبارًا فظيعة وتأمل ألا تكون حقيقية».

«أخبارًا فظيعة؟» بدا قلقًا لخروج كوكوكل المفاجئ وللقلق في صوتي.

«هل قالت شيئًا عن تلك الأخبار؟»

هزرت رأسي.

«كانت في عجلة، خرجت دون أن توضح أي شيء».

تتهد بعشق وسألني إن كنت أعددت العشاء. قرر أننا ليس علينا أن نقلق ما دمنا لا نعرف ماذا حدث. يمكنه بلع ملعقة ملح وهو يبتسم إن كان لهذا أن يحفظ السلام في البيت.

كان جائعًا فأعددت المائدة وناديت إخوتي للجلوس إلى الطعام، أتساءل إن كانت كوكوكل ستعود قبل أن نبدأ تناول الطعام. كان البخارُ المفعم برائحة الكمون يتصاعدُ من طاجن الأرز الساخن الذي أحمله حين اندفعت كوكوكل تدخلُ الغرفة، ألقت شادوريتها على ظهر أحد الكراسي بتأفف، ثم انفجر صوتها في الغرفة الصغيرة.

«أووو يا الله، يا رحيم يا الله! يا لها من أخبارٍ مريعة!» يتمايلُ رأسها من جانب إلى آخر وهي تجلس بجوار أبي. «مصيبة وحلت على رؤوسنا دون سابق إنذار... ما زلتُ لا أصدق ما حدث!»

عقد بادر جان حاجبيه، نافذ الصبر من تمهيدها الدرامي.

«قولي الأخبار فحسب، كوكوكل، ماذا حدث؟»

تجاهلته وواصلت حكيها بأسلوبها الخاص.

«كنتُ اليوم في البيت مع هؤلاء الفتيات لينجزن واجباتهنّ، وكان لديّ فوق هذا غسيلٌ يجب إنهاؤه وطعامٌ يجب إعداده وليس لديّ وقت، كالعادة»، أطلق بادر جان تهيدةً ثقيلة، وتساءلتُ في نفسي متى غسلتُ كوكوكل جوربًا أو صحنًا حتى.

«جاءت حبيبة جان تطرقُ بابنا تريد بعض الدقيق، قد نكسب جيدًا إن بعناها ما تتسّى شراءه من المتجر دائمًا، على أي حال، أعطيت تلك البلهاء ما تحتاج إليه فبدأتُ تثرثرُ عن عائلة تعيّسة الحظ كانت ترتبُ لقراءة فاتحة ابنها خلال وقت قصير والمصيبة التي حلت بها. سألتها عن تلك العائلة التي فقدت ابناً فأخبرتني أنها العائلة الثرية التي تسكن في الجانب الآخر من المدينة، عائلة أغا فروز».

قبضتُ أصابعي على حافة المائدة بقوة، شعرتُ بانسحاب الدم من وجهي، انتظرتُها لتواصل، فتابعته:

«دار رأسي وكدتُ أسقط هناك عند قدميها لكنني تماسكتُ وسألتها إن كانت تعرفُ أيّ فتى تحديدًا وكيف حدث هذا، لكنها أرادت العودة إلى بيتها بالدقيق ولم تكن تعرفُ المزيد على أي حال فصرفتها. ذهبتُ إلى بيت فتنة جان إذ يسكن شقيق زوجها بجوار أغا فروز.

«لدى فتنة معلومات أكثر مما لدى المخابرات الروسية، فأخبرتني بكل شيء! يا الله، هذا يغير كل شيء بالنسبة إلينا! منذ يومين فقط...»

«يا الله، فقط قل لي ماذا حدث يا امرأة، أرجوك!»

«شيء لا يُصدق، لا يُصدق حقًا! القصة كلها لا يمكن تخيلها حقًا! كان ابن أغا فروز في طريق عودته إلى البيت من السينما مع أصحابه، أتُعرف؟ لقد قالوا إنه يدرس الهندسة لكن فتنة أخبرتني بأنه لم يدرس شيئًا بعد المدرسة العليا ولم يكن لينهيها حتى لولا أن جامل والده بعضهم من تحت الطاولة».

تبلت كوكوكل كلّ جزء من تلك القصة، مأساوي أم لا، تأبى ألا تفوت تفصيلا واحدة، كانت تلك أول مرة تحكيها، لذلك فهي بروفة مهمة نوعًا ما لأنها قطعًا ستحكيها لاحقًا مرارًا وتكرارًا. «كان الفتى في طريق عودته إلى البيت مع أصحابه وتوقفوا لشراء بعض الحمص من أحد الباعة في السوق، فتية كهؤلاء لا يقضون خمس دقائق دون تناول شيء ما ملؤوا جيوبهم وواصلوا سيرهم فبدأت تظهر على جلد ذراعي الفتى بقعًا حمراء صغيرة، وحين وصلوا إلى ناصية الشارع ازدادت حالته سوءًا، ظلّ يسعل ويتعثّر في سيره خلف الآخرين، لم يعرف أصحابه شيئًا عمّا يحدث له فقررروا أخذه إلى بيته، وصلوا وهو بالكاد يسير على قدميه وأرقدوه على أريكة غرفة الجلوس.

«كانت المسكينة أمّه في البيت، دخلت الغرفة ونظرت إلى ابنها فعرفت على الفور، كان يُصاب بالبقع الحمراء ذاتها وهو صغير حين يأكل المكسرات، صاحت على أصحابه ليساعدوها في نقله إلى الطبيب لكنهم كانوا قد انصرفوا بالفعل. تظن فتنة أنهم كانوا يخططون لشيء ما، وكانوا يخافون الوقوع في مشكلات، نادى الأمّ خادمتها وأخذته إلى الطبيب، لكنه كان قد قطع النفس.. مات!»

دفنت وجهها بين يديها، أخذت نفساً عميقاً ووضعت راحتها مفتوحتين على المائدة. قالت بصوت حزين:

«إنهم جميعاً مصدومون بشكل لا يُوصف. يرتّبون الآن أمر دفنه، ونحن نتحدث هنا، بعد أن كانوا يرتّبون لحفل زفافه». عاد بادر جان بظهره إلى الخلف، فمه مشدوه قليلاً، رمقتي أخواتي بنظرة ذات مغزى، أبقيت وجهي متماسكاً ما أمكنتي، لا أعرف بم أشعر ولا أريد أن تفضح صفحة وجهي أفكاري. قال بادر جان وهو يهز رأسه: «ليرحمه الله! أن يفقد المرء ابناً، شاباً صغيراً...» ظل ينظر إلى كوكوكل، نظر إليّ خطفاً مرة واحدة فقط ليرى ردّ فعلي.

«يا للعار، يا للعار، ونحن بالكاد نبدأ التعارف على عائلتهم! بدوا أناساً طبيين، تجارة جيدة، الأفضل في كابول كلها تقريباً. لديهم ابنٌ آخر لكنه متزوج بالفعل! فقدنا الآن فرصتنا معهم». تعجز كوكوكل عن إخفاء سبب حزنها الحقيقي.

نظر بادر جان إليها وتهدّ، كان قد تقبلها على ما هي عليه منذ وقت طويل لكنه لا يزال يراوده الأمل، من حينٍ إلى آخر، أن يراها لا تأخذ، ولو حدثاً واحداً صغيراً، على محمل شخصي. تتهدّ قائلاً: «سأعرف المزيد غداً عن الجنازة والعزاء، علينا تقديم تعازينا للعائلة، الآن دعينا نأكل الطعام الذي أعدته قريباً لنا، لن نُلقِيَ به بالطبع... فكّر قليلاً ثم قال: «سنرسل إليهم بعض الطعام».

«طعام؟»

«إن لديهم طبخةً تعدّ لهم الطعام، يكفيننا ما لدينا من أفواهٍ لإطعامها هنا!»

«سوف نرسل إليهم طعامًا ونذهب لتعزيتهم، لقد كنا معهم في فرجهم وعلينا أن نكون معهم في حزنهم».. قال ببطءٍ متعمدًا، وحدها بنظرة. فوجمت من تحذيره.

لقد فقدت عائلةً ابناً لذلك كنتُ أخجل من شعوري بالارتياح، كأن أحدهم نزع عن عنقي نيراً ما، مع ذلك ذهب الأسي مُخلفاً مكانه أفكاراً ثقيلة.

جلستُ جامدةً كالحجر ونحن نتناولُ الطعام، فكّي يتحركُ لكنني لا أتذوقُ شيئاً.

لا يمكن أن يكونَ ما حدثَ مصادفةً.

أبقيتُ وجهي مُخفضاً، صوتُ أفكاري عالٍ جداً، حتّى أنني خشيتُ أن تسمعها أسرتي فيعرفون من أنا، لم أعدُ لا مرثيةً. كنت قد رفعتُ راحتي لأعلى في البستان ووليتُ وجهي للشمس ودعوتُ الله، همستُ «آمين» حين أنهى جاري دعاءه القدري، أدفعُ بكلماته إلى الله، كأنّ لي أن أدعو الله مع شخص غريب، ترددتُ كلماته، كلماتنا، في ذهني.

اللهم حلّ أنتَ موقفَ جارتِي، اللهم جنبها المسارَ الذي يريدها الآخرون وهذا العريس، إنها لم تستطع العيش بسلام في تلك الأسابيع وسيزدادُ الأمرُ سوءاً مع هذا العريس، وأنتَ بكلّ شيءٍ عليم.

تنهيدةٌ راحة، حل.

اللهم لا تدعُ أحداً يعيقها عن أهدافها.

كانت كوكوكل مكروبةً جدًّا وهي تأكل. اختبأتُ خلف تهادتها
الثقيلة، تبادلنا أخواتي نظرات فضوليةً، يُردن الفرارَ من الصمتِ
الغريب لمائدتنا والمشاركة في أفكارهنَّ بعيدًا عن مسمع أبي.
انتابني زعرٌ هادئ، قد أُعتبر متواطئةً في موت الفتى، وربما
أكثر من متواطئة أيضًا، قد أكون مسؤولة تمامًا أن أخذه الله.
مضغتُ بحرص، أخشى أن أختق، إن الله كل يوم في شأن.
تساءلتُ إن كان جاري قد سمع الخبر، دفع تفكيري فيه ذهني
في اتجاهٍ مختلف تمامًا، تساءلتُ عن نيّاته وعن مغزى كلماته إلى
السماء.

كبحتُ رغبتني في الركض إلى البستان، في أن أطلبَ منه
توضيحَ ما حدث.
سيكون عليّ أن أنتظر.

بعيدًا عن وفاة أمي، كنت متيقنةً تقريبًا أن العالم يدورٌ حولي
دون أن يُعنى بي، ربما لم يكن الأمر كذلك.

بعد ذلك بيومين، استعاد بيتنا إيقاعه الطبيعي. تقبلت أخواتي
أنني ليس لديّ ما أقوله عن وفاة الفتى. عادت كوكوكل لمواصلة
مهامها المنزلية البسيطة. ذهبَ بادر جان إلى أغا فروز لتعزيتته،
زيارة لم يتوقَّعها أحدهما قط. كنتُ في حالتي المضطربة،
أبدأ غسل الملابس لأكتشفَ أنني نسيْتُ الصابون. في طريقي
لإحضاره، أتذكّر أن عليّ تبديل اللحم. بعد ذلك بساعات أجد
الملابس التي لم أغسلها منقوعة في الماء، ما زالت في انتظاري.
كان قلبي يكاد ينفجر، ذهبْتُ إلى البستان، بدتُ كل خطوة لي
كعدوان، الأغصان التي رحّبت بي ذات مرة كأذرع مفتوحة تبدو
الآن كأنها أصابعُ اتهامٍ تشير إليّ، شهود على جرمي.

سَعَلْتُ بِهِدوءٍ .

قال بحذر: «سلام» .

«لم أكن متأكدة أنك ستكون هنا» .

«من الجيد أنك أنتِ»، قال بفرح: «لم أكن متأكدًا» .

بدا المرح في صوته وصمة عار .

«ألم تسمع الأخبار؟» همستُ .

«أخبار؟ أي أخبار؟» وجمّ صوته قليلًا .

«عن الفتى، ألا تعرف حقًا؟»

«ما الأمر؟ تبدين حزينة» .

«لقد ماتت.. رحمة الله عليه» .

«ماذا؟ هل هذه مزحة يا فريبًا؟» همس .

فاجأني التائب في نبرته .

«أنا لا أمزح في هذه الأمور» قلت . ثم انطلقت من فمي

الكلمات التي أردتُ الصياح بها منذ أعلنتُ كوكوكل الخبر على

العشاء: «إنه حقيقي، لقد مات وتقريبًا لأننا دعونا الله بذلك،

لكننا لم نفعل، أليس كذلك؟ أيّ ذنب ارتكبناه؟»

«أخفضي صوتك»، حذّرتني.. «أنت جادة إذن. بالطبع، لم نكن

لندعو بمثل هذا قط، لا تكوني حمقاء، أخبريني بما حدث له» .

أخبرته بكل ما سمعته من كوكوكل . تكررت الأحداث في رأسي

مراتٍ كثيرة، كأنني شاهدتُ يومه الأخير ذاك، تخيلته يختنق،

يُمسك صدره، جلده أحمر ملتهب، تهبُّ عاصفة بداخله وتحبسُ

في حلقة .

«فريباً جان، اسمعيني، هذه أخبارٌ مفاجئة وأعرفُ أن الأمر يبدو غريباً مع اعتبار محادثتنا السابقة، لكن صدّقيني لم تكن لديّ أدنى نية للإضرار به، لقد كان دعاءً وليس لعنة، أيّاً كان ما سيحدث، لم يكن الأمر بأيدينا قط».

«لكننا دعونا...»

«وهذا كلّ ما فعلناه، لم نتمنّ سوءاً لأحد، أقسم لك، لم نُردّ سوى أن ينجّيك الله، يجب أن تعرفي هذا».

سرت في البستان نسمةً رقيقة، نسيمٌ خفيف فكّ انقباض صدري. كان محقّاً، أعرفُ أننا لم نرتكبْ ذنباً جسيماً بدعائنا. وأعرف منذ اللحظة الأولى بيننا أن هذا الصوت في البستان له قلبٌ طيب، لقد كان معي صديقاً حين لم يكن لديّ أحدٌ أثق به للبوخ بأفكاري، حتى الآن، كان هو صديقي الوحيد في مكانٍ وزمان لا توجد فيه صداقة بين فتى وفتاة. يوجد إخوة وأخوات، خالات وأخوال، أزواج وزوجات، لكن لا أصدقاء.

لا يمكنني النظر إليه مباشرةً، ولا يمكنني نطق اسمه. لكن الحميمية أكبر من الأسماء والوجوه. لقد تشاركتُ في الكثير مع هذا الغريب، وشعرت بالدفء في وجهي لتفكيرني في إمكانية الاعتماد عليه في تلك الأيام الصعبة.

«أنت محقٌّ، لقد كان شعوراً فظيلاً أن ظننت...»

«لا تفكّري هكذا، لقد نجوتِ بفضلِ ظروفٍ غريبة وحزينة، أنا لن أتحدّث بالسوء عن الموتى لكننا معاً نعرف جيداً كيف كان الفتى، هذه ليست فعلتك، وليست فعلتي أيضاً، لذلك لا تأخذي الأمرَ على عاتقك».

لم أجرؤ على مقاطعته وهو يقول ما أردته أن يقوله تحديداً .
حين أتذكرُ الآن، أتساءلُ إن كان معظمُ ما قاله صحيحاً تماماً
قليلاً. ربما اختلقت في عزلتي هذا الصديق من ظلِّ شخصٍ ما
وبعثت فيه حياةً ليلبي حاجاتي، خدعة ذهنية خطيرة.
«فربما جان؟ قولي شيئاً ما، أخبريني بأنك توافقيني».
لم يعد لديّ مجال للشكّ حين سمعته ينطقُ اسمي، في هذه
اللحظة، كان حقيقياً ومهمّاً كما أريده. لا يمكنني تركه، ارتبطتُ
به بخيوطٍ لا مرئية من صنعِ خيالي الخاص.

فريبا

9

«إنهم يلومونك على وفاته، هذا ما سمعته»، قالت كوكوكل
بيروود. سرت حرارة في عنقي من الخلف. توقفت عن تجفيف
الصحون. تدلت المنشفة من يدي بخمول.
«أنا؟ ولماذا يظنون ذلك؟»

«يقولون إنه كان شاباً بصحة جيدة تماماً وأنه اختطف من
وسط عائلته قبل يوم واحد من إعلان خطبتكما. بالطبع تصر
زوجة أغا فروز على أنك ملعونة. في البدء والدتك، ثم جدك،
والآن هذا الشاب قبل ساعات قليلة من خطبتك».
دمعت عيناى، من القسوة أن تذكر كل من فقدتهم هكذا.

«هذا لا يستحق البكاء»، أنبتني كوكوكل.. «كيف لا يمكنهم قول
هذا؟ إنهم حزائى ومصدمون ويعرفون تاريخك. ربما عليّ شكر
حسن حظي أن ظللت على قيد الحياة»، قالت تمزح.
ربما اختلقت كل هذا، يصعب عليّ فهمها، أحياناً تظلّ تغير
في نسختها الخاصة عن أمر ما إلى حد لا يمكنها معه تمييز
القصة الحقيقية. عدت لتجفيف الأطباق وواصلت هي كلامها.
«ذهبت لتعزية والدته فانفجرت بالبكاء ما إن رأت وجهي،
وأخبرتني بأن ابنتي ملعونة. قالت إن أمورهم بدأت تسير بشكل
سيئ منذ أن تقدّموا لخطبتك، ظني أن نساء قليات ممن كن
يجلسن سمعن، لسن كثيرات».

أوه، يا ربي، في هدوء العزاء، كنتُ متأكدة من أن جميع نساء كابول قد سمعنَّها، سأغدو فتاةً كابول المشؤومة وستتبعني الهمساتُ وحركاتُ الحواجب.

«ماذا قلت لها؟» سألتها مترددة.

«ماذا يقولُ المرءُ لأمٍ تكلَّى؟ أخبرتها أنني أدعو الله أن يلمها الصبر ويتغمد الفقيد برحمته.»
«أقصدُ بشأني، بشأن كوني ملعونة.»

«فريباً، العزاء ليس الوقت ولا المكان للجدال، قلت لها إنني أتمنى ألا يكونَ ذلك حقيقة.» أخذتُ كوباً وصببت فيه ماء. «على كل، مع أنه لا يصحُّ التحدث عنه بسوء الآن وهو ميّت لكنني سمعتُ أنه كان شقيماً؛ لم يكن يحترم عائلته وكان يسرقُ منهم. قالت حمريّة جان إنه ضربَ ابنها الصغير ذات مرةً بقوة، إلى حد أن ابنها لم يستطع الرؤية بإحدى عينيه مدة أسبوع.»

«متى رأيتِ حمريّة جان؟» سألتها بغفوية، عيناى على الأطباق.
«أوه، منذ أسبوعين تقريباً، في السوق، لقد عادت من الهند، تتباهى بأساورها الذهبية الجديدة بالطبع.»
ومع ذلك، كانت تُحضّر الشيرنيه.

أمي، ظللتُ طوال حياتي أناديها بهذا الاسم المشرقِ المفعمِ بالأمل، أتمنى لمسّة ناعمة كصوفِ الحمل على خدي ولا أحظى سوى بتلوحةٍ باردة.

«كانت النسوةُ يتحدثُنَّ عن هذا في أثناء العزاء، ظن أغا فروز أنّ الزواج سيهدّب الفتى ويصلحُ حاله، ظلوا يبحثون له عن عروسٍ لشهور.. من في حاجةٍ إلى هذا؟ نحن لا نهبُ فتياتنا كخيارات ثانية أو ثالثة.»

أقيتُ بمنشفة الأطباقِ على حافة الحوض «لكنكِ كنتِ ستعطينهم الشيرنيه رغم كل شيء، أليس كذلك؟ لماذا يختلف الأمر معي؟»

كانت نبرتي حادةً، وقف الألم، مكشوفاً، بيني وبينها في لحظة صدقٍ نادرة.

تقابلتُ أعيننا.

«عزيزتي، ثمة فارقٌ بينك وبين نجيبة، وأنا مدهوشة لسؤالكِ عن هذا الآن، إن نجيبة بسيطة، فتاة جميلة... جميلة بما يكفي لتحظى بالانتباه. وهي من عائلة جيدة، ولطيفة ومؤدبة.»

«وأنا؟»

«وأنتِ». قالت وكلماتها تنغز ضلوعي كأصبع. «عليّ أن أكون أكثر حرصاً معكِ. نعم، أنتِ مهذبة وجميلة بما يكفي، لكن الجميع يعرفون أنكِ فقدتِ أمكِ، وهذا ما يجعلكِ مختلفة، وقبل أن تتظري إليّ بهذا الغضب، تذكري أنه ليس خطئي أنكِ فقدتِ أمكِ وليس خطئي أن الناس يتحدثون هكذا، لكن عليّ أن أبذل قصارى جهدي معكِ، فكّري في الأمر، قريباً، إن انتظرتِ الرقصَ على القمر فقد لا ترقصين أبداً.»

«ألا تحبينني كما تحبينهن؟»

«تماماً مثلما لا تحبينني كما تحبين أبيك، أو جدك، لا تظني أنني أجهلُ هذا.»

سكتُ، كانت محقة، بلا شك.

عادتُ إلى هدوئها فوراً، لم تنزعجِ البتة، ليس سوى انزعاجها الشخصي من عائلة الخطيب الفقيد.

«أنا حزينة لأنها فقدت ابنها لكنني حزينة أكثر لأنني ضيعت وقتي في تقديم الشاي والبسكوت إليها».

لم يتحدث بادر جان عن الأمر، كان يذهب ويعود إلى البيت، يتحدثُ معنا برفق عن دراستنا دون كلمةٍ عن أغا فروز أو ابنه. كنت أريدهُ أن يتصرفَ بشكلٍ مختلفٍ لكنه لم يكن في وسعه شيء. ومع أنني نجوت بالفعل من ذلك الخاطب وعائلته، لكنني ظلتُ أفكرُ في مدى استعداد أسرتي للتخلص مني، ومتى قد يتكرر الأمر مجدداً.

كان جاري ملاذي، يُلقى شعراً ويشكو من خسارته درجاتٍ في اختباره الأخير في كلية الهندسة. يتحدث بشغفٍ عن العمل الذي يطمح إليه بعد التخرُّج. أراد السفر إلى الخارج كي يتدرب في شركة أجنبية. أراد أن يكتشف العالم. كنت أحب سماعه يتحدث عن الجامعة وتصميمها، كان يصف المباني والأساتذة بتفصيلٍ شديد، لدرجة أنني كنت أغمضُ عينيَّ وأتخيلهم يسيرون في الأروقة.

ذات يوم قال شيئاً لم يقله من قبل قط:

«سيكون رائعاً أن أتعرف عليك وعلى عائلتك دون جدار يفصل بيننا».

سرى دفءٌ في وجنتي. ابتسمتُ وحركتُ أصابع قدمي في العشب.

«لكن ذلك سيكون... أقصد... هذا ليس....»

«أنا لا أقصد إساءة، أردتُ فقط إخبارك برأيي أن عائلتنا يجب أن تبدأ التعارف...»

«هل تدركُ ما تقول؟» سألته، نصفَ محرّجة: «لا تقل أشياء لا تقصدها».

«أنا لا أفعل ذلك، فربما صدقيني، قندم».. جميلتي. اقشعراً جلدي لسماعه ينطق اسمي، و«قندم» الرقيقة الجريئة تستقرّ في أذني كقبلة ناعمة.. «أعرفين ما أفكرُ فيه كل يوم؟»

استلقيت على العشب وحدقتُ في الأغصان، تنعكس الشمس الجريئة على ظهر أوراق الشجر الخضراء التي تشبه الدموع. تلمع فاكهتها البيضاء والحمراء والسوداء بمختلف درجات نضجها. دغدغ الضوء وجهي.

«فيم تفكرُ؟»

«جعلني كلّ يوم جلستُ فيه هنا وتحدثتُ معك فيه من خلف هذا الجدار أفكرُ في تسلقه والنظرِ إليك، والسيرِ معك في بستان أبيكِ لنتحدثَ ونحن نستمعُ للأغاني من المذياع».

حبستُ أنفاسي، ذاك الشعور في قاع معدتي — رعشة السقوط من أعلى — كان جديداً تماماً عليّ. أدهشتني سهولة إدراكي شيئاً لم أره ولم أشعر به من قبل. هذا هو الحب الذي وصفه الشعراء، كنت متأكدةً من هذا.

«لكنني كلما فكرتُ في هذا، أدركتُ أنني لا أريد اقتحام بستان أبيكِ. بل أريد دخولَ البيتِ من بابهِ، أريد أن أتحدثَ معك ويدانا متشابكتان، بلا جدارٍ يفصل بيننا، دون أن نضطرّ إلى خفضِ صوتينا والاختباء من العالم».

سالت الدموع من زاويتي عينيّ، مرتّ بصدغي وسقطتُ على الأرض. لسنواتٍ كثيرة جداً لم أتلّق سوى حبّ أخواتي المخفف،

إحسان كوكوكل المتعالي وعاطفة أبي المتحفظة، ملأت تلك الكلمات، ناضجةً ومكتملة، الفراغ الذي عشته طوال حياتي.
«فريباً».

«نعم؟»

«لم تقولي شيئاً».

«لا أعرفُ ماذا أقول».

«يمكنك قولُ ما تشائين».

جلستُ وغطيت وجهي بيديّ، لم يمكنني الرد وشمس الله في وجهي.

«أنا مثلك»، همستُ بصوتٍ سمعه بالكاد.

بعد ذلك بيومين، كان ثمة طرُقٌ على بوابتنا الأمامية، لحسن الحظّ كنت منشغلةً في الغسيل، كان مرفقاي غائصين في الطشت مع الملابس والجوارب ورغوة الصابون، ففتحتُ كوكوكل الباب بنفسها. بعد ذلك بدقائق، وقفت كوكوكل بجواري، تراقبني أدعكُ ياقات قمصان أبي.

«يأتي النور بعد الظلام دائماً، اغسلي ثوبي العنّابي أيضاً، يبدو أننا سنستقبلُ ضيوفاً يوم الخميس المقبل».
«مَنْ؟»

«زوجة أغا وليد، بيبي شيرين»، قالت بغمزة ذات مغزى.. «يبدو أن جيراننا يودون التحدثُ معنا بشأن ما. اغسلي ثوب نجيبة الزيتوني أيضاً، لا الأصفر، الأخضر يجعل وركيها عريضين جداً». أومأتُ برأسي ولم أقل شيئاً، ستذهل كوكوكل حين ستدرك أن الأمر ليس بشأن نجيبة. صارتُ أختي غير الشقيقة، الأصفر

مني بعامين فقط، شابةً فارعة، بشعر أسودٍ طويلٍ تتماوج أطرافهُ
بأنوثة. بشرتها بيضاء كالحليب، وفمها وردِّيٌّ ومستدير. تزهم
كوكوكل أن نجيبة تشبهها رغم صعوبة ملاحظة ذلك.

أغا وليد صاحبُ البيت والبستان المجاورين لنا، مفكّرٌ
ومهندسٌ محترم. تكنّ له كوكوكل احترامًا هائلًا ، ليس لأنه
مهندس لامع بل لأن الآخرين يحترمونه كثيرًا. في كابول يتكاثر
كلُّ من الشائعات والاحترام ذاتيًا. كان ذلك جيدًا وسيئًا.

عادت إلى كوكوكل حماسها مجددًا، خطوبة أخرى، جولة
رقص أخرى من المجاملات والتفاخر.

ظللتُ بعيدةً عن البستان وساعدتها على تهيئة غرفة الجلوس
ليوم الخميس المقبل. اختارتُ ثوبَ نجيبة، ثوبًا بكُمّين قصيرين
مُغرين وتصميمه بشكل حرف A يُنبئ عن قوامها لكنه محتشم.
ارتديتُ قبل وصولهما مباشرة ثوبًا فضفاضًا بتطريز عند الرقبة.
رفعتُ كوكوكل حاجبها حين رأيتي أرتدي ثوبًا أحتفظُ به عادة
للمناسبات الخاصة.

«لا تسكبي شيئًا على نفسك، قد تحتاجُ نجيبة إلى هذا الثوب
في الأشهر المقبلة».

لم أعرفَ ماذا ستفعل كوكوكل أو نجيبة حين تكتشفان أن
الضيوف هنا من أجلي. ظلّتُ نجيبة سعيدةً ومرتبكة منذ سماعها
خبر الزيارة. ذاقت قليلًا من تجربتي السابقة وكانت تتوقُّ إلى
تسليط الضوء عليها.

فتحتُ أنا البوابة لبيبي شيرين، والدّة صديق البستان، جاءت
بصحبة أختها، حبيتهما بأدب، أخشى التلعثم إن قلت شيئًا.

قدتهما إلى غرفة الجلوس وكوكوكل تدخل إليها من الرواق. تهلت أساريرها وفتحت ذراعيها ترحيباً بجارتينا، تبادلن الثلاث قبلات الرسمية على الوجنتين، وابتسمن بود، أشارت إليّ كوكوكل أن آتي بالشاي لضيفتينا.

لمحتُ بيبي شيرين خطفاً، أتساءلُ كيف سيبدو ابنُها وإن كان يشبهها حتى. ابتسمتُ لي عيناها البنيتان الرقيقتان فهذا توتر معدتي. كأن نظرتها رسالةً من صديق البستان.

كل شيءٍ سيكون على ما يرام، كان يُخبرني، وهي هنا لجعل الأمور صائبةً.

وضعتُ أطباقاً صغيرة من الزبيب الأصفر والصنوبر والفسق. عدت إلى الغرفة وبيبي شيرين تخبرُ كوكوكل بأنها يسعدها أن يكون لديها جيرانٌ ودودونٌ مثلنا.

«شكراً لك أيتها الجميلة» قالت لي وأنا أضعُ فنجانَي الشاي أمامها وأختها، تمنيتُ ألا تكون قد لاحظتِ اهتزازَ الفنجان في طبقه.

«تفضلي»، غمغمتُ قبل أن أخرجَ بسرعة وأعودَ إلى المطبخ، تساءلتُ عن قدر ما أخبرها به عني أو عن محادثاتنا.

استرقت السمع دون أن يلاحظني أحد، واصلتُ بيبي شيرين الإشادة بعائلتنا ثم بدأت التحدث عن عائلتها. قالت إن ابنها على وشك إنهاء دراسته الهندسة خلال أشهر قليلة وقد صار الآن في سنٍّ مناسبة لتأسيس أسرة.

«سيفدو رجلاً مستقلاً قريباً، إنه حلمٌ كل أم، نحن فخورون جداً بكل ما حققه».

«لَكُمْ هذا بالطبع، إنه يشبه أباه إذن، أغا وليد يحظى باحترام كبير، بلا شك».. قالت كوكوكل.

«بالطبع»، أضافت خالته: «لقد ظل المثل الأعلى لكل أخوته وأبناء أحواله، بمن فيهم ابني أنا».

«فهمت».

«كوكوكل جان، لقد جئنا إليك اليوم نيابةً عن ابني، جوهرة بيتنا وعائلتنا كلها، ليباركك الله. لقد منّ الله عليّ بابنٍ ذكي ومجتهد وعطوف وأريد أن أتأكد أنه سيحظى بزوجةٍ تسعده. لقد حان الوقت ليبدأ تأسيس أسرته. وكأم، بعد أن صار هو نفسه رجلاً، صار أهم ما يمكنني فعله أن أضع بجواره امرأةً صالحة. إن عائلتك محترمة، جديرة بالثقة، ليباركك الله، عائلة جميلة».

«هذا من ذوقك»، قالت كوكوكل وهي تعتدلُ في جلستها وتضم يديها معاً في حجرها بهدوء، تستمتع بإطراء بيبي شيرين.

«لذلك جئنا إليك لنتحدث معكِ بشأن ابنتكِ العزيزة»، واصلت بيبي شيرين.

«فهمتُ»، قالت كوكوكل، تبذل جهداً لتبدو مدهوشة ولو قليلاً.

حبستُ أنفاسي وأنا في الرواق، كانت نجيبة ما زالت في غرفتها، تتساءلُ متى ستطلب منها كوكوكل مقابلة الضيفتين.

«نحن نرى أن ابنتك الكبرى ستكون خياراً رائعاً لابننا».

«حسنًا»، قالت كوكوكل وهي تضع يداً على صدرها. «نحن يشرفنا أن نسمع هذا، لكننا لم نكن نفكر في تزويج ابنتنا، فما زالت صغيرة».

«صغيرة، نعم، لكنها في سن مناسبة تمامًا للتفكير في الزواج.
هذه أيام رائعة لنمو نبتة الحب، ألا توافقيني؟»
قالت أختها، حكيمة، تؤيد أختها:

«نعم، هذه سن رائعة لزوجين شابين ليتعارفاً ويبدأا ارتباطهما». «ظني أنهما سيكونان زوجين رائعين. لقد ظلت عائلتانا تتبادلان الاحترام كجيران لسنوات. وقد كبر أطفالنا وصارت مسؤوليتنا، كأمهات، أن نفكر في مستقبلهم». «سمعتُ صلصلة فناجين الشاي فيما تفكر المرأتان في ما تقولانه بعد هذا.

«هذا أمر علينا التفكير فيه ملياً. أنا لا أتخيلُ حتى، تزويج ابنتي، نحن أيضاً تُشرفنا جيرتكم... في الوقت الحالي، ليس لدي شيء لقوله، كأم، أنا واثقة من أنكما تفهمان». «بالطبع، كوكوكل عزيزتي، نحن هنا لفتح الموضوع فحسب، وأريدك أن تعرفي أن اهتمامنا صادق، أنا أعني كل ما قلته، أعرفُ أن على عائلتك التفكير في الأمر ملياً، لكنني متأكدة أيضاً من رغبتك في أفضل شيء لابنتك وأنا أمل أن تجدي ابني زوجاً مناسباً لابنتك العزيزة، نجيبة جان».

نجيبة؟

كتمتُ الصرخةَ في حلقي.

«إن نجيبة ابنتي الغالية، طالبةٌ رائعة وأختٌ عطوف، لقد دعوتُ لها، كما دعوتُ لبناتي جميعاً، أن يرزقهن الله بأزواجٍ صالحين، شركاء حياةٍ يقدرونهن ويقدررون عائلتهن». «أنتِ أم حنون كوكوكل، إن أطفالك محظوظون بك وبأغا صاحب أبوين لهم».

المرأتان تريدان نجيبة، وليس أنا!

فريبا

10

كانت كوكوكل محقةً. جيراننا يريدون أختي نجيبة. حين غادرتنا عدتُ إلى غرفتي، وجدتي نجيبة جالسة على الأرض بقميصي الداخلي فقط. قطع القماش الممزق في حجري، عند قدمي، خلفي؛ مزقتُ ثوبي الفضفاض لآلاف القطع. أخذتُ أختي المقص من يدي ونادت كوكوكل. جاءت كوكوكل وألقت نظرةً متشككة إلى المشهد، تنسج نظرياتها الخاصة عن ما حدا بي إلى تلك النوبة. «خذي المقص ودعيها وشأنها، لا أعرف معنى هذا، فريبا، لا مجال في هذا البيت للجنون أو التخريب».

بدت نجيبة قلقة عليّ. انتظرتُ أن تتركاني، سمعتُ كوكوكل تهمس لنجيبة في الرواق:

«كان لديها خاطبٌ وانظري ماذا حدث له. إن الفيرة تَأْكُلُ الروح كالخل في الحليب. تعرف بيبي شيرين قصة فريبا كما يعرفها جيراننا جميعاً. يريد الناس زوجات محترمات لأبنائهم. إنها ابنة أبيك ولا أقصد إساءةً بقولي هذا لكن الناس يرونها يتيمة، فتاة بلا عائلة، لقد فقدتُ فرصتها الوحيدة للزواج بابن عائلة محترمة».

«لكنها من عائلة، مادر جان»، همستُ نجيبة تعارضها بهدوء.

«الأمر ليس بالمثل عزيزتي»، قالت كوكوكل وطرقعت بلسانها. «لقد حاولتُ إشعارها بأنها ابنتي مثلك ومثل أخواتك لكنها نأت بنفسها بعيداً، إنها تفضّل القيام بأعمال البيت عن الجلوس معنا». ظلّت كوكوكل طوال حياتي تمنحني بالكاد ما يجعلني أظن أن قولها هذا قد يكون حقيقياً. مرت أيام احتضنتني فيها كما تحتضنُ أخواتي، مسّدت شعري كأنني ابنتها، مرت أيام جلسنا فيها معاً نقوم بأعمال المنزل ونضحكُ على شيء ما فعلته مورية. مر ما يكفي من تلك اللحظات التي تساءلت فيها إن كنت أنا من خلقت المسافة بيني وبين أسرتي.

كنت أعرف أن حبيبي لا بدّ محطم، تساءلتُ إن كان قد علم بما فعلته والدته حتى. لم يكن غريباً أن تتخذ الأمهاتُ قراراتٍ نيابة عن الأبناء الطائشين، الفتيان يفكرون في اليوم فحسب، الأمهات يفكرن في المستقبل، لكن حبيبي ليس مجرد فتى، كان فيلسوفاً، كان صديقي المقرب، كاتم أسراري، سنقاتلُ لنكون معاً، كان عليّ توقُّع هذا.

لقد قضت بيبي شيرين على نبتة حينا. محت فرصتي في أن يعوّضني العالم عن حرمانني من حبّ الأم والأب ومن طفولة طبيعية كطفولة أخواتي. ابتسمتُ لي برزانة، تركتني أتقدم نحوها ثم سحبت العالم من تحت قدمي. سقطتُ بمشاعر المراهقة المتأججة بعمق في حب شابٍ لم أره من قبل قط.

جلستُ في ظلّ شجرة التوتِ لأيام لكنه لم يأت. كنت أجلس هناك لساعاتٍ، تتطبع نتوءاتُ اللحاء في ظهري، دليل إخلاصي. عادتُ بيبي شيرين إلى بيتنا في زيارة ثانية وثالثة. كانت مُثابرة

ومستعجلة، تريد موافقةً كوكوكل على خطبة نجيبة سريعاً. عرفتُ من استعجالها أن حبيبي لا يدري شيئاً عما تفعله. لا بد أنها سمعتُ بما يُقال عني وكانت تأمل أن تُجنّب ابنها الزواج بعانس كابل المشؤومة، ابنة الجيران اليتيمة الخادمة.

عاملتني نجيبة بحرصٍ شديد، في لحظاتي الأكثر هدوءاً، كنت أشفق عليها، أفسدَ حقدِي عليها فرحتها بخطبتها. كنت أتحدثُ بكلماتٍ قليلة ولا ابتسم كثيراً. كنت مشغولةً بالتفكير في طريقة للتواصل مع حبيبي دون المخاطرة بكشف سرّنا.

على ضوء مصباح في المساء، كتبتُ قصيدة رابعة البلخي التي كتبتها بدمائها على ورقة. لفتت الورقة وتسللت من غرفتي عند حلول الظلام، اندفعتُ مارةً بأشجار الكرز، تحت كرم العنب ثم إلى مكاني تحت أشجار التوت بجوار الجدار، توقفتُ، لم أسمع سوى نقيق ضفدع بعيد، فألقيتُ بالورقة الملفوفة أعلى الجدار على أمل أن يجدها حبيبي السري ويعرف أن إخلاصي لا شك فيه رغم أنف من يريدون تفريقنا.

حلمت أنني وجدتُ الورقة على جانبي من الجدار. تخيلتُ الطرق شتى التي يمكنه مراسلتي بها، ظللتُ أحلم حتى وكوكوكل تستخدمُ التول الذهبي والصينية الفضية التي كانت تحتفظ بهما في أدراجها لإعداد شيرنيه نجيبة. ظللتُ أحلمُ حتى وهي تضع الشيرنيه أمام بيبي شيرين المبتهجة في غرفة جلوسنا المتواضعة، ونجيبة تدخلُ الغرفة وأخواتي يراقبنها وهنَّ في غاية الفرح. بدت جادةً وظلت تنظرُ في الأرض وبيبي شيرين تقبل خديها وتحتضنها بشدة. قبلت نجيبة يد حماتها.

كيف لا أحدق إلى خطيب أختي؟ كيف لا أنظر ببله إلى من خدعني وجعلني أظن أنني أعني له شيئاً؟ كان وسيماً بالفعل، ما زاد الأمر سوءاً. شعره كستنائي ناعم، عينان شاعريتان. بدا واثقاً من نفسه في بذلته البنية بسترته الواسعة، لكن ليس بشكلٍ مبالغ فيه. جالت عيناه في الغرفة، تتحرك بين الضيوف والأقارب بما يكفي لإدراك وجودهم فحسب. لم ينظر ولو مرة واحدة سواء إلي أو إلى نجيبة، وأنا على يقين من هذا لأنني جعلتُ مراقبته مهمّتي. ثم أبدعتُ في تفسير هذه الملحوظة.

أخيراً، لم يعد من جدار يفصل بيننا، كان هذا ما أردناه، أليس كذلك؟ قبل يد أبي ويد كوكوكل. عانقه أبي عناقاً صادقاً. عاد إلى جانب أمه، ثم رفع بصره ومنح عروسه ابتسامة خجلى. راقبتُ كل شيء. كنت أجول في الغرفة أقدم قطع شوكولاتة بأغلفة ملونة للضيوف القليلين، أخت بيبي شيرين، زوج بيبي شيرين، عماتي وأعمامي.

كانت كوكوكل قلقةً من سلوكي الغريب فطلبتُ من سلطانة أن تقدم هي الشاي للضيوف، قد تكون محقةً في عدم ثقها بي. «نجيبة»، قالت بيبي شيرين بدموع الفرح. «من الآن فصاعداً، أنتِ ابنتي، صار لديك والدتان حبيبتي، نحنُ سعداء بكِ جداً!» حبيبتي؟ احمرّ وجهي للتفكير في محادثتنا السرية، أحسست بتفاهتي وحمّاقتي. ربما يكون قد رأى رسالتي وهزّ رأسه لحمّاقتي، ربما ضحك لأنه ترك الأمر بيننا يصل إلى هذا الحد، أو شعر بالحرج حتى لأنه فكّر فيّ من قبل، الأخت اليتيمة غير الشقيقة، زوجة له.

أردتُ أن أركضَ خارجَ الغرفة، أن أمزّقَ قماشَ التول وأصنع ذلك المشهد ليسمَعَنِي أحدهم أخيراً، أردتُ أن أصب ألمي على الجدران.

حدقتُ أمامي مشدوّهة، أدركُ ببطء أن كوكوكل مُحقّقة. لقد أفسدتِ الغيرةُ حَبِّي لأختي، لقد كانت لحظةَ سعادتها، خطبتها لشابٍ وسيمٍ من عائلةٍ طيبةٍ ولا يمكنني مشاركتها في فرحها بسبب أفكارِ سوداءٍ تعصف بذهني.

ترددتُ فكرةً واحدةً بصوتٍ أعلى من كلِّ الأفكار الأخرى: نجيبة الآن لديها والدتان وأنا بلا شيء.

فريباً

11

كان اسمه حميد، صار بإمكانني الآن لفظُ اسمه دون أن يحمرَّ وجهي خجلاً إذ لم يعد لي. سررتُ إلى حد ما أنني لم أنطق اسمه من قبل. ليس بالنسبة إليّ سوى مزيج عادي من الأصوات. كذلك لم يؤثر فيّ وجهه أيضاً، ليس لديّ ذكرى لعينيه ولم أرَ يديه قطّ. كان غريباً عني، بطرق كثيرة جداً.

أريجُ البستان، وقّعُ صوته، صوت اقترابِ خطواته، كان هذا ما يثير في قلبي الألم والغضب معاً. لن أكون عمياء هكذا مجدداً أبداً.

قضى المخطوبان حديثاً وقتاً معاً، سارا في الحيّ أمام الآخرين بابتساماتٍ خجلى ومحادثاتٍ هادئة. كان وجهه نجيباً يحمرُّ حين تعودُ إلى البيت، أعرفُ لماذا كان بإمكانني إخبارها بمحادثاتنا الخاصة والوعود الفارغة التي قطعها لي خطيبها لكنني فضّلت الصمت، لأن هذا ما يفعله النبلاء، هكذا قلتُ لنفسي.

ظللتُ لأسابيعٍ أشاهد المخطوبين يخرجان ويعودان. شعَّ وجهه كوكوكل سروراً وانشغلتُ تماماً بترتيباتِ الزفاف. صارت تقضي فتراتٍ ظهيرةٍ كثيرة مع بيبي شيرين. كانت كلُّ منهما مأخوذةً بالأخرى بقدر ما كان المخطوبان نفسيهما. احتفظت بمشاعري لنفسي بعد ذلك اليوم، تسامحتُ كوكوكل مع سلوكي بعد الخطوبة،

لم تهتم بالاستفسارِ عن شيء. لم تذكر شيئاً لأبي عن الثوب الذي مزقته.

قابلتُ حميدَ مصادفةً في الفناء ذات مرة، كان ينتظرُ نجيبه التي عادت إلى المنزل سريعاً لإحضار وشاح. كنا في الخريف حيث هواءُ الليل البارد يستمرُّ حتى الصباح الباكر. اصطفق البابُ ينطلق خلفي، استدار حميد، فتبخرتِ ابتسامته الصبيانية حين رأيته. لاحظتُ التوتر في ساقيه ويديه. أراد الهرب بكيانه كله، فجأةً بدا فناؤنا كقفصٍ صغير، بدا كأن وجهينا على بُعد بوصات.

غمغمَ بتحيةٍ ما ونظر جانباً، يدها مختبئتان في جيبيَّه وباقي جسده كله يتمنى أن يتبعهما.

ترددتُ قليلاً، أردتُ أن أنسحبَ بسلةَ الملابس المبللة لتي أحملها وأعودَ إلى البيت لكنَّ تعبيرات وجهه منحتني الشجاعة. نظر بعيداً بخجل، وضم كفيه معاً كأنه يحاولُ طي نفسه نصفين. «سلام».. قلت بصوتٍ عالٍ ووضوح. فاجأني صوتي. طرفَ حميد بعينيه.

مررتُ به ببطء، واعية لكلِّ نفسٍ من أنفاسي وأحصي الخطوات بيننا بدقة. سرتُ إلى ركن من الفناء، ما زلت في مجال نظره، بدأتُ أعلقُ الملابس المبللة على حبل الغسيل. أعصر كلَّ قطعة جيداً قبل نشرها. سيستغرقُ الأمر ساعاتٍ ليجمفَ أيُّ منها في هذا الهواء البارد.

لمحتُه بطرفٍ عيني يتململ.

أردتُ أن أكرهه.

«فريباً...» قال بصوت لا يعلو عن همس.

كان ظهري له، أغمضتُ عيني. سقطت قطرتا ماءٍ من قميص أبي المبلل وحطّتا على أصابع قدمي.

«هذه الأمور شؤون عائلية، لم يكن بيدي شيءٌ حقاً»..

سمعته. مكتبة .. سرٌّ من قرأ

«والآن أنا أريدُ لكِ السعادة فقط، من أجل عائلتي، دعينا ننسى الأمر كله».

كانت نبرته حاسمة، امتزج شعوري بالعار بشعوري بالمهانة.
«ننسى ماذا؟» قلتُ فجأة.

«أتريدين أن يكون الأمر هكذا حقاً؟ أنتِ تعرفين أنني لم أقصد الإساءة إليكِ بأي طريقة».

«أنا لا أعرفُ أيَّ شيءٍ عنك. ونجيبه تعرفُ أقل حتى».

تأفّف بإحباط. استدرتُ وواجهتُ عينيه المضيّقتين.

قال من بين أسنانه: «أنتِ تعرفين أنكِ من ستواجهين المشكلات لو قلتِ أي شيء».

«لو قلتُ أي شيء؟ أهذا ما يُقلقك؟ أنا لا أنوي إفسادَ يوم أختي»، قلتُ، نصف صادقة. «لكنني أشفقُ عليها لارتباطها بشاب يتظاهرُ بتعليق قلبه من الأشجار ويدنسُ الشَّعر الذي يردده بأفعاله».

«أنتِ لا تعرفين عن ماذا تتحدثين».

«لا أعرفُ ماذا؟»

نظر خلفه سريعاً واقتربَ نحوي خطوتين.

«لقد قلت لأمي أن تطلب يد الابنة الكبرى لجيراننا، لا تظني أنني لم أفاجأ حين عادتُ بعد أن خطبتُ لي نجيبة. كان أي شيء سأقوله بخصوص هذا الأمر سيجلبُ العار على عائلتنا».

حدقتُ إليه مشدوهة، توجد حقائق وأكاذيبُ ويوجد شيءٌ ما بينهما، مياةٌ عكرة يتشوش فيها الضوء وينكسر. لا أعرف وجهه جيدًا لأحدد إن كان يعني ما يقوله، لا يمكنني قراءة حركات شفتيه ولا الظلال خلف عينيه. أكان يريدني أن أفهم؟ أن أصدقَه؟ وإن كنت صدقته، فهل كان سيفيّر هذا بقية قصتنا؟

عادت نجيبةٌ بوشاحِ سلطانة مربوطًا حول عنقها. انفرجتُ أساريها بابتسامة. لم تعد الفتاة الخجولة التي تنظر إلى الأرض. غدت تألفُ وجوده ويمكنها السيرُ إلى جانبه بلا خجل، كنتُ أرى السعادة في وجهها.

لم نتحدثُ أنا وحميد عن ماضينا الموجز مرة أخرى قط. لن أعرفَ أبدًا إن كان قد شعرَ نحوي بأي شيء أكثر من اهتمامٍ مسلٍّ حقًا أم أنه تورّط في زواج لم يردّه. علق بيننا الحرج من أيامنا في البستان فكنا نادرًا ما ندعُ أعيننا تلتقي. لم تشعرُ نجيبة بالظلم بيننا، إن كانت قد شعرت فلم تقل شيئًا بشأنه، كنتُ سأفعل مثلها لو كنتُ مكانها.

في الأيام التي تلت الزفاف، تلقّت كوكوكل زيارةً أخرى من بيبي شيرين وأختها خانوم زيبا هذه المرة، التي جاءت بحثًا عن عروس.

جاءت خانوم زيبا تطلبُ يدي.

ضحكت كوكوكل. أعرفُ زوجة أبي جيداً فلم يُزعجني ضحكها،
لم أكن مستعدة للزواج ليس لأنني كنتُ صغيرة بل لجرح في
قلبي، رأيت وهم الحب لكنني لم أرَ الحبَّ الحقيقي، فلم أكن
لأومن بوجوده.

كانت خانوم زيبا أكثر النساء عطفاً، تخيلت أن أمي كانت
ستحبها، سمعتها وعيني على الزخارف الصغيرة لسجادة غرفة
جلوسنا تقول عني أشياء لم يقلها عني أحد.
«إنها كل ما أريده لابني، عرفت أنها ستكون من عائلتنا ما إن
رأيتها».

كان عليّ أن أنظر إليها. شجعتني كلماتها على رفع عيني
ومقابلة عينيها. تغضن الجلد حول عينيها البنيتين الصريحتين
وهي تتحدثُ بهدوءٍ إلى كوكوكل التي كان فضولها يأكلها لتعرف
لماذا اختارتني.

«حلمت ذات مرة.. منذ سنوات.. بيوم زفاف ابني، حين
استيقظت تذكرت الحلم بحذافيره كأنني كنتُ في الحفل الليلة
الماضية بالفعل، بما في ذلك وجه العروس حين رفعنا الطرحة
الخضراء قبل عقد الزواج، حين جئت إلى بيتكم وقابلت فريبا،
عرفتها».

قالت كوكوكل: «من حسن حظ ابنك أنك لم تحلمي بابنة
الخباز، ببشرتها الداكنة كالخبز الذي يحرقه».
وارت النساء ابتساماتهن بأيديهن، مع ذلك لم يؤثر تعليقها في
حماتي المستقبلية.

إن ابنتك فتاةٌ مميزة، تستحقُّ حياةً مملوءةً بالخير والدفء مثل قلبها.

كانت كلماتها قمرًا متوهجًا يقتربُ من الأرض في سواد الليل. ذهلت كوكوكل وطلبت مني الخروجَ من الغرفة، لكن خانوم زيبا سارت إليّ ووضعتُ يدها على يدي لتطمئنني. أردتُ أن أصدق.

شهدتُ خلال حياتي في أفغانستان تغييراتٍ كثيرة في النظام، بدأت بوفاة أمي وزواج أبي بأخرى. كانت بعضُ التغييراتِ أصعبَ في تقبلها من الأخرى.

صرت أدعو خانوم زيبا «خالَة زيبا» ما إن وضعت كوكوكل شيرنيهي أمامها لإعلان الموافقة على طلبها يدي للزواج. ما كنت قد رأيتُ ابنها محمود من قبل. بطريقةٍ ما، كنتُ قد سقطت في حبِّ خانوم زيبا نفسها، ففدا ابنها مجردَ امتدادٍ لها.

حين أخبرتها بأنني أريدُ أن أكون معلّمة، أصرّت على أن أسعى لهذا بالفعل، كانت هي أيضاً معلّمة. سجلتُ في برنامج إعداد معلمين وشققتُ طريقي الدراسي بدعم من عائلةٍ كنت بالكاد جزءاً منها. كان أبي وكوكوكل سعيدين برؤيتي أدرس.

«دراسة، دراسة، دراسة. سيهديكِ زوجك الطباشير والكراسات ما لم توضّحي له حبكِ لأشياءٍ أخرى غير الدراسة».. قالت كوكوكل تغيظني.

تزوجنا أنا ومحمود عام 1979. بعد عام من خطوبتنا وضع أول الجنودِ السوفيت، ذوي الوجوه الطفولية، حذاءه الثقيل ذا الرقبة العالية على أرض أفغانستان. بعد أن حصلتُ على شهادة التدريس بدرجة عالية، كنتُ أستيقظُ يومياً بطاقةٍ متجددة لعملي

على رأس فصل في مدرسة إعدادية. كان الطلبة متحمسين كطيور فقسّت حديثاً في عشّها ولم تتعلم الطيران بعد. كانت مهمتي أنا تغذية عقولهم المتفتحة، وتعليمهم الكلمات والأرقام والأفكار التي تجعلهم يبسطون أجنحتهم.

بعد شهرين فقط من زفافنا، تلقى محمود أبناءً بأن أسرة عمّه. بما في ذلك أربعة أطفال لقوا حتفهم في قصف الصواريخ السوفيتية على وادي بنجشير. قضينا الأشهر القليلة اللاحقة كزوجين حديثين في حداد. حين جاء الزوار لتقديم التعازي لعائلة المرحوم، سمعتُ عمّات محمود وأبناء عمومته يطرقعون بألسنتهم لمفارقة وجود عروس جديدة في العزاء.

«كما حذرونا تماماً، همسوا قائلين، إنها شؤم... وهي الآن بيننا، لقد حذرتنا أسرتها نفسها...»

وصلتُ الشائعات، تجاهلتها خالة زيبا حماتي، لم تقل شيئاً حين قرر محمود آسفاً أن ينأى بنفسه عن العائلة ونميتها، كان يريدُ حمايتي من نظرات الأقارب المتطيرين الذين يُعدون أطفالهم عني خوفاً عليهم.

كان يحذرني قائلاً: «النساء الحمقاواتُ خطر، الأفضل لك أن تبقي مع زميلاتك، النساء اللواتي يشغلن أنفسهن ببيوتهن وعملهن مثلك، لا تأبهي بالضجيج في قنّ الدجاج».

شعرتُ بالراحة والدهشة لأن زوجي يرفضُ هذا التشنيع، انبسطت كتفائي تتفردان لسماعه يدافع عني، خصوصاً أمام عائلته، ذكرني هو وخالة زيبا بجدي حين كان يحميني من كلمات كوكوكل الجارحة. جعل محمود الأرض تتوقف عن الاهتزاز تحت قدمي، بأخلاقه وحبّه الصامد، منحني مساحة وسبباً لأحبه.

شغلتُ نفسي كما اقترحَ عليّ. أقضي فترةَ ظهيرة مع معلّمةٍ زميلة، وأغرق نفسي في عملي. كنت أتوقّع الكثير من تلميذاتي وكنّ بدورهن يجتهدن. أعرف أنني لستُ صارمةً كالمعلّمات الأخريات لكنني أراهنُ على حب تلميذاتي لي كما كنّ هن يُراهنُ على حبيّ لهن.

كنت أهتمُّ بملابسي وأبذلُ قصارى جهدي لأبدو ذكية. في بيت أبي كنتُ أرتدي ملابس فتاة؛ بنطالَ جينز، تنانيرَ طويلة وتيشيرتات برقبة. في بيتي الجديد، بتُّ أرتدي ملابس امرأة؛ تنانير ضيقة، بلوزات بطيّات كثيرة، أحذية بكعب عالٍ، ودائمًا حقيبة يد. مع محمود، كان لديّ ميزانية أسرتنا معًا، وكنت حرةً في إنفاق راتبي الخاص كما شئت، لم أكن مسرقةً، بل أنيقة بما يكفي لجعل زوجي يشعر بالفخر في أثناء مغادرة البيت لحضور حفلٍ عائلي أو لزيارة أقارب. كان ينظر إليّ كأنني أنا أيضًا أمنحة مسأحة وسببًا ليحبنى.

كان رومانسيًا. سافر ذات مرةٍ داخل البلاد، غاب أسبوعين وعاد بأربعة عشر خطابًا كتبها لي، رُزمة سميكة من أفكاره عن لقائنا الأول، مستقبل وظيفته وفيلمه الهندي المفضل.

«سيؤلمك رأسك يا فيري، إن كان لديّ كل هذا مكتوبًا، فتخيّلي كم ما لدي لأتحدث عنه!»

على الأقل كان لديّ كلُّ منا الآخر ليبتسم له في تلك الأيام. كانت أفغانستان تعاني خسائرَ فادحةً في خضمّ الحرب بين السوفيت والمجاهدين، مقاتلو أفغانستان من أجل الحرية. دفنتُ كثيرًا من الأمهات أبناءهن. سار المزيد من الأطفال يعرجون إلى

مدارسهم، بعد بتر أطرافهم جزاء متفجراتٍ متتكرة في هيئة
دُمى أو سياراتٍ لعبية.

كنا نستمعُ للأخبار معًا ونحنُ جالسان على الأريكة، ذراعه
حول كتفيّ أو ظهري مائل على صدره. يهز رأسه غضبًا لنزوح
الأفغان من الأقاليم الغارقة في الدم لاجئين إلى العاصمة.

عشنا في هناء كزوجين ستّ سنوات، حزينان بهدوءٍ لأن بطني
لم تنتفخ بطفل، لم نتحدث عن الأمر بشكلٍ مباشر لكنني حين
ذكرتُ رغبتني في أن أكون أمًا وافق على أن أرى طبيبة. ذهبتُ
إلى أفضل الطبيبات في كابول وتناولت الحبوب التي وصفتها
لي بثقة، ابتلعت أسوأ مناقيع الأعشاب التي أعدتها نساءً عجائز
يجلسن على الطريق. شهرًا بعد آخر، ظلت دورتي تعاودني، حتى
شعرتُ أخيرًا بانقباض، ذات صباح وأنا أرتدي ملابسني للذهاب
إلى المدرسة، فأخبرتُ محمود وأنا أجهش بالبكاء أنه لن يعاني
من الحرمان من الأطفال بسبب رحمي القاحل. عانقني بقوة ورقّة
لم أتخيّل أن أحدًا غير أمي قد يعانقني بهما، وهمسَ في أذني ألا
أقول ذلك مجددًا أبدًا. تعلمتُ شيئًا مهمًا جدًا ذاك اليوم.
الحبّ ينمو بقوةٍ في حدائق الضراء.

جاء سليم بعد ذلك بوقتٍ قصير. أخبارٌ سعيدة أعادت شعله
النميمة للتوهج. كانوا في السنوات التي لم نرزق فيها بأطفالٍ
يقولون انظروا إلى حالهما. سرعان ما تحوّل هذا إلى همساتٍ
عن لجوئي إلى السحر الأسود لإزالة لعنتي. على الجانب الآخر،
هنأتني صديقاتي المُعلّمات وفرحنَ معي، رغم معاناة أغلب
العائلات في كابول في تلك الأوقات العصيبة، جمعن معًا ما

أمكنهن ليُحضرنَ بعض الهدايا للمولود، سترات مغيطة باليد، صغيرة إلى حد لا يمكن تصديقه، بطاطين مخملية وطبق بسكوت بماء الورد. احتفلتُ خالة زيبا معنا، أعدت لنا أفضل الأطعمة واعتنت بحفيدها حتى استرددتُ صحتي بعد ولادة عسيرة.

حين ذهبنا لزيارة عائلتي، لاحظتُ تغيراً في كوكوكل. كانت تعاملني كأنني ابنة عمٍّ جاءت من مدينة أخرى. لا تعرف كيف تعاملني الآن إذ لم أعد مُلكها لتلمزني بلسانها الحاد. كانت نجيبة قد غادرت البيت وكذلك شقيقي أسد، وازداد أبي عزلة أكثر حتى بعد مغادرتي البيت. كانت كوكوكل وحيدة دون جمهورها.

بدا ظاهرياً أنها مالت إلي أخيراً لكنني شعرتُ بفتورها. كنت أزورهم دائماً لأرى أخواتي الصغيرات لكنّها حافظت على مسافةٍ بيني وبينها.

حين بلغ سليم أربع سنوات، عام 1989، كانت آخرُ كتائب السوفيت قد انسحبت. دعونا الله أن يمنحنا بعض الهدوء. لكن لم يكن مقدراً لنا الهدوء. كانت الأمور في كابول تزداد سوءاً حين جمدتي ومحمود الدهشة لتلقينا معجزة ثانية. سمّيناها سميرة. بابن وابنة بتنا في أمس الحاجة إلى عودة السلام إلى أفغانستان.

كانت الصواريخُ تنهمر على مدينتنا فيما تستولي الفصائل المتاحرة على العاصمة.

كان سليم يتوق إلى حياةٍ عادية، طلب مني ذات يوم أن يقضي فترة ظهيرة في بيت صديقه على الجانب الآخر من المدينة. فرفضتُ السماح له بذلك.

لكن لماذا لا مادر جان؟ سأل شاكياً، قاسم صديقي المفضل
وسوف أعود قبل العشاء.

قلت لا، سليم جان. لقد تحدثت وأبوك عن هذا الأمر بالفعل.
المنطقة كلها تجذب الصورا يخ كالمغناطيس.

جعلتُ صوتي صارماً ما أمكنني بما لا يدع مجالاً للنقاش، لم
أكن أحب منعه من اللعب مثلما اعتاد الفتية اللعب عندما كنت
في سنّه، لكننا عشنا أزماناً مختلفة. ظلّ واجماً بقية الظهيرة ثم
أوى إلى النوم دون أن يتناول عشاءه، عقاباً لنا نحن الاثنان.

في الصباح جاء جارُّنا رحيم ليدر دش قليلاً مع محمود. دمّر
القصف الصاروخي بيوتاً عدة ليلاً، ولقيَ طفلان على الأقل
حتفهما. استمعت وأنا أعد الخبز والشاي للإفطار، حين انتهينا
من تناوله جلستُ أقرأ القرآن، كيف بغيره يمكنني حمايتنا؟

عرفَ سليم من المدرسة ما عرفته فيما بعد من إحدى
صديقاتي، نجا صديقه قاسم من قصف صاروخي لكنّ أخته
ابنة الثلاث سنوات لقيت حتفها، اختنقت تحت الأنقاض وعائلتها
تحاولُ سحبها. لم يقل شيئاً لي ولم يكن لديّ شيء لأقوله له.
كان ذلك خطأ، أفكر الآن. أن ظننت أن الصمت يمكنه حمايتنا من
الحقيقة الرهيبة.

أصرّ النظام الجديد، طالبان، على ارتداء النساء الحجاب
وإطلاق الرجال لُحاهم كما تنص الشريعة الإسلامية. كانوا كل
يوم يصدرون باقة جديدة من القرارات وينفّذون عقوبات خفيفةً
على من يخرقها. لم يعد مسموحاً لي بالتدريس، لأنني امرأة،
كذلك لم يعد مسموحاً للفتيات بالذهاب إلى المدرسة.

أخافتي هذا وآلمني. انفجرتُ سنواتٍ حزني وحرمانني من المدرسة لتصبح قصة جميع الفتيات الآن. ماذا لو طعنك أحدهم في جرح قديم؟ كنتُ أغتمُّ حين أفكر في الفصول الدراسية الكثيرة الخالية.

كانوا متشددين ومسلّحين. كنا نراهم من نوافذنا ونسمعُ خطبهم. ورغم وحشيتهم وجهلهم، كان بعض جيراننا يؤيدُ صعودهم لوضع حد للقتال. كنا جميعاً في أمسّ الحاجة إلى السلام، الذي وعدوا به.

دخل سليم المدرسة الابتدائية، جلستُ في غرفة جلوس مع مجموعة من المعلمات العاطلات عن العمل، نرتشفُ أكواب الشاي الخفيف. كنتُ ومحمود نقضي الليالي نتحدّث، نأملُ ألاّ يسمعَ طفلانا همسنا القلق. كان الأعمام والعماتُ يأتون لتوديعنا بالأحضان والقبلات الدامعة قبل أن يتركوا أفغانستان. يسألنا سليم إلى أين هم ذاهبون ويُدهش حين يسمعُ قائمة البلدان؛ باكستان، هنغاريا، ألمانيا.

سقطتُ خالة زيبا وهي في السوق ذات يوم، حين بلّغنا الخبرُ ركضتُ أنا ومحمود إليها، كانت فاقدة الوعي، أخبرنا الطبيبُ في المستشفى بأنها أزمةٌ قلبية وأنه ليس بيدنا فعلُ شيء لها، ستتعاوى إن استطاعت. أعدناها إلى البيت وظللتُ بجانبها ثلاثة أيام، أمسّد جبينها بقطع قماشٍ مبللةٍ بماء بارد، وأطعمها الحساء. دعونا الله أنا ومحمود، سبّحنا بمسبّحتها. تحدثتُ إليها حتى وإن لم تُجبني. كان زوجي يدْرعُ الخُطى في الغرفة ويقبلُ يديها، يعاني من شعوره بالعجز، لكن لم يكن ثمة شيء لفعله. غادرت حماتي هذه الحياة برقةٍ كما عاشتُ.

كان يجبُ أن أنهارَ حينها لكنّ ذلك لم يحدث. فقدتُ الأم التي وجدتها لتوي، أول امرأةٍ عاملتني كابنةٍ حقًا. افتقدتُ حديثي معها. هي من علّمتني كيف ألفُ سليمَ جيدًا وأخففُ من مغمسه. هي من اعتنتَ به حين ثقل حملي بسميرة تمامًا، وطهتُ له الأرز بالبازلاء. كان النظرُ إلى أطفالي دون التفكير فيها صعبًا. بحثتُ عن طريقةٍ لألهي نفسي.

ظللتُ لأشهر قليلةٍ أعلمُ فتياتِ الحي في فصلِ دراسي مُرتجل في بيتي. لكن حين أعدمتُ طالبان ثلاثة أشخاص خلال أسبوع واحد لإدارتهم مدارس سرية، حتى جيراننا منعوا فتياتهم من الخروج من البيت. صار بيتنا خانقًا وقاتمًا بعدما كان ذات يوم مُشرقًا ومرحًا. كان محمود حزينًا وصامتًا، أطلق لحيته على مضض كما فُرض عليه، على الأقل هدأت الانفجارات مع هذا النظام الجديد.

وجد سليم وسميرة طرقًا ليلعبا ويضحكا في البيت، كنت أكاد أصدّق أن حياتنا طبيعيةٌ وأنا أستمعُ إليهما من الغرفة المجاورة. كان سليم في الصف السابع حين ألقى نظام طالبان القبض على عددٍ من الأوروبيين لالتقاط صورٍ لمُستشفى نساءٍ في كابول. لذت أنا ومحمود بالصمتِ حين سألنا سليم عن الأمر.

ترى طالبان أنه ليس من قواعد الإسلام التقاط صورٍ فوتوغرافيةٍ للنساء، أخبره محمود، لم يمكننا المخاطرة به يردد أي شيء أكثر من هذا بين أصدقائه في الفصل.

لو كنت أوروبيةً لم أكن لأترك وطني لأتي إلى كابول قط. ليس في تلك الأيام. كنت سأبقى في بولندا أو إنجلترا أو إيطاليا حيث

لا توجد صورايخ في الأعلى، وحيث يوجد اللحم والخضروات بوفرة، وحيث لا تخاف النساء الخروج من بيوتهن، لماذا قد أترك الفردوس لآتي إلى كابول؟

في العام التالي، مُنعت أجهزة التلفاز والفيديو. الموسيقى حرام. كان محمود يتقد غضباً لكنه لم يجرؤ على الحديث بصوت عالٍ عن تدمير مجتمعنا سوى في نطاق دائرة أصدقائه المقربين فقط. ظل يعمل في وزارة المياه والكهرباء مهندساً ميكانيكياً. كانت مهمته الأساسية التركيز على توصيل المياه الصالحة للشرب والطاقة الكهربائية إلى المناطق النائية في كابول لكنها تغيرت في ظل القرارات الجديدة، كان كل يوم جديد يحمل لنا ممنوعات جديدة وتحذيرات طالبان عما يجوز وما لا يجوز بناؤه في كابول.

«إلى متى سنظل بلا تقدم أو بناء؟ هذا البلد يعود إلى الخلف في الزمن». كان قد تغير كثيراً، انحنى كتفاه كأنهما تحملان عبء العالم. كان المحارة ذات اللحية التي تخفي نفسه السابقة. تساءلت إن كنت سأرى الرجل الطويل الفخور الذي يمكنه رفع طفليه في الهواء حتى يدوخا من الضحك مجدداً.

عام 1997، سيكون على سميرة أن تجمع أقلامها الرصاص بحماسة وتردد الأبجدية وحدها استعداداً للذهاب إلى المدرسة. لم نستطع إفهامها لماذا لا يمكنها الذهاب إلى المدرسة مثل أخيها. قلت لها إن هذا لا يهمهم وركزت كل طاقتي في تعليمها المناهج الرسمية في البيت. شعرت بالراحة لعودتي إلى التدريس مجدداً ولمواجهتي النظام بطريقتي الخاصة.

عام 1999، رغم كل شيء، بدأت بطني تنتفخ مرة أخرى، كان لنا أن نبتهج لذلك لكنني شعرتُ بالاختناق، كنت أحبس دموعي كلما تحدثتُ أنا ومحمود عن مستقبلنا.

«والآن سنأتي بطفلٍ آخرٍ إلى كابول هذه؟ كابول التي لم نعد نعرفها؟ لماذا؟ إن كان ولدًا سيكبرُ دون أن يعرف شيئاً سوى اللحي والخوف. ولا قدرُ الله أن تكون فتاةً تيسة الحظ! لا أظن أن بإمكانني تحمّل هذا، أشعر بالعار أمام سميرة بالفعل، خوفي من عَصِي هؤلاء الطفلة ذوي العمامات الذين حرّموني من عملي وصديقاتي وحرّيتي في الحركة! كيف سيكون مستقبل ابنتي؟»
كان محمود يشعر بالهزيمة مثلي تمامًا.

«معك حق فيري، حان الوقتُ لنذهب، ماتت كل آمالي لهذا البلد، كل يوم أسوأ مما قبله، سأجد طريقة لخروجنا ولنَدعو الله أن يتمّ ذلك قبل الولادة، يا الله، ليتنا فعلنا مثل الآخرين، لكننا الآن في إنجلترا، مثل أختك وابنة عمي. لم أتخيل قط أنني لن أستطيع إرسال ابنتي إلى المدرسة».

ارتحت لقرار الرحيل وخفت من ترك الوطن. دون خالة زيبا، لا شيء يُلزمني بالبقاء. قابل محمود رحيم، الذي يعرف مسؤولاً حكومياً -لقبٌ كان يُفرغ من معناه بمرور الأيام- الذي بدوره وعدنا بجوازات سفر أفغانية مختومة مقابل نصف مدخراتنا الهزيلة تقريباً. كان رحيم وحدة الاتصال به مقابل نسبته الخاصة.

عبور الحدود أمرٌ خطير حتى بجواز السفر، أكد علينا رحيم أن نؤمن جوازَي سفر أجنبيين أيضاً لأن جوازينا الأفغانيين لن يذهبنا بنا بعيداً. كان رحيم يعرف أيضاً مُزوراً يُدعى «السفارة». رجل

ماهر كان يعمل مشرفاً في مطابع صحف كابول، حين أسكتت طالبان ضجة الصحافة، حمل «السفارة» آلة طباعة ملفوفة بعباءة إلى بيته بهدوء، دسّ زجاجاتِ الحبر في جيوب معطفه وخطط لمستقبلِ عائلته، كان، مثلي ومحمود، صاحب مهنةٍ حُرِّمَ منها. مع ذلك كان مختلفاً عنَّا، كان «السفارة» يخافُ بشدة الخروج من كابول، في حين كنا نخاف بشدة البقاء فيها. لم يكن قد اتُّضح بعد مَنْ منا صاحبُ القرار السليم.

فريباً

13

قبل شهرين من ولادة طفلي الثالث، أرسلتُ سليم إلى السوق لشراء ملح، كان ظهري يؤلمني، سيعودُ محمود إلى البيت قريباً، وسيرغب في تناول عشائه، دون ذرّة ملح في خزانتي سيذهب الأرز واليخنة هباءً.

يتأخرُ ابني المغامر دائماً، راقبتُ الساعة وطمأنتُ نفسي أنه قابل أصدقاء. غابت الشمسُ خلف قمم الجبال، مضت على غيابه ساعتان، في حين كان عليه العودة خلال عشرين دقيقة. جلستُ على مقعد وحاولتُ فك عقدة ألم تكونت أسفل ظهري. أعصابي على حافة الانهيار، هرولتُ إلى غرفة الجلوس حين سمعت صوت فتح البوابة، متأهبةً لتأنيب سليم على تلكئه ومتلهفة على عودته إلى البيت، لكنه كان محموداً عاد إلى البيت مبكراً قليلاً عن عادته. نظر إلى وجهي ووضع حقيبته على الأريكة، رأيت عينيهِ تمسحان غرفة الجلوس سريعاً بحثاً عن مفتاح للغز.

«ما الخطب، فريباً؟ أين سليم؟»

أجهشتُ بالبكاء. منحتني عودته إلى البيت متنفساً، لم أنم جيداً خلال الأسبوع الماضي فكنت مرهقة بشكل استثنائي. دفعتني آلامُ ظهري وساقَيَّ والقلق على سليم إلى ما بعد نقطة تحملي، لكنني كنت وحدي في البيت مع سميرة الحساسة إزاء حالاتي المزاجية، لذلك حاولتُ رسم الوجه السعيد.

لَفَّ محمود ذراعهُ حولي، ذكّرني بأن سليم بالتأكيد وجد
أصدقاءه يلعبون في الشارع وأنه نادراً ما يعود إلى البيت مباشرةً
حين نرسله لشراء شيء. كنا مختلفين تماماً في هذا الشأن، أنا
أقلق قبل أي شيء، وهو يقلق متأخراً جداً.

عملاً باقتراح زوجي أعدنا المائدة للعشاء، فردتُ مفرشَ
المشمع في غرفة الجلوس، وضعتُ سميرةً -التي تتحمسُ أكثر
لإرضائنا حين يسببُ أخوها مشكلات- الأطباقَ والملاعق، كانت
وجبةً بلا طعم، سواء بملح أو بلا ملح، قفزَ قلبي حين سمعتُ
صوت البوابة، وضع محمود يده على يدي.

«دعيه يأتي إلينا، هانم»، قال بهدوء، أومأتُ له وأنا أحركُ
الأرز في طبقَي بلا هدف، نظرتُ إلى سميرة، لمعت عينها
الداكنتان لسماع صوتِ خطوات أخيها.

دخل سليم غرفةَ الجلوس متعباً.

غمغم قائلاً: «سلام».

نظر محمود إليه، وجهه هادئ ورزين.

«سليم، اذهب للاستحمام، أنت مغطى بالتراب، أتمنى أن
المباراة كانت تستحق إقلاق والدتك عليك».

أطرق سليم برأسه، وضع كيسَ الملح على المنضدة وتمتم
بشيء ما يشبه الاعتذار. حين عاد بعد أن استحتم كنا قد أتينا
على كل ما في الأطباق ما عدا طبقاً صغيراً من الأرز. جلسَ سليم
متربحاً أمام المفرش محرّجاً لكنه يتضوّرُ جوعاً. رفعتُ أنا وسميرة
بقية الأطباق، جلس محمود على المقعد ليقراً كعادته كل مساء.
نظرتُ خلسةً لأجدَ سليم قد التهمَ طعامه في نفس واحد،
ثم جلس يحملقُ إلى السجادة مشدوهاً، شعرتُ بفرعه، كان توقعُ
العقابِ أسوأ بكثيرٍ من العقابِ نفسه.

«سليم، أليس لديك شيءٌ لتقوله؟» بادرته وأنا أجفف يدي بمنشفة الأطباق. أطرق برأسه، يعتذر بجسده رغم عجزه عن لفظ الكلمات.

أخفض محمود نظارة القراءة ووضع كتابه على الطاولة الصغيرة إلى يمينه، كان يقرأ أشعار إبراهيم خليل، شاعر كابول غزير الإنتاج الذي يحبه كثيرون من آل حيدري. كانا محمود وحميد قد حضرا وهما طالبان في الجامعة محاضرات لخليل. ومع حبي لأشعاره لكنني كنتُ أخجلُ بشدة حين أسمعها فأتذكر رغماً عني زوج نجبية. حين سمحت ذات مرة لابن خالة زوجي بترديدها على مسامعي. كان محمود يحاولُ من حين إلى آخر أن يُشركني في بيت أو قصيدة، لكنني لم أستطع، كنت أشعر بأنني خائنة.

«ارفع بصرَكَ يا بنيّ».. قال محمود.

جلس سليم متربعا أمام أبيه ورفع رأسه ببطء، سكت محمود، يفكر في ما سيقوله.

«سأقرأ لك شيئاً».. قرر محمود وأمسك كتاب خليل:

اعلم أن حظك لا يشوبه شيء

رضعت صغيراً لبناً صافياً

التيه المؤلم الذي تشعر بالسجن فيه

من صنع خيالك ليس إلا

لأن القدير لا يعاقب

ولا يعسر ولا يضل ولا يعذب

الصعب والحزن على أكتافنا

ليسا سوى ما اخترنا بأنفسنا أن نجنيه.

«أفهمُ معنى هذا؟»

«نعم بادر جان.»

«أخبرني سليم جان، ماذا يعني لك هذا؟»

«أنني ينبغي ألا أتصرف بصيانية.»

«سليم جان، أنا آسفٌ لأنك تستيقظُ في الصباح كلَّ يوم لتجدَ هذا العالمَ حولك، أنا آسفٌ لأنَّ هذه كابول، أفغانستان التي تراها، كنت أتمنى أن تأخذَ خطواتك الأولى بلا قصفٍ فوق رأسك، هذا ليس مكانًا مناسبًا لطفل، لكن لهذا تحديدًا عليك أن تهض وتمضي قدمًا، عليك أن تجدَ طريقةً لجعل الموقف في مصلحتك، لتجني محصولًا ناضجًا.»

رأيتُ السخط على وجه سليم، كان كل ما يخبره به العالم أن لا. أخبرني بهذا من قبل أكثر من مرة. الأشياء التي تمكنه أقلَّ القليل؛ في حين ما لا يمكنه لا حصرَ له، لكنه أمسك لسانه ولم يعترض على الظلم الذي أقرَّ به محمود.

«سليم جان، بُني، لقد حان الوقت لتتبه جيدًا لتصرفاتك، أنا وأمك نعتي بك لكنك كبرت ولم تعد صبيًا صغيرًا.»

كنت أحيانًا أطلبُ من محمود أن يكون أكثرَ صرامةً مع طفلينا، لماذا يخافان عقابه؟ لم أفهم. لم يكن يفعلُ سوى تأنيبهما ورمقهما بنظراتٍ محبطة، لكنهما يحترمانه، وأنا أيضًا. في ليالٍ كثيرة، كنت والأطفالُ نحاولُ، نتسابقُ للجلوس بجواره وسماع قصصه، كان يلف ذراعيه حولنا جميعًا، يجمعنا كلنا في رابطةٍ واحدة.

كنتُ أفقد نفسي في تلك اللحظات، أحبُّ زوجي أكثرَ مما يمكنني تخيُّله، في أغلب الأحيان أفتقدُ خالة زيبا وأتمنى أن يمكنني شكرها على وضعي بين ذراعيه.

في الليل، والطفلان يتنفسان بهدوءٍ بجوارنا، ذلك لي عقدة الألم في ظهري.

«سيكون سليم رجلاً رائعاً، لديه روح أسدٍ في عينيه الصغيرتين» قال هامساً.. «قبل أن نلحظ، سيأتي اليوم الذي سيفدو فيه هو نفسه ربَّ بيتٍ وصفاره حوله. أتعرفين بماذا أدعو الله جانم؟ أدعوه ألا يأتي هذا اليوم مبكراً جداً ولا متأخراً جداً».

أخذتُ يديه من فوق ظهري ولففتُهما حول خصري.

«وأدعوه أن يُقدّر لي رؤية ذلك اليوم».

«إن شاء الله، سنراه نحن الاثنان»، استطعتُ القول قبل أن

تتورم الغصّةُ في حلقي.

فريباً

14

بعد ذلك بشهرٍ حَلَّتْ إجازةُ العيد، كان وقت زيارات الأقرابِ والأصدقاءِ للمُعابدةِ حَسَبَ التقاليدِ رَغَمَ كآبةِ المدينة. لذلك حين سمعنا طرَقَ الباب لم ندهش، ذهب محمود ليفتَحَه وبدأت أعدُّ الشاي تلقائياً.

لكنَّ طارقي الباب لم يكونوا أقاربَ ولا أصدقاء. اندفع رجالٌ ذوو هيئةٍ فظةٍ عبر فناننا ودخلوا الصالة: «هذا هو بيتُ المهندسِ إذن».. قال أحدهم ساخرًا، تتضحُ كلماته كراهيةً.

جفلت من أصواتهم التي ترددتُ عاليًا في بيتنا. سقط إبريقُ الشاي على الأرض بضجةٍ مكوِّنةً بركةً من الماء. كان سليمٌ وسميرة على الأرضِ يرُسُمان على قصاصات ورق، نظرتُ إليهما وأشرتُ إلى الطابقِ الأعلى، هرعا إلى أعلى خائفينِ بلا أدنى اعتراض.

ارتديت الشادوري، ونظرتُ إلى غرفة الجلوس. كانوا يتجوَّلون فيها، يتفحَّصون بيتنا باحتقار. يرتدون قمصانًا وسراويلَ فضفاضةً باللونين الكاكي والرمادي، ألوان باهتة تبرزُ السوادَ الداكنَ للْحاهمِ وأسلحتهم الآلية المتدلية من أكتافهم بأريحية. أطولهم يلفُّ مسبحةً محمود حول إصبعه. حين لمَحوني كيانا أزرق فاتحًا عند الباب، أمروني بالعودة إلى المطبخ.

بدا محمود منزعجاً لكنه رابط الجأش، تقدم نحوي خطوةً بشكل غريزي ونظرَ إليّ بهدوء يتوسّل إليّ أن أنفّذ أوامرهم. كنتُ مرعوبة من ترك زوجي وحده مع من اقتحموا بيتنا بلا استئذان، لكنني فكّرتُ في طفليّ المختبئين في الأعلى أيضاً وثالثهما الذي أحمله تحت الشادوري. أطرقت برأسي وعدت إلى المطبخ، ما زلت أسمعهم لكن بعيداً عن أنظارهم.

«أنت مهندس».

«نعم».. صوت محمود واثق.

«وتعملُ في وزارة المياه والكهرباء».

فهمتُ من صوتِ الصلصلة الناعمة أن أحدهم انتبه لطاقم الشاي البورسلين في الدولاب الزجاجي للتحف، هدية زفافنا من خالة زيبا، فناجين رقيقة رُسمت عليها بالباستيل أوراق شجر ذهبية وزهور جميلة. لم تكن لدينا صورٌ فوتوغرافية، ولا تلفازٌ ولا مذياع، الحمد لله. تمنيتُ أن يغادروا بعد أن يتأكدوا من خلوّ بيتنا من الممنوعات.

«نعم، صحيح، هل يمكنني مساعدتكم في شيء؟»

«نحن نبحثُ عن محمود حيدري، مهندس يعملُ في وزارة المياه والكهرباء، الرجل المعروف بمعارضتهِ الشريعة الإسلامية».

خفق قلبي، نظرتُ إلى أعلى السلمِ ولمحتُ ظلَّ رأسين يختلسانِ النظر من الركن، أشرت إليهما أن يبتعدا.

«معارضة؟! لكنني لم أعارضُ أي...»

«الأفضلُ لك أن تأتي معنا لتعرفَ الاتهاماتِ المنسوبةَ إليك».

«اتهامات؟ لكن يا إخواني، لا بد أنه سوء فهم». ميّزتُ رعشة خفيفةً في صوته لكنّها لا تقارن برعشة جسدي كله.
«لا يوجد سوء فهم».

«لكن، أرجوك، اسمعني قليلاً، لقد بذلتُ قصارى جهدي للخضوع لكلّ القرارات الصادرة...»

«لن نتحدّث هنا، إلا إذا كنتَ ترغب في إحضار زوجتك وطفليك إلى غرفة الجلوس ليراقبونا ونحنُ نوجّه إليك الاتهامات». أطلق محمود تنهيدة عميقة.

«لا، لا، لا. هذا ليس ضرورياً، سأتي معكم».

«محمود! لا تأخذوه أرجوكم! إنه بريء!» صرختُ، صوتي يرتعش ومتوتر، كنت عند عتبة الباب، على ركبتيّ.
تقدم أحدهم نحوي لكنّ محمود تدخل.

«أرجوك!» قال بحدّة، قبل أن يلتفت إليّ. «فريباً جان، أتوسل إليك، دعيني أنا أتحدّث معهم، أنا واثق من أننا سنزيل سوء التفاهم. يجب أن تظلي هنا».

كانت أصابعه على كتفيّ، ترفعاني، ينظرُ إلى عينيّ من خلال شبكة الشادوري. لم أكنُ أعرفُ شيئاً عن زوجي حين تزوّجنا. عرفتُ مع مرور الزمن أنه صبور وكريم وحسن الأخلاق. خلال الشهر الأول كله تقريباً كنتُ أخجلُ بشدة من النظر إليه مباشرة لكن دفء صداقته أذاب خجلي، أزال عني كلّ ما فعله العالم بي. أدركت بعد وقتٍ قصير من زواجنا، حين وجدتيّ أضحك على مزحة ألقاها من قبل، أنني أحبُّ هذا الرجل.

«فريباً، أتعرفين ما أجمل مرادفٍ لكلمة زوج في لغتنا؟»

«همسر». ففكرى فيها.. «صاحب».. هكذا نحن، أليس كذلك؟
هذا ما كان يفعله، يأخذ كلمات صدئةً ومتعبة، يرددها الناس
بعضهم لبعض بلا شعور، ويقلبها في راحة يده، ينفذ عنها
الغبار ليجعلها تلمع بمعنى حيويّ جدًّا ويجعلك تدهش من نفسك
لتجاهلها.

يسألني ويستمع لإجاباتي. له قلبٌ والدته الطيب وذكاءٌ والده،
لم يكن يعيشُ في خوفٍ من الله لأن الله -كما يرى محمود-
رحيمٌ، ولم يخلقنا ليعاقبنا على أمور دنيوية تافهة. كان منطقيًا
ونشيطًا، يحبّ طفليه، يعاقبهما ثم يضحكُ على خطئهما، يرّيت
على جبيني قبل أن ننام، لمسةٌ خفيفة بما يكفي لتجعلَ عينيّ
تتعبان، لكنها تحمل عاطفةً تجعلني أريد أن أظلّ مستيقظة. كان
يريد أن يكون عمله هو أثره في أفغانستان، ليفخرَ به أطفاله.
عرفته جيدًا في سنواتِ زواجنا الأولى بلا أطفال، كان بإمكانني
سماع أفكاره بمجرد النظرِ إلى عينيّه.

كان صاحبي.

نظرتُ إلى وجهه والرجالُ يزعمون به ليتبعهم، احتلت شبكةُ
الشادوري الزرقاء أعلى لحظات زواجنا وأكثرها خصوصيةً، كان
هناك الكثير جدًّا لقوله، همستُ عيناهُ بطريقةٍ لا يفعلها إلا
صاحب.

اعتني بأطفالنا، جانم، سأفعلُ ما بوسعي لنخرجَ من هذا
بخير. أنا آسف لأنني جلبتُ هذا علينا. سأتخلّى عن أي شيء
لأبقى إلى جانبك.

اقتيد زوجي خارج بيتنا في أحلك ليلة في حياتنا، صفقوا خلفهم الباب، سقط فتجانان من طاقم الشاي البورسلين من فوق الرف ليتهشّما على الأرض، ويخلفا كسراتٍ من الأبيض والباستيل. سمعت خطواتٍ تركض في الأعلى وعرفتُ أن سليم يهرعُ إلى النافذة، لم أسأله ماذا رأى، أعرف أن زوجي كان واعياً بمراقبة طفليه له وهو يُؤخذ بعيداً عنا، لم يكن ليفعلَ أي شيء ليجعل تلك الليلة أسوأ في ذهنيهما إلى الأبد.

فريبا

15

اقترب سليم مني على أطراف أصابعه، كنت قد خلعتُ الشادوري وانهرتُ على الأرض. سمعتُ صوت محركِ السيارة يبتعد، أخذوا محمود معهم، ابني إلى جانبي وسميرة تراقبنا من مسافة، حين لم يعدَ سليم قادراً على تحمّل الصمت، كسره: «مادر جان... همَس».

أسكته قبل أن يقول شيئاً. ليس لديّ إجابات: «بني، عُد إلى أعلى مع أختك وناما، سأنتظرُ أباكما».

كنتُ أعرف أنه مذعور. أنه يريدُ أن يساعد. أن يقومَ بما يجعلُ محمود فخوراً به.

كانت سميرة في الخامسة من عمرها فقط تلك الليلة. فرع مني، حالاتها المزاجية تفيضُ وتنحسر بالتناغم مع حالاتي، مثلما يتأثر المدُّ والجزرُ بالقمر، إن وجمتُ تهدأ، تنفخُ خصلاتِ شعرها عن حاجبَيْها المعقودَيْن، وإن كنتُ سعيدةً تسيّرُ على الأرض بخطواتٍ وثّابة. في تلك الليلة صمتت وهي ترتجفُ، نامت بيديها متكورتين، في قبضتَيْن صغيرتين، ودموعها تبلل وسادتها.

جاء إليّ سليم في الفجر ووجدني على أريكةِ غرفةِ الجلوس، مستندةً برأسي إلى الحائط، لا يمكنني تخيّل كيف بدوتُ له حينها.

«مادر جان؟»

كان عليه أن يناديني مرتين.

«نعم سليم»، قلت.. حلقي جافٌ وخشن.

لم يعرف ماذا يقول، كان عليه كسرُ الصمت فحسب والتفكير في الموقف.

«هل نمت؟»

جلستُ ويدي حول بطني المثقلة. قدماي المتورمتان بالكاد تصلان إلى الأرض.

«نعم بني».

بدا مُتشكِّكًا وعرضَ عليّ أن يعدّ لي شايًا، نظرتُ إليه، يداه متشابكتانٍ خلف ظهره، وجهه معقودٌ خوفًا، حان الوقتُ لي لأعود أمّا مجددًا.

«ما زال الوقتُ مبكرًا»، قلت له. «الأفضلُ أن نصلي وندعو لأبيك».

لم نَعَن بتدفئة ماء الوضوء.

«بسم الله...» همستُ وبدأتُ غسل يدي، فمي، أنفي. احتملتُ الماء المثلج، لن أضعف. غسلتُ وجهي، خلف أذني، يدي وقدمي. بإيقاع نعرفه جيدًا، وقفتُ وسليم، ركعنا وسجدنا ونحن نتلو آيات حفظها كلُّ منا في صغره. دمعت عيناي وأنا أفكّر في ما حدث الليلة الماضية.

لا أعرف هل سيعودُ زوجي أم لا.

تجمّد الزمن في بيتنا، في انتظار إشارة.

ساعدني سليم، رغم صغر سنه، بالذهاب إلى السوق لشراء حاجاتنا الأساسية. كنت وحدي، غادرت كوكوكل وأخواتي أفغانستان، ظل أبي ليعتني ببستانه، على بُعد ساعةٍ من بيتي. حلّ الشتاتُ نفسه بعائلةٍ محمود، أخواتهُ يعيشنَ في أستراليا. ليس لدينا سوى أقاربٍ بعيدين يكافحون مثلنا لإطعام أسرهم والنجاة من نظام كابول الجديد. أرسلتُ الخبر إلى عائلتي، دُهلوا، لكن أحداً منهم لم يستطع المساعدة. توسلتُ إلى أخوات محمود أن أبلغهن إن سمعتُ بأي شيء عن أخيهن.

كانت رئيسة، زوجة عبد الرحيم، تأتي لزيارتي كثيراً منذ أن سمعتُ باختفاء بادر جان. كذلك كانت ترسلُ أحياناً طبق زبدة أو صحن أرزٍ صغير. كانت صديقةً عزيزة لكنني صرت أخاف زيارتها بعد اختفاء محمود. كانت عيناها المملوءتان بالشفقة تذكّراني بكل ما هو خطأ.

لديها أمومة ناعمة، بصدّر عامر يجذبك إليه ليهددك حتى تنام كأنك أحد أطفالها الكثر. في تلك الأيام الحالكة كانت تمرُّ بنا في زياراتٍ قصيرة، ودون كلام، كانت تنظفُ المطبخ وتعد أي شيء تجده في خزانتنا.

«فريباً جان، هل من أخبار؟» تسألني محروجة.

«ليس بعد، لكنني متأكدة أنني سأسمع خبراً في أي وقت»، أجيبها وأنا أكادُ أصدق ما أقوله.

كان محمود مدهشاً، ليس لديّ سببٌ لأتوقع منه أقلّ من هذا.

«حسناً، إن احتجتم إلى أي شيء، أنتِ أو الطفلان...»

حاولتُ الصمود، حاولتُ إبقاء البيت نظيفاً، ليسهلَ على طفليَّ النوم ليلاً. كانت سميرة تعكسُ رباطة جأشي خلال النهار لكنها ليلاً تلتصقُ خصلاتُ شعرها بجبينها من العرقِ البارد. تغمغمُ وتتوح في أثناء نومها. لغةٌ أفهمها لكنني لا أتحدثُ بها.

فتحتُ كراسية سليم ذاتَ مرةٍ فوجدتُ على غلافها الخلفي علاماتٍ إحصاء، إنه يحصي الأيام منذ تلك الليلة، سبعٌ وأربعون علامة.

كنا بيتاً بلا أب، المخلوق الذي افترسته وحوشُ كابول ما إن رآته. شعرتُ ذات يوم بآلام حادة، فأدركتُ مدى ضعفنا بلا رجل في البيت. لساعات، ظللتُ أديرُ وجهي إلى الحائط حين يسحُقني الألم تماماً. لم يقلِ الطفلان شيئاً، كان كلُّ منا يلعب دوره في تمثيلية الحياة الطبيعية.

كان خوفي من فقدِ الجنين، ومن عودة محمود ليجدني قد فقدتُ طفله، كافياً لدفعي خارج البيت دون محرم. ارتديتُ الشادوري وأخذتُ سليم من يده، تركتُ سميرة مع رئيسة جان، التي احتضنتِ ابنتي وأوماتْ برأسها، ليس بوسعها فعلُ شيءٍ آخر.

«سليم جان، سامحني إن عصرتُ يدك بقوةٍ شديدة، عزيزي». كان الألمُ حاداً وينقضُّ بقوة، كدتُ أفقد وعيي.

«أتشعرينَ بآلام شديدةٍ مادر جان؟» سألني بهدوءٍ ونحن نسير في الشارع.

«لا عزيزي. أنا واثقة من أنني بخير. كما سيكون كل شيء بخير حين يعودُ والدك إلى البيت».

لم أغفل نظرة الشك في وجهه، راحت ثقتي تتلثم وتتعثر. كانت سميرة قد أحست بالأمر أيضاً، ازداد انطواؤها على نفسها. «هل سيأتي الرضيع الآن؟» أسئلة سليم عملية، يشبه أباه بقدر كبير، لم ألحظ كم كبير خلال العام الماضي.

«لا قدر الله يا عزيزي، ما زال الوقت مبكراً جداً، الأجنة تحتاج إلى تسعة أشهر وتسعة أيام، تسعة أشهر وتسعة أيام»، كررت وأنا أسمع في ذهني صوت حماتي. تركت لي الكثير قبل أن تتركنا، ضغطت لي حياة كاملة من الأمومة في سنوات قليلة قصيرة. كانت هي من أسرعت لإحضار القابلة حين جاءتني آلام المخاض في ولادة سليم وسميرة، وقفت تمسك يدي وأنا ألد أحفادها. باقتراب ولادة هذا الطفل الثالث، يزداد شعوري بغيابها وافتقادها.

بيد على بطني وعيني في الأرض، لم ألحظ ثلاثة رجال واقفين عند المنعطف، كنا على بُعد مئة متر تقريباً من مدخل المستشفى.

«أليس لديك حياءً يا امرأة؟ أين محرّمك؟» قال أحدهم ثم بصق عند قدمي. تراجعت خطوة إلى الخلف. اشتدت قبضة ابني على أصابعي، حاولت أن أقف أمامه.

«هذا ابني، إنه يرافقني إلى المستشفى، أشعر بالآلام حادة وأنا في... حالة».

أكان هؤلاء من أخذوا محمود؟ أتراهم يعرفون أي شيء عن مكانه؟ قبل أن أتجرأ على السؤال، هوت عصا على كتفي. سقطت على الأرض، يداي تغطيان بطني.

«توقف أرجوك!» صاح سليم وهو يُلقي بنفسه على جسدي المتكؤم.

«الفاسقاتُ فقط من يتحدثُن عن هذه الأمور بوقاحة هكذا! ألا تخجلين من ابنك؟ أين أبوه، أم ربما ليس لديه أب؟».

زلزل الغضبُ جسدي كله لكنني لم أقل شيئاً، عليّ أن أكون عمليةً أنا أيضاً.

«معذرة، دعنا نذهبُ إلى المستشفى أرجوك»، قلت من بين أسناني.

«عودي إلى بيتك، عودي مع ابنك وتصرفي كامرأة مسلمة محترمة، لست بحاجةٍ إلى المستشفى، احتفظي بمشكلاتكِ النسائية لنفسك ووقري على ابنك عازِ رؤيته معك».

انتشرتُ الآمُ حادة في حوضي وكتفي لكنني نهضتُ لأقف، أمسكتُ يد ابني المذهول واستدرت، بعد خطوةٍ واحدة فقط، شعرتُ بضربة على ظهري، وبخوني مرتين أُخريين، فقط للتأكيد. ضغطتُ يد سليم، أتوقع رد فعله.

«مادراً!» كان غاضباً.

«لا تقل شيئاً بنّي»، همستُ له: «هيا إلى البيت حبيبي، أنا بخير».

اشتعل وجهه غضباً، يهينه ألا يفعل شيئاً، حتى وإن كان بناءً على طلبي، بإحضاري له معي لمرافقتي، كنتُ أطلبُ منه أن يكونَ رجل البيت، وبطلبي منه ألا يفعل شيئاً، أعدتُ تقليصه إلى صبيّ صغير مرة أخرى. أسندني وأنا أسيرُ بصعوبة لنعود إلى البيت. بالنسبة إلى الأفغان، يسهل بلعُ حفنةٍ من المسامير عن بلع الكبرياء.

توقفنا مرات عدة لألتقطَ أنفاسي وأستند بجسدي إلى جدار. كان طريق العودة إلى البيت أطول مما أتذكر بكثير.

رقدتُ في الفراشِ ثلاثة أيام، أدعو الله أن ينجيني أنا وطفليّ. ظلّت الآلام تروح وتجيء. كانت رئيسة تظلّ في البيت حتى المساء، تعدّ الطعام للطفلين، تضع قطعَ القماش المبلل على جبيني وتساعدني على شرب ماءٍ من إناء نحاسي منقوشة عليه آياتُ قرآنية. كان سليم وسميرة واجمّين ولا يفترقان، تشبّث أحدهما بالآخر كمسافرين تائهين يحاولان نيلَ قدرٍ من الدفء في البرد القارس.

في اليوم الثالث، اندفعتُ رئيسة إلى بيتنا بعزيمة جديدة، أخرجتُ من جيبها كيسًا صغيرًا وأخذت منه حفنة صغيرة من بذور سوداء وضعتها في إناء، غلت البذور في بعض الماء وظلّت وهي تقلّبها ترددُ آياتٍ قرآنية في بخارها المتصاعد برائحة المسك. جلستُ خلفي بظهرها إلى الحائط، رفعتني في حجرها كرضيعة وقربتِ الصحن من شفّتيّ الجافتين. لم تكن لديّ القوة لسؤالها عن الشراب فتركّتُ الدفء يسري في حلقي.

أعدتُ وجبةً من الخبز القديم وأضافت الماء إلى مرق اللحم الذي ظللنا نتناوله لأربعة أيام. لدينا المال لكن لا شيء في الأسواق لشرائه. دفع يومان من القصف الصاروخي بجميع الباعة المتجولّين وأصحاب المحلات إلى الاختباء خلف النوافذ القاتمة وترك بضاعتهم في المدينة الخاوية.

استيقظتُ في الليل، مسَّ نور قمر فضي وجهي. تنفستُ بعمق وشعرتُ بحركة الجنين، زالت آلام ظهري وخصري، نهضتُ لأجلس، دار رأسي قليلاً ثم استقر.

حمدتُ الله.

نظر سليم إليّ بتفاؤل حذر، لم يعد يثقُ بالعالم ولم أجد ما أقوله له لاسترجاع إيمانه. ربما لم تكن الكلمات هي ما تنقصني. أرسلتهُ إلى بيت رئيسة جان بجوارنا ليشكرها على مساعدتها وليطمئنّها لتعتني بعائلتها بلا قلق. عاد سليم بخبر أن عبد الرحيم ورئيسة سيأتيان خلال وقتٍ قصير.

غليتُ الماء للشاي وبحثتُ في الخزانة عن شيء أصبّه فيه، لم نكن لنتجاوز الأسبوع الماضي دون عطفهما.

سرعان ما طرقا بابنا، قابلتهما في الفناء وقدتهما إلى غرفة الجلوس، أريدُ أن أبيّن لرئيسة أنني استرددتُ صحتي إلى حد كبير.

أنبتني قائلة: «يجب أن ترتاحي، فيري جان».

«ليبارك لك الله في عائلتكِ ويسعدكم جميعاً»، قلتُ لها وأنا احتضنُها بقوةٍ وأقبلُ وجنتيها. «لا أعرفُ كيف أشكركِ على كل ما فعلته. ظللتُ معي حتى تعافيتُ وأطعمتِ طفليّ وأنتِ لديكِ أسرتكِ لتعتني بها، أنا ومحمود لن ننسى لكِ هذا أبداً».

بدتُ كمن تناولتُ شيئاً مرّاً وتتنظر اللحظة المناسبة لبصقه.

«فربما جان، دعينا نجلسُ ونتحدثُ». قال عبد الرحيم. «سليم جان، لتبقِ مع أختك قليلاً باجم».

حين خاطب عبد الرحيمُ، جارنا العملاق الرقيق، سليمَ بصيغة
بنيّ، عرفتُ. كان كلُّ ما أريد معرفته في تلك الكلمة التي تبدو
تافهة، كلمة نطقها بعفوية يقصد ملء فجوة حزن. يعرفُ عبد
الرحيم، الأب العطوف، حاجات فتى صغير، يحتاج الفتى الصغير
إلى شخصٍ ما يعبثُ بشعره، يضعُ يده على كتفه، يراقبه وهو
يعبثُ بساعة يد معطلة.

يحتاج الفتى الصغير إلى أن يكونَ ابنَ أحدٍ ما.
أن يدعوهُ أحدٌ بياجم، بنيّ.

لا عجب أن كان محمود يحترمه، كان قد رأى عطفهما قبل أن
يقتضي الأمرُ إظهاره بوقت طويل.

صار ابني بلا أبٍ. صار أطفالي بلا أبيهم.

خرج سليم، ابني المطيع، ليجلسَ مع سميرة. عرفتُ أنهما
سيسترقان السمع لكنني لم أفعل شيئاً. لا يمكنني حماية أحد
منا من واقعنا. جلست وتركتُ عبد الرحيم يخبرني بما يريد أن
يخبرني به.

«إن أخي يعمل في... منذ أسبوعين... أخذوه طالبان... كان
يعارضُ سياستهم... صاحب مبادئ... شجاع.... وجد العمال
جثة... رسالة في الجيب... سامحيني على هذه الأخبار...»
أحاطتني رئيسة بذراعَيْها. كانت تبكي، صدرها الواسع يعلو
ويهبط، كنت أعرف منذ أسابيع لكن بعضَ الحقائق ينبغي قولها
بصوتٍ عالٍ قبل أن نصدقها.

لن يعود محمود أبداً، قضينا لحظَاتنا الأخيرة معاً على مقربةٍ
أقدام قليلةٍ من حيث أجلس الآن، أخبرني بكل ما يريده في تلك

اللحظة الأخيرة، وقدره مكتوبٌ على جبينه، عرف كلَّ شيءٍ حين
دخل الرجال بيتنا.

عاد سليم إلى غرفة الجلوس وسار نحو عبد الرحيم الجالس
بكتفين منحنيّتين وبيدين مطويتين بين فخذه.

«كاهه جان؟» قال سليم.

نظر إليه عبد الرحيم في عينيه.

«أبي... ألن يعود؟»

لم يكن سؤالَ فتى، بل سؤال شابٍ يريد أن يعرفَ ماذا يتوقَّع
من الغد وماذا يتوقع الغدُ منه.

فريباً

16

كان عليّ أن أرحلَ بأسرتي عن كابول.

بوفاة محمود لم يعد لدينا شيء، سنتضوّرُ جوعاً بالتأكيد ما إن ينفد ما لدينا. كذلك زاد الوصول الوشيك لطفلنا الثالث الأمر تعقيداً.

لم تتحدثُ سميرة منذ الظهيرة التي زارنا فيها عبد الرحيم ورئيسة، كانت تجيبنا بالإيماءات والإشارات، تحدثتُ معها برفق، حاولتُ استخراجَ الكلماتِ من بين شفّتيها لكنها ظلت صامتة. وجدتُ سليم في غرفة النوم، يحدّق إلى أشياء أبيه، لم يلحظ وجودي، لمسَ السرّوال، رفعَ القميص إلى خديّه ثم وضع الملابس على الأرض كأنه يتخيّلُ أباه فيها. أخذ ساعة يد محمود من فوق الطاولة المجاورة للفراش وقلّبها في يده. ارتداها على معصمه وغطاها بكمّ قميصه. كانت لحظةً خاصة بين الابن والأب لذلك تسللتُ عائدةً إلى الصالة قبل أن يلحظني.

ظنّ ابني أنني انشغلتُ بحزني فلم أعرف شيئاً عن معاناته، لكنني كنتُ أراقبُ كل شيء، رأيتَه يركلُ الشجرة خلف بيتنا حتى سقطَ على الأرض كومةً باكية، تورمتُ أصابعُ قدميه وظل وجهه يخلج الماء مع كل خطوةٍ مدة أسبوع. كنتُ أسنده حين يسمحُ لي، لكنني لو بدأتُ التحدث، كان يتسلل هارباً، كان الوقت مبكراً جداً.

مثلما أتذكّر لحظاتي الأخيرة مع محمود، كذلك سليم، أرى الندمَ جلياً في وجهه كما أشعر به في قلبي، كان يجب أن نمرَّ بكل هذا بشكلٍ مختلف، أنا وسليم، كان علينا أن نتحدَّث أكثر. مما استطاع عبد الرحيم جمعه، قرّر رجالُ طالبان جعلَ محمود حيدري عبرةً لمن يعتبر، بقية العائلة ليست مستهدفة، حسبما يرى، لكن لا أحدَ يمكنه الجزم. كانت الحقيقةُ قليلة في كابول حتى في وضوح النهار، وعباءة الليل تجعل كل شيء ممكناً. لا أستطيع تحمّل غياب طفليّ عن عينيّ. لم أكنُ أرسلُ سليم إلى السوق إلا في أضيق الظروف. بعد شهر واحد من تلقينا أخبار قتل محمود، بدأت انقباضات الولادة، ظننتها في البدء تقلصاتٍ من هواء الشتاء لكنني فيما أسير من غرفةٍ إلى أخرى صارت الآلامُ المألوفة أوضح.

ظللتُ أذرع الخُطى في الغرفة، شفتاي مزموّمتان وخطواتي بطيئة.

«تسعة أشهرٍ وتسعة أيام... تسعة أشهرٍ وتسعة أيام...» أكرّر بوهن.

بعد ذلك بساعاتٍ قليلة، تلقّت رئيسة طفلي الثالث بين يديها. سمّيته عزيز.

«سليم وسميرة»، قلتُ وأنا أجاهدُ لأنهُض. «قابلا ابنَ أبيكما». يجب أن يزدادَ وزنُ عزيز قليلاً قبل أن نغامرَ بالخروج من كابول. ظلَّ وجهه فيما أرضعه يتخذ ملامح والده: لمحة عينيه، غمازة ذقنه، هيئة أذنيه.

ظلَّ عبد الرحيم يهتَمُّ بنا، يدعو سليم للجلوس معه بعد عودته من المدرسة، لم أعرف عن ماذا كانا يتحدثان لكن سليم كان دائماً ما يعود إلى البيت متأملاً. شكرتُ الله على وجود عبد الرحيم.

رأى عبد الرحيم ورئيسة أنّ الأفضل لنا الرحيل. ليست لدينا عائلة لتساعدنا، كنت أخشى أن تلتهم طالبان ابني أيضاً، وكامرأة، لم يكن بوسعي فعل الكثير لإعالتنا.

«سوف نرحل».. قلت لهما. «ليس أمامي خيارٌ آخر سوى إخراج أطفالي من كابول، إنهم جوعى، شفاهم مشققة، ليس لدينا شيء هنا».

أومأت رئيسة برأسها موافقةً وقالت: «لا أحد يرى أن الوضع سيتحسن، بل سيسوء، بقدر كرهى لرحيلك، لكنني لا أحتمل بقاءك هنا في هذه الأوضاع، لو كان محمود جان رحمة الله عليه هنا معك لاختلف الأمر، لكنّ والأمر هكذا، كابول أسوأ من السجن لكم».

«سوف أحتاج إلى مساعدتكما».

أوماً عبد الرحيم برأسه، كان يتوقع هذه المحادثة.

بعد ولادة عزيز بثلاثة أشهر، جمعتُ أطفالي وملاأتُ حقيبتين صغيرتين بمتاعنا الضروري فقط: ملابس، ظرفٌ من ورق البرشمان فيه صور عائلية، وما توفر من طعام. لم أقل للطفلين شيئاً حتى قبل رحيلنا بيومين. بدا سليم مستاءً لإخفائي الأمر عنه. نحن نعيش في مكان واحد، في الحزن نفسه، ورغم ذلك وفي أفضل أحوالنا، يرتبكُّ أحدنا بسبب الآخر، كنا أسرةً قُطِعَ رأسها وتعثرتْ أمورُها إلى هذا الحد.

«ماذا لو اكتشفوا رحيلنا؟» قال بصوتٍ خفيضٍ متخوِّفٍ.

«لن يكتشفوا» وعدته. لم أجد طريقةً أخرى لإجابته. خلا وجهه من أيّ تعبير، نظرَ إلى عينيّ لثوانٍ قليلةٍ، فترةً طويلةً، رأى ما بداخلي.

قلتُ لنفسي إن الأمورَ ستتحسُن حين نخرجُ من جوِّ كابولِ المسممِ.

أرسلتُ خبراً لبادر جان أننا مسافرونَ إلى هرات. أردت رؤيته مرةً أخيرةً قبل أن نرحلَ، لكنه كان يفضلُ العيشَ في راحةِ الأمس بأوهامٍ عن الغد. لم يزدِ الخطاب الذي تلقيناهُ منه عمّا كنت أتوقَّعه من أبي. البستانُ في حالة سيئةٍ حتى أنا بالكاد أتعرَّفُ عليه، قال. بنتُ جحافلِ النحلِ أنفاقاً في الخشب. ظل بيت هناك آملاً أن يخيفها لكنها لا تخاف شيئاً. كان الشتاءُ المنصرم قاسياً بشكل استثنائي وعليه تقيب التربة أكثر من مرة إن أراد أن يرى ولو سلة خوخ واحدة هذا العام. إن الأشجارُ أرقُّ من الأطفال، كما يرى. يحزنه أنه لا يستطيعُ فعلَ شيءٍ لنا الآن، لكنه يتطلع لرؤيتنا حين نعود.

للشعر طرائقُ مختلفة في الوداع، خصوصاً حين يكون إلى الأبد.

جندتُ عبد الرحيم ليرتّب كلَّ شيءٍ لهروبنا. بعد أسابيع قليلة طرق عبد الرحيم بابنا وناولني ظرفاً كبيراً. احتضنتُ رئيسة بقوة، تناقضتُ عيناها الدامعتان مع ابتسامتها المشجّعة.

كانت جوازاتُ السفر التي اشتراها محمود جاهزةً، حتى جوازه هو، لمستُ صورته، بحجم إبهامي، وتجددتُ آلامي لغيابه

عن تلك الرحلة معنا. مع ذلك طلبت من عبد الرحيم إعادة جواز سفر محمود مقابل أي مبلغ. لا مجال للعواطف.

«ارتديا أقوى أحذيتكما، اليوم سنبدأ سفرنا، وتذكرا، إن سألكما أحد، نحن ذاهبان لزيارة خالتكما في هرات. ليحفظنا الله».

حين مدّ سليم يدهُ في الدولاب ليُخرجَ قبعته الشتوية، لمحْتُ ساعة محمود في معصمه، فتحتُ فمي لأقول شيئاً ما لكنني عدلتُ عن ذلك، الأفضل ترك الأمر بين الأب وابنه.

تركنا الكثير مما لا يمكننا أخذه معنا: كرة سليم، ألعاب سميرة، طاقم البورسلين المشروخ هدية زفافي من حماتي. نظرتُ إلى أواني وطاساتي، سوّدتها النيران، شهدت سجادة غرفة الجلوس المفزولة يدوياً تحوّلنا من زوجين حديثين إلى أسرة كاملة، ثم شهدت ليلة القضاء علينا، سقطت عليها دموع الفرحة ودموع الحزن. تركتُ كلَّ شيء، كلَّ قطع حياتنا المتكسّرة، لرئيسة. أعرّفُ أن بيتنا لن يظلَّ خالياً فترةً طويلة. طالب أحد أبناء عمومة محمود بملكيتهِ بالفعل ما إن بلغهم خبرُ رحيلنا. صارت كابول لعبة الكراسي الموسيقية، بواضعي اليد والمجاهدين والأقارب يتسابقون في الانقضاض على أي بيت خالٍ.

تحقق عبد الرحيم من ساعته بعصبية. كنا نسير حسب جدول زمني محدد، عرض مرافقتنا إلى محطة الباص، إن أوقفنا أحدهم، سيقول إنه أخي.

حملتُ حقيبةً بيدٍ وعزيزَ بالأخرى من تحت الشادوري، ربطتُ سليم حقيبةً صغيرةً إلى ظهره وأمسك يد سميرة، يسيران خلف

عبد الرحيم لكنهما أمامي. كانا ينظران خلفهما من حين إلى آخر، كأنهما يظنان أنني قد أشردُ بعيداً عنهما. المحطة شارعٌ واسعٌ تصطفُ فيه الباصاتُ عشوائياً، يقف رجلٌ عند الباب الأمامي لكلِّ باصٍ يصيحُ بوجهته. وجدنا باصنا ورأيناه يمتلئُ بسرعة.

سألني سليم هامساً: «كم ستستغرقُ الرحلةُ مادر جان؟»

«ستكونُ رحلةٌ طويلة، حاول النوم... سيمرُّ الوقتُ أسرعَ بذلك.»

وقفت وأطفالي في الممر، ذهبتُ إلى حيث تجلس النساء في الخلف مع سميرة وعزيز، واتخذ سليم مقعداً خالياً حيث يجلس الرجال بالقرب من السائق. وضعتُ عزيز على حجرِي وجلستُ سميرة بجواري، عدد المقاعدِ محدودٌ فاضطرَّ بعض النسوةِ الأصغر سناً إلى الوقوف.

حين بدأ الباصُ يقفُّ على الطريق الرئيس، رُفعت الشادوريات مثل ستائر المسرح فيما تتخذُ المحادثاتُ سرعتها. في الساعة التالية، سقطتُ سميرة في النوم رغم اهتزاز وارتجاج الباص على الطريق الوعرة، حتى أنا وعزيز غفونا لدقائق معدودة، نستيقظُ فقط حين تعلقو ضجة الثرثرة. ثم انتبهت إلى أننا لا نتحرك.

قدمي اليمنى تحترقُ بإبر ودبابيس!

بعد ثلاث ساعاتٍ من محاولات الإصلاح والسباب، استطاع السائقُ إدارةَ المحرك أخيراً. واصلنا طريقنا بإيقاع حلزوني، تكرر الأمرُ مرتين أخريين، يترجلُ السائقُ ويظلُ يسبُّ المحرك حتى يعودَ إلى العمل. بعد ذلك بثلاثة أيام، وصلنا إلى وجهتنا أخيراً،

صاح السائقُ المشاغِب في الجميع بأن يَجْمَعوا أمتعتهم و يترجّلوا .
وصلنا هرات .

«كان والدكُما يأتي إلى هنا مراراً عدة خلال العام، نائباً عن
الوزارة». قلت لأطفالي، «كان مديرَ أحد المشروعات هنا في هذه
المنطقة».

رَكَلَ سليم ترابَ الطريق وهو يتابع الظلالَ الزرقاءَ للباص .

«لماذا لم يخبرني بهذا من قبل؟»

«كان ذلك منذ فترةٍ طويلة»، قلتُ، ولاحظتُ السخَطَ في سؤاله .
وقفنا ننتظر، كما أكّد علينا عبد الرحيم من قبل، وبعد ساعةٍ
من وصولنا اقترب منا زوجان، همسَ رجلٌ قصيرٌ في الخمسين
من عمره باسمي متسائلاً:

«خانوم فريباً؟»

«نعم». أكدتُ له بارتياح .

قال: «طلبَ مني عبد الرحيم ورئيسة جان أن أستقبلَكم». أشار
إلى زوجته المرتديةِ الشادوري لتتضمَّ إليه .

أشرتُ برأسي لطفلي ليتقدماني واصطحبنا عاصمُ وشابنام
إلى بيتهما . شابنام أختُ رئيسة، متشابهتان في الصوتِ والصدر
الواسع على نحوٍ ملحوظ . سنبيتُ عندهما ليلةً واحدة فقط،
علينا مساءً الغد أن نستقلَّ الباصَ المتّجهَ إلى حدود أفغانستان
مع إيران . كانَ سليم وسميرة محبطين، خصوصاً بعد أن قابلا
أطفالَ الزوجين . لعبتُ سميرةُ مع الفتيات فيما حمل سليم عزيز
وهو يستمعُ لتحذيراتِ عاصم عن صعوباتِ الطريقِ أمامنا .

«عليكم الحذر من كل مَنْ ستقابلونه»، أكد عاصم بصرامة، قلب الشاي في كوبه ببطء وواصل: «هرات بمثابة بوابة إيران، لهذا نسمع ونرى قدرًا كبيرًا مما يحدث. طالبان هنا يتحینون الفرصة لجعل أحد ما عبرة لمن يعتبر. تعرفون بالطبع قواعد مرافقة محرم. وهم يعرفون أن الكثير يحاولون العبور إلى إيران، لذا انتبهوا جيدًا وحاولوا ألا تلتفتوا الأنظار».

يعيش عاصم وشابنام في بيت من ثلاث غرف نجا من الهجمات الصاروخية. سقطت أجزاء من السطح وألواح بعض النوافذ فقط. حين خلعت شابنام الشادوري، بدا الشبه بينها وبين رئيسة أكثر وضوحًا. ابتسم سليم وسميرة حين شاهدا وجهها المألوف. استمعت إلى كلام عاصم بانتباه.

«ستسافرون في شاحنة صغيرة، في العادة تكون مكدسة ويكاد النفس ينعدم فيها لذلك ابقِ صفارك بجانبك. سيكون الناس عصبين، على السائق أن يعبر بكم الحدود إلى إيران، ثمن هذا معروف ومدفوع لكنهم سيحاولون الضغط عليك لدفع المزيد. احتفظي بنقودك وأشياءك الثمينة كافة مخبأة جيدًا. تظاهري بضيق الحال وامنحيه القليل، وتظاهري بأن هذا كل ما لديك». نظرت إلى سليم، أريد أن أخبره بأن يذهب ليلعب كي لا يسمع هذه المحادثة. على الجانب الآخر، ربما من حقه أن يعرف ما هو مقدم عليه.

«ستأخذكم الشاحنة إلى الحدود فحسب. سيكون عليكم العبور سيرًا على الأقدام. يرتب المهريون هذا العبور في ستر الليل، حين تصلون إلى الجانب الإيراني ستجدون شاحنة أخرى

في انتظاركم. ستأخذكم تلك إلى مشهد. أعطاك عبد الرحيم عنوان المسؤول عن الاتصال بك. هناك الكثير من الأفغان وسوف يساعدونكم إن شاء الله. ما فهمته أنكم تقصدون أوروبا، الطريق أمامكم طويل لكن الكثيرين قطعوه».

تهددت بثقل. لاحظ سليم.

«أدعو الله أن نكون ممن وصلوا سالمين، هذا هو السبيل الوحيد الذي أراه لأطفالي، أرجو أن يكون القرار السليم». أومأت شابنام برأسها بتعاطف.

«أنتِ أم، وقلب الأم لا يُضللُ أبناءها أبداً»، أكدت ويدها السمينه تعصراً يدي.

غطّ الأطفال في النوم، مرهقين من الرحلة الطويلة، وظللت أنا أغفو وأصحو على فترات منتظمة لأجدني ما زلت في هرات، لا أصدق أنني أخذتُ صفاري الثلاثة في تلك الرحلة الخطرة بالفعل. في الغرفة المظلمة، وسط هممة التنفس ليلاً، ما زلتُ أتساءل هل اتخذتُ القرار السليم؟

ماذا كان وعد ملاكي الحارس في البستان منذ سنواتٍ طويلة مضت؟

«حين ستسيرين في الظلام، سأتبعك وأنيرُ لك طريقك؛ حين تظنين أنك وحدك، سأكون حارسك. امض في طريقك وأنتِ تعرفين هذا»

أغمضتُ عيني ودعوتُ الله ألا يكون قد نسيني.

فريبا

17

لا وقتَ لإعادةِ التفكيرِ، كنتُ سأفقدُ شجاعتي لو كنتُ مكثتُ يوماً واحداً آخر، كانت الصحراءُ المنبسطةُ أمامنا تصيبني بالدوار والخوف.

لم يكن عزيزُ يرضع جيداً، ينامُ أكثر ويظلُّ يتلملَم حين يستيقظ. لم تكن الرحلةُ إلى هرات سهلةً وكنا متعبين. في الظهيرة، ملتُ إلى طفلي وقبّلتُ جبينيهما برفق، همستُ لهما ليستيقظا. اقترب الليل. الوقت المناسب للتسلل عبر الحدود. حين تنفتح ثقوب ليشق عبرها الياثسون طريقهم زحفاً. حوّلت الحربُ بعض الأفغان إلى أسودٍ كما حوّلت قدراً كبيراً منّا أيضاً إلى فئران.

أعطتُنا شابنام خبزاً للرحلة. اصطحبنا عاصمٌ إلى نقطة اللقاء، تبعه سليمٌ وسميرة، تشابكت يداهما فيما يحلُ المساء وقمرٌ أحذبٌ ينير سماءً بلا سحب. وقفنا أمام ورشة ميكانيكيٍ وانتظرنا. قد ننتظرُ دقائق أو ساعاتٍ، حسبما قال عاصمٌ وهو يرفع كتفيه، لكن الشاحنة ستأتي.

بعد أربعين دقيقةً، كان عزيزُ يتلوّى ويغمغم غير مرتاح، حين اقتربت الشاحنة. نحيتُ طفلي خلفي عند مقدمة الورشة. توقفت الشاحنة على مسافة أقدام قليلة منّا.

«اركبوا»، همس السائق.. «بسرعة».

كانت هذه خطة محمود لنا، ذكّرت نفسي وأنا أشير لطفلي أن يصعدا إلى الشاحنة، لأثق بأنّ هذا هو الصواب.

في الشاحنة أسرتان أُخريان، لكلّ منهما أربعة أو خمسة أطفال، همستُ بتحيةٍ وقبعتُ مع أسرتي في ركن من جوفها. لا مجال للدردشة العادية. أذهاننا مشغولة بهموم كثيرة جدًا. هداً الصمتُ الثقيل تتفسّ عزيز المضطرب وهو يتناغم مع المحرّك الصديء.

ما إن خرجنا من هرات، أوقف السائقُ الشاحنة ومال إلى الخلف.

قال بخشونة: «من هنا، سنعبّر الصحراء ثم الحدود، ستدفعون جميعاً الآن وإلا سأترككم هنا».

ترجّل السائقُ من العربة وفتح الباب الخلفي، أشار إلى الرجل الجالس أمامي فزحفَ إلى الخارج ليساومَ على أجرة نقلِ أسرته. راقبتُ زوجته وأطفاله بقلق، متوتّرون من ابتعاده عنهم ولو بضعة أقدام فقط. ثم خرج ربُّ الأسرة التالي، نظرتُ إلى طفلي، راقبتُهُما يحدّقان في الرجلين بلا خجل.

«لا بدّ أن أكونَ لهما كلّ شيء».. قلتُ لنفسِي.

ترجّلتُ من الشاحنة لأقابلَ السائق، تركتُ عزيزاً على حجر سليم، ناولتُ السائقَ ظرفاً صغيراً وانتظرتُ فيما يعدّ النقود التي عدّتها من قبل مراراً.

«أنتِ وأطفالك تسافرون وحدكم؟»

أومأتُ برأسي.

«هذه مشكلة، لا أظن أن بإمكانني أخذكم معنا».

حاولت أن يظلَّ صوتي متماسكًا.

«ما المشكلة؟ نقودك كلها معك».

«أنت تعرفين ما المشكلة، أنا أخطر بعبور الحدود، لكن أنتِ امرأة بلا محرم... أنتِ تفهمين؟ تلك مخاطرةٌ أكبرُ بكثيرٍ بالنسبة إليّ ولم أكن لأفعلها مقابلَ هذا الثمن. هذا ليس عدلاً بالنسبة إليّ».

برغم تحذيراتِ عاصم من قبل، لكنني اشتعلتُ غضبًا حين سمعتُ منطلق السائق. إن تم إيقافنا، لن يدفع أحدٌ ثمنًا أكبر مما سأدفعه أنا، لكنني كنتُ مستعدةً، سأجاريه: «أرجوك، ارفق بي وبأطفالي، لم يعد لدينا شيء، كيف سنأكل؟»

«أختاه، كيف سنأكلُ كلنا، إن لديّ أطفالًا أيضًا، هل أبدو لك ملكًا؟ من سيرفُقُ بي أنا؟»

كانت الحدود قريبةً إلى حدٍ يمكنني لمسها.

«هذا كل ما لديّ»، قلتُ وأنا أخلعُ خاتمًا ذهبيًا بحجرٍ أزرق من أصبعي كرهًا.. «كان هذا هديةً زفافٍ من حماتي رحمة الله عليها، أدعو الله الآن أن يُطعمني أنا وأطفالي».

«الله كريم يا أختي»، قال وهو يلقي نظرةً سريعةً إلى الخاتم قبل أن يدسّه في جيبِ سترته.. «سيرزُقُ أطفالك».

صار الطريقُ وعرًا ما إن تركنا حدود هرات، حين توقفت العربة، حبسنا جميعًا أنفاسنا، وضعتُ يدي على سليم.

«لقد وصلنا الحدود»، أعلن السائق. «الممرُّ الذي يقف عليه الأمنُ على بعد عشرة كيلومترات من هنا. يوجد ممر بين الجبال

سأقودكم عبره. إنه ليس سهلاً لكن الكثيرَ عبروه من قبل.
أبقوا أطفالكم بقربكم وأبقوهم هادئين، راقبوا خطواتكم، توجد
حجارة زلقة، احذروا العقاربَ والثعابين، وأبقوا أعينكم على ضوء
كشافِي».

اقترب سليم وسميرة منِّي، قلقين من تحذيرات السائق، شعرتُ
بأنفاس عزيز من تحت الشادوري رطبةً وسريعةً على عنقي، كأنه
قلقٌ هو الآخر.

سرنا بحرص، نتبعُ الوهج الأصفر البعيد لكشافِ دليلنا، حين
سمعتُ همساً حانقاً من خلفي، دفعتُ طفليَ أمامي دون أن أتفوه
بكلمة، كانا خائفين بما يكفي وسط الظلال المجهولة، ظللنا
لساعات نشقُ طريقنا في الظلام، نسقطُ فتنخدشُ رُكبنا، وتلتوي
كواحلنا. سحبتُ الشادوري عن رأسي وتركته يتدلَّى على كتفي،
كالمرأتين الأخيرين. لفتتُ عزيز بقطعة قماشٍ قطنيٍّ وربطتها
حول جذعي، أمسكتُ طفليَ الآخرين بيديَّ فيما نبذلُ قصارى
جهدنا لنسيرَ بحرص.

انسحبتُ يدُ سميرة من يدي وسمعتُ صرخة.

«سميرة! ماذا حدث؟ أين أنت؟» بحثتُ عيناي عن ظلها.

«لقد سقطتُ مادر»، قال سليم بهدوء. «أنا أمسكُ يدها». ظلُّ

ممسكاً يدها وكاحلها ملتوٍ تحتها.

غمغمتُ سميرةً بهدوءٍ في الظلام.

«هل يمكنكِ الوقوفِ حبيبتي؟» راقبتُ المسافة بيننا وبين

الآخرين تتسع.

«أنهضها وساعدها على السير». همس السائق بحنقٍ فيهما.
«لا يمكننا التأخر».

تحسستُ كاحلها، لمستُ يدي شيئاً ما رطباً وداقناً فخمّنت أن
صخرةً جرحتها، دعوتُ الله ألا يكون الجرحُ سيئاً، أخذتُ طرحةً
من حقيبةِ ملابسنا وربطتها حول كاحلها.

ابتعد ضوءُ كشافِ السائقِ. خفق قلبي بقلق.

ضغطتِ ابنتي على نفسها، لاحظتُ عرجها، بذل سليمُ جهده
ليسندها وكان عليه السير بحرصٍ هو الآخر.
ليسامحني الله على وضعهما في هذه المحنة.

بعد ساعة، زلّت قدمُ الأم التي أمامنا، وهي تحملُ ابنتها ذا
العامين. حطّمت صرختاهما الصمتَ في الظلام.

توجّه ضوءُ الكشافِ إليهما. بدا وجهُ المرأة مرعوباً. «ماذا
فعلت؟» قال زوجها وهو يساعدها على النهوض. كانت ذراعُ الطفل
ملتوية التواءً بشعاً، انثنى بين المرفقِ والمعصمِ في كسرٍ واضح.
كانا جزعَين، أردتُ مساعدتهما لكنني لم أعرفَ كيف.

صرخ الطفلُ حين حاول والده لمسَ ذراعِهِ، وقف السائقُ يطل
عليهما، تنهّد بعمقٍ وبصق في الظلام قائلاً:

«انظرا، ليس بإمكانكما فعلُ شيءٍ له هنا، إن كان معكما شيء
ما بالسكر، أعطياه إياه، قد يُهدئه قليلاً، علينا مواصلة السير،
سينام بسرعة».

استمرَّ بكاءُ الطفل المتألم حتى طلوعِ الصبح، كانت أمّه تحملهُ
بحذرٍ شديدٍ وتبذلُ قصارى جهدها كي تمنعَ ذراعَهُ من الحركة.

صار السيرُ في الصباح أسهلَّ وصارَ الأصعبُ النظرُ إلى الأطفال. أعينهم مثقلة، وأقدامهم متورّمة نازفة وشفاهم متشقّقة .

توقّفنا للراحة نصفَ ساعة فحسب، سرعان ما سينتشرُ ضوؤُ النهار فوقنا، أخرجتُ القليلَ من طعامنا ومنحتُ طفليّ قضماتٍ قليلةً من البسكوت الذي أعدتهُ لنا رئيسة. سقيتُ عزيز قطراتِ ماء لكنه كان ما زال ناعسًا. أَرْضَعْتُهُ وهو تحت الشادوري. التقمّ ثديي بضعف.

تكور سليم وسميرة بجانب أحدهما الآخر وسقطا في النوم خلال ثوانٍ، كاحلُ سميرة متورّم وبنفسجي. بدأ جرحُها الصغير العميق في تكوينِ قشرة. انخلع قلبي للتفكير في ما بذلتهُ من جهدٍ للحاق بنا.

لأحْتِ إيرانُ في الأفق، توجد في انتظارنا عند سفحِ الجبل وعلى جانب طريقٍ صغيرٍ عربيّةٌ داكنة. أشار إلينا السائقُ لنتبّعهُ وهو يهرولُ نحوها، فتح البابَ وتكوّمنا جميعًا في الداخل، رائحةُ عرقٍ قديمٍ وأنفاسٍ لاذعةٍ معبأةٍ في مساحةٍ صغيرة. رأيتُ ارتياحي المترددَ مُنعكسًا في وجوهٍ من حولي. قطعنا كلَّ تلك المسافة لكننا ما زلنا قريبينَ جدًّا من الحدود. إن أوقفَ أحد ما الشاحنة، قد يُرسلوننا إلى نقطةِ التفتيشِ ويعيدوننا إلى أفغانستان.

جلس دليلُنَا بجوار السائق، تحدّثا بصوت خفيض وهما ينظران إلى الطريق أمامهما.

نظرتُ من النافذةِ إلى المشهدِ المُتربِّ في الخارج. رغم تشابهِ إيرانِ وأفغانستانِ في الألوانِ والروائح، بدتُ إيرانُ أجنبيةً وغريبة. كنا بعيدينَ عن موطننا.

تناغمتْ تأوهاتُ الطفلِ الصغيرِ مع بكاءِ عزيزِ، رقدتْ ذراعُه المنكسرةُ على صدره، متورمة، منثية وبنفسجية، كانت أمُّه تحدِّقُ إليه بعجزٍ وتمسُّحٍ دموعها. صاح زوجُها في السائق:

«عذرًا صاحبي، لكن يجب أن نأخذ ابننا إلى طبيب لأن ذراعَه في حالة سيئة جدًا وتؤلُّمُه بشدة».

«سوف يساعده مسؤولو الاتصال هناك على إيجاد طبيب».

«لكن أرجوك، لقد ظلَّ يتألَّمُ فترةً طويلة، حالته تزدادُ سوءًا كلَّ دقيقة».

«أنا لا أعرف مكان طبيب وأنت هنا في هذا البلد بشكلٍ غير شرعي، في حال نسيتَ هذا، إن أردتَ أن تكون بمأمن، عليك أن تنتظرَ حتى يأخذه مسؤولو الاتصال إلى مكان ما».

لحسنِ الحظِّ لم تسؤْ حالُ كاحلِ سميرة، ما زالَ متورمًا لكن الجرح يلبثُ، عزيز مشكلةً أكبر، ليس لديه الطاقة حتى لإحداثِ جلبة.

تكشَّفَ المشهدُ المفتوحُ عن مبانٍ وشبكةٍ من الطرق. أوقفنا المهرَّبانَ أمامَ بنايةٍ سكنيةٍ في تايباد، مدينةٌ على الحدود، مبنى من أربعة طوابق بنوافذٍ مغبشةٍ تطلُّ على الشارع.

«اخلفنَ هذه الشادوريهات والبسنَ تلك».. ألقى السائقُ بعباءتين سوداوين في خلفية الشاحنة ليتمكننا بهما الاندماج بين نساء إيران.

أرسلنا إلى شقةٍ في الطابق الثاني، اتجهتِ الأسرةُ الأخرى إلى الطابق الثالث.

«ليكن الله في عونك»، قلتُ للأُم ونحن نفترق: «أسألُ الله أن يشفي ذراع صغيرك سريعًا».

«وليكن في عونك أنتِ أيضاً، أختي الشجاعة»، قالت بصوت كبير. «ليحفظكم الله في هذه الرحلة».

كانت الرحلة من أفغانستان إلى إيران صامتةً إلى حدّ كبير، ليست مجالاً لتكوين صداقات، لم أستطع قولَ شيءٍ لأطفالي أنفسهم ولم يسعني تكوينُ صداقةٍ مع أي غريبٍ قد يأخذُ ولو قضيمة صغيرة مما لدينا.

انفتح البابُ وأشارت لنا امرأةٌ إلى شقةٍ ذات غرفتين، كنتُ ممتةً لوجود ماوى، تلك إحدى طرقِ الإيرانيين المتعاطفين لإيواء اللاجئين الأفغانٍ ولكسبِ بعض المال في الوقت نفسه. ارتحلتُ بشدةٍ لرؤية المرأة الغريبة بعد الرجلين الغربيين اللذين أوصلانا إلى هنا. قدّمت لنا وليمةً بسيطةً من الخبز والزيادي. نمنا بهدوءٍ للمرة الأولى منذ أيام.

بعد ليلةٍ واحدة، وضعونا في باصٍ محليٍّ وأرسلونا إلى شقةٍ مشابهةٍ في مشهد، مدينةٌ أكبرُ علينا البقاء فيها لنستعدَّ للمرحلة التالية من الرحلة، كان وقتنا في مشهد أسهلَّ نسبياً، نزلنا في استضافة أسرةٍ أفغانية تركتُ كابول منذ شهور، عبروا الدربَ الجبليَّ الغادرَ وصاروا بمأمنٍ من القبضِ عليهم ما إن دخلوا إيران، يعيشون كلاجئين على الكفاف لكنهم كانوا كرماء.

منحونا غرفةً ومكاناً لأخذ حمامٍ دافئٍ مقابل مبلغٍ زهيد. أكل الأطفالُ وعاد كاحلٌ سميرة إلى حجمه ولونه الطبيعيين. وناغى عزيز سعيداً، الصوتُ الأكثرُ إثارةً للسعادة في العالم. لقد استرددنا أنفسنا.

فتحتُ إيرانُ أبوابها وتقبلتُ حشودَ اللاجئين الأفغان وعاش فيها بالفعل عددٌ لا يُحصى منهم مهاجرين غير شرعيين، لكن إيران لم تكن في خطتنا أنا ومحمود قط. كان أفغانٌ كثيرون يشكون من المعاملة السيئة وندرة فرص العمل. إن أردتُ منح أطفالي فرصة حقيقية، علينا أن نواصل. كلما طال انتظارنا ثقلت أقدامنا.

في غضون شهرٍ كنت قد رتبتُ سفرنا إلى تركيا. حجزتُ تذاكرَ الباص إلى العاصمة طهران. بالعباءة السوداء الفضفاضة وأطفالي المتعبين، كنا ندوبُ بين المزارعين الإيرانيين المرتحلين بحثًا عن حياة أفضل.

من طهران استقللنا باصًا آخر وعبرنا الحدودَ إلى تركيا، استخدمنا هذه المرة جوازات السفر التي جاءنا بها عبد الرحيم، حدّق ضابطُ الجوازات إليّ وإلى صورتي في الجواز، ختمه وأعادهُ إلي بتريبتة كريمة على معصمي تجاهلتها في ظلّ تأشيرتنا المزوّرة.

صار بلدٌ آخر خلفنا. حاجزٌ آخرٌ بيننا وبين الحياة التي تركناها خلفنا. بدت تركيا أقلّ شبهًا بأفغانستان عن إيران. اللغة، الأرض، الطعام، كلُّ شيءٍ أجنبي إلى حدٍ أكبر. حين أعيدُ التفكير في الأمر، أجدُ أننا كنا نحنُ الأجانب، كنا نازحين إلى أراضٍ لا نعرفها وخائفين في كل خطوةٍ نخطوها من أن نُرسَل مرةً أخرى من حيث جئنا، قدرٌ لا يمكنني تخيله حتى.

كنت أقودُ أطفالي إلى المجهول وما سيحدثُ لنا أيًا كان، فهو مسؤوليتي. كان الأسهل عليّ أن أغمضَ عيني وأختفي، كي

لا أكون مسؤولةً عن وجبتهم التالية أو عن إبقائهم آمنين ونحن نعبّر الحدود، لكنهم يعتمدون عليّ، حتى سليم الذي يتجهّم وجهه كرجل كبير وهو يسألني عن قراراتي. ظلّ الشارب على شفته العليا، طريقةً حمله حقائبنا على كتفيه، ساعة اليد التي يُخفيها، إنه يعدّ نفسه رجلاً. بقدر ما أردتُه أن يفعل ذلك حقًا، كنت خائفةً عليه أيضًا. لا يفرق في النهر إلا مَنْ يثق في قدرته على السباحة.

كنتُ أحتفظ بكلّ النقود التي جمعتها من بيع أمتعتنا في حافظة خيطنها في ثوبي. احتفظتُ فيها بجواهري أيضًا. هذا كلُّ ما لدينا في سفرنا إلى إنجلترا التي اختارها محمود لوجود أقاربنا هناك. لم أكن واثقةً من أنه القرارُ الأفضلُ لكنّه أصرّ. لم أرغبَ في فرض نفسي على أقاربنا هناك، خصوصًا من دون محمود، لكنّ تغيير وجهتنا سيُعدُّ اعترافًا مني بأن فترةً ما من حياتي الماضية لم تعدّ تعنيني حقًا. لم أملك رفاهية المرأة العاطفية في الشؤون المادية، لكنني عاطفية بقدر ما أشاء في ما يتعلق بزوجي، لن أغيّر وجهتنا الآن. لن أغيّر شيئاً قرره محمود لنا. يجعلني هذا، بطريقة ما، أشعرُ بأنّ يدي ما زالت تمسك يده، أتبعُ خطاه.

كذلك لم تكن لديّ خطةٌ أفضل. سوف نذهبُ إلى لندن.

فريباً

18

وصلنا إلى مَنْغِن؛ قرية هادئةٌ محاطةٌ بمساحةٍ شاسعةٍ من الأراضي الزراعية. كان الهواءُ نقياً وذكَرني المشهدُ الأخضر ببستان أبي، في أول ظهيرة لنا هناك، انطلقنا للبحثِ عن مأوى، من حسن الحظ، كان محمود، خريج الجامعة، قد علّم سليم قدراً من الإنجليزية مكّنه من التواصلِ مع بعض المحليين على الأقل، كانت إنجليزيته أفضل من إنجليزيتي بلا شك.

«تعال يا سليم، لنذهبْ ونتحدّثْ إلى هؤلاء الرجال هناك»، قلت له وأنا أشيرُ إلى مجموعة رجالٍ يخرجون من مسجد. عدلتُ طرحتي، كنتُ قد خلعتُ العباءةَ الإيرانيةَ السوداءَ وارتديتُ طرحةً لأندمجَ أكثر في هذا البلد الجديد. تحسّن شعوري بالطرحة البسيطة، ذكّرتني بالأوقات الماضية.

«مادر جان، لماذا لا تنتظرين أنتِ هنا مع الصغيرين، الأفضل أن أتحدّثَ معهم وحدي، أنتِ لا تتحدّثين الإنجليزية جيداً في جميع الأحوال».

أردتُ أن أعترض.

«يمكنني هذا، مادر»، قال وهو ينظرُ إليّ مباشرة.

أومأت له برأسي.

راقبته وهو يسيرٌ من رجلٍ إلى آخر، يلوِّحُ كلُّ منهم بيده له، يهزُّ رأسه، يتجهَّم، يرفع كَتْفَيْهِ. نظر سليم حوله، رأيته يتحسُّ الساعة حول معصمه، نظر فيها سريعاً ثم انتبه لوجود مجموعةٍ أخرى تقفُ بجوار باب المسجد.

خرج من باب المسجد شيخٌ كبير، يرتدي بذلةً تبدو عليها آثارُ الاستخدام المتكرر، لفتَ نظرَ سليم كما لفتَ نظري. قامته، وشعره الأشيب والابتسامةُ الرقيقة على وجهه، لو عاش زوجي عشرين عاماً أخرى لبدا مثل هذا الرجل، هل خطرتِ الفكرة نفسها لسليم أم كانَ انجذابه له بشكلٍ ما آخر، لم أكنُ لأسأله. اقترب منه سليم بوجَل، أمال الرجلُ رأسه لسمعَ سليم جيداً ثم نظر نحونا، وطرفَ بعينيه.

كان اسمه هاكان يلماز. يعيشُ هو وزوجته، سينام، في منزلٍ متواضع على مقربةٍ من مركز القرية، عمل لسنواتٍ أستاذاً جامعياً وعملتُ زوجته معلمةً في مدرسةٍ إعدادية. لديهما ابنان صارا الآن رجلين كبيرين لكلٍّ منهما أسرة، حين تقاعدا انتقلا إلى مَنْفَن ليكونا بالقرب من إخوة هاكان. كانا عطوفين ومتواضعين، ومواكبين للأحداث أكثر مما توحى به قرئتهما الصغيرة. كانا ممَّن يرون أمماً أفغانية تسافر بأطفالها الثلاثة ويمكنهم تخمين ما وراء مشهدٍ كهذا.

أوضح له سليم أننا نبحثُ عن مأوىٍ مقابل مبلغٍ بسيطٍ لفترةٍ قصيرة، وضع هاكان يده على كتفِ سليم وقادنا إلى بيته حيث قابلنا زوجته سينام. امرأةٌ صغيرة الحجم بعينين ناعمتين أسعدها وجودُ رضيعٍ يُناغي في بيتها. رغم تقاعدها منذ وقتٍ طويل ما

زال لديها حضورُ المعلّمة. شعُرُها البني معقوص خلف رأسها في كعكة أنيقة وترتدي ثوبًا قطنيًا بسيطًا بلونٍ أزرق سماويٍّ وحزامٍ خصرٍ أدكن درجة. أحبّتها سميرةً على الفور.

منحانا غرفة نوم صغيرةً خالية ببابٍ خاصٍّ يؤدي إلى الخارج. يرحّبان باستخدامنا المطبخ، كما قالًا، دون أن يسألا عن مدة إقامتنا.

وجد قلبي حليفًا في سينام رغم اختلاف لغتينا. أخبرتها بالإشارات والإيماءات -التي لم تفهم أغلبها- أنني كنت معلّمةً في أفغانستان قبل نظام طالبان، وأن طفليّ قد تأخرا في الدراسة رغم الجهد الذي بذلته في تعليمهما في البيت.

كدتُ أزغرُدُ فرحًا حين وضعنا رؤوسنا على وساداتٍ ناعمة، بدفء بطوننا الشبيعةٍ وعطفِ الغرباء.

في الصباح التالي أحضرتُ سينام كرتونةً فيها كتبُ رياضياتٍ وقصصٌ بالإنجليزية. اتّسعت عينا سميرة بفرح أسعدني وجرحني في آن. أوضحتُ لسينام أن سميرة كانت مرحةً لكنها لم تتحدّث منذ أن غادرنا بيتنا، بدا أنها فهمت، ربطتُ بين وفاة الأب وصمتِ ابنتي، نظرتُ إليها وربّبت لها على المقعد الخالي بجوارها. جلستُ سميرة فيما تفتّح سينام الصفحة الأولى.

كنتُ أسمع صوتَ سليم من الغرفة المجاورة ومع أنني لا أعرفُ سوى كلماتٍ قليلة بالإنجليزية لكنني فهمتُ أنه يخبرُها كان أنه يبحثُ عن عملٍ، وأنه سيعملُ بكدٍ، وعده.

لم أكن قد تحدثتُ معه عن العمل. تركتُ سينام وسميرة وذهبتُ إلى النافذة. تحدثتُ هاكان عن مزارعٍ قريبةٍ يجد فيها المهاجرون عملاً. أردتُ مقاطعتهما لكنني لم أفعل.

حين وضع محمود يده على يدي للمرة الأولى لم يكن لديّ أدنى فكرةٍ عمّا سيصيره بالنسبة إليّ. من بين الصور الفوتوغرافية القليلة التي أخذتها كانت واحدة من زفافنا، كان حفلاً بسيطاً. ارتديتُ ثوباً أخضرَ زُمردياً، بكرانيش بدايةً من الخصر وحتى أسفله، وأشرطة على الكتفين. طلّت لي وجهي إحدى صديقات كوكوكل بمساحيقٍ تجميلٍ أثقلت شفتيّ وأهدابي بالألوان، وأقسمت أنني لن أضعها مرة أخرى أبداً. يرتدي محمود بذلةً سوداء، تتبسط ياقة قميصه على طيّي السترة وفي جيب صدره وردةٌ حمراء، ينظرُ بثباتٍ إلى الكاميرا لكنني أحدّق إلى الأرض مشدوهة.

حين نظرتُ إلى تلك الصورة، أردتُ أن أرجعَ إلى الخلف في الزمن وأخبرَ نفسي بأن أنظرَ إليه، إنه زوجي. أردتُ أن أخبرَ العروسَ بأنها، كالمدعوين القادمين متلهفين على حفل سعيد، يجبُ أن تسعدَ هي الأخرى لهذا الزفاف.

كان محمود أكثر من زوج، استغرق الأمرُ وقتاً لينمو حبنا لكنه ترعرعَ شتلاتٍ وبراعمٍ، تتغذى على الجيّد والسيئ في العالم حولنا. كل وعدٍ قطعناه، كل ضغطة يد، كل ابتسامةٍ سرية تبادلناها، كل مرة بكى أحدُ طفلينا وأرحناه، قرّبتُ كل لحظة من تلك اللحظات بيننا. في تلك الليلة، تلك الليلة المريعة حين انتزعَ من حياتنا، كانت المسافةُ بيننا قد اختفت، كنا ملتصقين معاً، زوجٌ وزوجة مرتبطان معاً ليس بعقد الزواج، بل بتناغم قلبينا.

لم يستطع الموتُ تفریقنا، كما عرفت، ما زال صاحبي معي،
يرعانا، زوجي الحبيب، ونحنُ نمضي قدماً نحو الغد.
«ستضعُ الأقدارُ الأمورَ في نصابها الصحيح في النهاية، وبعد
إنجاز العملِ فقط، سيزولُ أثرُ البكاء والليالي المورقة».
أردتُ أن أصدقه.

لكي تصلَ أسرتي إلى حياة جديدة، يجب أن أعتد على سليم،
يجب أن أعترف بأنه ليس طفلاً. كان محمود أفضلَ مني في منح
سليم المساحةَ لبسطِ جناحيه، أنا احتضنُ أطفالي، أخشى دوماً
أن أكون أماً مهملة، أريد أن أفعلَ لهم كلَّ ما لم يفعله أحدٌ لي.
أريدهم أن يشعروا بالرعاية والحبِّ والأمان. لكنني كنت أفضل.
ينظر إليّ سليم نظرةً مختلفةً الآن. ذهبَ البريقُ الصبباني،
النظرةُ الواثقة التي كانت تشعرني بأنني لن أخطئ أبداً، صار يقفُ
بجانبي وليس خلفي، حان الوقتُ لأمنحه المساحةَ التي يحتاجُ إليها.
لقد جئتُ بنا إلى هنا من كابول، عبرَ إيران وإلى تركيا. كانت
تلك رحلتي، قصتي.

بيدَ أن ما سيحدثُ لنا من الآن فصاعداً سيكون قصةً سليم
بقدر ما هو قصتي. لا يمكنني مواصلةَ سردِ قصته له. لن ينقصَ
من شأني كأَم إن تركتُ يده وتركته يقفُ على قدميه، أتمنى فقط
لو كان محمود معي ليخبرني بأن هذا هو الصوابُ وأنني لست
أماً سيئةً لسليم.

سمعت صوتَ زوجي الهادئ، شعرتُ بيديه تستقران على كتفي،
إن أغمضتُ عيني، سأحسُّ بقبلتهِ على جبيني.
دعيه يتحدثُ فيري. لقد حكيتُ قصتنا، دعني سليم يحكي
قصته هو الآن.

سليم

19

في الصباح التالي، أخذ هاكانُ سليمَ إلى حدود القرية حيث يتجمّع أناسٌ بوجوهٍ لوّحتها الشمس في مجموعات، رجالٌ ونساءٌ من كل شكلٍ وحجم، وأطفالٌ يمسكون تنانير أمهاتهم. أوضح هاكان أن الشاحنات ستقلُّ العمالَ إلى المزارع حيث الكثيرُ من العمل.

شعر هاكان بالقلق لتترك سليم، لكنه عرف أن وجوده لن يساعد. انعطف في شارعٍ وذهب لزيارة أخته. كان الوقت ربيعاً ودرجة الحرارة في ازدياد، حتى في هذا الوقت المبكر من الصباح. تحسّن سليمُ وجهه بأصابعه، لمس الشعيرات الناعمة على شفته العليا. هذا يوم ميلادٍ سليم جديد. كان عازماً على أن يكون رجلاً ومستعداً للتعامل هكذا. حتى أمّه نظرت إليه نظرةً مختلفةً هذا الصباح، كأنها شعرت بالتغيير فيه.

عزيز، الطفلُ النازح، يستطيع الجلوسَ والغمغمة الآن. وفي الغالب سيسيرُ خطواته الأولى خلال شهر أو اثنين، كما قالت مادر جان. راقبَ سليم أخاه الرضيع وهو ينمو وتمنى أن يتم تحوله رجلاً بالسرعة نفسها. أراد أن يكسو الشعرُ وجهه وصدرة وكلّ المواضع الأخرى المعروفة. كان يتفحصُ جسدهُ كله بحرصٍ حين يستحمّ، يلاحظ التغييرات التي لا يراها أحدٌ غيره. أراد أن

يمتلئ ساعده بشبكة العروق التي كان يراها على ساعدي أبيه. تذبذب صوته وتقرر لهذا كان نادراً ما يتحدث. سرعان، كما يأمل، ما سيلحق به صوته.

جعله شعوره بالمسؤولية تجاه أسرته والاحترام الذي بيديه له ها كان يشعر بأنه رجل حتى وإن لم يكن جسده كذلك، تجول بين الناس، يبحث عن وجوه مألوفة، لا يعرف ها كان أحداً من المزارعين ولم يسعه أكثر من توصيله إلى مكان التجمع هذا. لا يعرف سليم شيئاً مما سيحدث حين يصل إلى مزرعة لذلك يبحث عن شخص ما قد يساعده.

كان أغلبهم أكبر منه سناً، يدخنون السجائر وهم يطرفون بأعينهم تحت شمس الصباح الساطعة. كانوا جميعاً قرابة ثلاثين شخصاً. اتخذت النساء جانباً معاً في مجموعة موسعة، بعضهن يرتدين طرَحَ رأسٍ مثلثة بألوان زاهية، يربطن طرفيها أسفل ذقونهن ببساطة، بقمصان متواضعة بأكمام طويلة وتنانير تصل إلى كواحلهن. كانوا في المجمع مجموعة عشوائية، فسيفسائية تشوش العين.

أراد سليم أن يقترب من مجموعة النساء لكنه تراجع، إن أراد أن يُعامل كرجل، فعليه أن يتصرف كذلك. أخذ نفساً عميقاً وجلس على الرصيف بجوار رجلٍ بدا في الأربعين من عمره، فرك سليم راحتيه بوركيه، يفكر في كيفية بدء حوار، تتحَنج الرجل بخشونة من حلقه وبصق بصقة صفراء سميئة ومتجمدة على جانب الطريق، لو كان باباً قد انغلق في وجهه لبدا ذلك أكثر ترحيباً.

انقلبت معدة سليم، وقف ونظرَ إلى ساعته، لمس سطحها
ومرر أصابعه على رباطها الجلديّ البالي، يقفُ خلف الزحامِ
ثلاثة رجالٍ في أواخر الثلاثينيات، يثرثرونَ بهدوءٍ، سار نحوهم
فسكتوا عن الحديث حين اقترب منهم.

«مرحبًا. هل تعملونَ في مزرعة؟» سأل بصوتٍ متباين النغمات،
فشعر بسخونة في وجهه من الإحراج.

تفحصوه جيدًا، أوماً أحدهم برأسه، يرتدي قميصًا أخضر
ليمونيًا وسروالًا كحليًا، بدا أنه أكبرُ الثلاثة سنًا. فوجئ سليم
حين سأله بالبشتو:

«أأنت أفغاني؟»

تتحدثُ عائلة حيدري الدارِية، لكن سليم يمكنه تمييز وفهم
محادثةٍ أساسية بالبشتو أيضًا، فأوماً برأسه إيجابًا.

«نعم، نعم أنا أفغاني!»، أكد بالدارية.

«أجئت للعمل؟» سأله آخرُ بغرض التسلية.

«نعم، وصلنا إلى هنا منذ أيام فقط»، مزج سليم بين الدارِية
والبشتو، بدا أنهم يفهمونه.

«أنت بصحبة أشخاص إذن؟»

«نعم، أسرتي، أمي وأختي وأخي». أخرج أحدهم سيجارةً
نصفها مُدخن من قبل وأشعلها مجددًا، ارتفع حاجبُهُ بسبب عدد
أفراد الأسرة.

«من أين جئت؟»

«من كابول، ذهبنا إلى هرات ثم إلى إيران، ومنها جئنا إلى
تركيا لكننا نحاولُ الوصولُ إلى إنجلترا».. شعر سليم بالارتياح

لعثوره على أفغانيين، كأنه رأى لافتة شارع أكدت له أن مساره الصحيح.

«إنجلترا؟ هاه؟» قالوا ضاحكين. «بأم وطفلين آخرين؟ إن السفر وحدك صعبٌ بما يكفي، إن كنت ذكيًا، ابق هنا واعثر على طريقة لكسب عيشك دون أن يُلقى القبضُ عليك، هذا كلُّ ما يمكنك أن تأمله.»

لم يقدِّر سليم تشاؤمهم، فقرر تغيير الموضوع.

«كيف تجدونَ عملاً في المزارع؟»

«سترى، وستتمنى حينها لو لم تسألَ قط، تأتي الشاحناتُ وتقلِّك إلى مزارعٍ بمساحاتٍ لم ترها في حياتك من قبل، تذهب إلى البيوتِ فيها للبحث عن مزارعٍ يمكنه الدفعُ مقابل يوم عملٍ واحد، سيعرضون عليك مبالغَ مقرفةً أكثر من فضلاتِ الحيوانات التي ستنظفها.»

«كم يدفعون؟»

«وهل هذا يهم؟ لستَ في موقفٍ يمكنك فيه التفاوض، إن استطعتَ نيلَ شيءٍ ما لتأكله، كُلّه. هذا ثاني أفضل شيء بعد النقود.»

أخيراً تحدّثَ من كانَ يُدخِّن، يريد أن يسألَ عن شيءٍ ما.

«أين أسرتك الآن؟ هل هم هنا؟»

«نعم، نقيمُ مع أسرةٍ تركية، زوج وزوجة. أعطيانا غرفةً صغيرةً، لكنني لا أعرفُ إلى متى.»

«ولديك أخٌ وأخت؟»

«نعم، وأمي.»

«يا صديقي، ما اسم أختك العزيزة؟» قال بغمزةٍ منحطةٍ.

جزَّ سليم على أسنانه وغمغم: «شكرًا على المعلومات». أومأ برأسه لصاحب القميص الأخضر وتجاهل الآخرين. جُرِحَتْ كبرياؤه، سار مبتعدًا يشتعلُ غضبًا من معاملةِ أبناءِ بلدهِ له، كأنه عاجزٌ عن الدفاع عن شرفِ أسرته، لعنَ غيابَه لصراحتِه على هذا النحو مع غرباء.

انعطف في أحدِ الشوارعِ فوجدَ نفسه يحدِّقُ إلى نافذةٍ عرضِ محلِّ سيراميك، كان زجاجُها مغبشًا بنحوِ أشعره أنه يحدِّقُ إلى زمنٍ مختلف. في الداخلِ رجلٌ أربعينيٌّ يكنسُ الأرضَ ببطء. أينما يولِّي وجهه يَرى أباه.

كان قد رآه في هاكان حتى. شيء ما في طريقةِ خروجه من المسجد، لمحةُ السلام المنعشة في وجهه بعد الصلاة، ذكَّرتُه بأبيه، موجود في كلِّ مكانٍ وليس في أيِّ مكان. أعادتهُ أصواتُ المحركاتِ إلى الواقع، هرعَ إلى الجمعِ وجلسَ في خلفيةٍ إحدى الشاحناتِ الثلاث متكومًا في الركن. حرصَ على الابتعاد عن الأفغانِ الذين قابلهم.

كانت المزارعُ مثلما قالوا بالضبط؛ بيوت مشيدةٌ في ملكياتٍ خاصة، تفصلُ بينها فدادينُ من الحقول الخضراء. حين توقفتِ الشاحنات، ترجَّلَ الركبُ بحقائبهم القماشيةِ الصغيرةِ وتفرَّقوا صوبَ المزارع. وقف سليم على الطريقِ الترابية، حائرًا راقبَ العمَّالَ متيني البنيةِ يتفرَّقون يمينًا ويسارًا. رأى امرأةً عجوزًا تسير بخطوات بطيئة، نقرُ عصاتها يحدِّدُ إيقاعها. بدا أنها تتجه صوب بيتٍ أصفرٍ متهاالكٍ، فتبعها.

أمام البيت، يوجدُ فتى لا يزيد عمره على ثمانية أو تسعة أعوام يغسلُ حمارًا بنيًا مغبرًا. كان البيتُ مترامي الأطرافِ وفي حالةٍ أسوأ من البيوتِ المجاورةِ لكنه محاطٌ بفدادينَ شاسعةٍ عامرة بالمحاصيلِ، بالتأكيدِ سيحتاجُ هذا البيتُ إلى مساعدة، إذ يبدو أن المرأةَ العجوزَ هي المساعدةُ الوحيدةُ فيه.

تركها سليمٌ تقوُّدُ الطريقِ إلى البيتِ.

في منتصفِ الطريقِ نظرتُ إليه من أعلى كتفها دون أن تتوقفَ عن السيرِ، كانت متجهمةً. أسرع سيره حتى اقتربَ بما يكفي ليرى التجاعيدَ في وجهها الذي لوحتَه الشمسُ، تتحنَّحَ قائلاً: «مرحبًا». لم تبدُ أفغانية، شعرها رماديٌّ وحليق كالرجال وترتدي ثوبًا مطبوعًا بالزهور، من قماشٍ خشنٍ جدًّا، بدا أنه يحومُ حول قدميها دون أن يلمسهما.

نظرتُ إليه وغمغمتُ برِدِّ ما. أشار إلى البيتِ الأصفرِ أمامهما وسألها إن كانوا في حاجةٍ إلى مزيدٍ من المساعدة، عقدتُ حاجبيها وهزّت رأسها، لم يكن متأكدًا إن كانت قد فهمتُ سؤاله، فواصلتُ سيره.

بأفضل ما لديه من إنجليزيةٍ عرض سليمٌ مساعدتهُ على مستر بولات، المالكُ الطويل. نظر إليه مستر بولات من أعلى إلى أسفل، رفعَ كتفيه وقدمه إلى الحياةِ عاملاً مهاجرًا.

في نهاية اليوم الأول، تلكأ سليمٌ في الرحيل، ظنًّا منه أن المُزارعَ سيدفع له أجرَ عمله، لكن مستر بولات هزَّ رأسه، لن يدفع أجرَ يومٍ تدريب، وأخبر سليمٌ أن يعود غدًا ليأخذ أجره.

ظل سليمٌ صامتًا حتى عاد إلى الطريقِ المتربةِ وقتَ الغروب، ركل

الأرض وبسق عليها. راقبتُ المرأة التي عملت معه دون أن تبس بكلمة. في انتظار الشاحنة التي ستعودُ به إلى القرية، مدّ يده في جيبه وأعاد ربّط الساعة حول معصمه. كيف سيشرحُ لمدار جان أنه عمل منذ الصباح وحتى المساءِ بغيرِ أجرٍ؟

عملٌ مجبراً أربعة أيام كاملة بلا مقابل سوى قطعة دجاج مشوية بين شريحتي خبز جاف، كان يقطفُ ثمار الطماطم حتى يؤلمه ظهره وتتخدرُ أصابعه، كانت المرأة التي تبعها إلى البيت أول يوم أرمنية، عرف هذا في وقت لاحق من الأسبوع، مع أنها لا تتحدثُ الإنجليزية لكنها أوضحتُ لسليم شيئاً مهمين. أولاً، التمييز بين الثمار الناضجة وتلك التي لم تتضج بعد بالحجم والوزن، وثانياً أن بولات سيدفعُ له في النهاية. تسامح سليم في أسبوع عمل بلا مقابل لقلّة حيلته وخوفه من أن تستغرق المحاولة في مكان آخر فترة تدريب مماثلة.

في نهاية الأسبوع، ناول بولات سليم ورقات نقدية قليلة مجمعة. لا نقاش ولا مساومة، حدّق سليم في النقود في راحته، لم يقل شيئاً، أوماً، لم تكن تكفي لشراء وجبة واحدة فقط لأسرته.

منذ ذلك اليوم بدأ يتلقّى أجره في نهاية اليوم لكنّه كان مبلغاً زهيداً بالقياس إلى عدد الدلاء التي يعبئها بالطماطم من الحقول. حين رأت المرأة الأرمنية أصابع سليم تعبتُ بنقوده بحزن، غمّمت هي الأخرى بشكوى ما بلغتها.

تشققت أظافره وامتلات بالطين، ظهرت العقد بالفعل في راحتيه وأصابه. صار لوجهه مذاق مالح من كثرة العرق لكنه يشعر بشعور جيد، لقد عمل كرجل كما كان أبوه ليفعل، لم يكسب الكثير، لكنه يسلمه كلّه لأمه بفخر.

لم يسأل هاكان سليم عن أجره، كانت سينام تأخذُ النقودَ القليلة التي تعطيها إياها مادر جان بهدوءٍ وتفققها سريعاً على الطعام الذي يتشاركان فيه وآل حيدري. بديا سعيدين بوجود أطفال، وبذلتَ مادر جان قصارى جهدها للاعتناء بالبيت. كانت تكنسُ وتغسلُ الأطباقَ والملابس فيما تدرس سينام سميرة الصامتة المنتبهة جيداً. كانت سميرة تنقر بقلمها الرصاص وتتنظرُ إلى سينام حين تنتهي من حلِّ المسائل الحسابية.

ارتاحوا في مَنْعَن، لكن سليم كان قلقاً.

«مادر جان، سننزلُ هنا إلى الأبد دون أن يمكننا ادخار ما يكفي للسفر إلى اليونان، ربما يمكننا الاقتراض من أحدِ أقاربنا؟ هل يمكننا الاتصال بإنجلترا؟»

جفتُ مادر جان يديها في مريولها وتنهَّدتُ:

«كنت أفكّر في الشيء نفسه بُني، سأحاول الاتصال بهم، لكنني لا أظنُّ أن لديهم الكثير لإرساله، آخر مرة اتصلتُ قال عمُّك إنهم بالكاد يوفرون مصاريفَ دراسة ابنتهما، ربما تحسّنت الظروف الآن. ليس لدينا حلٌّ آخر.»

بدأتُ تفكّر بصوتٍ عالٍ: «ربما ليس علينا الذهابُ إلى لندن، ربما يمكننا البدء في مكانٍ آخر.»

لكن لا يوجدُ مكانٌ آخرٌ للذهابِ إليه. تفرق شمل العائلة في الهند وكندا وأستراليا. في الهند فرصُ الحياةِ الأفضل قليلةٌ. أما كندا وأستراليا فلا يمكنُ دخولهما سوى بتأشيرة.

استتدتُ بظهرها إلى المنضدِ وحدقتُ إلى السقف، بدأتُ بالأمس في تنظيفِ بعض البيوتِ المجاورة، بفضل إشادة سينام

بها، لكن هذا لا يكفي للاستغناء عن عملِ سليم، نظرتُ إلى ابنها.

«الأمرُ سيئٌ جدًّا في المزرعةِ أليس كذلك؟»

كان قد بدأ يحدثُّها عن العمل في المزرعة بعد يومه الثاني

هناك لكنَّ نظرةَ عينيها جعلته يتوقَّف فجأة. ابتسم وهزَّ رأسه.

لأنَّ وجهها، سيَنجُونَ بهذه الطريقة، بأنَّ يخبرَ أحدهما الآخر بأنَّ

الأمرَ أفضلُ الآن مما كان عليه من قبل.

سليم

20

جعلَ مسترٌ بولات أيامَ عملِ سليم ذات الأربع عشرة ساعةً طويلةً وشاقة، كان شهرُ أغسطس ذروةَ موسم الطماطم، العملُ كثير حتى في مزرعةِ بولات المتداعية، بتربتها الأكثر تحجراً من المزارع المجاورة.

تعلم سليم معرفةَ الوقت من موقع الشمس في السماء. يظل منذ الصباح يراقبُ ظلَّه يطولُ شيئاً فشيئاً حتى يصلَ يومه إلى نهايته. يحصلُ على ربيع ساعةٍ راحةً حين تُحضّرُ زوجةُ بولات الساندويتش، كل يوم الساندويتش نفسه مع كوبٍ ماء فاتر. مع ذلك كان الطعامُ يهدئُ قرقراتِ معدتهِ والماءُ يُطفئُ حريقَ حلقه الجاف.

لمستر بولات وزوجته أربعة أطفال، الفتى الذي رآه سليم في اليوم الأول، أوسطهم، أحمد، بعده فتاتان توأمتان، عمرهما قرابة ثلاث سنوات، أكبرهم فتاة، إكين، اسمها بالتركية يعني «الحصاد». إكين في سنِّ سليم تقريباً، نحيلة وطويلةٌ مثل أبيها ولها ملامحُه، لم تكن جذابةً حتى لفتى مراهقٍ لاجئٍ، بشرتها ملأى بالبثور وخصلاتٌ شعرها مجمّدةٌ كسلكٍ تنظيفِ الأواني.

رأت إكين سليم من بعيدٍ وهي تساعدُ أمها في نشرِ الملابس على حبل الغسيل خلف البيت، بنهاية أغسطس كانت قد أنهت

عامها الدراسي وراحت تتجوّل في المزرعة من باب الضجر، تقضي أوقاتاً متزايدةً مع سليم والمرأة الأرمنية. كانت تحب المشي خصوصاً حين ينظّف سليم الحظيرة، مهمةٌ جديدةٌ أكلها إليه مستر بولات لأنها تحتاجُ إلى جهدٍ أكبر من طاقةِ امرأة. كانت الحظيرةُ مأوى لحمازيّن، وثلاثٍ من الماعز وعددٍ من الدجاجات. هواؤها ثقيلٌ ومحمّلٌ برائحة الفضلات والصوفِ المبلل. لم يكن سليم قد نظّف فضلات حيواناتٍ من قبل، فألهبت الروائحُ فتحثي أنفه. كان يخشى تلك الأيام حين يربّتُ مستر بولات على كتفه وهو يمد يده له بجاروف ويشيرُ إلى الحظيرة. قضى بولات دقائقَ قليلةً ليوضّحَ له ما ينبغي فعله ثم سار مبتعداً.

جمع سليمُ القشَّ والترابَ الرطبيّن في عربة اليد ودفّعها إلى ركن في المزرعة حيثُ يوضع الروثُ ليتحلل إلى سماد، علقت الرائحةُ الكريهةُ بملابسه وجلده. وظل يبتعد ما أمكنه عن الناس في طريق عودته إلى البيت مساءً لعلّمه أن رائحته كريهة.

كان يجاهد ليتنفّس من فمه فيما إكين تتجوّل بتكاسلٍ خارج أبواب الحظيرة المفتوحة روحةً وجيئةً. بدأت تتخنّج وهي تمرّ، ثم بدأت تجلسُ على صندوقٍ في الركن كمشرفٍ عام على عمله. كيفَ ولماذا تتحملُ معدتها تلك الروائح التي تزكّمُ أنفه. ثم ذات يوم بدأت تتحدّثُ معه بإنجليزيةٍ مكسّرة بدائية.

«ليس جيّداً»، قالت تُبدي ملاحظتها: «ما زالتَ قذرة».

«لم أنتهِ بعد»، أجابها سليم وعيناه إلى الأرض، ظن أن الأب التركيّ قد يشبهُ الأفغانيّ حين يتعلّق الأمر بالفتيات، لم يرغب في إثارة مشكلات مع بولات، كانت تُمسك كوبَ ماءٍ في يدها، جرعتُهُ بصوتٍ عالٍ.

جَفَّفَ تَرَابُ الحَظِيرَةِ لِسَانَهُ وحلقه، أغضبه صوتُ جَرَعِهَا الماءَ لكنه لم يقل شيئاً .

«ما اسمك؟»

حين لم تتلقَ إجابةً كررتُ سؤالها، بصوتٍ أعلى وبضيق: «قلتُ لك ما اسمك؟»

«سليم»، غَمَمَ يجيبها .

«سليم؟» قالت وهي تلعبُ بشعرها السلكيّ، تمسك أطرافه، تتعرقُلُ أصابعها في عقده: «لا أعرفُ هذا الاسم؟ أهو اسمُ فتاة؟» عبس وأجابها: «لا» .

«لماذا لا تتطّفُ هناك؟ ستظلُّ الرائحةُ إن لم تتطّفُ هذا، ستمرضُ الحيوانات، لن يكونَ أبي سعيداً» .

ظلَّ زاماً شفتيه، أنهى عمله بأسرع ما أمكنه وعاد إلى الحقولِ حيث رفعتِ المرأةُ الأرمية حاجبها وأومات برأسها صوب الحظيرة. حين هز سليم رأسه بضيق ابتسمت، بدأ يفهمان أحدهما الآخر .

بعد ذلك بأسبوع، رأتُ إكين سليم يتجّه نحو الحظيرة، فتبعته، قلبت الصندوق وجلستُ عليه، مددتُ ساقها أمامها .

«الصيفُ حارٌّ جداً، أنا في البيت طوالَ الوقت، الوقت طويلٌ جداً المدرسةُ أفضل، الأفضلُ أن أرى أصدقائي» .

لم يُسكتها صمتُ سليم .

«هنا، لا يوجدُ شيء، لا يمكنني التحدثُ مع أصدقائي، أنا وحيدة»، سكتت قليلاً، ثم عاودت، «أنت لا تذهبُ إلى المدرسة لذلك فلن تعرف، هل ذهبتُ إلى المدرسة؟»

جرف سليم الروث بقوة .

«أعرف أنّ العمال لا يذهبون إلى المدرسة، لكن أبي وأمي يقولان إن عليّ أن أدرس لتلا أكون عاملة، يقولان إنني يجبُ أن أكون متعلمةً ونظيفةً لتكون حياتي أفضل. لماذا لا نتحدث؟ من الجيد أنك لا تذهبُ إلى مدرسة، في المدرسة يأمرُكَ المعلمون بالتحدث!» ضحكّت، تنقُرُ بكعبيها الأرضَ المغطاة بالقش.

جلجل صوتُ مسز بولات، وقفت إكين بتهيدةً ثقيلة. نفضتِ القشَّ عن بنطالها من الخلف وغادرت الحظيرة، رمقته وهي في طريقها إلى الخارج بنظرة فضولية. شعر سليم براحةً لمغادرتها. الدقائق القليلةُ معها أشقُّ عليه من يوم عملٍ لثلاث عشرة ساعة. عادت مرة أخرى قبل أن يستمتع بالصمت التام تحملُ ساندويتش غدائه.

«تفضّل»، صاحتُ من عند باب الحظيرة. توقفتُ ونظرتُ إلى لفةِ الساندويتش في يدها، رفعتها إلى وجهها، قربتها منه جدًّا حتى رأى سليم أنفها يمسُّ اللحم: «إنها جيدة، أناكلُ معاً؟» جلستُ على الصندوق، وفيما يقتربُ منها لأخذِ الساندويتش قسمته نصفين بحرصٍ وناولتهُ أحدهما. راقبها سليم بغضبٍ وهي تلتهمُ الخبزَ واللحمَ بين أسنانها. «هذا طعامي». قال معترضًا.

«لكننا نأكلُ معاً»، قالت مرتبكة: «مثل صديقين، أوك؟» «لا، لا، لا، لا، ليس أوك!» ألمه ظهره، حرقته أطرافُ أصابعه وقرقرت معدته بغضب.

بدتُ مدهوشةً من رد فعله. ترددتُ لحظةً ثم وقفت، مدت يدها في جيبها وأخرجتُ كيسَ حلوى فيه كعكتان صغيرتان. ألقت به على الصندوق وخرجتُ من الحظيرة دون أن تتطوَّق بكلمة.

لم يفكر وهو غاضب سوى في أنه سيظلُ جائعًا لبقية اليوم، لن يعينه نصفُ الساندويتش الذي تركته له ولا جدوى من الشكوى لبولات أو لزوجته. ألقى بالجاروفِ على الأرض ودفعَ بنصف الساندويتش في فمه. نظر إلى الكعكِ وتساءل ماذا يكون وهو يلتهمه.

لم تكن إكين تغامرُ بالخروج إلى الحقولِ لكنه يشعرُ بعينيها عليه من بعيد، تراقبه يجمعُ الطماطم وتتظاهرُ بقراءة كتاب، لاحظت المرأةُ الأرمنية حضورها أيضًا وطرقعتُ بلسانها استنكارًا. وضعت إصبعها على شفيتها وهزّت رأسها. أشارت إلى ستة صفوفٍ من نباتات الطماطم ما زالَ عليهما جمعها وربتت على جيبها.

لا تقل شيئًا، كانت تخبره، عُد إلى العمل لكسب عيشك.

عرف سليم أنها نصيحةٌ سليمة. كان نادرًا ما يقلق بشأن النقود وهو طفلٌ صغير. يتساءل فقط إن كان ما معه يكفي لشراء قطعة حلوى أم زجاجة مياهٍ غازية من السوق. لم يكونوا أثرياء لكن بادر جان يحرصُ على أن يكونَ معهم الكثير. بعد وفاته، صارت مادر جان تقتصدُ في الإنفاق وتخصصُ مبالغَ صغيرةً للبقالة والحاجات الضرورية. كان يعرفُ أن لديهم القليل لكنه لم يخطرُ بباله أن ينفد ما معهم تمامًا. الآن بعد أن صار يُعطي مادر جان كلَّ أجره، فهمُ أن وضعهم المالي متأزمٌ بشدة.

نحن، كثيرًا جدًّا، فُكّر سليم وهو في الشاحنة في طريق عودته إلى البيت، تذكرُ ظرفَ النقود السميكَ الذي أعطته أمّه لعبد الرحيم مقابلَ الوثائق، ثمَّ الوثائق، الطعامَ، وأجرةَ التهريب

مضروبةً في أربعة، ترك كل هذا عائلةً حيدري على الكفاف. كانت سميرةً صغيرةً جدًا لتفهمَ العمل الشاق الذي يقوم به سليم يوميًا، ظلت في البيت لتساعدَ مادر جان لكن فقط في الأوقات التي لا تعملُ معها سينام لتلحقَ بدراستها. أما عزيز فكان الأكثرَ تطلبًا.

خجل من أفكاره، إنه يحبُّ أخته وأخاهُ بشدةٍ لكن الإحباط والإرهاق كانا يغلبانه.

كل يوم، تحتاج أمه منه إلى المزيد. تجاهل رغبته في أن يرتمي في حضنها، لا مجال له ليكون طفلًا، ما زال يتألمُ لفقدانه والده، لكنه يفكرُ كثيرًا أن قراراتِ والده هي ما عرّضت حياتهم للخطر. في ليالٍ أخرى لا يستطيعُ النومَ فيها، يندمُ على شقاوته في طفولته وعلى كلِّ مرةٍ أغضبَ فيها والده. كان كتلةً من المشاعر حين يتعلقُ الأمرُ بأبويه.

أصبح الآن هو المسؤولُ عن كسب عيش الأسرة، كلما فكّر في هذا زاد شعوره بأنه ربُّ الأسرة وقلَّ ترحيبه بأخذِ أوامر من آخرين. كان يُبقي على غرور المراهقةِ لديه تحت السيطرة مع مستر بولات لكن حين يتعلقُ الأمرُ بوالدته، كان يفقدُ السيطرة على لسانه، فيقول أشياء لم يكن يجرؤُ على قولها قبل عام، يسدُّ إليها نظراتٍ يعرفُ أنها تتجاوزُ الحد لكنه يسمحُ لنفسه بها. كان يعملُ ساعاتٍ طويلة، يُطعم الأسرة ويرغبُ في احترام آرائه.

عاد ذات مرة إلى بيت آل يلماز ليجدَ أمه تتظفُ المطبخ. سميرةٌ والرضيعُ نائمان.

«أهّما بخير؟» قال وهو يُلقِي بنفسه على مقعد.

«إنهما بخير، مع ذلك عينا عزيز تبحثنِ عنك».. قالت بابتسامة باهتة، وضعتْ طبقَ الطعام أمامه وجلستْ معه وهو يأكلُ، لا شيء بخير، كان يعرفُ، لكنها لن تُثقلَ عاتقَ ابنها الصغير بالهموم، إنه يفعلُ ما بوسعه.

من الجيّد أن يشعَرَ بك أحد، فكّر سليم، وهو يرقدُ على وسادةٍ ويغمض عينيه.

فريباً

21

«لماذا يمرضُ طوالَ الوقت؟» سألَ سليم. دخلَ فوجدني أحممُ أخاه الرضيعَ باسفنجة، كان عزيزٌ شاحباً وعصبياً، تقياً مرتين بالفعل.

لففتهُ بمنشفةٍ وأرقدتهُ على الأرض برفق، لا أعرفُ بمَ أجيبُ سليم.

«ظنني أنه التغيير، الهواء، الطعام، كلُّ شيءٍ مختلفٌ هنا، وهو صغيرٌ جداً، لا بد أن جسده يجد صعوبةً في التكيف». وضعتُ قطراتٍ من زيت الزيتون في راحتي وفركتهما لأدفتهما. بدا عزيز حتى وأنا أدلكُ له صدره وبطنه غيرَ مرتاح. «ربما يحتاجُ إلى بعض الفيتامينات لتقويته».

لم يكتسبَ وزناً كثيراً منذ جئنا إلى تركيا، كنتُ أحاولُ بكلِّ ما يُمكنني، أستخدمُ الكلماتِ التركيةَ القليلة التي تعلمتها في السوق لشراء الفاكهة والخضروات. هافوك، بازلاء، موز. حين تخذلني الكلماتُ الجديدة ألجأُ إلى لغة الإشارة البدائية. نقبتُ في أجولة الأعشاب ووجدتُ ما أعرفُ خواصَّها العلاجية، غليتها وسقيتُ عزيز ملاعقَ منها. كنتُ أطعمه أفضلَ السبانخ الخضراء، وأطرى ثمارِ الكمثرى، وقطعَ لحم ممضوغاً بمزيد من الدهن. لا شيء من كل هذا أضافَ إلى وزنه ولو رطلاً.

ذهب سليم إلى المطبخ، سمعتُ تنهيدته العميقة وصوتَ جرّ الكرسى الخشبيّ على الأرض. لا أحد منا مقتنعٌ بتفسيرى. «سنأخذُه إلى الطيب غداً»، سمعتُ سينام تقول.. «تناول عشاءك، المعدةُ الخاوية ستزيدك كدرًا فقط».

كانت سميرة في المطبخ أيضًا. ذهبتُ لتعدّ لأخيها العشاء حين سمعته يدخلُ من الباب. تحولت كل مشاعرها لأبيها تجاه سليم، غرامٌ عميق يأتي مع التوقعاتِ والحاجات. وكانت هي المعطفُ الشتويّ الثقيل الذي يُدفئه لكنه يُبطلُ خطوه.

كانت تبذل جهدها للمساعدة. تهرسُ الفاكهة والخضروات لطعام عزيز، تراقبه فيما أنظفُ بيوتَ الجيران أو أقومُ بمهامٍ صغيرة. كانت دائمًا ما تبدو منهكةً حين أعود.

قلتُ لها: «عزيز ليس سهلًا يا حبيبتي. إنه ليس بأفضلِ حالٍ وهو معي».

لكنها لم تقتنع.

سرتُ وسينام في الطريق الطويل في القرية إلى عيادة الدكتور أوزديمير الذي كان يفحصُ أبناءها منذ سنوات مضت. ما زال يمارسُ الطبَّ بعد أن انضم إليه ابنه. بيتهما عند الطرفِ الآخر من القرية، يفحص الأبُ وابنه المرضى في غرفةٍ صغيرة ملحقة بالمنزل، المكان بسيطٌ ومريح، قدمت لنا زوجته طبقَ بسكوت.

كنت قلقةً جدًا لأتناول أي شيء. قرأتُ مسز أوزديمير الخوفَ في وجهي ولاحظتُ أنها تريدُ قولَ شيء لكننا لا نتحدثُ اللغة نفسها، تبادلتُ كلماتٍ قليلةً مع سينام ووضعتُ يدها على كتفي لطمأنتي.

نظرتُ إلى ابني، رأيتُه للحظة بعيني مسز أوزديمر، خصلاتُ شعره ملتصقةٌ بجبينه الرطب، بدأ حجمُ رأسه يبدو كبيراً بالنسبة إلى جسده، لم يبدو بخير، يجبُ أن أعترف، مرَّ وقتٌ طويلٌ جداً منذ أن رأيتُه يبتسمُ أو يغمغم بشيءٍ ما. لم أتخيلُ موقفنا دون كرم هاكان وسينام البالغِ معنا. تساءلتُ كيف أستطيعُ رد جميلٍ هذين الغريبين عنا تماماً على كلِّ ما فعلاه لنا.

تلوَّى عزيز منزعجاً لأحمله في وضع مريح، يكره أن أرقده، أعرفه جيداً لكنني لا أستطيع تخمينَ ما به، لا أعرفُ سوى أنه ليس كطفليَّ الآخرين وكان ذلك يُرعبني.

دخل الدكتور أوزديمر الغرفة، تلاشتِ ابتسامته الدافئة حين تقابلتُ أعيننا، أدركتُ كم بدوتُ له مهمومةً ونهضتُ لأحييه. له شعرٌ رمادي كَثٌّ وكرشٌ صلبٌ أعلى حزامه، وثقتُ به وفي شعره الفضي على الفور وعرفتُ أن زيارته ستعود علينا بخير. أوما لي برأسه تحيةً وأشار لي كي أعاودَ الجلوس. سحب كرسياً آخر من أسفل المنضدِ وجلس قبالي.

استطعنا بمزيجٍ فريدٍ من التركية والإنجليزية والدارية أن نتواصل، حين تفشلُ الكلماتُ نلجأُ إلى الإشارةِ والتمثيل. بناءً على طلبه أرقدتُ عزيز على طاولةِ الفحص وخلعتُ قميصه وبنطاله. زمَّ دكتور أوزديمر شفتيه بتركيزٍ قبل أن تلمسَ يده الطفل. كان عزيز قد سقطَ في النوم لكنه حين بدأ يستيقظُ، كان صدره يعلو ويهبطُ بطريقةٍ مبالغٍ فيها، تقلبَ يميناً ويساراً عاجزاً عن النهوض بنفسه.

ضغط الدكتور أوزديمر على بطنٍ عزيزٍ وتسمّع صدره بانتباه فترةٍ طويلة. استخدم عصا خشبية خفيفة لينظرَ في فمه ثم ضغط بأصابعه حول بطنه، مرارًا وتكرارًا، ثم على الجسد كله بوصةً بعد أخرى، خفقَ قلبي.

«دكتور صاحب»، قاطعته باحترامٍ ما أمكنني. «هل توجد مشكلة؟»

نظرتُ إلى سينام بقلق، أرجو أن يفهمني الطبيب.

تهدّدكتور أوزديمر بعمق، نزع سماعاته الطبية من حول عنقه ولفَّ عزيز في بطانته قبل أن يعيده إلى ذراعيّ، وضعته في حجري وحوّلتُ انتباهي إلى الدكتور الذي بدأ يتحدثُ ببطء، ينطق بحرصٍ وهو يقرأ تعبيراتٍ وجهي. وقعُ كلماته ثقيلٌ على أذنيّ وأنا أحدق بعينين متسعيتين لأفهمَ ما يقوله. مشكلة! هذا ما فهمته بالتأكيد.

«أي مشكلة؟! هل يحتاجُ إلى مضاداتٍ حيوية؟ فيتامينات؟»

هزّ رأسه نفيًا وهو يرددُ «مضاد حيوي» و«فيتامين»، كلمات لا تحتاجُ إلى ترجمة من الدارية إلى التركية.

أشار إلى صدر عزيز، إلى قلبه وردد العبارة الوحيدة التي استطاع التواصل بها. «مشكلة.. قلب!».

«قلب؟» كلمة أخرى عابرة للغات، «قلب» بالتركية هي نفسها بالدارية. شعرتُ بذراعيّ يتهدّلان.

نهض الطبيبُ وسحب كتابًا من فوق رفّ علوي. كان كتابًا بغلاف رقيق، لُصقت أوراقه معًا مراتٍ عدة. بدأ يقلّب الصفحات بحثًا عن الصفحة التي ستساعده على توضيح تشخيصه، لكنه

فقد صبرَه بسرعة وألقى بالكتابِ على المنضد، أخذ قلمَ رصاص من درج مكتبه وبدأ يرسم.

قرّبت كرسيّ منه، رسم قلباً وبدأ يفتح قبضته ويغلّقها بإيقاع، ثم رسم تكوينين آخرين وبدأ يشهقُ ويزفر بشكلٍ مبالغ فيه. الرئتان، فكّرت! القلبُ والرئتان. أومأتُ فعاد إلى رسمه التوضيحي، أشار إلى القلب وفتح قبضته وأغلّقها مجدداً، وإنما ببطء الآن، ثم أشار إلى الرئتين وبدأ يظللُ الجزء السفلي منهما. شيء ما يسدُّ رئتي عزيز. بدأ الدكتور أوزديمر تنفّسه المبالغ فيه مجدداً وإنما بصعوبة الآن، تنفس بشكلٍ أسرع وأصعب، حتى شحبَ وجهه من الإعياء.

فكّرتُ كيف قد يعاني رضيع، رضيعي، صغير جداً من مشكلات في قلبه. أطبقُ عليّ اليأس، كيف يمكننا إصلاح الخطأ في قلبه؟ عرف دكتور أوزديمر أن رسالته وصلت، نقرَ بقلمه الرصاص على المخطّط في حجره. منغن قريةٌ صغيرة ولا مجال فيها للقيام بأشياء يراها ضرورية. لا توجد أشعةٌ سينية ولا معمل تحاليل. عزيز بحاجةٍ إلى مستشفى والأفضل الذهاب إلى مدينةٍ حيث تتوفر الموارد، ليس لديّ نقودٌ لتلبية ما يحتاج إليه الرضيع. هز دكتور أوزديمر رأسه. قلّص الطبيبُ عالمي كلّهُ في رسمٍ توضيحي على ورقة. أردتُ أن أسمع تشخيصه النهائي، فرك جبينه، سحبَ دفترًا صغيرًا من جيب معطفه الأبيض وكتب شيئاً ما في ورقة، ناول الروشّة لسينام وأخبرني أن هذه الأدوية ستساعدُ عزيز مؤقتًا لكن حالته ستسوءُ بمرور الوقت.

دمعتُ عينا سينام، عانت وهي تترجمُ لي.

لم تكن اللغة عائقاً في التواصل بيننا ذاك اليوم. حتى لو كان الطبيب يتحدثُ الدارِية بطلاقة، لظَلَلْتُ لا أفهم تشخيصَ حالة ابني، نظر إليّ الطبيب، عرفتُ من عينيه أنه ليس مدهوشاً من رد فعلي، يعرف أنني أرفض تشخيصه، تماماً كما تفعلُ أمهاتُ كثيرات حتى النهاية وأحياناً بعد ذلك بوقتٍ طويل.

نَحَيْتُ جانباً كل ما أخبرني به وتمسكتُ بما أمكنني التمسكُ به، أردتُ شيئاً ما ملموساً لأتشبثَ به.

سأعطيه هذا الدواء، قلتُ.. كم مرةً في اليوم؟ إلى متى؟

فهمني.. رسم بسبابتهِ دوائر متواصلة في الهواء، «هفتاً» تعني أسبوعاً في التركية والدارِية، كلُّ أسبوع، إشارة يده تعني استمرار الدواء. أو مأت.

«عودي بعد أسبوعين»، قال الطبيب. أو مأت سينام برأسها، شكرتِ الطبيب وسألته عن شيء ما لم أفهمه. هز رأسه ولوَّح لها بيده برفق، لمس مرفقي وربّت على جبين عزيز قبل أن يخرج من الغرفة.

كنتُ مغيّبة، بدأت سينام تقودُنني إلى الباب بتلك الورقةِ المربعة الصغيرة في يدها.

لم أعرفُ كم سيتكلف الدواء، سرنا في طريق عودتنا صامتتين. في الصيدلية، أخرجتُ نقوداً من حقيبة يدي لأدفعَ مقابلَ زجاجة الدواء التي ناولني إياها الصيدلاني. لا أريدُ الانتظار، كشفتُ بطانيةَ عزيز عن وجهه وأشرتُ إلى فمه. أوضحتُ سينام للصيدلي سببَ استعجالي فأوماً الرجل ذو الشاربِ برأسه وفتح

الزجاجة وصبَّ منها قليلاً في ملعقةٍ بلاستيكية. صببتُ السائلَ القاتم بين شفطيّ عزيز النحيلتين.

كان قلبُ ابني الصغير كسيراً أكثر من قلبي. كتمتُ غضباً شعرتُ به نحو زوجي، لقراراته التي جاءت بي إلى هنا. لم يكن قدر كبير من كلِّ هذا خطأه، عرفت هذا حين عاد إليّ صوابي، لكنني أحياناً أشعر بكتفيّ يرزحان تحت وطأة الأمر كله. وبسُحبِ السخط تلفّ تفكيري في زوجي، كنتُ أرى عناداً وليس صبراً، كبرياء وليس مبادئ، وإنكاراً بدلاً من عزم، بهت ضوء زواجنا، دعوتُ الله أن أظلُّ أحبُّ زوجي بعد وفاته كما كنت وهو على قيد الحياة.

«بسم الله الرحمن الرحيم» صرخَ قلبي المثقل.

استمع سليم بهدوء فيما تخبرُهُ مادر جان بما قاله الطبيب. احتفظتْ بهدوئها بجُمل مقتضبة وأكدت أن الدواء قد أحدثَ فارقًا بالفعل. لكن الحقيقة كانت في الفراغات بين كلماتها، الأغوار التي صار سليم وسميرة يفهمانها ويخافانها. قابلتُ عينا سميرة نظرةً أخيها، شحَبَ وجهها بثقلٍ كلِّ ما تسكَّتُ عنه. ظل سليم ينظرُ إلى أخيه الصغير، كان عزيز ينام مرتاحًا، تنفسه أهدأ، حين سمع هاكان بالأخبار من سينام، تتهدُّ وهز رأسه. عدَّ سليم هذا شفقةً ورفضها. لقد ظلَّ يشقى في عمله بمزرعة بولات كلَّ يوم لئلا يصيرَ محلَّ شفقة أحد. كان تعبيرُ وجه هاكان صريحًا وهو يضع يده على كتف سليم الذي أراد أن يهربَ من كلِّ هذا.

جلس على حافةِ ملعبِ كرةِ مدرسي، ينزِعُ العشبَ بيده. عرف من موقع الشمسِ في السماء، أن طالبة المدرسة سيخرجون قريبًا، يشعرُ بهم يتحرَّكون في مقاعدهم، يراقبون الدقائق تمر في انتظار أن يصرفهم معلّموهم. منذ عمر مضى، في أرضٍ بعيدة تمامًا، كان مثلهم، لا يطيقُ انتظار لحظةٍ أن يدسَّ أوراقه وأقلامه في حقيبته ويهرعَ إلى الباب.

لكن هذا وقت مختلف، وهذا سليم مختلف، يشناق إلى مدرسة وزملاء فصل، إلى أصدقاء، يتوق إلى الحياة العادية بشكل مؤلم أكثر مما كان عليه الأمر في كابول، الحياة العادية الآن قريبة يمكن لمسها، لكنها مع ذلك بعيدة المنال، جاء به سعيه إليها إلى هنا، إلى ملعب المدرسة بظلاله وعشبه، كان يمر بالمدرسة كل يوم في طريقه إلى موقف الشاحنات. ظل هذا الملعب بمثابة تذكير دائم له بكيف كان ممكناً أن يسير الأمر على نحو مختلف. وصل سليم إلى المزرعة في وقت مبكر ذلك اليوم وأخبر بولات بأنه يريد المغادرة مبكراً، غمغم بنصف الحقيقة عن مرض أخيه، زمجر صاحب المزرعة فعرف سليم أنه سيخصم من أجره، لكن بولات لا عمال لديه وسليم يعرف أنه سيرحب به غداً.

إن لم يستطع عيش حياة عادية، فسيراقب الحياة العادية. أراد ساعات قليلة فقط ليضع قدمه في رطوبة العشب، أراد أن يقضي ظهيرة واحدة وحده، بعيداً عن العمل الذي يقصم ظهره.

حاول تصوّر قلب عزيز، تحسس ضربات قلبه هو نفسه، يدق بقوة أحياناً في صدره. رأى قلب حيوان ذات مرة، حين ذهب مع أبيه إلى محلّ الجزار لشراء دجاجة، وجبة دسمة نادرة يوم العيد بعد صيام شهر كامل. كانت ميزانية بيتهم قد تقلصت حين لم يعد دخل بادر جان ثابتاً.

راقب سليم الجزار وهو يجفف يديه الملطّختين بالدم بقطعة قماشٍ ويأتي ليتحدث مع أبيه، تبادلا المجاملات قبل أن يطلب بادر جان رؤية الدجاج لدى الجزار. رفع الجزار حاجبيه فشعر سليم، الابن الصغير، بصدوره ينتفخ بفخر. لم يكن آل حيدري من

الزبائن متوسّطي الحال الذين يسألون عن أرخص أنواع اللحم، كانوا يشترون أفضل ما لديه.

بينما كان أبوه والجزائر يتساومان على السعر، نظر سليم حوله فرأى ما يعرضه الجزار: لحمٌ ماعزٍ نحيلةٍ معلقٌ في مشجب، كتل لحم وأعضاءٌ لامعة مرصوصة في صفوفٍ، أثارَتْ مخيّلةً سليم وشعوره بالفثيان، تذكّر أنه جذب طرفاً كمّ أبيه يسأله.

«بادر جان، ما هذا؟» همس لا يريد أن يلفت انتباه الجزار لكنه عاجزٌ عن كبح فضوله.
«هذه قلوبٌ دجاج».

ضحك بادر جان والجزائر لرؤية سليم يضع يده على صدره، يحاول الشعور بدقات قلبه هو، وعيناه تحملقان إلى قلوبٍ بحجم ثمار المشمش أمامه.

انفتحت بوابات المدرسة وتدفق الطلبة إلى الخارج، يتزاحمون عند البوابات كفيض منهمر. حسدهم على حقائبهم المدرسية، وكراساتهم، وعدم تحملهم المسؤولية.

توجّه فتيةٌ مثله إلى الملعب، كانوا مجموعةً من ثمانية أو تسعة، نظر سليم في ساعته وهم يقتربون، لم يكن يرغب في أن يراه أحدٌ يحدق ببله. توقفت عقارب الساعة عن الدوران الليلة الماضية، حاول تعبئتها مجدداً بلا جدوى. كانت ساعة مهندس، عملها الداخلي يستعصي على التفسير، الأرجح أن بادر جان كان يستطيع إصلاحها، ظل يرتديها على أمل أن تعود إلى النبض مجدداً من تلقاء نفسها.

أخرج أحدُ الفتيةِ في الملعب، أطولهم، كرةً قدم من حقيبةِ قماشية، شعر سليم بقدميه تتلملانِ بعصبية تلهفًا على لمس جلد الكرة. لم يستطع النهوض والابتعاد.

ربما لن يلاحظوني حتى، فكّر بينه وبين نفسه. استدار قليلًا كي لا يوجّه نظره مباشرة إلى الفتية الذين بدؤوا يمررون الكرة بينهم، تنقّر أقدامهم الأرض وتتقاطع مسارات ركضهم في الملعب، تملأ أصواتهم، بالتأكيد يتبادلون تعليقاتٍ بذئئةً بالعامية التركية التي لا يفهمها.

تجمّعوا معًا في حلقة واسعة لوهلة، نظر اثنان منهم نحوه، نهض شاعرًا بأنه غير مرغوب فيه، ونفض بنطاله من الخلف، كان يهم بالابتعاد حين سمع صيحةً موجهة نحوه. استدار على مضض، حين كرر قائد الحلقة الطويل ما يقوله، لم يعرف سليم كيف يجيبه فقال وهو يرفع كتفيه ببساطة.

«لا تركية».

«لا تركية؟» قال الفتى ضاحكًا وحول لفته إلى الإنجليزية.

«أتودُّ لعب كرة قدم أم تفضلُ النوم على العشب؟»

شعر سليم باندهاشٍ الدم في عروقه، تبع الفتى نحو الآخرين الذين قسّموا أنفسهم إلى فريقين بالفعل لكن أحدهما ينقصه لاعب.

«ستلعبُ معهم».. قال الفتى الطويل. توقف ونظر إلى سليم من أعلى إلى أسفل. «ألدك اسم؟»

توقف سليم، يريد أن يتأكد أن لا أحد يسخر منه.

«سليم»، أجاب أخيرًا وهو يخلع ساعةً يده ويضعها في جيبه.

«سليم؟ أنت تتحدثُ ببطء. أتمنى أن تكونَ حركتك أسرع».

كانت كابول ملأى بفتيان كهذا الفتى. انضم سليم إلى فريقه وحيًا اللاعبين بإيماءٍ سريعة، تفحصوه جيدًا بدورهم وبدؤوا يتخذون مواقعهم في الملعب.

انتقل إلى عالم آخر والكرة تركضُ من لاعبٍ إلى آخر، صار في كابول، يلعب مباراةً سريعة في الشارع مع أصدقائه وجيرانه قبل حلول المساء. ركض خلف الكرة، يركلها بعيداً عن فتية لا تعنيه معرفة أسمائهم. يوقفها، يمررها إلى أعضاء فريقه الجديد، فتية كانوا لينظروا إليه باستعلاءٍ لو رأوه في السوق بوصفه عاملاً مهاجرًا أجنبيًا، لكنه هنا ليس كذلك، جاءت الكرة مجددًا، وجَّهها نحو الهدف، يبحثُ عن مدافعين ويحاول المرور من الآخرين.

خسر فريقه بفارق هدفٍ واحد لكنه لعب جيدًا بما يكفي لكسب احترام المجموعة، رمق الفتى الطويل سليم بنظرةٍ جانبيةٍ طويلة، وهو يلهث ويتعرق.

«من أين أنت؟» سأل وهو يمسخ جبينه بظهرِ يده.

«أفغانستان»، أجابه سليم مترددًا، لم يبد الفتى ردَّ فعل.

«أنا اسمي كمال».

صار كمالٌ وسليم صديقين، بقدر ما يسمحُ الأمر لفتى محلِّي وفتى مهاجرٍ في منغن. منذ ذلك اليوم، كان سليم ينضمُّ إلى الفتية مرةً كل أسبوعٍ للعب مباراة، يستأذنُ من مزرعة بولات ليلعب ساعة أو اثنتين وأحيانًا يعود إلى المزرعة ليستأنف العمل. كان مرهقًا ونهَمًا في تلك الأيام لكنَّ الأمر كان يستحق، لقد عاد يشعر بالعشب تحت قدميه، وبالتربيت على كتفه، وبالهباء يضربُ

وجهه. كان بولات يبصقُ ويعبسُ لكنه يتسامحُ مع غيابِ سليم الذي كان يُنهي ما فاته من عمل.

في البيت، احتفظ سليم بنشاطه الجديد سرّاً، لم يستطع إخبار أمّه أنه يشعرُ بالحرية ساعةً في الأسبوع. كان يرى وجهها القلقَ حين يعود إلى البيت، تقضي وقتها كلّه مع عزيز والبحث عن أي عملٍ يعزّز ميزانيتهم. حتى سميرة كانت تساعد، إما بالجلوس مع عزيز فيما تعملُ مادر جان أو تتجز أعمال البيت في بيت هاكان وسينام. ورغم شعوره بالخيانة، احتفظ بسرّ رياضته لنفسه.

في الملعب، شعر بعجز لسانه المعقود عن إطلاق تعليقات ذكية حين يُلقى الفتيةً بالنكات المعتادة. تمنّى أن يُفسّر صمته بكونه لا مبالاة هادئة. ظلّ كمال يشاكسه دون أن تحبّطه الاستجابة القليلة.

في المساءات، يتجمّع الفتية أحياناً في مركز القرية لتناول مشروبٍ غازي والإمعان بهيام في صور النساء اللاتي يرتدين ملابس قليلة في مجلات المرأة. قابلهم سليم مرةً واحدة فقط، ظل محرّجاً من ملابس العمل المتعرقة ويديه المتشققتين. حين عجز عن كتم كل شيء عن أمّه، أخبرها أنه قابل بعض الفتية المحليين الظرفاء وقد ينضم إليهم لتناول مشروبٍ غازي، فشجعتة؛ ما جعل شعوره بالذنب يزدادُ لكتمانها عنها أسراراً كثيرة.

رافق كمال سليم إلى البيت ذات مرة وعرف أين يعيش، لذلك فوجئ سليم حين عادَ إلى البيت من المزرعة ذات مساء بوجود صديقه جالساً في المطبخ مع هاكان. عرف سليم تلك الليلة أن كمال متلوّن كالحرباء، أعجبتة تلك السّمة لأنها مفيدة.

«سليم، توقيتُ مناسب، لديك زائر»، قال له هاكان بابتسامه.

«مرحبًا سليم»، قال كمال بمرح وهو ينهض.

قال هاكان: «كنا ندردشُ فقط، يسعدني أنك بدأت تتعرفُ

على فتية الحيّ، وقد تكشفُ أنني أعرفُ والد كمال».

«مرحبًا...» أخذ سليم على حين غرة، لم يكن سعيداً برؤية

كمال في البيت. «أنت... أنت تعرفُ والده؟»

قال كمال: «نعم، أليس هذا مثيراً؟ لم تكن لدي فكرة أن هذا

بيت السيد هاكان العزيز!»

قال هاكان ضاحكاً «هذه هي منغن، لا بد أن يعرفَ أحدنا

الآخر. لكنني لم أرَ كمال هنا منذ كان صغيراً. كان بطول هذه

المائدة بالكاد». ابتسم كمال، يبدو قوي البنية بشكل ملحوظ.

أوضح قائلاً: «نعم، تبين أن والدي والسيد هاكان كانا زملاءً

تدريس في جامعة واحدة».

قال هاكان: «بالفعل، لكنَّ والد كمال أصغرُ مني بكثير، كان

أستاذًا جديدًا واعدًا جدًا. كان الطلبةُ يحبونه حينها وحتى الآن،

مع أنني واثقٌ من أن ابنه يفتقده خلال موسم الدراسة».

لا بد أن دهشة سليم كانت واضحةً على وجهه، كان أمامه الكثير

ليعرفه عن كمال، نهض هاكان وأخذ فنجان شايه إلى الحوض.

عبث بشعر كمال في طريقه. فهم سليم أغلب محاورتهما لكنه

بذل جهده ليركّز. تركية كمال نسخةً منقحةً مما يسمعه منه

سليم في العادة.

«حسنًا، استمتعا بوقتكما. كمال، بلِّغ والدك تحياتي حين تراه،

أخبره بأنني في انتظار زيارته حين يعود، سيكون رائعًا أن أدردشُ

معه بعد موسم الدراسة».

«بالطبع سيد هاكان سأبلغه، أنا واثق من أنه ستسعدك رؤيتك
جداً، سوف يعودُ إلى البيت خلال أسابيع قليلة».
خرج هاكان من المطبخ ولكزَ كمالُ سليمَ في كتفه بمرح.
«هيي، هيا يا رجل. أزل تلك النظرةَ عن وجهك! وامسح العرقُ
أيضاً!».

ابتسم سليمٌ بحرجٍ وذهب ليزيلَ عن وجهه ورقبته وذراعيه
يوماً من العمل الشاق. كانت مادر جان وسميرةٌ وعزيز في غرفة
النوم الخلفية. عزيز نائمٌ ومادر جان تضرّفتُ شعرَ سميرة. حياهما
سليمٌ ومال ليقبّلَ خد أمه، أخبرته بأنها قابلتُ كمال وأنها سعيدةٌ
لأن هاكان يعرفُ أسرته، يبدو شاباً لطيفاً.
«إنه كذلك».. قال سليم: «سنخرجُ قليلاً، حسناً؟ سأعودُ
سريعاً».

«حسناً باجم، انتبه لنفسك ولا تتأخر، من حق الأم أن ترى
ابنها هي الأخرى، أنت تعرفُ ذلك». وعدها سليم بالعودة سريعاً
وعاد ليجدَ كمال في انتظاره خلف البيت نافدَ الصبر وسيجارة
بين شفثيه.

قال كمال ضاحكاً: «آه، أفضل كثيراً! الآن قد لا تخافُ الفتيات
منّا».

ذهبَ سليم وابن الأستاذ الجامعي إلى السوق يبحثان عن
مغامرة ما قد تسليهما مدة ساعة تقريباً، كان هذا هو المذاقُ
الطيب للحياة العادية حتى أن سليم أراد أن يخرّ على ركبته
ويدعو الله أن تستمرَّ إلى الأبد.

كان كمال وهاكان وسينام أسباب استقرار سليم جيداً في منغن، على بُعد آلاف الأميال من «الوطن». صار من الصعب التفكير في منغن باعتبارها محطة مؤقتة في طريقهم إلى إنجلترا.

تحسنت حالة عزيز بقدرٍ طفيف، ما زال وزنه وشهيته ناقصين لكنه لم يعد منزعجاً طوال الوقت كما كان من قبل. تناوله مادر جان الدواء في التوقيت المطلوب بدقةٍ مواقيت الصلاة، ممتةً لتحسنه. في زيارتها الثانية للطبيب الصالح أوزديمر أعدت صنفاً خاصاً من زلايبة المانتو، رفض مجدداً أن يأخذ رسوم الزيارة فشعرت أن عليها إبداء امتنانها له بأيّ طريقة.

لكن حتى وإن بدت أمورهم تسير بشكلٍ جيد، كان سليم يعرف أن عليهم في النهاية أن يخططوا للخطوة التالية إن كانوا يريدون الوصول إلى إنجلترا. حاولت مادر جان الاتصال بأقاربهم هناك مرات عدة لكنها لم تتجح.

بدت ممانعةً للاتصال مجدداً حتى مع علم سليم بأنهم أمل آل حيدري الوحيد. صار دواء عزيز عبئاً إضافياً على ميزانية الأسرة الصغيرة، لا شيء سينقذه من شقاء الأيام الطويلة في مزرعة بولات. ولولا كرم هاكان وسينام لكانوا الآن في الشارع بالتأكيد.

بدأ كمالٌ وسليم يقضيان أوقاتاً متزايدةً معاً خارج الملعب. سُرّت مادر جان بالمعرفة بين هاكان ووالد كمال صديق ابنها الجديد، أرادته أن يكون اجتماعياً وأن يستمتع بوقته بعيداً عن العمل. حين دعا كمال سليمَ لمرافقته إلى زفافٍ أحد أقاربه في القرية، كان سليمٌ متردداً، لم يكن واثقاً من استقبال عائلة كمال له، عاملٌ مهاجرٌ بروثٍ تحت أظفاره. لكن مادر جان شجّعته على الذهاب.

كانت حفلاتُ الزفاف في كابول مناسباتٍ اجتماعيةً أساسية، ندرتُ فقط في السنوات القليلة الماضية إثر قيود طالبان الصارمة. لطالما أحببت مادر جان أن تتأثّق لذهابها إلى تلك الحفلات، حيث قاعات المآدب، والموسيقى والعروسان وهما يبدأان حياةً جديدةً معاً. ومع أنها لم تتحدّث كثيراً عن حفل زفافها هي، لكن سليم يعرف أنه كان أول مرة بالنسبة إليها تكون فيها محط الانتباه، وأنه كان بمثابة الخلاص لها من صعوبات طفولتها. سمع سليم قصة زواج والديه مراتٍ كثيرة، أكثر مما يمكنه أن يحصي، السيارة المزينة بالزهور والشرائط، فرقة الطبول التي زفّتهما في الشارع، الموسيقى التي استمرت حتى الرابعة صباحاً.

«ماذا سترتدي سليم؟ لنرّ ملابسك...» قالت وهي تبحث في حقيبة ملابسها وتُخرج منها بنطالاً. واصلت بحثها قليلاً. «هاك قميصك ذا الأزرار، هذا سيّفي بالفرض، لماذا لا تجرّيهما الآن؟»
«مادر جان، إن الحفل بعد ثلاثة أيام.»

«ماذا لو لم يعودا يناسبانك؟ أن نعرف الآن أفضل من أن نعرف يوم الحفل».

كان البنطال يناسبه بشكلٍ مريح والقميصُ يتدلى على كتفيه فضفاضاً، كانا مناسبين.

مساء الجمعة، سار سليم خمسَ عشرة دقيقةً حتى وصل إلى بيت كمال، راحتاهُ تتعرقان. في طريق عودته من المزرعة بدأ بتخيّل نفسه وهو غريبٌ تماماً وسط عائلةٍ تركيةٍ في حفلٍ خاص. فكّرَ جدياً في عدم الذهاب، لكنه قرر تحية خجله جانباً خشية أن يُحبطَ كمال.

سينضمُّ إلى كمال واثنتين من أقاربه في السيارة ليذهبوا إلى الحفل معاً. غادرت بقية الأسرة بالفعل. سيُعقد الحفلُ في بيت بمرزعةٍ خارج البلدة وكان الفتيةُ يستعجلون الوصول قبل تقديم العشاء.

كان قريبا كمال أكبر سنّاً منه، في العشرينيات، لكنهما من الصنفِ الجامح نفسه. يدخّنانِ ويلقّيانِ نكاتاً بذيئة ويعودان إلى البيت لتناول طعام أمّهما كلّ ليلة. بالكاد رفعوا حاجبيهما حين قابلا سليم، لا مُبايَان على نحوٍ مُطمئن. صفّوا السيارة وتوجّهوا إلى المنزل، آملين الوصول في الوقت المناسب، بعد طقوسِ الزفاف وقبل الطعام والموسيقى.

كان توقيتهم مناسباً تماماً بالفعل. كان أفرادُ عائلتي العروسين يتصافحون باليد ويهنئُ بعضهم بعضاً. وحمل الهواء رائحة اللحم المشوي وعجائن الجبن الساخنة. سرعان ما سيقدّم الطعامُ مما يسمح للضيوف بالتجوّل قليلاً، وللأقارب ببيع النميمة، وحكايات الأيام الخوالي والشكوى من الحر الذي لا يُطاق.

تشرَّب سليم كل ما حوله. قد يُعدّ هذا حفل زفافٍ أفغانيًا أيضًا، فكّر بينه وبين نفسه، لا فارق حقًا، الرجال يُدرِّشون في أحد الأركان، والنساءُ يضحكنَ في ركنٍ آخر. الشبه بين الأتراك والأفغان أكبر مما كان يظن.

كان الطعامُ شهياً، لم يجد سليم الوقتَ لتناولِ شيءٍ حين عاد إلى البيت، لذلك وصل إلى الحفل وهو يتضوّر جوعاً، ثبتت عينيه على طبقه. لا يريد أن يلمحَه أحدٌ وهو ينظر إلى الفتيات في القاعة، إذ لفتت نظره عدد من الفتيات؛ كن يرتدين ملابس محتشمةً لكن أثوابهنّ التي تصل إلى السمانة تبرز منحنياتهن الشابة. كان لإحداهن شعر كستنائي يتماوج حول وجهها ويداعب شفّتيها الكرزيّتين، بذل سليم جهداً كبيراً لئلا يحدّق إليها.

«أتريد المزيد من الطعام؟ سأذهبُ لآتي بطبقٍ آخر، أم تقلقُ من أن يتمزق بنطالك؟» قال كمال لسليم وهو ينهض ويلكزه بمرفقه.

«لا، سأتي معك، يُسعدني أن يتمزق بنطالي بسبب هذا الكباب». سارا إلى المأدبة الطويلة حيث صواني الطعام. كان العروسان يقفان في أحد الأركان يثرثران مع ضيوف قليلين. «لقد ظلّت العائلة تنتظر هذا الزفاف وقتاً طويلاً» أوضح كمال. «إن العروس ابنة عمي، والعريسُ من عائلة تعيش بالقرب من هنا، في مزرعةٍ مجاورة، كان يحبّها منذ سنوات. هناك عائلةٌ أخرى طلبت يدها لابنها وريث هذه الأرض، لكنها رفضته لأن أباه لا يحبُّ عائلته في جميع الأحوال».

«مثل كابول تمامًا» فكّر سليم.

ملاً بطنيهما، استمعا للموسيقى وراقبا الرجال يزدادون مرحاً بتأخر الوقت. ذكره التصفيق وحركات الأقدام والمرافق مع أنغام الموسيقى والطبول والآلات الموسيقية الأخرى بموسيقى كابول الماضية، دارت أكوابُ الشاي والحلوى والعجائن المنقوعة في الشراب المحلى. ظلّ سليم المتخّم بشكلٍ كان قد نسيه تمامًا، يقبلُ البقلاوة المقرمشة أو قطع النوجا المكسوة بالفستق، تمنى لو كانت أسرته تشاركه في الوليمة. لعق أصابعه الدبقة وتساءل في نفسه عن طريقة لإزلاق شيء ما في جيوبه دون أن يلاحظه أحد. «هيي، لندخن سيجارة، الجوُّ حار جداً هنا، صحيح؟» اقترح عليه كمال. وافقه وخرجا من الباب الخلفي للمنزل، كانت أذناه تطنان، أخذ نفساً عميقاً من الهواء المنعش، مدّد ذراعيه وابتسم. بدا كمال سعيداً.

«تقضي وقتاً طيباً، أليس كذلك؟» سأله كمال وهو يُخرج سيجارةً وثقاباً من جيبه. «لقد مضى وقتٌ طويل منذ أن ذهبتُ إلى آخر حفل. وقتٌ طويل حقاً.»

«نعم، حسناً، هذه هي الحياة في منغن، كل يوم حفل»، قال كمال بسخرية، اشتعلت السيجارة بوهج برتقالي في الليل، كانا قد بدأا التجول حول سقيفة الفناء الخلفي حين توقفا فجأة. سمعا أصوات انفجارات تُحطّم هدوء الليل، يتبعها صراخ. استجاب سليم غريزياً أولاً. سحب كمال من كتفيه وطرحه أرضاً.

صاح فيه: «ابق منخفضاً!». زحفا على ركبتيهما إلى جانب السقيفة ليلقيا نظرةً إلى المنزل، فعلَ كمال كما أمره سليم. سمعا طلقاتٍ ناريةً، والمزيدَ من الصراخ، وصوتَ تهشمِ زجاج. «ماذا يحدث؟» صرخ كمالُ بهلع. تألف أذنا سليم الصراخَ أكثر من الطلقاتِ النارية. صراخُ أشخاصٍ يتعرّضون لهجوم.

«والداي!» صاح كمالُ بصوتٍ كسير.

«اهدأ»، حدّر سليم صديقَه وهو يحيطُه بذراعيه ليهدهه.

«اهدأ لحظة».

اندفع ثلاثة رجال خارجَ المنزل، قفزوا في سيارةٍ وانطلقوا مبتعدين. ركض كمالٌ وسليم إلى المنزل فيما تبتعدُ السيارة. كان الصراخُ قد تحوّل إلى نواح.

دماء.. قلبت رائحةُ البارود والمعدن معدة سليم. كان الضيوف متكومين في ركنين من القاعة، علتْ أصداؤُ التآوهات على موسيقى الحفل بنشاز مروّع. نزعت امرأتان الستائرَ عن النوافذ لعمل ضمادات. كانت والدَةُ كمالٍ إحداهما، ظلت تتاديه وهي تمزقُ القماش.

«أماه!» ركض كمال إليها، ألقت بالقماش وأمسكته من كتفيه.

«ألم يصبك شيء؟ أنت بخير؟ أوه، الحمد لله!» صاحت.

«أنا بخير، أنا بخير. أين أبي؟»

«يساعدُ أعمامك هناك». التقطت الستارةَ وهرعتُ إلى جمعٍ حول امرأةٍ.

وقف سليم جامداً في مكانه.

كان الناسُ يصيحون ويهرولون حوله، رأى أفواههم تتحركُ
وسمع ضجعتهم، ضجة أشخاصٍ مرعوبين ومجروحين. رأهم
يركضون. حركةٌ أذرعهم وأقدامهم من حوله، تدفعُهُ أحياناً بعيداً
عن طريقهم لكنه لا يمكنه التحركُ حتى ولو أراد.

كان قد عادَ إلى كابول، سمعَ القصف، رأى الناسَ يدفنون
أطفالاً صغاراً وأسرّاً تبكي فقدان آبائها. تباطأت أنفاسه وتغبّش
بصره.

لا مفر، لقد تبعه حمّامُ الدم إلى منغن، يا لسذاجته أن ظن
أنه قد تركه خلفه. كان الدم يتراقصُ حوله، يسخرُ منه ويلكزه
في جانبيه، تبعه كلُّ تلك المسافة، في انتظار لحظةٍ أن يرضى
عن نفسه. عندما كان صغيراً اعتاد أن يدفنَ رأسه تحت الوسادة
كي لا يسمعَ أصوات القصف. الآن يضعُ يديه على أذنيه كي لا
يسمعَ الصراخ.

لمحَ أحدَ الضحايا، والدَ العروس، تحولَ قميصه الأبيضُ إلى
اللون القرمزي. انسحب اللونُ من وجهه وابنته تميلُ إليه وهي
ترتعش.

أيّما يولي وجهه يرى أباه.

تقلبت أمه بهدوء وهو يتسلل إلى غرفة النوم، ما زال قلبه يضحّ. سمع تنفس سميرة الهادئ. حاولت عيناه التأقلم على الظلام وهو يتحسس الأرض بيده ليجد فراشه.

«الحمد لله أنك عدت إلى البيت»، همست مادر جان. «لا بد أن الوقت متأخر جداً، نم قليلاً سليم جان».

«نعم». كان هذا كل ما استطاع قوله حتى لا يتهدج صوته.

سار إلى الحمام وفتح صنوبر المياه قليلاً. ترك الماء يمر على يديه وبين أصابعه، رفع راحتيه إلى وجهه وأبقاهما عليه. «نم قليلاً»، قالت مادر جان «نم قليلاً».

خلع بنطاله وقميصه وانزلق تحت غطاءه، حدق إلى السقف، تتبع شقوقه في الظلام يحاول محو ما رآه من ذهنه. لكنه تذكر كل شيء: العروس، ثوبها الملطخ بدم أبيها، أخوها ذو الساق الجريحة لكنه حيّ ويصرخ وهم يحملونه إلى سيارة لنقله إلى مستشفى. آخران كانا محظوظين، خدش الرصاص ذراعيهما فقط.

«الحظ» فكّر سليم «أمر نسبي».

كانت ساعة إلا ربعاً من الفوضى، أمسك قليلون ممن لم يفقدوا صوابهم الزمام وبدؤوا يصيحون بالأوامر. أخذ أحدهم العروس

الذاهلة إلى غرفة خلفية. تحسس الزوجُ الحديثُ جسده والخوفُ يشله، بحثًا عن جروح ليست موجودة. كان أحدُ المسلحين قد سدّد إليه مباشرة وأطلق النارَ لكن الرصاصَ لم يصبه. محظوظ.

وجد سليم نفسه يتلو صلواته، كأن يديّ أبيه كانت على كتفيه، أخذته بعيدًا من النوافذ ووضعتَه على الأرض. لمس الساعة المتوقفة حول معصمه، افتقد تكاتٍها الهادئة التي كانت تهدده حتى ينام.

أخبرهما والد كمال وهو يقلُّهما إلى البيت بما حدث. اقتحم ثلاثة رجال الحفل، عرفهم الضيوفُ على الفور، أبناءُ صاحب المزرعة المجاورة، فتيةٌ من العائلة التي أرادت العروسَ لابنها. مهانون وغازبون، قرروا الأخذَ بثأرهم ليلة زفاف العروسين. سدّدوا أسلحتهم نحو والدِ العروس والعريسِ ثم أشقاء العروس. هرع الضيوفُ يستترون، اختبئوا تحت الموائد المرصوفة عليها حلوى الحفل وفي الغرف المجاورة.

لم يطلقوا النارَ على العروس، كعقوبةٍ في حد ذاتها. لم يرَ كمال في حياته أكثرَ من أنفٍ ينزفُ جرّاء عراكٍ في الشارع.

«الأمورُ مختلفةٌ خارج حدود القرية، الناسُ يأخذون ثأرهم بأنفسهم حين يشعرون بالإهانة.»

مر وقتٌ طويلٌ جدًّا قبل وصول الشرطة. هز رجالُ الشرطة رؤوسهم وهم يتقلون من شخصٍ إلى آخر، يقيّمون الضرر. سجلوا ملاحظاتهم لكنهم لم يوضّحوا ماذا سيفعلون بشأن الجناة. قرر

والدُّ كمال أن يعيد الفتيةَ إلى بيوتهم، كانت والدة كمال في سيارةٍ أخرى مع النساء.

سقط سليمٌ في النوم وهو يفكر في ما قاله والدُّ كمال:
«الناس يموتون والأحقاد لا تموت».

استيقظ فجأةً على صوتِ مادر جان الخائف. كانت تنزعُ عنه غطاءه، نهضَ جالسًا، عيناؤه حمراوان، تحسستُ بيديها صدره ووجهه.

«ماذا حدث؟ لماذا يوجد دمٌ على ملابسك؟ هل جُرِحت؟»
عادت الليلةُ الماضية إلى ذهنه بسرعة، مال برأسه إلى الخلف ووضعه يديه على عينيه.

«لستُ أنا، لستُ جريحًا». كانت سميرة مستيقظةً تمامًا، تحدقُ فيه بقلق.. «كانوا يطلقون النارَ مادر جان. كان فظيعةً».

«يطلقون النار؟ ماذا تقولُ بالله عليك؟» لم تصدق تمامًا أنه بخير فظلت تبحثُ في جسده عن جروح غير ظاهرة.
دفع يديها بعيدًا عنه ونهضَ ينفضُ النعاسَ عن عينيه، كان قد ألقى بملابسه المبقعة بالدم بجوار وسادةٍ على الأرض. مشهدٌ مقزز في ساعاتِ الصباح الباكر. أخبرها بكل شيء، بصوتٍ خفيضٍ لئلا يزداد رعبُ سميرة، أخبرها بأنه ساعدَ في حمل شقيق العروس لنقله إلى المستشفى.

لو كان قد نال قسطًا أكبرَ قليلًا من النوم لأمكنه التخفيفُ من حدة الأمر قليلًا. في النهاية بكى، ظل لا يستطيعُ التحركَ فترةً طويلة، ثم أجهشَ في البكاء، كانت تستمعُ إليه بانتباه، يدها على فمها لا تصدق. اقتربت سميرة، جلستُ بجوار أمها واستمعت

بانتباه الكبار. همستُ مآدر جان بكلماتٍ شكرٍ لله على نجاتِ ابنها. أخذته في حضنها وهددته كما تفعلُ مع عزيز. لم يقاوم، استمتع برائحة أمه، بالراحة بين ذراعَيْها وبقبلتها على جبينه، طلبت من سميرة أن تضع الماء على النار وتبدأ إعدادَ الإفطار لهاكان وسينام. نهضتُ سميرة المطيعة.

«وماذا عن صديقك كمال؟ ألم يُصب هو الآخر؟»

«لا، مآدر جان، كان في الخارج معي، إنه بخير.»

«ووالدته ووالده؟»

«لم يُصابا.»

حين جاء هاكان وسينام لتناول الإفطار، كان عليه أن يكرر القصة كلها مجددًا. تحسنت لفته التركية إلى حدٍّ كبير منذ بدأ التسكع برفقة كمال والفتية الآخرين. بحث عن كلمات قليلة هنا وهناك لكنه استطاع سردَ الأحداث. جلس هاكان وسينام بوجهين مدهولين، أمسكت سينام يدَ فريبيا بشكلٍ غريزي، اتضح لسليم كيف يتخذ الهجوم على حفل الزفاف شكلَ قصةٍ أكثر منه حدثًا حقيقيًا.

ثبتتُ مآدر جان نظرها على وجهيهما بحثًا عن تفسير، كيف لشيء كهذا أن يحدث في منغن؟ نهض هاكان وقال إنه سيذهب إلى بيت كمال ليرى والده. خلال دقائقٍ غير ملابسَه وغادر البيت.

«لقد تأخرتُ على العمل مآدر جان، يجب أن أكون في المزرعة الآن بالفعل»، قال سليم وهو ينظرُ إلى ساعة يده عفويًا. «سألتقى الكثير لتأخري هذا.»

«سليم عزيزي، أنت لن تذهب إلى المزرعة اليوم. بعد ما حدث ليلة أمس، الأمر غير قابل للنقاش، أريدك أن تبقى معي». نظر إلى يديه وأدرك أنه يرتعش قليلاً. عرف أنه لا بد يبدو شاحباً كالموتى، ورغب فجأة في الاستحمام، ليمحو أحداث الليلة الماضية عن جلده بالماء الساخن.

أعدت له سينام كوباً من الشاي الدافئ بالعسل وطبقاً من الجبن والخبز. أكل بصمت. ظلت سميرة قريبةً منه لكنها هادئة. أدفأت زجاجة لبنٍ لعزیز ووضعتَه على حجرها ليتناول إفطاره هو الآخر. للمرة الأولى منذ وقتٍ طويل جداً بدا رضيعُ أسرة حيدري ذو القلب الضعيف أفضلَ حالاً من بقية أفراد الأسرة. ذهب سليم إلى الحمام وفتح الماء على أسخن درجةٍ ممكنة. تركه ينهمر على رأسه ووجهه وكتفيه، أغمض عينيه ورأى وجه العروس يسيلُ على خدّها خيطاً من الدم، سمع تأوهاتٍ أخيها، فتح عينيه محاولاً رؤية شيء ما آخر لكن الرؤى كانت منقوشة في شبكية عينه. دعك جلده حتى احمرّ والتهب. نبض صدغاه بقوة. أغلق الصنبور، ألمه ملمس المنشفة الخشن على جلده. جلست مادر جان في غرفة النوم، على حافة فراشها، بدت مصدومة.

«مادر جان؟» قال سليم متردداً.

«ظننتُ أننا في أمان هنا»، همست. «يجب ألا يكون هنا مثل

الوطن».

جلس إلى جانبها.

«لقد جئنا إلى هنا طلباً للأمان. ظننا أن هذا سيكون أفضل لكم، ماذا فعلت؟»

دون بادر جان، لا أحد غيرها يتلقى اللوم على خطتهم التي أوصلتهم إلى منفن. وضع سليم جبينه على كتفها.

«لم نستطع البقاء في كابول مادر جان. ليس لدينا شيء هناك. كنا سنتصور جوعاً هناك، كان وضعنا أسوأ من هذا..»
«كان عزيز بخير هناك، كان بخير حتى تركنا بيتنا..» كانت عيناها لامعتين، مفعمتين بأفكارٍ عن الأمس الوردية لا توجد سوى في ذهنها.. «لم تكن سميرة تغسل أطباق الآخرين وملابسهم القذرة، لم تكن أنت تكدح حتى تتشقق يديك. كنا بخير في كابول لكنني جئتُ بكم إلى هنا».

كانت فريفا تريد لأطفالها أن يعيشوا سالمين ومعافين وحسنين التغذية وآمنين وأحراراً من العمل كخدم لدى الآخرين، وقد فشلت في كل هذا.

«مادر جان، لم نكن بخير هناك».. ركع على ركبتيه أمامها، يرتعش من طريقة أمه في التحدث عنه وليس إليه.. «ألا تتذكرين؟ لقد كنا مرعوبين، لم يكن لدينا مالٌ ولم نكن لنحظى بالبيت، كنا بالكاد نستطيع التنفس».

«أردتُ لأطفالي أن يعيشوا طفولتهم، أن يضحكوا ويلعبوا ويتعلموا، أردتُ لهم ما حُرمتُ منه في طفولتي، إلى أين يجب أن نذهب؟ بأي سرعةٍ يجب أن نركض؟»

لم يجد كلماتٍ قد تجلبُ أيَّ قدرٍ من الطمأنينة. ألمه أن يسمع أمه تتحدثُ بتلك الطريقة وأن يسمع الأفكار التي ظلت تخفيها

عن أطفالها أغلب الوقت. أكانت ابتسامتها وابتهاجها لطمأنتهم فقط؟ لم تكن عيناها دامتَين، كلامها ليس نتاجَ حالةٍ عاطفية، تلك الأفكارُ من أصدق جزءٍ في روحها. خلاصةُ تحليلٍ دقيقٍ وملاحظاتٍ موضوعية، كانت حقيقةً جداً.

«سنكون بخير، مادر جان، سترين، كان ذلك أسوأ ما في الأمر، سوف نذهبُ إلى إنجلترا قريباً جداً وسنكون بخير». تهدج صوته وهو يتحدث. ليس واثقاً من شيءٍ مثل أمه.

تغيّر تعبيرُ وجهها على الفور، كأن أحدهم ضغط زراً. زمّت شفّتها ولاحت في عينيها ومضة عزم. سحبت كتفها إلى الخلف وقابلت نظرة سليم الواعدة.

«نعم، بني، هذا هو الأمر بالضبط، سوف نذهبُ إلى إنجلترا». شعر بالارتياح أن رفضت أمّه عن نفسها حالتها الشبيهة بالغيوبة، أو ما برأسه يوافقها بحماس.

«نعم، مادر جان، علينا فقط أن نبقى قليلاً لكي...»

«لا، علينا أن نغادر! سنغادرُ منغن، سنغادرُ تركيا».

«نغادرُ تركيا؟ لكن مادر جان، نحن لم...»

«لم يكن الله ليُرسلَ نذيراً أكثر وضوحاً من هذا، حان الوقت لنستأنفَ رحلتنا. سنشكر هـاكان وسينام كرم ضيافتهما، وندفع لهما ما علينا ونحزمُ أمتعتنا. كلُّ يومٍ نقضيه هنا سيفوضُ بنا في أعماقِ الحفرة. إن لم نغادر الآن، قد لا نغادرُ أبداً».

كانت مادر جان تؤمن بالمضيّ قدماً. لطالما آمنت بذلك.

كاد هاكان وسينام بيكيان يوم رحيل آل حيدري. حاولتُ فريباً دفع إيجار الشهر الأخير لكن سينام رفضتُ بهدوء. أخبرتُ فريباً وقلبها يكادُ يقفز من حلقها، أن تحتفظَ بالمال لرعاية أطفالها. ناولتها حقيبةَ طعام كانت قد أعدته، يكفي أياماً عدة دون أن يفسد. تعانقتِ الأمان بقوة، صارتا في تلك الأشهر القليلة صديقتين مقربتين. كانت سينام الصوتَ الذي يهمسُ في أذن فريباً بأن الله يرسلُ المعجزاتِ على نحو لا يمكنُ توقعه. لم تكن فريباً في ظل ظروفِها الصعبة، تدرك الصوتَ في أذنيها دائماً فكانت أحياناً تحسبه صوتها، لكنَّ سينام صديقةٌ حقيقيةٌ، كان همسها الثمين يأخذ بيدِ فريباً دون الحاجةِ إلى تحديدهِ أو الشكر عليه. تعلقت سميرةٌ بسينام، لم ترغبَ في ترك مُعلمتها وصديقتها، مصدر أمانها.

وقف هاكان بكتفين متهدلتين، حافظ دائماً على مسافة من الاحترام بينه وبين فريباً والأطفال، كانوا يتامى وضعافاً ولم يرغب في اقتحام خصوصيتهم كما يعلمُ أن بقية العالم سيفعلُ معهم. كان ما ألمَّ بهم وما سيحدثُ لهم خارج نطاق تحكّمه، كلُّ ما أمكنه فعله لهم أن يمنحهم مأوى تحت سقفِ بيته، لإيمانه بأن هذا هو الصواب.

شعر بفخرٍ أبٍ حين نظر إلى سليم. رأى إرادةً وعزمًا قويين. كان يتأرجح بين عهديّ الصبا والرجولة، مرحلةً خطيرة. يرى طريقةً نظره إلى أمه، نظرةً فتى يرفض تصديق ما لا يعرفه، سيكون على فريباً أن تكافح معه، تنبأ هاكان، لكن سليم نقيّ جداً ولن يكون بعيداً عنها، لف ذراعه حول كتفيّ سليم وضمّهما. طال سليم عمّا كان عليه حين قابله أول مرة بعد الصلاة منذ أشهر عديدة مضت. عض سليم شفّته، يشعر بخيانة والده لاستجابته لعاطفة هاكان الأبويّة. مع ذلك تمنحه تلك اللحظات القصيرةً بعض القوة.

«سليم، أمامك أنت وأسرتك رحلةً طويلةً وصعبة، والله شهيد على كل ما تفعله لهم ولنفسك، أنا واثقٌ من أن والدك فخورٌ بك وبالرجل الذي صرّته، سندعو الله لكم، ثقوا بالله وخذوا حذرکم ولا تخافوا».

أوماً سليم بحزن، كان قد ذهب مرة إلى ملعب الكرة بعد أن قال إنه في المزرعة، دخّن سجائر وسرق وجبات خفيفة من الأكشاك في الشارع من خلف ظهور البائعين. استاء من أخيه الرضيع لتطلبه ومن بادر جان حتى لعناده وإبقائه أسرته في أفغانستان حتى فوات الأوان. لا أحد يعرف هذا عنه، كان حذرًا، فتى ذا أسرار، أراد من صميم قلبه أن يكون الفتى الذي يراه فيه هاكان.

نظر إلى وجه هاكان، ما زال شبّه غير الواضح بأبيه يدهشه، شعر أن ذكرى أبيه تخبو بمرور الأيام، كان أحياناً يبقى مستيقظاً ليلاً يحاول تذكّر صورته، أو صوته أو رائحته. كان كل يوم جديد

يدفع بسابقه إلى مخبأ أكثر ظلاماً في ذهنه. ما يضطره كل ليلة إلى الحفر بعمق ليصل إلى تلك المخابئ ليجد أباه. تشبّث بالصور لديه، يخشى أن تبهت إلى بياض تام، يُخجله الاعتراف بهذا أيضاً.

لم يهتم بالعودة إلى مزرعة بولات رغم استحقاقه أجر خمسة أيام عمل. كان يعرف أن بولات لن يدفع له أجره إن عرف أنه لن يعود. ستجد إكين، التي عادت إلى ملاحقته وكأن شيئاً لم يكن، طريقة أخرى لقضاء فترات الظهيرة. كان وداع كمال متوتراً، أسست صداقتهما على خفة الطفولة، الأنشطة الصبائية ذات العواقب الطفيفة. زاد الزفاف الدامي ورحيل سليم من تعقيد ما بينهما على نحو لم يتوقعه أحدٌ منهما ولم يرغب فيه. تمنى له كمال بهدوء، دون أن يعنى برفع شعره عن جبينه، رحلة آمنة. أدار سليم ظهره لأول صديق له خارج أفغانستان، وهو يعرف أنهما لن يلتقيا ثانية أبداً.

غادر آل حيدري منفن في باص متجه نحو الساحل الغربي لتركيا، حيث توفّر المواني والسفن مروراً آمناً إلى اليونان. كان معهم جوازات السفر البلجيكية التي أتى بها عبد الرحيم لهم لذلك ليس عليهم التعامل مع مهرّيين، لو مرّوا من الجمارك بتلك الوثائق ستكون جديرة بالثمن الباهظ الذي دفعته مادر جان مقابلها.

كانت رحلة الباص طويلةً ومنهكة وهادئة، راقب آل حيدري الأراضي التركية الخضراء بصمت. كانوا يتركون خلفهم حياة استمتعوا بها. أيام مرت بالإيقاع المريح لدق الطبل. ومن جديد تواصل مادر جان قيادتهم إلى المجهول.

استغرقت الرحلةُ إلى إزمير يوماً، على الساحل الغربي لتركيا، حين اقتربوا من ميناء إزمير انتعشتُ حواسُّ سليم للهواء المالح، رائحةٌ غير مألوفةٍ لأنفه غير الساحلي، نظر إلى الآخرين، أعينهم تلمع، تنعكسُ فيها ألوان المياه الفيروزية، البحر، حيث يتقاذز ضوءُ الشمس هنا وهناك، من الماء إلى هيكل سفينةٍ إلى جناحي نورس. ابتسمتُ سميرة، أدفأت الشمسُ وجهها. ربّتتُ فريبا على شعر ابنتها. لحظةٌ فرحٍ قصيرة، لكنها تمنحهم الدافع للمواصلة. عثر سليم على شبّاك التذاكر واشترى تذاكرَ ذهابٍ فقط للأسرة بكاملها، بالكاد نظرَ موظفُ الشبّاك، المشغولُ بالثرثرة مع الموظف في الشبّاك المجاور، إلى جوازاتِ سفرهم. لوّح بيده حين سأله سليم عن تذكرةٍ عزيز. بين التذاكر في حوزتهم. نظروا مجدداً إلى الأفق الأزرق الواسع مذهولين من عدد السفن الراسية هناك. لم يروا في حياتهم مساحةً مائة أوسع من نهر. «المياه خير، نور، أن يُحيطَ المرءَ بحرٌ واسع كهذا...» ملأت فريبا رثتها بهواء البحر.. «لا بد أن في هذا خيراً لنا».

أسرّتها بحاجةٍ إلى نورٍ حُسن الطالع.

أشار موظفُ التذاكر إلى سفينةٍ بلون سماوي، مبنى يطفو على سطح الماء، قفزت معدةُ سليم بفرحٍ صبياني، قاد أمه وأخويه إلى مقاعدِهم. ألقَت الريحُ برذاذ من قطراتٍ صغيرة باردة على خدودِهم. طار شعرُ سميرة وغطى وجهها فضحكت وهي تحاول إبعاده، توقّف سليم وأمه، مضى وقتٌ طويل جداً منذ أن سمعا هذه الضحكة.

حركت أمواج ضخمة السفينة، مال سليم وسميرة إلى الحاجز ليقتريا من المحيط بأكبر قدر ممكن. كانت الرحلة قصيرة وقبل أن يتشبعها بها، أعلن طاقم العمل وصولهم إلى جزيرة خيوس اليونانية، حيث ستأخذ الأسرة سفينة أخرى إلى أثينا.

كانوا محاطين بسياح يرتدون بناطيل قصيرة ويحملون حقائب ظهر، وراكبين يونانيين، حملوا حقائبهم على أكتافهم وحاولوا بقدر ما أمكنهم ألا يلتفتوا الأنظار. في كل محطة في رحلتهم نقطة تفتيش، وقد تخذلهم دقائق قلوبهم المتسارعة ووثائقهم المزورة.

تبين أن دخول اليونان أسهل كثيراً مما توقعوا فسرعان ما صاروا على متن السفينة التالية. كانت الرحلة من خيوس إلى أثينا أطول، فرصة أكبر لقرىبا لتتشرّب مشهد المياه الشاسع وتدعو الله أن تكون بشرى بأيام أكثر فرحاً. بعد ذلك بثمانى ساعات وصلوا ميناء بيرايوس وبدأت أعصابهم تتوتر مجدداً. كانت سميرة قد سقطت في النوم، ارتاح رأسها على كتف سليم. عضت مادر جان شفّتها بعصبية وهم يقتربون من المرسى.

عاودهم القلق لرؤية رجال بزى رسمى يقفون على رصيف الميناء. حافظوا على وجوههم جامدة، خفقت معدة سليم كأن ما تحت قميصه بالوناً منفوخاً بشدة حتى أن أدنى حركة قد تتسبب في انفجاره ولقت أنظار العالم إلى تعديهِ. أشير إليهم ليتقدموا إلى الأمام مع الزحام، شعر سليم بالأعين تنصب على ظهره لكن شيئاً لم يحدث، كانوا يقفون وسط زحام سيارات الأجرة في ميناء أثينا.

تضع تركيا قدمًا في أوروبا والأخرى في آسيا، سيختلف الأمر في أثينا، كان هاكان قد حذّرهم. ستكونون خارج العالم المسلم، بصرف النظر عن كون ذلك للأفضل أم الأسوأ».

يعرفُ سليم وأمه أن عبء اللاجئين الأفغان يُثقل عاتق باكستان وإيران والهند بشكلٍ متزايد. لكن الأمر ليس بالمثل مع أوروبا وأمريكا. من نزحَ إلى أوروبا لم يتحدث عن العودة قط، كانت أخبارُ حياتهم السعيدة الجديدة تنتشرُ كرائحة الخوخ الناضج حين يحملها نسيم الصيف. أوروبا تتعاطفُ مع الأفغان الذين دمرت الحربُ حياتهم وتمدّ لهم يدُ المساعدة.

كان هاكان قلقًا من نظرة سليم الوردية لما ستكونُ عليه الحياة في إنجلترا، تحدث سليم عن عودته إلى الدراسة وعودة أمّه إلى التدريس. يعرف هاكان أنّ المهاجرين، بمن فيهم آلاف الأتراك، يعانون في أوروبا، لكنه حذّرهم برفق فقط. قد يكرههم البعض للتعدي على أرضهم، لامتنصاص لبن أمّتهم، لهيئتهم المختلفة. لكنهم ليس لديهم خيارٌ أفضل كلاجئين أفغان، لذلك لم يشأ إحيائهم في وقتٍ مبكر من رحلتهم.

نحّى سليم تحذيراتِ هاكان جانبًا، تجوّلوا في الأنحاء يتساءلون إن كان بإمكانهم عبورُ اليونان. منذ أن غادروا منفن خلعتْ مادر جان طرحتها التي أجبرتها طالبان على لبسها، كانت سعيدة لتركها خلفها. هنا في اليونان، يمكنها ارتداء ملابسها التي كانت ترتديها وهي شابةٌ في كابول. يمكنها أن تكون قريبًا جديدة.

توقفوا عند ثلاثة فنادق بحثًا عن مأوى لكنهم صدموا من الأسعار الباهظة التي لا تناسب ميزانيتهم الضحلة. أشفقت إحدى

موظفات الاستقبال على سليم فدلته على فندق أصغر وأرخص على بعد نصف كيلومتر. رسمت له الاتجاهات على منديل ورقي قبل أن تعاود الانتباه إلى التلفاز الصغير أسفل المنضد.

تبين أن فندق «أتيكا دريم» هو أفضل خيار، ساوم سليم في ثمن الغرفة من أربعين يورو إلى عشرين، مع الوعد بأن يكونوا نظيفين وهادئين تمامًا. رأت الموظفة -امرأة خمسينية- مادر جان بثلاثة أطفال وأربع حقائب فاستدارت إلى دفتر بغلاف جلدي على المكتب، ونقرت بقلمها الرصاص على شبكة الأرقام والتواريخ. كان الفندق قد ظل عقودًا بلا تجديدات وبدا أن مالكيه لا يعنون بمظهره كثيرًا. ظلوا لوقت طويل على الهامش بسبب الفنادق الأحدث في المنطقة وكانوا ينتظرون تحسُّن الموقف فحسب. سيخرجون من مجال العمل بالتقاعد ما لم يُخرجهم نقص النزلاء.

تهتدت الموظفة وأومات برأسها بتناقل موافقة، تحاول جعل تأجير الغرفة مقابل مبلغ زهيد يبدو تضحيةً كبرى. سحب سليم النقود التي حولها في خيوس ودفع للمرأة مقابل ليلة واحدة، فأخرجت المرأة مفتاحًا من صندوق خشبي. صعدوا سلمًا تصدر ألواحه صريرًا ثم إلى غرفة بفراشين. المرتبتان قديمتان ومُتكتلتان لكنهم كانوا سعداء بالوقوف على أقدامهم وتمديد سيقانهم وإراحة أكتافهم.

شعر سليم بموجات الألم في قدميه وهو يريح رأسه على الوسادة. أغمض عينيه وفكر في المسافة التي قطعوها. ربما كان الوقت مناسبًا بالفعل للرحيل من منغن. أو ربما كان عليهم

الرحيلُ منذ وقتٍ طويلٍ. إنها الخطوةُ التالية في رحلتهم، كما
أخبرتهُ مَادِرْ جَان.

«ها نحن في اليونان».. فكّر وهو يغطُّ في النوم.. «لكن ماذا

الآن؟»

سليم

26

مرّت الساعاتُ واستيقظ سليم، سمع الأصواتَ البعيدةَ للمحادثاتِ والمارةِ في الشارعِ في الأسفل. أثينا حيّةٌ طوالَ الوقت. بدأ ضوءُ الشمسِ ينثالُ عبر الستائرِ الشفافة، مدّت سميرة ذراعَيْها وقوّست ظهرها وما زالت عيناها مُغمضتَيْن. تقلب عزيزٌ على بطنه وانزلتْ قدماً قريباً على الأرض، فركت عينيها ووقفت. راقب سليمُ أسرته تبدأ يوماً جديداً.

غسلوا وجوههم بماءٍ باردٍ في حمامٍ صغيرٍ جداً حتى أن سليم أمكنه لمسُ جدرانِهِ الأربعة دون أن يمدَّ ذراعيه. وضعوا آخرَ ما تبقى من الأطعمة التي أعدتها لهم سينام على ورق جرائدٍ وقسّموه.

أخذ سليم حماماً وخرج ليبحثَ عن طعامٍ وطريقةٍ للوصول إلى إيطاليا. الأسعارُ في أثينا أعلى بكثيرٍ من تركيا وحتى فندقهم القديم سيستزفُ ميزانيتهم سريعاً. دس جوازَ سفره في جيب بنطاله الجينز مع يوروهاَت قليلة.

نصحتَه موظفةُ الاستقبال، بتناقلٍ كما كانت الليلة الماضية، بركوب مترو الأنفاق ليصلَ إلى أومونيا إن أراد شراءَ طعام. زمجرَ القطارِ الفضيُّ الثعباني وهو يدخلُ المحطة ثم عاد يختفي في النفق بحمولةٍ جديدةٍ من الركاب. راقب سليم ما يفعله الآخرون

وفعل مثلهم، استقلَّ القطار ببهجة متوتِّرة، تفقد الورقة في جيبه يطابقُ اسم المحطة الذي كتبتُه له الموظفة بالخريطة على جدار المترو. أدار رباط الساعة حول معصمه، دُهش لأنَّ لا أحد ممن حوله ينظرُ إليه. بينما هو، على الجانب الآخر، كان مأخوذاً بطنين القطار، ورائحة القهوة، وصوت فتح ورق الجرائد.

كان هاكان قد أخبره أنه سيرى مهاجرين كثيرين في اليونان، أراد أن يجدهم ويسألهم عن أفضل السبل للذهاب إلى إيطاليا أو لشراء طعام بمبلغ زهيد. حين رأى رجالاً بالزي الرسمي أبقى عينيه على الخريطة التي أخذها من الفندق وذاب في الزحام. شق طريقه عبر ساحات المدينة، متاهةً من المباني الشاهقة والشوارع الممهدة. ملابس الرجال مثلما في تركيا لكن النساء مختلفات تماماً، كن يسنَّ ببلوزات ضيقة وياقات واسعة بما يكفي لجذب نظره اليافع. تتحرك أذرعهن وسيقانهن العارية من حوله، دون أن يلحظن انشداهه. أشخاص من كل شكل ولون يتجولون في الشوارع، كثير منهم بكاميرات وكتيبات، يتوقفون من حين إلى آخر لالتقاط صورة.

حمل حقيبته الفارغة على كتفه آملاً أن يملأها بالطعام قبل عودته إلى الفندق. وصل إلى ميدان عام، نسخة أضخم بكثير من نظيره في كابول، بأرصفة وأضواء والمزيد من السيارات، تتفرع منه شوارع أصغر تصطف على جانبيها المحلات.

يجلس على الأرصفة رجالٌ ببشرة سوداء كالليل معهم أجولة من الخيش مملوءة بأكياس، تتحرك أعينهم يميناً ويساراً تتفحص المشهد، يغمغمون للمارة، يحاولون الترويج لبضاعتهم. بدوا له أكثر أجنبيةً منه هو نفسه، فلم يقترب منهم.

مشى في السوق، مرّ برجلين يبيعان دُمى راقصة على الرصيف، ذكّر سليم نفسه بهدفه ونظر إلى الرجلين، ليسا أسودين كمن رآهم قبل أمتار قليلة، بدا أنهما من الهند. سحبت امرأة شقراء طفلها الصغير بعيداً عن الدمى، يعكس شعرها ضوء الشمس. أغرى الرجلُ الطفلَ بأن جعلَ الدمية ترقصُ نحو ساقيه الممتلئتين، هزت المرأة رأسها، حملتَ طفلها المعترض وابتعدت مسرعة.

جلس البائع المتجولُ متربعاً على الرصيف، ضجراً تاماً، نظر إلى سليم خطفاً.

سأله سليم بحرص:

«هل تتحدثُ الإنجليزية؟»

أوماً الرجلُ برأسه بشكلٍ غير ملحوظ تقريباً، فسأله سليم:

«من أين أنت؟»

توقّف الرجل، لديه السؤال نفسه عن سليم.

«بنغلاديش»، قال أخيراً، ثم رفعَ حاجبيه وأشار بإصبعه إلى سليم.

«أنا؟ أفغانستان.»

أوماً الرجلُ كأنه خمن هذا. لقد ظلّ في اليونان عامّاً، كما أخبر سليم، يحاولُ لفتَ أنظار المارة لبضاعته بلا جدوى. واصل سليم:

«أنا هنا مع أسرتي، نريدُ أن نذهب إلى إيطاليا...»

«شعب أفغانستان كثير كثير»، علّق الرجلُ بشرود.

توقف سليم.

«هنا؟ يوجد أفغان؟»

كان تعامله مع الأفغان في تركيا قد ترك في نفسه مذاقًا سيئًا لكنه مع ذلك ما زال يجدُّ راحةً ما في العثور على أشخاص من بقعة الأرض نفسها التي جاء منها.

«أين؟ أريد أن أجد أفغانًا، ساعدني أرجوك.»

«أفغان...» كرر البنغلاديشي، وهو يميلُ برأسه جانبًا، ويشير بيده اليسرى نحو الأفق.

«الأفغان ليسوا هنا، إنهم بعيد، يأكلون وينامون معًا.»

«أين؟ أخبرني من فضلك أيها السيد؟»

«بعيد، بعيد»، لوَّح الرجلُ بيديه وهز رأسه تأكيدًا «مترو. لا سير.»

ميدان أتيكي، قال البنغلاديشي أخيرًا. كان الميدان بعيدًا بما يكفي لدرجة أن لم يجدّه سليم على خريطة المترو. بتلك الأسعار المرتفعة التي رآها، لم يدهش أن اتخذ الأفغان ملجأهم خارج المدينة. رفع الرجلُ حاجبه ونظر إلى سليم بترقب. أشار إلى دُماه الراقصة، لم يلمسها أحد، ولوَّح لسليم أن يبتعد.

قرر سليم أن يبحث عن طعام أولاً، أحصى النقود الورقية والعملات في جيبه، ليست كثيرة. سار إلى كشكٍ يبيع جرائد وزجاجات مياه، علت الشمس في السماء، ستشعر سميرة بالجوع قريبًا، مع أنها لن تعلن عن ذلك.

لمس ساعته بعصبية، كان الناس يخرجون من مبنى رمادي ضخم إلى يمينه حاملين أكياسًا بلاستيكية ثقيلة، رأى أرغفة خبز تبرز من أحد الأكياس، تبع الزحام إلى الأبواب الزجاجية المزدوجة.

كان مبنى يشبه المطار، عميقٌ بما يكفي حتى أنه لم يرَ نهايته وكان عليه أن يميلَ برأسه إلى الخلف ليرى السقف. تقسّم أكشاكُ البيعِ القاعةَ إلى ثلاثةِ صفوف. اتسعت فتحتا أنفه، شمَّ رائحةَ البحر ورائحة سمك وبصل. انعطفَ يسارًا وسارَ إلى الأمام، أسالت رائحةُ السكرِ المكثف ريقه فتوغّل في السوق.

سار بين صفوف الأكشاكِ. جحظت عيناه لرؤيةِ الفاكهة والخضروات والأجبان والحلويات والفطائر والزيتون. أخبرته ملصقاتُ الأسعار أن الأمل ضئيل في شراء أغلب ما يراه. تسارعت دقات قلبه، وجزءٌ منه يضع الخطة.

لا أحد يراك. تمامًا مثل منغن. اختر بحرص وهدوءٍ وابحث عن مخرج.

سار ببطء إلى كشك في الصف الأول. كان الرجلُ الواقف خلف الطاولة يوضّح شيئاً بشغفٍ لزيوتين يتفحصانِ فاكهته المجففة بإمعان. حمل سليم كيسَي مشمشٍ مجفف وقلبهما ببطء. أخفضَ حقيبته من فوق كتفه إلى مرفقه، حيث انتظرُ فمها المفتوح الغنيمة، تحركت عيناه على مستوى منخفض يمينًا ويسارًا ببطء.

لا أحد يراك.

أسقط أحدَ كيسَي المشمش في الحقيبة بهدوء وهو يميلُ إلى الأمام ليضع الآخر على الحامل. نظر إليه البائع خطفًا، رآه يضع الكيسَ فعاود الانتباهَ إلى الزوجين اليونانيين.

ابتعد سليم ببطء، توترت عضلاته واستعدّ للركض عند أي إشارةٍ على أن أحداً رآه. لكن لا شيء. نظر حوله يبحثُ عن المزيد،

يوجد خبزٌ مسطّح، وخبزٌ مستدير، وقالب جبنٍ على حاملٍ في أحد الأركان، على مقربةٍ عشر يارداتٍ تقريباً من الباب. قرقرت معدته بتشجيع، يحسب ذهنه حصص كل منهم. أمكنه من حيث يقف قراءة السعر على أحد قوالب الجبن. يوروهات كثيرة جداً. اقترب. الخبز المكتنز مرشوشٌ بكثيرٍ من السمسم.

نظر مرةً أخرى إلى المسافة بين الحامل والباب. ما إن يخرج من تلك الأبواب الزجاجية سيّجّه يساراً ويعودُ أدراجه إلى الفندق.

وقف حول طاولة الخبز ستة أو سبعة أشخاص، أغلبهم عند قسم الكعك والفظائر. التقط أحدَ أرغفة الخبز السمينة بتلقائية وتفحصه، ثم التقط رغيفاً مسطحاً ومستديراً وضخماً ونظر إليه، غطّى به الرغيف السمين الذي يتدلّى أعلى فم الحقيبة المفتوح مباشرة. حمل الرغيفين بيده اليسرى، ومد اليمنى ليأخذ كتلة جبن.

ارتفع فجأة صوت البائع في الزحام واقترب الزبائن من الطاولة. شعر بتدفق الدم في خديه. رفع بصره فوجد أن الرجل، سيدٌ محترمٌ كبير في السن بشعرٍ أشيب ومريولٍ أبيض قد قطع إحدى مخبوزاته من المعجنات المنقوعة في الشراب المحلي، وكان يقدم قطعاً كعينة للزبائن الذين لم يلحظ أحدٌ منهم خفة يد سليم.

«إيلا، إيلا!» كان سليم قد أدار ظهره للحامل لتوّه، تجمّد في مكانه وفكّر هل يستدير أم يركض فحسب، حلقة جافّ كنشارة الخشب.

ردد الرجلُ شيئاً ما باليونانية وهو يدفعُ بصينيةِ المعجناتِ
نحو سليم.

«أهذا للتذوق؟»

أوماً له الخبازُ بحماس، وارى سليم حقيبته المملوءة خوفاً من
افتضاح أمره.

«دوكيماس!» قال الخبازُ بغمزة. أخذ سليم قطعةً من المعجناتِ
الدبقة والرجلُ يومئ له ليشجعه، ثم انتبه الرجلُ إلى امرأةٍ
متوسطة العمر وزوجها كانا يلطّخان زجاج خزانه العرض وهما
يشيرانِ إلى ما يريدانه. حمل سليم حقيبته وسار إلى المخرجِ
بهدوءٍ ما أمكنه، تتأرجحُ حقيبته الثقيلةُ على ظهره مع كل خطوة.
برّد الهواءُ المنعش العرقَ على مؤخرة عنقه.

تنفَس الصعداء، جعلت المعجناتُ المحلاة لسانه يلتصقُ
بسقف حلقه. كان قد ابتلعها دون أن يتذوقَ أيَّ شيء. سار في
الشوارع المتفرعة، يشعرُ بالأعين من حوله تشيرُ إليه باتهام.
انعطف مراتٍ عدة ليبتعدَ ما أمكنه عن السوق وزبائنه. خلال
دقائق، كان فقدَ الاتجاهات، فوقف يلهثُ نائهاً.

أسند ظهره إلى جدار وبحثَ بعينه في الشارع حتى رأى لافتةً
المترو. وخزت ابتسامةً بائع الخبز المشجعةً ضميره.
«أنا آسف» فكّر.. كان كذلك حقاً.

لكنه شعرَ بشيءٍ آخرَ أيضاً؛ شيء ما لم يتوقَّع الشعورَ به. رفع
حقيبته وشعر بحملها، أرتالاً من النجاح، سيكفي لإطعام أسرته
أياماً دون أن ينفقوا يورو واحداً. كانت كل قضيمة يتناولونها، وكل
شيءٍ يفعلونه، يُقاس بأيامِ جمعِ الطماطم وتطهير البيوت.

على شيءٍ ما -القدر، الكون، الله- أن يريخ آل حيدري قليلاً،
بِرَّزَّ سليم لنفسه. كانت يدُ عبد الرحيم على أحد كتفَيْه، هاكان
أمامه، صوتُ بادر جان يرنُّ في ذهنه.

سليم جان، بُنِّي، اكسَبْ عيشك بشرف.

في غرفة الفندق. وضعَ غنيمته على ورقٍ جرائد.

«لو كان أبوك معنا لكان سيفخرُ بك جداً»، تنهَّدت مادر جان
وهي تقسِّمُ الخبزَ والجبن إلى قطع. «ليباركك الله لما تفعله من
أجل هذه الأسرة، هذا طعامٌ كثير جداً لكم تكلفَ كل هذا؟»
أجابها برقمٍ لا معقولٍ نهائياً، وشعرَ بغضبٍ لأنها لم تشكَّ في
شيء.

أكلوا بصمت صار يسودُ معظمَ أيامهم. كان من الأسهلِ ألا
يعلنوا عما يفكِّرون فيه. مضغت سميرة ببطء، علقَت بذور
السَّمسم بين أسنانها، دست خصلةً شعرها خلف أذنها. نظر
سليم بعيداً بسرعة، لقد نامت بالقرب منه ليلالٍ كثيرة جداً
لتعرفه حين يُخفي شيئاً.

«هناك منطقةٌ في المدينة يعيش فيها أغلبُ الأفغان»، أعلن
سليم. «سأذهبُ إلى هناك غداً صباحاً لأتحدَّث مع أحد، ربما
لديهم شيء مفيد».

«منطقةٌ كاملة للأفغان النازحين؟ ليباركهم الله...»

فيما كانت تدعو للآخرين، استبعد سليم أن يدعو لهم أحد.

«سأحاولُ معرفة طريقة السفر من اليونان إلى أوروبا، ربما
يخبرونني أيضاً كيف يمكنني كسبُ القليل من المال هنا». حدَّثها
عن الرجل البنغلاديشي بائعِ الدُّمى الراقصة، عن المترو وكيف

دفعَ ثمنَ تذكرته، وصف لها السوقَ والشوارعَ والميدانَ الذي ذكره بكابول. سميرة وعزيز يستمعان، بألغ في ما يقوله، جعلَ المباني أطول، والقطارَ أسرعَ والناسَ أكثرَ وذا، خلق من يومه رسماً كاريكاتيرياً، في الغالبِ من أجلِ سميرة. كان ذلك أكثرَ متعة، فكَر.

ازدادتْ ثقُتهم بعد امتلاء معداتهم، أمكنهم التخطيط للغدِ وللأيام التي ستليه.
«سيكونُ عليك أن تتحلَّى بالعزمِ والمثابرةِ، وأنا متأكدة أنك كذلك. إن شاء الله يا بُني». تنهدتْ مادر جان وهي تمضغُ الطعامَ المسروقَ بامتنان..
«إن شاء الله».

في الصباح التالي، خرج سليم إلى الشارع بثقةٍ عززها نجاحُ أمس. وافق صاحبُ الفندق على إقامتهم بقيةَ الأسبوع بسعرٍ مخفضٍ مقابل مساعدةِ مادر جان في أعمالِ التنظيف والمطبخ. ظلت سميرةُ مع عزيز في الغرفة فيما تقوم مادر جان بمهامها. سأل عن الطريقِ إلى ميدان أتيكي واكتشف أنه أقرب بكثير مما صورته له البنغلاديشي. شق طريقه في الشوارع بين المحلات. اليومُ أهدأ من أمس لكنَّ الوقتَ ما زال مبكرًا.

اقترب من كشك، المرأةُ بداخله مشغولةٌ برصّ علب سجائر، نظر إلى الصحف، يقلبُ صفحاتها الأولى كأنه يفهمُ شيئًا فيها. زجاجاتُ المياه الغازيةِ إلى جانبِ حامل الجرائد. لا أحد آخر في الشارع، أزلقَ زجاجةً في حقيبته، وعيناه على ظهرِ المرأة. حين استدارتْ له، التقطتْ كيسَ علكة ووضعهُ على المنضد، أخرج من جيبه حفنةَ عملاتٍ وأخذتْ هي ثمنَ العلكة، أوماً برأسه شكرًا، علقَ حقيبته على ظهره وواصلَ سيره على رصيف الشارع. بعد عدة انعطافاتٍ، أخرج زجاجةَ المياه الغازية وشرب جرعةً كبيرة، فار الشرابُ المحلّى على لسانه، مذاقه ليس جيدًا كما توقّع، كذلك لم يشعرَ بنجاحٍ كما شعرَ بالأمس. جرعهُ بسرعةٍ ما أمكنه، يريد التخلّص منه.

سار تحت السماء الصافية، ينظرُ بذهول إلى المباني الشاهقة من حوله، بواجهاتها المزخرفة وأسطحها الملونة. هذه مدينةٌ حية لا تشبه في شيء مشهدَ ومنغن أحاديّتي اللون. نساءٌ بسيقانٍ عارية يضحكن ويغمزن ويبتسمن في الشوارع. طلّى بعضهن أهدابهنّ أو شفاههن بالمساحيق وبدونَ كالنساء اللائي كان هو والفتية يتطلعون إلى صورهنّ في المجلات المعروضة في منغن. ها هنّ، بالقرب منه بما يكفي ليتحدّث معهن. يسير الشباب والشابات معاً بلا خجل. وجدّ نفسه يحدّق فيهم مباشرةً، لاحظ قليلون منهم ذلك فأسرعوا سيرهم للابتعاد عنه، وكان أغلبهم منهمكين تماماً في محادثاتهم.

رأى من بعيدٍ ثلاثة شبان أعمارهم في العشرين تقريباً، يقفون مستدين إلى تمثالٍ ويثرثرون بهدوء. أعينٌ داكنة وحواجبٌ كثيفة وتقاسيمٌ وجهٍ حادة. يشبه اللاجئون أزياءهم كثيراً. نسخٌ بالية ورثةٌ من أنفسهم الماضية، صار يمكنه تمييزهم من بعيد.

«مرحباً»، صاح بصوتٍ متردد، كان متأكداً من أنهم أفغان.

نظروا إليه، ارتفعت حواجبهم فضولاً، كانوا جميعاً مدريين جيداً على تمييز المارة في الطريق. انتظروا أن يسمعوا ما لديه.

«أنتم أفغان، أليس كذلك؟»

ابتسموا جميعاً ابتسامات واسعة.

«ما الذي كشفنا، هاه؟ بطوننا الخالية أم وجوهنا الوسيمة الفجة؟» ضحكوا بأصواتٍ عالية، شعرَ سليم براحة، لديه شعورٌ جيّد تجاه هؤلاء الرفاق.

«من الجيد الحديثُ مع أحدٍ من بلدك، ظلَّ لساني مربوطًا شهورًا».. أقرَّ سليم.

«حقًا؟ حسنًا، أطلق الوحشَ يا صديق، حرِّر لسانك!»

«لم نركَ من قبلُ هنا».. قال أحدُهم، الأقصر من بينهم.

«اسمي عبد الله، من أين جئت؟»

«من تركيا».

«يا الله، يا لحظك! نجوتَ من ذاك البحر! سمعنا أن القليلَ لم

يحالفهم الحظُّ الأسبوعَ الماضي، غرقوا في طريقهم إلى هنا. لا

بد أن الله قد نجّاك».. قال عبد الله.

«أنت محظوظٌ بالتأكيد، كدتُ أغرقُ حين جئت»، أضاف شابٌ

آخر، أطولُ منه وله وجهٌ مستديرٌ وشاربٌ خفيف. «القارب الذي

جئتُ على متته...»

نظر إليه أصدقاؤه بود، استعدّوا ليسمعوا قصته مجددًا.

«كان كألواح من الكارتون والخشبِ الرقائقى ملصقة معًا،

لا تزيد حمولته عن ثمانية أشخاص لكن أبناءَ الحرام... أنت

تعرفهم، وكانت الأمواجُ مريعةً تلك الليلة، في النهار تبدو المياهُ

جميلة، لكن ليلاً تُمسي ووحوشًا تأكلُ البشرَ أحياء».

شعر سليم بموجةِ امتنانِ تغمره.

الحمدُ لله على جوازاتِ السفر التي نجّتنا من هذا الكابوس.

«متى وصلت؟».. سألَ عبد الله «وهذا جمال -بالمناسبة-

وصديقُه حسن، ما اسمك؟»

«سليم، وصلتُ منذ يومين فقط، أخبرني رجل بنغلاديشي بأن

الأفغان في هذه المنطقة».

«أوه، أنت حديثُ العهد في البلد! لَنُرْحَبْ بك في اليونان إذن لأن لا أحد آخر سيهتمُّ بذلك». قهقهه صديقه.

«نعم، سيعجبُك المكانُ بقدر ما يعجبنا، صحيح؟» لدى حسن ندبةٌ طويلة بارزة تمتدُّ على ساعده، حاول سليم ألا يُحدِّق إليها. «منذ متى وأنتم هنا؟» سأل سليم.

«أنا هنا منذ عامين»، أجاب حسن أولاً. «جاء هذان بعدي بستة أشهر. أنت هنا منذ يومين؟ أين تبيت؟»

«بالقرب من الميناء، لن نبقى هنا، لدينا أقارب في إنجلترا ونحن نحاول الوصولَ إلى هناك».

«نحن؟ ألسنَ وحدك؟» سأل جمال.

«اممم، لا»، قال سليم متردداً.. تذكر ألا يبوح بكل شيء. «معى أسرتي».

«أوه، أنت محظوظ! قطعتَ المسافةَ من أفغانستان برفقة أسرتك! كم عددكم؟» سأل جمال بعينين متسعيتين، بدا مدهوشاً. «نحن أربعة»، قال سليم ببساطة، لم يرغب في ذكر ما لا داعي لذكره كما فعل من قبل في تركيا.

«محظوظ حقاً!» أكد عبد الله. «أغلبُ الأفغان هنا في ميدان أتيكي مثلنا، هنا وحدهم. يوجد فتيةٌ كثيرون في مثل سنك، الجميعُ يأملون في التقدم لطلب اللجوء لكن هذا البلد لا يقبلُ لاجئين، نحن جميعاً هنا لكننا ينبغي ألا نكون هنا».

«التخلصُ منَّا أصعبُ من التخلص من قملٍ شعرٍ حسن»، قال جمال مازحاً. لكزه حسن في ذراعهِ بمرح. تذكر سليم كمال والفتية في منفن. استمتع بفهم كلِّ ما يُقال من باب التغيير، كانت

محادثةً بلا جهد.. «وتقولُ إنك تريدُ رؤية أفغان، سنريك أين تجدُهم». قادوه في الشارع مسافةً عدة مبانٍ ثم انعطفوا يسارًا خلف مبنى كبيرٍ بجدرانٍ عليها رسوم جرافيتي. بدت المنطقةُ مختلفةً بشكلٍ ملحوظٍ عن المناطق التي استكشفتها بالأمس، لا محلات، لا سيّاح.

في أرضٍ واسعةٍ مكسوةٍ بالعشب خلفَ المبنى الكبير، تضاعفَ الثلاثة الذين قابلهم، كان الرجالُ والشبابُ في كل مكان، يتجولونَ خارج خيامٍ مرتجلةٍ أو يجلسون على دلاءٍ مقلوبة. توجدُ ناران يجلسُ حولهما الرجالُ أو يتمددونَ على الأرض بجوارها. الماءُ في خمس دلاءٍ يشربون منها بأيديهم.

القذارةُ تضاهي أكثرَ المناطق المنكوبةِ في كابول. كان هذا الجانب القاتم من أثينا، العالم السريّ لبشرٍ غير موجودين. ليسوا مهاجرين ولا لاجئين. ليست لديهم وثائق وليس لهم أثر، ظلال تختفي في الضوء.

ذهبَ حسن وجمال للبحثِ عن طعام. سيبحثانِ عن بقايا طعامٍ بالقرب من المطاعم. أخبرهُما عبد الله أنهما يُضيّعان وقتَهُما وأخذ سليم ليقابله ببعضِ الأشخاص.

«حتى هنا بين أبناء بلدك يجبُ أن تحذَرَ من الآخرين، خصوصًا أنت، لأن أسرتك معك وكلّ هذا، مثلًا أترى هذا الرجلُ بالقميص الأصفر؟»

كان الرجلُ يجلس على الأرضٍ مستندًا بظهره على شجرة، لاحظَ سليم أن الجميعَ في كلِّ مكانٍ في مجموعات، إلا هذا الرجلُ وحده.

«نعم، أراه».

«هذا اسمه صبور.. لا تقترب منه».

«لماذا؟»

أخفضَ عبد الله صوتهُ وبدأ يحكي ما كان على الأرجح قصةً المخيم المفضلة.

«إنه ثعبانٌ، يسرق ناسه، من ليسوا بحالٍ أفضل منه، في مكان كهذا، لا توجدُ أقفال، لا بوابات، توجد جيوبٌ والأكياس البلاستيك فحسب. في العادة يكونُ أثمن ما لديك هو الطعام. مع ذلك كان الناسُ يستيقظونَ في منتصف الليل فيجدونه يتسللُ كالفئران ويعبثُ في أشياءهم، تضيعُ أشياء صغيرةٌ هنا وهناك، والشيء الصغيرُ يُعدُّ كل شيء تقريباً حين تكون مُعدماً».

«في جميع الأحوال، منذ أسبوعين، حصلَ أحدُ الشباب، كريم، شابٌ طيب من مزار، على بطاطس من مكانٍ ما وأكل نصفها. كان يدّخر النصف الآخر، يستيقظ في الصباح ليجدَ النصف الآخر من البطاطس مفقوداً. ثم نرى حينها، ماذا نرى في وضع النهار؟ صبور، في يده النصف الآخر من البطاطس ويجلسُ في ركنٍ بعيد، اشتعل كريمٌ غضباً، سار إلى صبور مباشرةً، وهو شيء لم يفعله أحدٌ حتى وقتنا هذا، واتّهمه بسرقة البطاطس خاصته. أخبره صبور وجهاً لوجه أنه حصلَ على البطاطس من صدقة كنيسة، مع أنه لم تصلنا أيُّ صدقاتٍ من الكنيسة ذاك الأسبوع. «ظلَّ كريمُ أمامه، يتّهمه بالكذب، يطلبُ منه أن يعيدَ إليه البطاطس، وأن يعتذرَ للجميع عن كلِّ ما سرقه منذ وصل. نظر صبور في عيني كريم ببرود وقال: «لو أرادَ شخصٌ آخر عملَ

مشكلات معي كما يفعل ابن الحرام هذا، فأنا أحذركم. لديكم جميعاً عائلات في أفغانستان وأنا أعرفُ أسماءكم، لن يُمانع أصدقائي في الوطن من زيارة عائلاتكم هناك، جربوني لتروا ماذا سيحدث. منذ ذاك اليوم، نحن جميعاً نتجنبه فحسب».

«لو كان لديه أصدقاء مُهمّون كما يقول فلماذا رحل؟» سأل سليم، وهو يدير ظهره لصبور غريزياً.

قال عبد الله يرفع كتفيه: «ربما كان يكذبُ، لكن لا أحد يريد أن يتأكّد. ابتعدْ عنه فقط».

أخذه عبد الله بعد ذلك إلى مجموعة من ستة فتيان يلعبون الورق. بعضهم صفار، أكبرُ قليلاً من سميرة، رحبوا جميعاً بالوافد الجديد وبمشاركته في بعض من حكمة اللاجئيين.

كانوا قد وصلوا جميعاً معاً، مجموعة من قرابة خمسة عشر شاباً، أُشيرَ إليهم بالذهابِ إلى «الوزارة». فأرسلتهم الوزارة إلى مكانٍ آخر يدعى المجلسُ اليونانيُّ للاجئين، لم يهتم بهم المجلس كثيراً، أخبرهم أنّ بإمكانهم التقدّم بطلب اللجوءِ إن حصلوا على عملٍ لكنهم حذروهم من أنّ لا أحد يعيّن لاجئيين في أي عمل، وأنه لا يوجد طعامٌ ولا مأوى لهم.

جاء الشبابُ، برفقة أسرٍ قليلة، من مكانٍ يُدعى باغاني، كانوا ينطقون الاسمَ كأنهم يبصقون ويهزّون رؤوسهم. باغاني مركزُ احتجازٍ للمهاجرين على إحدى جزر اليونانِ الشاعرية الكثيرة، مبنى مثل قفص، كما وصفهُ الشباب، أكبرُ قفصٍ رآه أحدهم من قبل. يعج باللاجئيين الذين رحلوا من بلادهم، فقط ليُحتجزوا في اليونان في النهاية. رجالٌ ونساءٌ وأطفالٌ بعددٍ يفوق سعة المبنى

بثلاثة أضعاف. الفناء الصغيرُ يأوي جزءاً صغيراً من المقيمين، يقضون أياماً دون أن يخرجوا. وهناك على الأقل مئة فردٍ لكل حمام.

لم يعرف أحدٌ سوءَ الأوضاع هنا إلا بعد فوات الأوان. أثار باغاني على عددٍ قليلٍ من الصغار بحيث كان مجردُ ذكرِ اسمه حتى هنا في ساحة أتيكي يصيبهم بضيق تنفس.

كان باغاني في انتظارهم كقاصرين بلا رفقة، لكنهم لا يريدون العودة إلى القفص. قرّر جمال وحسن وعبد الله أن يعيشوا معاً في شقة يتشاركون فيها مع تسعة آخرين. يحلمون بالسفر إلى ألمانيا حيث سمعوا أن اللاجئين يحصلون هناك على حق اللجوء وعلى مسكنٍ وطعام. لكن في اليونان يوقفهم ضباط الشرطة ليسألوهم عن «أوراقهم».

«لا تعني الأوراق أي شيء».. أوضح جمال «لقد منحونا أوراقاً» في باغاني وأخبرونا بأن نحفظُ بها معنا طوال الوقت. احذر من الشرطة هنا، حتى بتلك الأوراق، نحنُ أهدافٌ لهم مثل كلاب الشارع. حتى عند بعض الكنائس التي توزعُ الطعام، قد تكون الشرطة هناك، لا حقَّ لجوءٍ هنا».

قضى سليم النهارَ يستمعُ مُحبباً. اليونانُ في ظاهرها ساحرةٌ وجميلة، لكنها مكانٌ عدائيّ، وكثيرٌ من الفتية الأفغان الذين قابلهم نادمون على ما دفعوه مقابل الوصول إلى هنا.

في الأيام التالية، عاد سليمٌ إلى أتيكي، أخبره الفتية عن الأماكن التي ينبغي أن يتجنّبها وعرفوه على الكنائس التي توزعُ طعاماً وماءً.

حين عرفَ عن باغاني، لم يعد يحبُّ تركِ مادر جان أو أحدٍ منهم يتجولُ وحده في الخارج. مع أن لديهم جوازاتِ سفرهم، لكنها كانت مزورةً وفي الغالب سيتم تمييزُ ذلك. لا داعي للمخاطرةِ بترحيل الأسيرةِ إلى تركيا أو الأسوأ من هذا، إلى أفغانستان. استمرَّ يسرقُ الطعامَ وأشياءَ أخرى كالصابون لكنه كان يشمئزُّ من فعله، وكان خوفه يزداد يومياً. كان عليه المخاطرةُ بحساب إن أراد ادخارَ ما يكفي للسفر إلى إنجلترا.

تأتي منظمةٌ إنسانيةٌ محليةٌ يونانيةٌ بشكلٍ منتظمٍ إلى ميدان أتيكي. يتحدث متطوعوها مع اللاجئين، يحاولون المساعدةَ في قضايا الوثائق ويوزعونَ الطعامَ والماء. كانت معهم ممرضةٌ تضعُ ضماداً أو تقدِّمُ مضاداً حيوياً هنا وهناك. كانت موارد المنظمةِ نفسها محدودةً أيضاً. كانوا في الغالب شبابٌ مثاليون غاضبون من سوء معاملةِ بلدهم للاجئين، أرادوا تصحيحَ الأمور، وكانوا في أغلب الأحيان المصدرَ الوحيدَ الموثوق به للمعلومات والطعام.

بعضُ الشبابِ الأفغان في الميدان لا يثقونَ حتى بالعاملين في المنظمة. سليم أحدهم. تجنبَ التواصلَ بالعين مع الشباب الذين يسرونَ في الساحة بتشيرتاتهم البنفسجية، مطبوع عليها اسمُ المنظمة وشعارها بخطِّ كبيرٍ لتمييزهم من بعيد. يطرحون أسئلةً كثيرة ويريدون التقاطَ صورٍ أيضاً.

كان يرتابُ في دوافعهم، ينتفخُ صدره فخرًا لظنه أنه أكثر دهاءً من شبابِ منظمة الدعم، كأن لديه حسًا شاعريًا أكثرَ من هؤلاء الفتية الذين يسجلون قصصهم في دفاتر صغيرة أو مسجلاتٍ صوتية. فكان يبذل قصارى جهده لتجنبهم.

حتى رأى روكسانا.

«لن نستطيع الاستمرار هكذا سليم جان» همستُ مادر جان له، سميرة وعزيز نائمان.

«ماذا تعنين؟»

«خلال أيام، ستفدُ نقودنا وما زالَ أمامنا طريقٌ طويل. لا يمكننا انتظار معجزة». «أعرف».

«الحمد لله أن وجدتَ عملاً مقابلَ الطعام على الأقل».

عضُّ شفتيه، شاكراً للظلام. كان قد أخبرها بأنه وجدَ عملاً بمقهى في المدينة، يكنسُ الأرضَ وينقلُ صناديقَ مقابل طعام. كان تفسيراً مقبولاً، خصوصاً لأذنٍ ترحب به. أما في الواقع، فلا أحد سيشغله. كان قد عاد إلى السوق مراتٍ عدة وسرق من محلاتٍ أخرى، أخذ ما يحتاجُ إليه لإطعام أسرته، كان يقترف ذنباً، شعر بذلك، لكن إنزال العقوبة به سيكون ظلماً.

«قد لا يستمرُّ هذا العمل، علينا التوجُّه إلى إنجلترا قبل أن تنفدَ نقودنا»، وافقها.

«نعم علينا ذلك، سنحتاجُ أيضاً إلى دواءٍ لأخيك الصغير، لن أستطيع أخذه إلى طبيبٍ ليكتبَ له دواء هنا، سيتكلفُ هذا أكثر مما لدينا وقد يسلمنا أحدهم إلى الشرطة».

«معك حق، مادر جان»، أقرّ.

كان تحديدُ الوقتِ لاستئنافِ رحلتهم قرارًا صعبًا. إنه رهانٌ في جميع الأحوال.

«علينا معرفةُ الطريقِ إلى إنجلترا، ظني أنّ القطارَ أفضلُ وسيلةٍ كما أخبرنا هاكان. المطارات مملوءة بنقاط التفتيش، ربما إن سافرنا برًا ستزدادُ فرصنا في العبور.»

«سأذهبُ غدًا لأجدَ محطةَ القطار، وسأرى إن كانَ الأفغانُ يعرفون شيئًا عن القطارات.»

«هناك أمرٌ آخر، سليم.. علينا أن نتخذَ اختياراتٍ صعبةً الآن وقد ظلمتُ أفكرَ فيها كثيرًا. لا يمكننا البقاء هنا في هذه الغرفةِ لأكثرَ من هذا، حتى السعر الذي عرضوه علينا أكثرَ مما يمكننا تحمّله، نقودنا تنفدُ بأسرع مما تخيلت.»

هذه الغرفة المتواضعة بأسلاكها العارية وجدرانها المتصدعة بشكلٍ سيئ، والحوض المتداعي الذي يتسرب منه الماء، كلُّ هذا كان قصرًا بالنسبة إلى سليم. كان حين يتركُ أتيكي ويدخلُ إلى هنا، ينظرُ إلى الفراش الآخر ويرى أمّه وأخته تتامانِ أعلى الأرض بقدمين وليس في الشارع، يشعرُ أنه ملك. تمنحه هذه الغرفة سببًا للاستيقاظِ صباحًا دون أن يشعرَ باليأس الذي يشعر به الفتية في ميدان أتيكي. تمنحه سببًا ليصدقَ أن القدرَ يخبئُ لأسرته أكثرَ من قاربٍ متهالكٍ قد ينقلبُ بهم في عرض البحر. الاستغناء عن هذه الغرفة يعني الاستغناء عن الكثير، لكنَّ البقاءَ فيها يعني اختيارَ النزيفِ البطيء وفقدانِ الفرصة في غدٍ أفضل.

«لن يكون الأمر سهلاً، سنحتاجُ إلى مكانٍ آمن، وخصوصاً في الليل». يعرفُ أن بعضَ فتيةِ ميدانِ أتيكي ينامون ساعاتٍ قليلة فقط خلال اليوم، يخشونَ إغماضَ أعينهم بعد غروب الشمسِ وقتَ خروجِ عالمٍ جديدٍ من الأخطار.

«تبدو ظمآنًا، تفضّل»، قالت روكسانا، المتطوعةُ في المنظمةِ الإنسانية، بإنجليزيةٍ سليمةٍ تمامًا تقريبًا، وهي تمدُّ يدها بزجاجة ماء. نظرَ سليمٌ إلى اليدِ بمعصمها النحيل والذراعِ الرشيقة. صار حاله أفضلَ منذ تلك اللحظة.

كانت ترتدي تيشيرتًا بنفسجيًا تدسُّه بأناقةٍ داخلَ بنطالها الجينز الضيق. يتدلَّى شعرها الناعمُ بلون الليل بحريةٍ جانبًا وهي تميلُ برأسها، بدت في مثل سنّه تقريبًا، في السادسة عشرة ربما. لفتتَ عينها المكحلتانِ نظره برفرفةٍ أهدابها. لم تكن تبتسمُ ولا تنظرُ إليه بتعاطف.

«شكرًا لك». قال وأخذَ الزجاجةَ منها.

«على الرحب.. ما اسمُك؟» سألتُهُ. رغم وجهها الذي يوحي بأغنيةٍ عاطفيةٍ داريةٍ مُبالغ في رومانسيتها، كانت نبرتها في منتهى العملية. بدا أنها من النوع اللافِتِ للنظر لدرجة تجعلها تتشددُ في سلوكها من باب الضرورة، لا سيما في مكانٍ مثل أتيكي.

«سليم» أجابها. وهذا هو كلُّ ما ستخبرها به، ذكّر نفسه. لكنه شعر بمقاومته تضعفُ وهو ينظرُ إلى عينيها.

«حسنًا سليم، أنا لم أركَ هنا من قبل، منذ متى وأنت هنا؟» تمنى لو تقولُ اسمه مرةً أخرى.

«أسابيع قليلة... لكنني لا أقيم هنا»، قال وهو يشعرُ فجأةً بالإحراج من أن تظنّه ينامُ في الحديقة، رشف قليلاً من الماء. «أوه؟ أين تقيمُ إذن؟».. أخذ رشفةً أخرى وذهنه يتسارعُ. سؤالٌ جيد.. فكّر بينه وبين نفسه، وقرر أن يغيّر الموضوع.

«ما اسمك؟» سألتها بهدوء، توقفتُ ونظرتُ إلى أوراقها قبل أن تجيبه. كان واضحاً أنها ليست سعيدةً بسؤاله.

«روكسانا».

«روكشانا»

«لا. بل روك-سا-انا»، كررتُ توضح نطق اسمها.

«لكن هذا اسمٌ أفغاني... روكشانا!» كررَ بابتسامة.

«إنه اسمي، اسمي اليوناني»، قالت وزمّت شفّتها بحدة.

«لكن، أتعرفين إسكندر، أممم، ألكسندر، لقد تزوّج بامرأة أفغانية، كان اسمها روكشانا، إنه الاسم ذاته» أوضح لها. من الجيد أن يُبدي لها معرفته ببعض التاريخ. بدا أنها ندمت على الاقتراب منه لكنها أطالت بالها.

«أنا لستُ هي، اسمي روكسانا. ويكفي هذا بشأن اسمي»..

قالت. «أخبرني سليم، هل تريدُ البقاء في اليونان أم تريدُ الرحيل؟»

«لا أحد يريدُ البقاء في اليونان»، أجابها بهدوء.

لم تبدُ روكسانا، الأقل سداجةً من أغلب الفتيات في سنّها، مدهوشةً لسماعها هذا.

«إلى أين تحاولُ الذهاب؟»

«إنجلترا»، تتهدد سليم. بقوله وجهته بصوت عالٍ، بدت له بعيدة لا يمكن الوصول إليها.. «لدي أقارب هناك».

«آه، إنجلترا»، أومأت برأسها وهي تنظر إلى اللاجئين الآخرين.

«نعم، إنجلترا شائعة جدًا».

«اليونان جميلة، لكنها لا تريدنا هنا».

«إنها صغيرة. ليس بوسع الحكومة مساعدة الجميع».

«لكن أنت... أنت تساعدين».

«نحن مجرد أفراد، لسنا الحكومة». لا تريد الخوض في المذاهب والدوافع، ليست هنا لتتغنى بالقضية، حضورها الهادئ يتحدث عن معتقداتها. شعر سليم بلسانه ينعقد أمامها.

«ألا توافقين الحكومة؟» شعر بالخوف قليلاً عليها، من حيث جاء يعد الأمر خطرًا جسيمًا أن تجهر بمعارضتك للسلطة. كانت شابة وجريئة. كان أبوه سيحبها.

«نحن نؤمن بضرورة معاملة البشر باحترام. ونعرف ماذا يحدث حين يأتي الناس إلى اليونان ونعرف أن الأمور ينبغي ألا تسير على هذا النحو».

«لا يمكن للناس التقدم بطلب اللجوء هنا، لماذا يختلف الأمر كثيرًا؟»

كانت القصص التي سمعها عن اليونان من فتية أتيكي قد أقلقتها من أن تكون الحال هكذا في بقية أوروبا، بلا فرص حياة حيث قد تظل أسرته مشردة وخائفة من الترحيل إلى أفغانستان في النهاية. حياة الترحال مرهقة بدنيًا وذهنيًا. لكنه قابل أفغانًا أخبروه بقصص عن عوالم أفضل أيضًا. أماكن في عمق أوروبا،

بلدانٌ مثل ألمانيا أو سويسرا، ليستَ متعالية مثل اليونان وتركيا، يُمنح الأفغانُ فيها فرصًا ثانية لعيش حياةٍ طبيعية.

«أغلبُ الناس لا يفهمونَ نظامَ الحُكْمِ عندنا. كيف وصلتَ إلى هنا؟»

لم يرد إجابتها، أعاد غطاء زجاجةِ المياه إلى موضعه ورفع كَتْفَيْهِ بِمَرَحٍ. أضحكتها مراوغته اللعوب.

«نعم، نعم، حسنًا، انسَ السؤال، هذا ما يحدثُ لأغلبٍ من يأتون إلى هنا، يُلقى القبضُ عليهم وتَقوُدُهُم الشرطةُ إلى مراكزٍ احتجاز. يُفترَضُ أن تكونَ أماكنَ نظيفةً وآمنة لكنها ليست كذلك. هناك أعدادٌ كبيرة جدًا ولا يوجد مكان، يقولون إنها مثلُ السجن، حتى للأطفال، يقولون إنها أسوأ من الأماكن التي أتوا منها. أحيانًا يقضون هناك شهرًا».

«يومًا ما، ينفتحُ البابُ ويحصلونَ على أوراق، تقولُ الأوراقُ إن أمامك شهرًا واحدًا لتفادرَ اليونان. بعضهم يحصلُ على تذاكرَ إلى أثينا حتى يمكنهم الرحيل من هناك».

«لكن ماذا عن اللجوء؟ ألا يوجد لجوء؟» شعر بالامتان مجددًا لوجود جوازاتِ السفر المزورة ولحسن حظهم أن أحدًا لم يوقفهم في بيرايوس. ولأنهم قد مرّوا مرور الكرام من نقاط التفتيش. أخبرته روكسانا بأن قضتْهم استثناء.

«لا يوجد لجوءٌ حقيقي. يجبُ أن تعملَ لتحظى باللجوء، كيف لهم إيجادُ عمل؟» أشارت نحو الحديقة. «أولاً، تحتاجُ إلى تصريحٍ بالعمل، ولتحصلَ عليه يجبُ أن تتقدمَ بطلب لجوءٍ، أترى المشكلة؟»

«لماذا يتحدثُ أصدقاؤك مع اللاجئين إذاً ويكتبون تلك الأوراق؟»

«نحنُ متطوعون، نريد أن نكونَ هنا، لا أحد يعطينا المالَ لنأتي. لكننا نريدُ المساعدة.»

نظر إليها وتخيّل نفسه في موقفها، حاول تخيّل نفسه طالباً في المدرسةِ العليا في كابول بلا حرب، يعودُ إلى البيت حيثُ أمّه وأبوه. هل سيهتمُّ بقضيةِ غرباء؟ هل سيُعنى بكيفيةِ معاملتهم إلى حدٍّ أن يقضيَ وقته في توزيع الطعام عليهم وملء الاستثمارات لهم؟

كان مجردُ تخيّلهِ صورتهُ في تلك المشاهدِ القصيرةِ الطوباوية مؤلماً، مثل منح نفسه كل شيء فقط ليحرّمها منه في اللحظة نفسها مجدداً. كأن تتجرع من زجاجة سمٍّ وتشعر به يحرق ما بداخلك وهو يسري فيك.

ربما لن يعودَ الشخصَ نفسه الذي كانه أبداً. الشخصُ الذي كان يضحكُ ويحلمُ ولديه مكانٌ يدعوهُ بيته. ربما يرقدُ هذا الشخص، مثل أبيه، في قبرٍ بلا شاهدٍ في مكانٍ ما بأفغانستان. في لقائهما الثاني، بعد يومٍ من مغادرة أسرتهِ غرفةَ الفندق، كانت روكسانا أكثرَ مباشرة.

«إيلا، أتريدُ التقدمَ بطلبٍ للجوء أم لا؟» ليست في مزاجٍ للتلاعبٍ بالكلمات اليوم. جلسا على درجاتٍ أسمنتيةٍ تؤدي إلى الحديقة، أراد أن يسألها إن كانت تعرفُ مكاناً يمكنُ لأسرتهِ الإقامة فيه. الليلة ستكونُ ليلتهم الأولى في الشارع.

«روكسانا، أتسأليني عن هذا مجدداً؟ لا أريدُ البقاءَ في اليونان، أريد أن آخذَ أسرتي إلى إنجلترا. وأنت تقولين إن اليونان لا تمنحُ اللجوء. لماذا هذه الأوراق؟» شعرَ بحماقةٍ وهو يتحدث بالإنجليزية لكنه كان شاكراً أن أمكنه الوصول إلى هذا المستوى في المحادثة حتى، لو كان بإمكانه التحدثُ بالدارية لقال الكثير، لنظرتُ إليه نظرةً مختلفة، ففكر.

«لكنهم يمنحون حقَّ اللجوءِ أحياناً. الأمر يعتمدُ على قصة الشخص أو الأسرة، الجميع مختلفون». نظرتُ بعيداً صوب الميدان بحزن.. «ظنّني أن لديك قصة».

«قصة! ماذا تقصدين؟»

«قصة.. السببُ وراءَ رحيلكم من أفغانستان، بعضهم يغادرو لعدم وجودِ عملٍ أو لمشكلات الحرب، لكن ظنّني أن لديك شيئاً ما مختلفاً قليلاً. ربما لا ترغبُ في قوله، لكنه قد يساعدك في طلبِ اللجوء».

«رحلنا لأسبابٍ كثيرة».

نظرتُ إليه بصبر، بعد فترةٍ صمتٍ طويلة، بدأ يتحدثُ، بصوتٍ خافت.

«هذا حقيقي، لا يوجدُ عملٌ وكانت الحربُ بشعة، كان الناس ينتظرون... السلام أو الموت». شرد ببصره بعيداً نحو الشارع والمباني، لم يتحدثُ من قبل عن حياته في كابول، عن ما رآه. لم يرغب في تذكّر تلك الأوقاتِ المظلمةِ أكثر مما يتذكّرها بالفعل. كانت في ذهنه مثل قطراتِ ماءٍ تتساقطُ من صنبور، صوتٌ مزعجٌ يضخمه الصمت. مع ذلك، واصل كلامه.

«في البدء، لم يُسمَحَ لأختي بالذهابِ إلى المدرسة، ولا لأمي بالتدريس، غادرتُ عائلتنا كلها تقريبًا؛ عماتي وأعمامي وأبناؤهم، غادر الجميع. بقيتُ أسرتي. كنا نسمعُ صوت الصواريخ في السماء وندعو الله ألا تسقطَ على بيتنا. مُنعت الموسيقى. ليس سوى الحياة على طريقة طالبان. كنا نفكر أحيانًا في أن ربما طالبان أفضل من الحرب. ربما طالبان ستوقف الحرب لكنهم جلبوا المزيد من المصاعبِ».

«لا يُسمَحَ لأمي بالخروج دون رجل. لم يكن من أحد غيري. كنت أذهبُ إلى السوق لشراءِ الطعام وكانت لدينا نقودٌ قليلة فقط. لم يكن هناك عمل، فهمنا بسرعة أننا لن نجد طعامًا أو نقودًا أو حياة».

استمعت إليه بانتباهٍ. ظلت عيناها في الأرض.

ساد صمت. تجوّل بين أطلالِ ذكرياته، كان في الثانية عشرة أو الثالثة عشرة فقط حينذاك. بالنظر إلى الخلف الآن يتضح بؤس موقفهم أكثر، خاصة الآن وقد صار المسؤول عن إطعام الأسرة.

«سليم»، قالت بصوتٍ يكاد يعلو عن الهمس. «ماذا عن أبيك؟»

حرّك الساعةَ حول معصمه.

«أبي...» قال ببطء، يشعرُ بصدرة يضيقُ وهو يتحدث.. «كان أبي مهندسًا. يعملُ في وزارة المياه والكهرباء. كان عمله في المياه».

يا له من إجحافٍ لأبيه ألا يستطيعَ توضيح عمله بالمزيد من التفاصيل. شعر بعجزه.

«أبي... كان يؤمن... كان يؤمن بأهمية أشياء معينة للبلد لكن بعض الأشخاص... ذات ليلة، جاء ثلاثة رجالٍ إلى بيتنا. سمعتهم يتحدثون مع أبي. ثم لم أره بعد تلك الليلة قط.»

ضغط بأصابعه على عينيه ليمنع الدموع. أبقى رأسه مُطرقاً.
«أنا آسفة»، همست وهي تضع يدها على كتفه. «لم أقصد أن...»

«لا، لا»، قال مستاءً من وضعها يدها عليه ومن الشفقة في صوتها. منحه استياؤه قوة ليبتلع الغصة في حلقه. أخذ نفساً عميقاً وواصل برياطة جأش: «تركنا كابول. كنا نخشى عودة هؤلاء الرجال، أو الموت جوعاً في بيتنا.»

«سليم، دعني أساعدك في تقديم طلب اللجوء، من حق أسرتك أن يستمع أحد لقصتها، لديكم سببٌ جيد.»

«لكننا ليس لنا أحدٌ هنا. ليس لدينا شيء. في إنجلترا لدينا عائلة، بلدان أخرى ستمنحنا شيئاً ما. أمي، أختي، أخي، إنهم في حاجة إلى طعام وسكن.»

لأن وجهها، لم تعارضه.

«ماذا ستفعل في إنجلترا؟»

«ماذا سأفعل؟» ضحك سليم. ارتخت كتفاه. «سأقود سيارة

حمراء وأذهب إلى المطاعم ودور السينما!»

لم تقل شيئاً، تلاشت ابتسامته وهو يفكر في ما سيفعله في إنجلترا حقاً. يريد أن يذهب إلى المدرسة مع أخته. أن يأخذ عزيز إلى طبيب. أن يرى أمه معلّمة مرة أخرى.

استدار إليها، بلمحةٍ حقدٍ على امتيازاتها التي تتمتعُ بها.

«ماذا تفعلين أنتِ هنا؟ تذهبينَ إلى المدرسة، صحيح؟»

تذهبُ إلى مدرسةٍ دوليةٍ في اليونان حيث التعليمُ بالإنجليزية، يريدُها أبواها أن تتعرفَ على جنسياتٍ مختلفةٍ، كما أوضحتُ.

«روكسانا، لماذا تأتيينَ إلى هنا؟ لديكِ مدرسةٌ جيدة. يمكنكِ

الخروج مع أصدقائكِ، عائلتكِ. لماذا تريدِينَ الوجودَ مع أفغانِ

في حديقةٍ قذرة؟ أنتِ يونانيةٌ، أما نحنُ فهذا مختلف، نحنُ

أفغان، نازحونَ من أفغانستان».

نظرتُ بعيداً، تتجنبُ نظرتَه الملحة.

«نحنُ لسنا مختلفينَ جداً يا سليم».

استيقظ بشعور وخزٍ إبرٍ ودبابيس في قدميه. استغرق أكثر من دقيقةٍ ليدرك ما به. لم ينم سوى ساعةٍ أو اثنتين، انتابه أرقٌ ولم يغمض عينيه أغلب الليل.

حدّثه روكسانا عن هذا الملعب بين البنايات السكنية في حيّ للطبقة المتوسطة في أثينا. في المساء يسوده الهدوء. كان بعيداً عن الشارع المزدهم ولا يمرُّ به أحدٌ بعد إغلاق المحلات القليلة المجاورة. أخفوا حقائبهم خلفَ بناية وظل سليم يدفع سميرة على إحدى الأرجوحات حتى خيم الليل. تسللت الأسرة كلها إلى بيت الدمية الخشبي الصغير وتكوّروا معاً فيه. كانت مادر جان قد أخذت بطانية صوفٍ من الفندق واستخدمتها غطاءً وحيداً. جلست مادر جان وأسندت رأسها في ركنٍ من بيت الدمية. كانت عيناها مغمضتين لكنه عرف من تنفّسها أنها مستيقظة، فتحت عينها حين شعرتُ بقدمه تلمس قدمها.

«آسف مادر جان»، همس. «لم أقصد إيقاظك».

«صباح الخير باجم»، قالت، كان كذلك بالفعل، بدأت السماء تتحول من سواد الليل إلى أزرق طلوع الصبح. «أتمنى أن تكون قد نمت جيداً».

«ظنني هذا». شعر بألمٍ حادٍ في رقبتِه وهو يديرُ رأسه. فرك عضلةَ عنقه المنقبضة. رقدت سميرةُ برأسِها إلى جانبِ مادر جان، ورقدت لفةُ الطبقات التي كانت عزيز بين ذراعيها. بدا أنها لم تتحرّك منذ الليلة الماضية.

لكنها لن تشكو، فكّر سليم. مالت عليه.

«باجم، سوف أخرجُ قبلَ أن يبدأ الناسُ النهوض والسير حولنا، سأجلس على إحدى الدكك بجوار الأرجوحاتِ وأتركك أنت وسميرة لتتما وقتًا أطولَ قليلًا. سأوقظكما حين أرى المارة يسرون في الجوار».

أوما لها برأسه، «سأتي معكِ مادر جان».

«لا، ابق.. ستكونُ سميرة أفضلَ حين تستيقظُ لتجدَ أخاها معها. أنت لم تتمَّ جيدًا بالفعل. مددَ ساقيك وحاولَ أن ترتاح قليلًا».

كان مرهقًا بشدة فلم يجادلها. أغمضَ عينيه الثقيلتين مجددًا. شعرَ بأنها عادت بعد دقائقٍ قليلةٍ فقط إلى بيت الدمية لتوقظهما همسًا. كان الناسُ يصطحبون أبناءهم إلى المدرسة، لقد باتوا أولَ ليلة لهم في الشارع. تساءل كم ليلة أخرى سيقضونها هكذا قبل أن يجدوا سقفًا حقيقيًا أعلاهم مجددًا.

لا يسعُه فعل الكثير في الصباح الباكر. كان بحاجةٍ إلى ستار الزحام ليقوم بسرقاته. روكسانا في المدرسة، وعدتُ بلقائه في ميدان أتيكي في الظهيرة. كانت أمه الوحيد، لكنه عرف من وجهها أنّ لا أخبارَ جيدة لديها له.

«لا أحد لديه مكانٌ. هناك احتمالٌ واحدٌ أُعملُ عليه لكنني لستُ متأكدةً بعد، كيف كانت ليلتكم؟»

«بخير، هادئةٌ وليستُ باردةً جدًّا، كانت أفضلَ كثيرًا من أي مكانٍ كنتُ سأجدهُ».. ما دام لم يُجروا مقيدي الأيدي بعد، لم يكن ليطلبَ المزيد.

«سليم جان، كيف حالك؟ تتلقَى زيارةً من فتاتك؟» قال جمال بالدارية، فرمقته روكسانا على الفور بنظرةٍ حادة، وضيقَت عينيها. نظر سليم إليها ثمَّ إلى جمال، الذي لاحظَ ردَّ فعلها هو الآخر. «إنه كرمٌ منها أن تضيِّعَ وقتها في محاولةٍ مساعدةٍ أمثالنا، علينا أن نحترمها لهذا».. لم يقصد سليم توبيخَ جمال، لكنه لم يرغبَ في سماعهم يتحدثونَ عنها بهذه الطريقة، حتى وإن لم يقصدوا الإساءةَ إليها.

«سليم، المدافعُ العظيمُ عن الشرف!» قال جمال مبتسمًا.. «مرحبًا روكسانا. كيف حالك اليوم؟» سأل بإنجليزيةٍ متكسرة. «بخير.. خذْ بعضَ الساندويتشات من نيكو قبل أن تنفدَ كلها».. نبرتها سطحيةٌ وفاترة.

لم يتساءل جمال بمعدتهِ الخاويةِ عمَّا إذا كانت روكسانا قد فهمتُ ما قاله عنها أم لا، توجه على الفور إلى حيث يقفُ نيكو بكرتونةٍ كبيرة. ساد الصمتُ لوهلةٍ قبل أن تعاودَ روكسانا التحدثَ إلى سليم. «القطارُ أفضلُ وسيلةً للسفر حقًّا. في أوروبا لا يتحققونَ من جوازاتِ السفر طالما تنتقلُ بين دول الاتحاد الأوروبي. الحدودُ مفتوحةٌ الآن، يُمكنني مصاحبتكم إلى محطةِ القطارِ لشراءِ التذاكر إن أردت».. «أرجوك، ستكون هذه مساعدةً كبرى».

«متى تريدون السفر؟» عيناها يمنحها الكحل الأسود الملطخ قليلاً نظرة عميقة. مع ذلك، كانت، حين تشاء، تدفئان بنعومة مدخنة.

ليس معه نقودٌ كافية، كذلك جوازات السفر التي سيريدُ موظفُ التذاكر رؤيتها. طلب من روكسانا أن يتقابلا غداً في محطة القطار. وحتى هذا الوقت، ستظلُّ تبحث عن مأوى أفضل لهم.

صبراً سليم. قالت، ستتحسن الأحوال.

سقط المطرُ تلك الليلة، بدأ خفيفاً ثم أخذت القطراتُ تَسْمُنُ وتزلقُ من بين الشقوق إلى بيتِ الدمية. استيقظَ سليم ليجدَ مادر جان تحاولُ تغطيةَ عزيز وسميرة بما يمكنها إيجاده، تحاولُ جاهدةً إبقاءَ رأسيهما بعيداً عن الماء. مضت عشرُ دقائق لا تُحتمل. كانت سميرةٌ مستيقظةٌ تماماً تمسحُ دموعاً مطريةً عن خديها، تلتصقُ خصلاتُ شعرها برأسها. عزيز فقط من ظل جافاً. وضعتُ مادر جان كيساً بلاستيكيًا أعلى رأسه.

«سليم جان، خذ مكاني مع عزيز. سأذهبُ للبحث عن شيء ما أفضل للتعطية، يجبُ أن نظلَّ جافين» قالت.

«سأذهبُ أنا مادر جان، دعيني أذهبُ أنا»، عرض.

«لا، باجم»، قالت وهي تمدُّ قدمها بحرصٍ لتخرجَ من البيت المصغر. «أريدك أن تظلَّ هنا معهما. لن أتأخر».

كان الخروجُ عذاباً لها. نظر سليم إلى أخته وأخيه. إنه المسؤول عنهما كلياً الآن. غلبه هذا الشعور. أهذا ما تشعر

به مادر جان أم يختلف الأمرُ معها لأنها أمُّهم؟ إن كانت تشعرُ بالخوف هكذا، فهي لا تُبديه حقًا.

ماذا لو أصيبَ عزيز بشيء؟ ماذا لو بدأتِ سميرةُ البكاء؟ ماذا لو جاءَ أحدٌ وأخذنا؟

ذهب سخطُه من كونه المسؤولُ عن تلبية حاجاتِ الأسرة في حين تظلُّ مادر جان مع الصغيرين، وحلَّت محلُّه اللفتة لعودتها. تأخر الوقتُ، ساعةَ خروج سَكَّان العالم السفليِّ إلى الشوارع. إن أوقفها أحدُ رجال الشرطة، لن تستطيعِ العودة إليهم.

نظر بتركيزٍ من النافذةِ البلاستيكيةِ إلى بيتِ الدمية ليَرى قامتها، لكنه لم يرَ سوى الظلامِ والمطرِ الذي جعل الرؤيةَ مستحيلةً تقريبًا. مرَّت الدقائقُ ببطء.

حين عادتْ، كان شعرها يقطر ماءً، وملابسُها المبللةُ ملتصقةً بها، جمعتْ حجارةً من الملعب لتستخدمها في تثبيتِ طبقةٍ من الأكياسِ البلاستيكِ جمعتها معًا لتسدَّ بها تسرُّبَ المطر.. أفلح هذا.

تبللتْ ملابسُهم وخبزُهم. توقفتِ المطرُ بعد قرابة ساعة، قبل شروق الشمسِ بفترة، طوتْ مادر جان الأكياسَ البلاستيكية وأعادتِ الحجارةَ إلى أحواض الزهور. احتفظت بالأكياس كما لاحظ سليم، في حال أمطرت مجددًا.

غيَّروا ملابسهم بأخرى جافة في حماماتٍ عمومية. أنفق سليم يوروهاتٍ عدةً غاليةً لشراء خبزٍ طازجٍ وعصيرٍ من محلٍّ قريب. أكلوا بهدوء، مُنهكين من ليلةٍ مضطربة.

أحصى سليم ومادر جان ما تبقى معهم من نقود، بعد خصم المبلغ الذي قدرته روكسانا لشراء التذاكر، دسّ النقود وجواز سفره البلجيكيّ في جيبه الأمامي بحرص وانطلق. بحلول الظهيرة سيكون قد اشترى التذاكر بالفعل. شعر براحة لأنه سيقابل روكسانا في المحطة.

تمنى لو كان مثلها، هادئة وواثقة من نفسها. يعرف أن أبويها يسافران كثيراً لكنه لا يعرف ماذا يعملان. كانت طفلةً وحيدة يمنحها أبواها قدرًا من الاستقلالية أكبر من سنّها. كلّمها سألها عن نفسها تُغيّر الموضوع وتعود إلى موقفه هو.

أثارت فيه مشاعر يعرف أن عليه إخمادها لكنه لا يستطيع. كان من الصعب ألا يراقبها، يتمنى فقط ألا تلاحظ ذلك. يكبح رغبته في لف ذراعيه حول خصرها أو دفن وجهه في عنقها. لم تبد قلقة وهي معه، لذلك شكّ في أنها تعرف مشاعره. أو ربما تعرف ولا تمنع. كان يستمتع بهذا الاحتمال لساعات في النهاية. انتظر خارج محطة القطار، محاولاً أن يبدو طبيعياً ما أمكنه. استخدم نافذة عرض أحد المحلات لينظر إلى نفسه في مرآة، حاول تصفيف شعره الأشعث بأصابعه. رآها في الجهة المقابلة من الشارع، حقيبة ظهرها على كتفها مثل فكرة تالية. اعتدل في وقفته، ترتدي قميصاً أسوداً بأزرار مغلقة وكمّين طويلين تطويهما حتى مرفقيها، بنطالها الجينز مدبّب بأناقة عند كاحليها.

«مرحباً، كيف كانت ليلتك؟» سألته.

«جيدة»، رفع كتفيه بابتسامة هادئة.

«لكنها أمطرت، هل تبللتم؟ لم أعرف ذلك إلا هذا الصباح. ظللت أفكر في أخيك الصغير طوال الوقت اليوم». ها هي إشارة أخرى على اعتبارها إياه أكثر من مجرد لاجئ. سجّل تعليقها هذا مع تعليقات أخرى جمعها من محادثاتها ليفكر فيه ملياً لاحقاً. مكتبة .. سر من قرأ

«نحن بخير.. كان المكان مبللاً لكننا... تدثّرنا، إنه بخير اليوم».

«يسعدني سماع هذا، تقول الصحف أن المطر لن يسقط لبقية الأسبوع لذا لن توجد مشكلة مجدداً».

«هذا جيد».

«وهو كذلك، لنذهب لشراء التذاكر، حسناً؟» تقدمته. نظرا معاً إلى شاشة مواعيد القطارات. «هل قررت إلى أين تريد الذهاب؟»

«نعم، سنذهب إلى باتراس ونأخذ سفينة إلى إيطاليا».

أومأت برأسها توافقه.

«نعم، ظنني أن هذا أفضل الطرق، هل معك النقود؟»

أخرج جواز سفره والنقود المطوية. أخبرته أن يظل محتفظاً بها، بحثت عن شبّاك مفتوح وأشارت إليه أن يتبعها، تقدمت إلى الموظفة وتصنعت صوتاً مبهجاً على نحو خاص. راقبها سليم وهي تثرثر بودّ، ضحكت الموظفة وهزت رأسها، امرأة في منتصف العمر لم يكن ليفكر في الاقتراب منها. استدارت روكسانا إليه نصف استدارة ومدت يدها، أعطاها النقود وجواز السفر دون أن تلاحظ الموظفة.

سارا مبتعدين بالتذاكر إلى باتراس، كانت مرتاحة تمامًا، لم يستطع أن يتذكر متى كانت آخر مرة شعر فيها بالارتياح مثلها، بدا له أن كل حياته وتحركاته قد ظللها الخوف. قد يتغير ما يخافه شكلاً ولوناً بمرور الوقت لكن الخوف خلفه دائماً بخطوات. اليوم الأربعاء، تذاكر السفر الجمعة صباحاً، السفر في العطله الأسبوعية أكثر زحاماً وستكون فرصتهم للمرور وسط الزحام أفضل. قررتُ مادر جان أنه حان الوقتُ لبيع بعضِ ذهبها. كان على سليم أن يقضي يوماً كاملاً لتحويل أساورها إلى نقود يمكنهم إنفاقها على الطعام والمواصلات.

«لديّ أخبارٌ جيدة»، قالت روكسانا وهما في الشارع.. «كنتُ أتمنى أن تأتي أسرع من هذا، لقد وجدتُ مكاناً للإقامة لك ولأسرتك، أعرف أنكم ستسافرون قريباً، لكن على الأقل لن تبيتوا في الشارع، غرفةٌ واحدة، إنه فندقٌ قديمٌ يديره زوجان صديقان لجدّي، سيبيعانه خلال أسبوعين أو ثلاثة ليتقاعدوا، وهو في حال سيئةٍ لكن لديهما غرفة، سيطلبان منكم المساعدة في أشياء قليلةٍ في الفندق، لأنهما عجوزان، لكنهما عطوفان. لقد شرحتُ لهما موقفكم وقالوا إنكما لو ساعدتموهما في الانتقال فلن يطلبنا مقابلًا للإقامة».

«نعم»، وافق بحماس، يكاد لا يصدّق حسنَ حظهم، ربما كانت مادر جان مُحقّقة، ربما جلبَ المطرُ خيرًا رغم كل شيء. ناولته روكسانا ورقةً كتبتُ فيها عنوانُ الفندق.

«لا تشكرني، يمكنكُ شكرهما، ليحالفك الحظُّ سليم، أعرفُ أن الأمرَ ليس سهلاً، خصوصاً أن أسرتك كلها معك. أتمنى أن

تعاملكم بقية أوروبا معاملةً أفضلَ من هنا». نظرتُ إلى ساعتها «عليَّ العودة إلى البيتِ لكنني سأكونُ هنا الجمعة صباحًا قبل مغادرتِكُمْ. أريد أن أطمئنَّ عليكم جميعًا وأنتم في القطار. وسوف أدوّنُ لك أيَّ سفينةٍ عليك ركوبها من باتراس. أنت تعرفُ، في باتراس يوجدُ مخيمٌ كبيرٌ للاجئين. هناك أفغان أكثر مما في ميدان أتيكي والأوضاعُ هناك ليست جيدة. لا تتوقفُ هناك سليم. مما سمعته، إنه نهايةٌ حتمية».

أوما برأسه، راقبها تُعلق حقيبتها على كتفها وتعبُرُ الشارع. أمامه فرصةٌ واحدةٌ فقط لرؤيتها مجددًا. ليس مستعدًا لتوديعها اليوم.

جعله رحيلهما الكئيب أكثرَ توترًا، لم يعرفَ ماذا سيحدثُ لهم حين يستقلّون القطار أو حتى في باتراس. توقف عند أسواقٍ قليلة في طريق عودته إلى البيت وسرقَ ما أمكنه سرقته. نحى أفكاره عن روكسانا جانبًا مذكّرًا نفسه بالنقود القليلة التي أحصاها مع مادر جان. كان الظلام قد خيم تقريبًا حين عاد إلى أسرته، بدا على مادر جان الارتياح لرؤيته.

بات يفهمُ ما تشعر به كلما غادر، قليلًا فقط. لن يمكنه معرفة كلِّ ما يجولُ في خاطرها بأفضل مما يمكنها هي تخمين ما بداخله. هناك أشياء يقولها أحدهما للآخر بصوتٍ عالٍ، وأشياء يهمسون بها بوجهٍ يختلج، وأشياء يسكتان عنها تمامًا. الأمُّ والابنُ منفصلان على أساس السنِّ والدور والرغبة في حماية أحدهما الآخر. لكن الهدفَ من سكوتهما، مع أنهما لن يعترفا بهذا أبدًا، كان لحماية نفسيهما وعلاقتهما. أشياء لا يرغب أحدهما في معرفتها عن الآخر حتى وإن أمكنه ذلك. بعض أسرارٍ أنقذتهما.

أفرغ حمولة حقيبته فقسّمته مادر جان إلى ما سيتناولونه الليلة وما سيدّخرونه للرحلة. أعطاهما التذاكرَ وجواز السفر، فدسّتها في الحافظة التي تعلّقها في عنقها، تحت بلوزتها.

«أصيب عزيز بنوبةٍ أخرى اليوم»، أخبرته بهدوء.

بالفعل، كانت بشرته أكثرَ شحوباً عن الأمس، رقد على الأرض، خلفه وسادة، زاد وزنه قليلاً منذ أن بدأ تناول الأدوية التي اشتروها في تركيا. بدأ يسير، يرددُ كلماتٍ قليلةً ويضحك أحياناً حتى، لم يكن سليم يراه كثيراً وكان حين يراه يُبقي على مسافةٍ بينهما. الأمر مختلفٌ مع سميرة، كان يحبّ الوجودَ بالقرب منها، حين تضع رأسها على كتفه وهو يحكي عن يومه. لكنّ عزيز كان يحدّق فيه بتوقّع واحتياجٍ إلى أشياء كثيرةٍ جداً لا يمكنه تليتها. أبعده نظره عن عزيز، يشعرُ بالذنب لاستيائه من الصغير.

«يجب أن نذهبَ به إلى طبيب في إنجلترا، الدواء لا يحسّنه كما كان يحسّنه، لونه ليس جيداً ويبدو شاحباً مجدداً». بدت مهزومةً، تساءل ماذا سيفعل أخوه في الرحلة المقبلة. «سأتصلُ بخالتك غداً وأخبرها بخطتنا، ربما تحسنت أحوالهما الآن». سكتت، تختار كلماتها التالية بعناية «سليم جان، لا يمكننا الاعتماد عليهم، علينا أن نتذكّر هذا».

«لماذا؟ لقد ظلت تلح علينا للذهاب إلى لندن، ألم تعدّ بمساعدتنا حين نصلُ إلى هناك؟»

«أحياناً يرغبُ الناسُ في المساعدة... لكن شيئاً ما يمنعهم، أريدُ أن نعتمدَ على أنفسنا فقط. فقد نضطرُّ إلى هذا ما إن نصل».

«لا تهتمّي بهذا الأمر مادر جان، لدينا غرفةٌ الليلة وجدتها لنا فتاةُ المنظمة الإنسانية، لنذهب الآن قبل أن يتأخرَ الوقت، كلُّ تلك الأمطارِ بالأمس، ربما كانت خيرًا بالفعل، كما تقولين دائمًا».

توهجَ وجهها كجمر أذكاهُ النسيم، أسرعَت تجمَعُ متاعهم القليل وانطلقوا ليعثروا على فندق كاتارينو، الفندقِ الأصفر. كان الزوجانِ شيخَيْن عطفَيْنِ بما يكفي ليلمسا خدَّ عزيز برفقٍ وبصحباهم إلى غرفة. حين حاولتَ مادر جان أن تسألَهما عمّا يحتاجانِ إليه من مساعدة لتبدأ على الفور، أشارا لها أن تنامَ الليلة وتبدأ في الغد.

يومُ الخميس، خلعتَ مادر جان أساورها الذهبية التي أهداها لها أبوها قبلَ زفافها، وناولتَ سليم إياها بقلبٍ مثقل. أساورُ أمها، هدية زفافٍ احتفظَ بها أبوها لها حتى زفافها هي، كانت تحبُّ سماع صلصلتها الناعمة حين تمدُّ يدها إلى درج، أو وهي تغسلُ الصحون، أو تقلبُ صفحة في كتاب. تنظرُ إلى معصمها، دوائرٌ ذهبيةٌ ترقصُ معها في كل حركاتها، خمسُ أساورٍ مستديرة من الأم التي لم ترها قط. فكَّ أبوها رباط الكيس المخملي ووضع الأساور في راحة يدها، أحكمَ أصابعه على أصابعها دقيقةً واحدةً صامتة. هل دمعتَ عيناه أم كانت تتخيّل؟ كان مع عروسه مجددًا، المرأة التي لن يحل محلّها أحد أبدًا، والتي دمّر غيابها حياتهم. فهمتَ فريبًا في تلك اللحظة أنه رغم استمرار حزنِ أبيها على أمها لكنه لن يفهمَ أبدًا حزنها هي عليها. كأنها فقيدته هو وحده. لم تكرهه لسوء فهمه هذا لكنها رأتَه بشكلٍ أوضح. كانت كوكوكل محقةً بشأنه دائمًا، إنه سعيد ببقائه في بستانه

طوال الوقت. لقد قصّر في حبّه لهم جميعاً، وليس لفرييا فقط،
لا عجب أن جمعت كوكوكل أشياءها ورحلت مع بناتها.
وضع أبوها الأساورَ في راحتها، لكنها كانت تشعرُ أن أمها
قد دخلت إليها وهي نائمةٌ وأزلقت الأساورَ حول أصابعها إلى
ذراعها. لمسةُ الأمومة الرقيقة التي لم تعرفها حتى حملت سليم
بين ذراعيها للمرة الأولى، قبّلت جبينه وأدركت أن لديها الكثير
جداً لمنحه إياه، أكثر مما نالتُه هي في أيّ وقتٍ مضى.
ما كان سليم يعرف شيئاً عن كلِّ هذا حين أخذ الأساورَ من
أمه، رآها مستاءةً فقط.

«إن ذهني مضطربٌ اليوم. ليتك تؤجّل الذهاب إلى محل
الرهونات إلى الغد، يمكننا المرور به في طريقنا إلى محطة
القطار، يمكننا الذهاب معاً.»
«إنه ليس بعيداً، ولم يتبقّ لدينا نقودٌ مادر جان. من يعلمُ ماذا
سيحدثُ في باتراس، سنحتاجُ إلى نقودٍ للطعام والسفينة وإلا
سيدفعون بنا بعيداً.»

«لكن اليوم...»

«سأذهبُ مادر جان. إن اختبأنا في غرفةٍ كلما قلّقنا لن نصلَ
إلى إنجلترا أبداً.»

عضت لسانها، ذكّرت نفسها أنه لم يعد فتى صغيراً. بدأت
تلبس عزيز وطلبت من سميرة غسل بعض الملابس. ستذهبُ
إلى الزوجين لترى ماذا يحتاجان. أشاحت ببصرها بعيداً وسليم
يدسُّ الأساورَ في جيبه ويغلقُ أزراره ليتأكد أنها لن تسقط منه.

لم ترَ وجهه المتردد، تلك اللحظة التي فكَّر فيها في تحذير أمِّه
وقرر تجاهله لرغبته في أن يكونَ أشجعَ منها.
«سأذهبُ إلى محلِّ الرهوناتِ الآن، وأعودُ خلالَ ساعتين»،
وعدَّ سليم، وعداً لن يستطيع الوفاء به.

الجزء الثاني

سليم

30

قد تتغيرُ حياةٌ كاملةٌ خلالَ ظهيرةٍ واحدةٍ. ويواصل بقية العالمُ سيره، غيرَ عابئٍ بمصيبةٍ فرديةٍ هادئةٍ تحدثُ على مقربةٍ أقدم قليلة. وقف ضابطُ شرطةٍ إلى يسار سليم، يعبثُ بسلسلةِ مفاتيح بين أصابعه. استند ضابطُ آخرٍ براحتِهِ الممدودة لأعلى إلى الجدار الأسمنتي أعلى كتف سليم اليمنى. شعر سليمُ بأنفاسِهِما على وجهه.

«أين تقيم؟» قلبتُ رائحة الثوم في أنفاس الضابط معدة سليم. لم يجرؤ على النظر بعيداً، حدق في انعكاس صورته الكاريكاتيري في نظارات الضابط الشمسية، عيناهُ متسعتان ومملوءتان بالخوف، ما زال وجههُ المراهقُ لم يتخذَ تقاسيمَ الرجولة. يؤطر ظلُّ شاربٍ شفته العليا لكن لا شيءٍ آخر.

«قل ما قلته مرةً أخرى من فضلك؟» شعر بصوته يرتعش. التقط في الأسابيع القليلة التي قضاها في اليونان عدداً من العبارات باليونانية لكنها لم تكفٍ ليبدو مقنعاً. عدلَ كتفيه محاولاً تثبيتَ كلماته.

«أين تنام؟ أين بيتك؟»

تأفف الضابطان وهزاً رأسيهما لنظرته البلهاء. بشرتُهُما أفتح من بشرة سليم الزيتونية الداكنة، لوحيت الشمسُ بشرته أكثر في

الأشهر التي قضاها في العمل تحت الشمس، تحدث الضابطُ الذي يمسك سلسلة المفاتيح بالإنجليزية أخيراً.
«أين تقيم هنا؟» سأله بغضب.

تسارع ذهنُ سليم ليخرج بقصةٍ منطقية، لم يكن ليقود الضابطين إلى أسرته.

«أنا لا أقيم، أنا زائر، أنا أتسوق»، أكد لهما وهو يشيرُ نحو المحلات في الشارع، ضحك الضابطان.

«تتسوق؟ ماذا اشتريت؟»

«أوه، لا شيء، اليوم، لا شيء». قال يتمنى أن يفقدا اهتمامهما.

«لا شيء؟ حسناً، أين جوازُ سفرك؟ أوراقك؟»

انقبضت معدته. تذوق عصارةً مرة في فمه. «جواز السفر؟ ليس معي الآن»، فتح صاحبُ محلّ الرهونات بابه، رأى الضابطين حول كتفي زبونه الأخير فعاد سريعاً إلى محله.

«لا جواز سفر؟» تبادل الضابطان نظرةً لم يفهما.

«إنه مع... إنه مع صديقي».

«ما اسمك؟»

«سليم».

«من أين؟»

شعر بدقات قلبه تفرغ طبلتي أذنيه. هل يمكنه الهربُ منهما؟ ليس واردةً، كان مثبتاً في الحائط في سوقٍ مزدحمة. يتجول السياح من حوله بين المحلات، يدخلون ويخرجون، وأجراسُ الأبواب تصلصلُ مع حركتهم. أشاح بائعٌ متجولٌ أسمرٌ ببصره بعيداً وهو يجمعُ دُمَاهِ الراقصةَ في جُوال. نظرَ المارة إليهم

باهتمام مبهم لم يبطنى من سيرهم. فقط الرجلُ العجوز الذي يشوي ذرةً أبدى تعاطفه، مسح يده في مريوله النصفى وجمع القشورَ الساقطة في كومةٍ بطرف حدائه.

الجوُّ حارٌّ بما يكفي للتعرقِ حتى في الظل. كان سليمٌ ظمآنًا ولم يتناول شيئًا منذ ليلة أمس، إن ركض، سيمسكان به سريعًا. يرتدي كل منهما زيًا رسميًا أزرق وقبعةً لبادية وقميصًا بأزرارٍ وبنطالًا. تتدلى من حزاميهما السميكتين مخاطرات سليم، لاسلكي، أصفاد... مسدس. الركضُ ليس خيارًا، وكذلك رفضُ إجابة أسئلتها.

«أنا... أنا من تركيا». كان قد تدربَ على هذا مئات المرات مع أمه وأكثر من ذلك حتى وهو وحده. حدّره لاجئون آخرون من سلسلة الأسئلة، تمنى لو كانوا قد نصحوه بحكمة.

«تركيا؟» بدا الضابطُ مشمئزًا. نظر إلى الضابط الآخر نظرةً ذات مغزى. «وكيف جئتَ إلى هنا؟»
أوماً سليم برأسه قائلاً: «بالطائرة».
«ومن معك؟»

هز سليم رأسه، «جئتُ وحدي». دعا الله ألا يفضحه صوته وعيناه. أبقى يديه ملتصقتين بجانبيه.

«وحدك؟ كم عمرك؟ ستة عشر؟»
تمنى سليم أن يستغلَّ غموض سنّه لصالحه.
«خمسة عشر».

«خمسة عشر؟ وأين ماما؟ وبابا؟»
رفع سليم كتفيه.

«ليسا هنا؟» كان أكبر الضابطين سنًا يفقدُ صبره، علّق إبهاميه في حزامه. هز سليم رأسه. تبادل الضابطان كلمات قليلةً باليونانية، تعبيراتهما الغاضبةُ لا تحتاجُ إلى ترجمة. يعرفُ سليم أن القانونَ الدولي ينص على حق القاصرين في اللجوء، لكنه تعلم أيضًا أن هذه القوانين، في الشوارع، لا تحمي أحدًا بأفضل من مظلةٍ مكسورةٍ في أثناء إعصار.

نظرا إليه جيدًا، من رأسه حتى أخمصِ قدميه. نقل سليم وزنه من قدم إلى أخرى، يشعر بنظريهما على تيشيرته البولوي الأسود، الياقةُ والكتفان مؤطران بشرط أبيض. بنطاله الجينز بالٍ ومهترئ، غسله مرارًا في الحوض بصابون رخيص. كانت ملابسه تتاسبه بشكلٍ مريح هناك في وطنه، لكنها الآن، بعد أشهر، صارت معلقةً على هيكله. شهد حذاؤه المطاطي المتآكلُ وأربطته المسودّة على رحلته القاسية. علّق الضابطُ الذي يتحدث الإنجليزية سلسلة مفاتيحه في حلقةٍ في حزامه ولكز كتفي سليم ليُديره، ربت على خصره سريعًا قبل أن يغمغم بشيء ما لزميله. «استدر». أطياعَ سليم الأمر، عيناه ملتصقتان بالأرض. «لا جواز سفر؟ ولا أوراق؟»

هز سليم رأسه مجددًا، كان جواز سفره البلجيكي الذي تكلف ثلاثمئة دولار في حقيبة ظهره، تركه في الفندق هناك خشية أن يضيعَ منه قبل سفرهم الوشيك.

«تعال».. كان الأمر بسيطًا، ظن سليم أن صدره سينفجر، لم يستطع الذهابَ معهما، وماذا عن أمّه؟ نظر إلى الضابطين ولمح سريعًا شارعًا مرصوفًا بالحصى يزدحمُ بالمارة السياح

والمحليين. ماذا يقول لهما كي يتركاها؟ أيمنه شراؤهما؟ إن ذهب معهما سيلقيان به في السجن بالتأكيد، وربما يعيدانه إلى بلده. كان سريعاً، لطالما ظلّ كذلك لكنه في الأشهر الأخيرة الماضية ربما صار أسرع، خف وزنه على قدميه بشكلٍ مؤكدٍ واكتسب قوةً من حملة أخاه ومتاعهم القليل. اقتنع بتفكيره، يمكنه فعلها، عليه فعلها. إن ذهب معهما، لا أحد سيرعى أمه وأخته وأخاه.

عادت قدماه إلى الحياة، رغماً عنه تقريباً. أزلق رأسه من أسفل ذراع الضابط وانطلق يركضُ بسرعة شديدة. أسرع يمر بمحلّ الرهونات، بائع الذرة، تخبط كتفاهُ السياح المذهولين. سمع صياحاً من خلفه. تتفرع من طريق المشاة الرئيس متاهةً من الشوارع الجانبية مملوءة بالأمل. ركض في زقاق إلى يساره بمحلات أصغر ومارة أقل. أمتار قليلة فقط وانتهى الزقاق. عليه التوجه يميناً أو يساراً. بلا شيء واعد في أي من الاتجاهين، انعطف يساراً. كان يريد قطع مسافة بينه وبين الضابطين لكنه لا يمكنه العودة إلى الفندق.

انعطف في شارع آخر، رفع كلبٌ ضال يرقد على الأرض رأسه بفضول وسليم يلهث ويجول بعينه ليحدد خياراته. أي طريق يسلك؟ هذا الجزء من أثينا مشتت. لا لافتات، لكنه يعرف أن الشارع الرئيس على مبعده مبانٍ قليلة. انعطف ركضاً في أحد الأزقة فخبط في زوجين يسيران وكلّ منهما يحيط خصراً الآخر بذراعه. تعثرا في سيرهما، سبّاه وهو يستعيد توازنه ويرفع يده اعتذاراً. يؤدي الزقاق إلى ساحة في منتصفها كنيسة قديمة، أثرٌ مقدسٌ محاط بمحلات فاخرة حديثة. بحثت عيناه عن إرشادات،

عن انعطافٍ أخرى في تلك المتاهة. شعر أنه يلفت الأنظار،
عيناه متوحشتان ومكشوفتان.
«المترو».. تذكر.

لكن أين من هنا؟ وقف بظهره إلى حائط وهو يبحث عن
مهرب. تتحدر الشوارعُ إلى أسفل، ومما يتذكُّره، كانت محطةُ
المترو أكثر انخفاضًا من بقية السوق. لم يستقلَّ المترو منذ
يومه الأول، لم يشأ تبديدَ نقودهم في حين تحمله قدماء جيدًا.
أخذ نفسًا عميقًا وعاود الركضَ مجددًا، تمسح عيناه المشهدَ
بحثًا عن الزي الرسمي الأزرق، لم يرَ شيئًا، أبقى رأسه مطرقًا
وتخفى بين الناس، يرجو ساترًا بشريًا. تردد صوتُ أمه في ذهنه،
يدفع قدميه المرتعشتين.

ذهني مضطرب اليوم، ليتك تؤجِّل الذهابَ إلى محلِّ الرهونات
إلى الغد. يمكننا المرور به ونحن في طريقنا إلى محطة القطار،
يمكننا الذهاب معًا.

إنه ليس بعيدًا وليس لدينا نقود، مادر جان، من يعرف ماذا
سيحدثُ في باتراس، سنحتاجُ إلى النقود للطعام والسفينة والـ
سيدفعون بنا بعيدًا.

لكن اليوم...

أنا ذاهبٌ مادر جان، إن اختبأنا في غرفةٍ كلما خفنا لن نصلَ
إلى إنجلترا أبدًا.

سيندم لاحقًا على مقاطعتها لكنه لا يمكنه التفكير في هذا
الآن. لاحت لاقطة المترو من بعيد. أسرع نحوها. توقف عند
المدخل المقوس، سلم الجسر يؤدي إلى المسارات المفتوحة.

ازدادت سرعةُ ساقيه وهو يسمعُ طنين القطار القادم، ما زال لا يراه، حاول أن يبدو هادئاً وتمنى أن يختفي بعيداً لكن عليه البقاء قريباً.

سرت الاهتزازاتُ في حدائه المطاطي المتآكل، نظر بعصبيةٍ إلى شباك التذاكر في الداخل ووضع خطته. سيقفزُ على الحاجز الدوار لحظة وقوف القطار ويستقله قبل أن يستطيع أحد إيقافه وابتعدُ عن هنا ما أمكنه. الأفضل أيضاً أن يحوّل مساره في إحدى محطات الريط ويظلُّ في القطارات حتى يتأكد من فقد الضابطين. لم يسهه إخفاء ابتسامته وهو يرى العملاق الحديدي يلوح من بعيد، لن يخبر أمه بشأن الضابطين.

وهو يقفز أعلى الحاجز الدوار ويقسم أنه سيستمعُ لحدس أمه في كل شيء بعد ذلك. قبضت أصابعُ غاضبة على كتفيه وسحبته إلى الخلف، تملّص منها، رفع ذراعيه إلى الأعلى، لكنه لم يجد شيئاً يتشبث به.

غرق صراخه في صوت القطار وهو يتوقفُ في المحطة ويخرج منها.

فريباً

31

ربما كان هذا قدرهم، زوجةً بلا زوج. أطفالٌ بلا أب. ربما كان النقصانُ هو المعنى الدقيقُ لأسرةٍ عادية. من أين جاءت توقعاتي العالية رغم كلِّ شيء. إن أفغانستان أرضُ الأرامل واليتامى والفقدان. فقدان ساق أو يد أو طفل أو أمّ. فقدَ الجميع شيئاً ما، كأن حفرةً سوداءً انفتحت في منتصف البلد، لتسحبَ قطعاً وأجزاءً من الجميع في هَوْتها الواسعة. في مكانٍ ما تحت تربتنا البنيةِ يوجدُ كل ما فقدناه. سمعتُ من قبل أن كبار السن الأفغان الذين يعيشون في الخارج يقولون: «ادفنوني في أفغانستان حين أموتُ، أعيدوني إلى الأرض التي جنّت منها». يقولون إن هذا هو حبُّ الوطن، لكنه ربما ليس سوى ظنّهم أنهم سيعودون إلى كل ما فقدوه هناك. يوجد آخرون يرفضون ترك أفغانستان بعناد، بغضِّ النظر عمّا يحدثُ في شوارعهم، ربما لظنّهم أن الأرضَ ستتشقُّ وتعيدُ إليهم كل ما أخذته منهم.

أنا لا أومنُ بهذا.

ما ذهب قد ذهب بلا رجعة، حين تبتلعُ الأرضُ شيئاً، تبتلعه إلى الأبد، لتُترك وحدنا نتعثُرُ في طريقنا بشعورنا بالفقدان، هذه أحمالنا.

ابني يكتسبُ صلابة. يصير رجلاً دون توجيهاتِ أب. أدعه يقضي الوقتَ مع رفقائه لأنه ينبغي ألا يظلَّ مع النساء. لا يمكنني تعليمُه سوى ما أعرفه. لكنه بحاجةٍ إلى تعلُّمِ طرقِ الرجال وأدعو الله أن يحفظَه في أثناء ذلك وأن يعينني على استعادته إن ضل بعيداً جداً. سيزدادُ سخطه عليَّ إن لم أمنحَه هذه المساحة. إنه رجلٌ بالفعل بكلماته ونظرته الاتهامية في حين يظلُّ وجهُه وجسده لفتى. لم يعد الصغيرَ الذي كانه منذ عام مضى.

أفتقدُ سليمَ الصغيرَ الذي كانه، شقياً وخجولاً. أفتقدُ ضحكَه. أفتقدُ ذراعِيه حول رقبتي. فقدنا كلَّ هذا في الوطن، أرضَ الفقدان. أعرف أنه، حتى لو وصلنا إلى إنجلترا وبدأنا حياةً جديدة، لن يعود ذلك الفتى أبداً، ما ذهبَ قد ذهب.

ورث مني أطفالي محنةَ الطفولةِ المعذبة. كأن الفترةَ التي قضوها في رحمي ألصقتْ بهم نصيبهم من المصاعب.

أنتظرُ الآن عودةَ سليم من محلِّ الرهونات. ذهبت أساوري الذهبية، الشيءُ الوحيدُ لديّ من أمي، الآن، ويمكن اعتبارها من ضمن المفقودات. كرهتُ أن أفقدَها لكن كيف أحتفظُ بها وأطفالي مضطربين إلى العمل أو جوعى؟ ما سيأتي به سليم من نقودٍ ستكونُ هديةً من أمي لأطفالي، لن تلمعَ أو تصلصلَ بل ستكونُ قبيلتها الناعمةً على خدودهم.

لم تعرفَ كوكوكل شيئاً عن تلك الأساورِ قط، الأرجح أنها لم تكن لتلمس رسغي أبداً لو كانت قد عرفتَ عنها شيئاً.

«ماذا خبأتَ عني أيضاً يا زوجي العزيز؟» سألتُ أبي بنصف غيظ.. «ربما تمتلئُ هذه الجدران بالكنوزِ المدفونة في التراب، لماذا لم تعطني تلك الأساورَ لأضعها في مكانٍ آمن؟»

«أيُّ مكانٍ قد يكونُ أكثرَ أماناً من مكانٍ لا تعرفينه؟» أجابها أبي.

«حسناً، دعني أراها على الأقلِّ قبل أن تغادرَ هذا البيت»، أشارت إليَّ أن أقترَبَ منها، مددتُ معصمي، لا أريدُ خلع الأساور من يدي ولو للحظة. «همف. تبدو سميكةً من بعيد. لكنها في الحقيقة خفيفة جداً وورديئة الصنع، أشبهُ بتقليدِ الذهب».

كلُّ صريرٍ في الرواق يقبضُ صدري، أرجو أن يعودَ سليم سريعاً، قال «ساعتان»، وقد مرَّ وقتٌ أكثرُ من هذا بكثير، يجبُ ألا أقلق، حين يعودُ سيخبرني بأنه انشغلَ بلعب الكرة مع أصدقائه، ولم ينتبه للوقتِ لأنه كانَ معهم. ستبدو على وجهه علاماتُ شمس الظهيرة الساطعة. سأهز رأسي له لكنني سأكونُ سعيدةً به أيضاً، ليت أباه يراه الآن، ابنا المشاكس، يحملُ مسؤولية أسرته. سيضع زوجي ذراعَه حولي وبيتسّمُ كما فعل حين سارَ ابناً ذو العام الواحد خطواته المنتصرة الأولى.

ستتحسّنُ الأحوالُ حين نصلُ إلى إنجلترا. أعرفُ أن نجيبة ستساعدنا رغم ما يقوله زوجها. سيكونان معنا لنستندَ إليهما حتى نجدَ طريقنا، ولن يستغرق الأمر وقتاً طويلاً، بإذن الله. بعد أن قطعنا كل تلك المسافة، يمكننا صنعُ حياةٍ لأنفسنا في أي بلد، كلُّ ما نحتاجُ إليه فرصةً فقط، مكاناً ما في العالم، لا بد أن في العالم مكاناً يرحبون بنا فيه كأقاربٍ طالت غيبتهم، ولا يرحموننا بالحجارة كثعابين في الحديقة.

أرجوك سليم عُد بسرعة. تأخر الوقتُ وما عاد بإيماني القوة ليطمئنني لأطول من هذا، أرجوك عُد بسرعة.

سليم

32

بدا الطريق إلى السجن بلا نهاية، شعر سليم بالعرق يسيلُ على ظهره، كان زجاجُ نافذته مفتوحًا بقدر بوصة، فقط لجعله يتمنى أن يخفضَها أكثر.

«أرجوك، سيّدي، لا بد أن أذهب، سأغادر اليونان غدًا، لن أسبب مشكلة. لا أحتاجُ إلى مساعدة».

«ستغادرُ غدًا؟ سهلٌ جدًا، نعم؟»

لا تحتاجُ السخريةُ إلى ترجمة.

وصلوا إلى أطراف المدينة حيث لا يجرؤ سائحٌ على التجوال ووجهه ساخنٌ بالبكاء. مروا بالطريق الضيق الذي يؤدي إلى فندق كاتارينو، مبنى بلون الليمون واسمٌ لا يمكن تصوّره. ركّز عينيه على الشارع لكنه لم يَرَ أحدًا. خلال ساعة ستغيب الشمسُ وستبدأ أمّه بالقلق عليه.

اقتيدَ عبر المكاتب والضباط، لم يرفع أغلبهم بصره، أخذ إلى زنزانية في خلفية المبنى الأسمنتي حيث يقبع رجلان إفريقيان وآخر يوناني. شعر برغبة في الركض إلى أقرب مخرج لكنه كان يفقدُ شجاعته بمرور كلّ دقيقة. أشار الضابطُ الأكبر سنًا إلى شرطيٍّ آخر ليفتحَ الزنزانية لسليم.

«ادخل».

فَكَر، قَالَ سَلِيم لِنَفْسِهِ .. فَكَر فِي شَيْءٍ مَا تَقُولُهُ لِيُثِيرَ شَفَقَتَهُمْ.
شَيْءٍ مَا يَجْعَلُهُمْ يَتْرَكُونَكَ .

«أرجوك، سأعودُ إلى البيت، أرجوك دعني أذهبُ سيدي»،
توسل العفو بشكل غير محددٍ مجدداً .
«ستذهبُ، ستذهب هنا». قال الضابط وهو يدفعه في ظهره
بقوة.

دخل الزنزانة بكتفين متهدلتين بانهزام. نظر إليه السجناء
الآخرون باهتمام مبهم ناجم عن فراغ، لم يعنوا بالتواصل بالأعين،
ناهيك بالحديث! سار إلى ركن من الزنزانة، مساحتها قرابة اثني
عشر قدمًا طولاً في اثني عشر عرضاً، واجماً كحيوان وُضع لتوّه
في القفص. أسند ظهره إلى الجدار البارد وانزلق إلى الأرض
بيطء. ضم ركبتيه إلى صدره.

ستتركُ أمه سميرة لتعتني بعزیز وتذهب للبحث عنه، يعرف
هذا، قد تحاولُ العثورَ على محلّ الرهونات، ربما سيخبرها
صاحبُ المحل بأن الشرطة أوقفتَه. قد تفقدُ وعيها أو أعصابها
هناك في المحل. أعاد النظرَ في أحداث الظهيرة وشعر بالقرف
من عجزه. ربُّ الأسرة يجلس، عديم النفع، في السجن. انقبضت
عضلاته اليافعة للتفكير في بقاء أمه وأخويه وحدهم، نقودُ
أساور أمه الذهبية محشورة في جوربه الأيسر حيث لن تنفعهم
في شيءٍ على الإطلاق.
بات ليلته في السجن.

في عزلة الزنزانة المشغولة، كان لديه الوقت ليفكر ملياً، ظل
عدة أشهر يتلفت حوله خوفاً من هذا المشهد تحديداً، أن يؤول

به الأمرُ في زنزانة. ليس عليه القلق من هذا الآن، ذهبَ الرعب مفسحًا المجال لمخاوفٍ أخرى مع ذلك.

فيما يهدأ ذهنه، نظر إلى الرجالِ حوله، يجلس الإفريقيانِ جنبًا إلى جنب، يُغمغمانِ دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر. كان اليوناني يلتفتُ إلى الآخرين وينخرُ، يتلوَّى وجهه اشمئزازًا، تجاهلوه جميعًا تقريبًا، شرد سليم بأفكاره.

لو كان أبي على قيد الحياة لاختلف الأمرُ.

لم تكن فكرةٌ جديدة لكنها باتت واضحةً وحقيقية بشكلٍ خاص مثل التساؤلِ عمّا سيحدثُ لأسرته. وقفُ وسار بطول الزنزانة، بالقرب من الجدار، لوقف قطار أفكاره، لكن لا فائدة، كان ذهنه سجينًا مثله.

سقط في النوم على فتراتٍ غير منتظمة خلال الليل، يستيقظُ بألم في عنقه ودبابيسٍ وأبرٍ في ساقيه. غير وضعه مرارًا وكرة رائحة الأرض الأسمنتية.

هل أخبرهم بالحقيقة؟ ألن يشفقوا عليّ؟ إن عرفوا ما حدث

لن يعيدوني إلى أفغانستان بالتأكيد. لكن ماذا لو أعادوني؟

في الصباح، اقتيدَ، بمعدته تتلوَّى، إلى غرفةٍ أخرى للتحقيق معه. جلس إلى طاولةٍ عاريةٍ قبالة ضابطٍ آخر قدّم له نفسه باسم ما يبدأ بحرفِ الجيم. كان اسمه أجنبيًا وثقيلًا ولم يكن سليمٌ في حالٍ تسمح له بتكراره. نفث الضابطُ سحابةً دخان كثيفةً من سيجارته أعلى الطاولة، حبس سليم أنفاسه وزفرَ ببطء، يكره أن يدع دخان سيجارة الرجل يدخلُ إلى رئتيه كأنه من حقّ الدخان تمامًا.

كان الضابط جيم مختلفاً عن الضابطَيْن اللذين أحضراه بالأمس. أكبر سنًا، في أواسط العمر، وأصغر حجمًا. يرتدي قميصًا رماديًا والبنطال الأزرق نفسه والحزام الثقيل نفسه. يبرزُ جيب صدره بعلبة سجائر. ويؤطر شعرًا أشيب حليق وجهه الصخري، يميلُ حاجباه وشاربه إلى الأسفل بشكلٍ يجعلُ وجهه كله متهدلاً.

تحدث بالإنجليزية جيدًا ولم يبدُ مستعجلًا بأي حال من الأحوال، بدا أنه يفكرُ قبل أن يطرح أسئلته على سليم. تساءل سليم في ذهنه فجأة، إن كان هذا الرجلُ سيشفقُ عليه ويطلقُ سراحه.

«كم عمرك؟» طرقتُ عينا جيم وهو يسحبُ نفسًا من سيجارته، اصفرّت أسنانه بسنواتٍ من النيكوتين والقهوة.

«خمسة عشر عامًا»، أجاب سليم، قرر أن يلتزم بما قاله بالأمس.

«خمسة عشر، ممم، خمسة عشر». صمّتُ قصير.. «ومن أين جئت؟»

قضى قدرًا لا بأس به من الليل يستعدُّ لهذا السؤال. بالأمس، قال للضابطين إنه من تركيا، لو كان أخبرهما بالحقيقة لأعاداه إلى هناك، لا يظن أنه سينجو لو عاد إلى أفغانستان وحده.

«تركيا». أجاب متشجعًا.

«تركيا؟»

أوما سليم..

«أنت تركي، ممم، لماذا جئت إلى هنا؟»

«أريد أن أدرس»، قال بصدق.

«تدرس؟ ألا يمكنك الدراسة في تركيا؟»

لم يجب سليم. سحب الضابطُ ورقةً من دفتره، دفعها نحو سليم على الطاولة قائلاً: «اقرأ هذه».

نظر سليم إلى الورقة، ميز الكتابة بالتركية، الحروف مثل الأبجدية الإنجليزية لكنها بنقاط وعلامات مائلة تذكره بالدارية. كان قد تعلم العبارات المستخدمة في المحادثة ويعرف أنه سيتعثّر جداً إن حاول القراءة. وُضع في مأزق. بلل شفثيه.

«أرجوك سيدي، ماء؟»

أمال الضابط رأسه جانباً ووقف: «ماء؟ بالطبع». خرج من الغرفة وعاد بكوبٍ ورقيّ صغيرٍ يحتوي على جرعة ماء واحدة تقريباً، تكاد تكفي لترطيب الحلق. تقبلها سليم وشعر بآماله في الشفقة تتضاءل. عاد ينظر إلى الصفحة أمامه وبدأ ينطق الكلمات بثقة ما أمكنه. رفع بصره إلى الضابط.

«ترجم، من فضلك» قال الضابط وهو يُخرجُ علبة السجائر من جيبه، أشعل سيجارته الجديدة بسابقتها.

توتر جسدُ سليم كله، كان الضابط يتلاعب به، تسارعت أنفاسه وشعر بحلقه ينقبض، أراد العودة إلى أرضية الزنزانة الأسمنتية الباردة. انتظر الضابطُ إجابته.

«أنت لستَ من تركيا»، قال الضابطُ ببساطة حين رأى سليم يتململ في جلسته.. «أنا أسألك مرةً أخرى. من أين أنت؟» ينطق كلماته بحرصٍ لئلا يدع مجالاً للخطأ في السؤال أو في أهميته. استسلم سليم.

«أفغانستان».

«أه. أفغانستان. كيف جئت إلى هنا؟»

«جئت من تركيا».

«بقارب؟»

هز سليم رأسه. «بل بطائرة».

«من دون جواز سفر؟»

«لديّ جواز سفر لكن صديقي... أخذه».

«منذ متى وأنت هنا؟»

«منذ أسبوع». كذبَ لخوفه، مما يفهمه، كلما طالّت فترة بقاءه

بشكلٍ غير قانوني في اليونان، سيزدادُ غضب هذا الرجل.

«أتريد البقاء في اليونان؟»

هزّ سليم رأسه نفيًا.

«أين تريد أن تذهب؟»

«إلى إنجلترا».

«إنجلترا». فكّر الضابطُ في إجابة سليم تلك قبل أن يطرحَ

السؤال التالي.

«كم عمرك؟»

«خمسة عشر»، قال سليم. إن اعترف بكونه في السابعة عشر،

لن يُعتَبَر قاصرًا وقد يعيدونه إلى أفغانستان.

«خمسة عشر؟» لم يُصدّق الضابطُ المدخّن هذه الإجابة كما

لم يصدق الإجابات الأخرى.

«نعم».

فَكَرَّ سَلِيمٌ فِي الظُّلَامِ الَّذِي تَرَكَوهُ خَلْفَهُمْ فِي كَابُولِ، أَقْنَعَ نَفْسَهُ أَنْ أَقْسَى الضَّبَابُ قَدْ يَشْفُقُ عَلَيَّ قَاصِرٍ وَحِيدٍ. خَرَجَ الضَّبَابُ مِنَ العَرْفَةِ وَعَادَ بِعَلْبَةِ شَرَابِ بِنَكْهَةِ البَرْتَقَالِ، النُّوعِ الَّذِي يُفَضِّلُهُ الأَطْفَالُ فِي جَمِيعِ أُنْحَاءِ العَالَمِ، نَزَعَ السِّدَادَةَ وَدَفَعَ العَلْبَةَ عَلَى الطَّائِلَةِ نَحْوِ سَلِيمٍ، ثُمَّ أَشْعَلَ لِنَفْسِهِ سِيجَارَةَ.

«إِنْ مَوْقِفُكَ سَيِّئٌ»، قَالَ بِبَسَاطَةٍ، رَاقِبٌ سَلِيمَ وَجْهَهُ، لَا جِدَالَ فِي هَذِهِ الحَقِيقَةِ. وَاصِلُ الضَّبَابِ «وَأِنْ لَمْ تَخْبِرْنَا بِالحَقِيقَةِ، سَيَزِدَادُ مَوْقِفُكَ سَوْءًا».

فِيمَا عَدَا أُسْرَتِهِ، لَيْسَ لَدَيْهِ شَيْءٌ لِيُخَسِرَهُ، مِنْهُكَ وَيَأْتِسُ، مَيِّزٌ سَلِيمٌ لِينًا طَفِيفًا فِي صَوْتِ الضَّبَابِ، نَبْرَةٌ أَبٌ يُؤْتَبُ ابْنَهُ. أَخَذَ رَشْفَةً طَوِيلَةً مِنْ زَجَاجَةِ البَرْتَقَالِ، شَعَرَ بِالنُّورِ الدَافِئِ يَغْلُفُ حَلْقَهُ بِحَلَاوَةٍ مَطْمَئِنَّةٍ. شَعَرَ بِكَتْفَيْهِ تَرْتِخِيَانِ مِثْلَ عَلْبَةِ المِيَاهِ الغَازِيَةِ المَنْزُوعَةِ سِدَادَتُهَا بِهَسِيسٍ هَادِئٍ.

«سَأُخْبِرُكَ الآنَ»، قَالَ بِضَعْفٍ. «سَأُخْبِرُكَ بِقِصَّتِي».

مَالَ الضَّبَابُ إِلَى الأَمَامِ فِي مَقْعَدِهِ، سَحَبَ نَفْسًا عَمِيقًا مِنْ سِيجَارَتِهِ وَأَوْمَأَ بِرَأْسِهِ فِيمَا يَعودُ سَلِيمٌ بِذَهْنِهِ إِلَى اللَيْلَةِ الأَكْثَرِ سَوَادًا مِنْ أَيِّ جُرْمٍ.

«ابق هنا، الطبيبُ سيأتي الآن». راقب سليم المشدوه الضابطُ المدخَنَ يغادرُ الغرفةَ. طبيب؟ شعَر بالضباب يلفُّ ذهنه من ليلته بلا نوم، يصعبُ عليه التركيز.

بعد ذلك بساعةٍ دخل رجلٌ يرتدي قميصًا وبنطالًا، يعلّقُ معطفَ الطبيب الأبيض على ذراعهٍ وحقيبةً جلدية داكنة في يده. كان بدينًا، أزرارُ قميصه على وشك الانفلات. وجهه مستديرٌ وخداه متهدلانٍ بيأس، بدا كشخصيةٍ من مسلسل كارتونٍ روسيّ شاهده سليم ذات مرةٍ في فيديو من السوق السوداء.

تمتم الطبيبُ بشيء ما وهو يدخل، وضع حقيبته ومعطفه الأبيض على الطاولة. أخرج من حقيبته الجلدية سماعته الطبية، قلمًا ضوئيًا صغيرًا وقفازين من المطاط. جلس على كرسي الضابط جيم وأشار إلى سليم أن يقترب منه. نهض سليم وسار إليه ببطء.

نظر إليه الطبيبُ نظرةً عامة ثم نهض ليبدأ فحصه. وجه الضوء إلى عينيه الحمراءوين وفمه الجاف، أشار إليه أن يخلع قميصه، شمَّ سليم رائحة عرقه وهو يرفعُ ذراعيه. لم يبدُ الطبيب منزعجًا، وضع سماعته على صدر سليم واستمع وهو يحدّق إلى الأرض بلا تعبير، فحص إبّطيه جيدًا قبل أن يعاودَ الجلوس على

كرسيه، نقر على حزام سليم وقال ببساطة «اخلع هذا». شعر سليم بالدم يتدفق في وجهه.

«لا» قال بلا تفكير، تراجع إلى الخلف خطواتٍ قليلةً ليدع الطاولة تفصلُ بينه وبين الطبيب.

تهدّ الطبيبُ بضجر قائلاً:

«اخلعه، يجبُ أن أفحصك».. نظر إلى ساعته ثم إلى سليم بتوقع. عقد سليمُ ذراعيه، اقشعرَّ جلده بالفضب. انتظر الطبيبُ لبرهة، ينقرُ بأصابعه على الطاولة، سرعان ما احتدَّ وجهه بجديّةٍ وضيقٍ عينيّه وهو ينظرُ إلى سليم.

«اخلعه».

حمل صوته رسالةً واضحةً بأنه لا مخرج من هذا، شعر سليم بأنه صغيرٌ ووحيدٌ بشكلٍ لا يصدق، أخذ أنفاسًا قليلةً بعمق قبل أن يطيع الأمر، عبثتْ أصابعه بالأزرارِ والسحاب بتوترٍ قبل أن يخفضَ حزام بنطاله إلى الأسفل حتى كاحليّه. تدلّى سروالُه الداخلي الفضفاضُ على وركيه، وهو يحدقُ في السقف.

«اخلع هذا».. لمسَ الطبيبُ سروالَه التحتي من أعلى وهو يرتدي قفازيه. شعر سليم بدفقة دمٍ حارة تسري في جسده كله.

عن ماذا يبحثُ هذا الطبيبُ؟

كان تنفسه زفيرًا بطيئًا ومرًا، يجاهدُ لدفع الإهانة عنه في الهواء. أمسك سروالَه التحتي أسفل ركبتيه. عدّل الطبيبُ نظاراته ونظر باهتمام إلى ما بين فخذي سليم، سحب من حقيبتِه شريط قياسٍ ورقي، لم يقفَ سليم عارياً أمام أحد منذ كان طفلاً صغيراً، أراد جزءً منه أن يلکمَ الطبيب في نظارته الفضولية في حين أراد

الجزء الآخر أن يتكوّر في ركنٍ وبيكي. انتهى الفحص قبل أن يفعل شيئاً.

«حسنًا، انتهينا». قال الطبيبُ وأشار إليه أن يرفعَ سرواله وبنطاله الجينز، فيما يخطّ شيئاً في دفتر صغير بحجم كفّ يده. «ألدّيك أي مشكلات صحية؟» سأله وهو يرتدي ملابسه. «لا، لا مشكلات».

«وكم عمرك؟» عاد السؤالُ يطفو على السطح. خطر له أن هذا هو سببُ الفحص، ما يفسّر تركيزه على ما بين فخذيّه، أكثر ما تغير فيه خلال السنوات القليلة الماضية. «خمسة عشر»، أجابَ بمكر.

«همف». سكتَ الطبيبُ ونظر لوهلةٍ في وجه سليم ثم خطّ ملحوظاتٍ أخرى، جمع أدواته، حمل معطفه الأبيض وخرج من الغرفة ولم يقل شيئاً آخر.

وحيد الآن، أخذ سليم يذرُع الخُطى في الغرفة، يزيدُ إرهابه من غضبه، أطلق صيحةً قصيرة ارتدّت من جدارٍ إلى آخر، ثم أطلق صيحةً أخرى، أطول وأعلى.

وضع راحتيه وجبينه على الجدار، شعر به بارداً وحقيقياً، حقيقياً أكثر من تفاصيل موقفه كافة. وضع راحته اليمنى على الجدار مجدداً، بقوة أكبر هذه المرة.

مراراً وتكراراً، أقوى وأقوى، يلطم براحتيه الحائطَ البارد فيما تُعاد الأربع والعشرون ساعةً الماضية في رأسه: يُمسكه الضابطُ من مرفقه وهو يخرجُ من محلّ الرهونات، دخانُ السجائر يندفعُ في وجهه، فحصُ الطبيب لأعضائه التناسلية باهتمامٍ أشدّ من

اهتمام ضابطِ الجمارك بأوراقِ سفرهم، أمُّه تنهارُ في الفندق أو تبحثُ عنه في الشوارع، سميرة مرعوبةٌ وصامتة، أبوه يراقبُ ويهزُّ رأسه بإحباط، صدرُ عزيز الضئيل يثقله ضيقُ التنفس. انفجر كلُّ شيء في رأسه كقصفٍ صاروخي غزير، استهدف رأسه وكتفيه دون أن يمكنه الفرار لأي مكانٍ أو فعلٍ أي شيء.

كان يخبطُ الحائطُ بيديه الاثنتين، غاضبًا وباكيًا، فلم يلحظِ انفتاحَ الباب من خلفه.

«هيا! هيا!» شعرَ بيدٍ تجذبه من كتفه، كان الضابطُ جيم، تتدلى سيجارةٌ من شفته السفلى بشكلٍ غير مستقر. «أأنتَ مجنون؟» استدار سليم وانهارَ على الأرض، أضعفه التنفيسُ عن غضبه. لم يأكلَ منذ ظهيرة الأمس، بدا كأن الضابط وسليم قد أدركا الأمر في الوقتِ نفسه، غادر الضابطُ الغرفةَ وعاد بطبق، قطع قليلة من الدجاج المشويِّ والخبز الشامي، وضعه على الطاولة بفضاضة: «تناول شيئاً».

تباطأت أنفاسُ سليم. تحرّقت راحته ونبضتا الماء. عاد إلى الطاولة مهزومًا، أخذ الطعامَ ومضغه قضمَةً تلو الأخرى، دون أن يتذوقَ شيئاً. حدّق إلى الطبق، ترك عينيه تتغشبانِ وعضلاته ترتخي. راقبه الضابطُ كمن يراقبُ عينةً في مرطبان، تأسرُ نظرَ مراقبها.

أكل سليم دون أن يرفعَ بصره أو يقولَ شيئاً، ربما حين تتوقفُ معدته عن التلوي سيمكنه التفكيرُ في طريقةٍ للخروج من هذا المأزق. ربما سيمكنه التفكير في طريقةٍ ليعودَ إلى أمه.

نظر ضابطان تركيَّانِ باشمئزازٍ إلى سليم ولاجئَيْنِ آخِرِينَ.
 كان سليم ووزينةٌ من المهاجرين غير الشرعيين من أمثاله قد
 أعيدهوا إلى إزميرَ على متن قاربٍ كالماشية. لم يكن الضابطان
 التركيَّانِ مسرورينَ بهذا لكنها القوانين. ينبغي إعادةُ اللاجئِينَ إلى
 البلد الذي دخلوا منه، وعلى ذلك البلد التعامل معهم. كان هذا
 سببَ سخطٍ دائمٍ بين الشرطةِ التركيَّةِ واليونانيةِ. فكان التسليمُ
 مقتضياً.

راقب سليم الضباطَ اليونانيين يغمزونَ بأعينهم وهم يسلمون
 كومةَ الأوراقِ ويكبِّون حمولتَهُم على الأراضي التركيَّة. تبادل
 الجانبان كلماتٍ قليلةً لكنَّ مشاعرهما كانت واضحة.

ليسوا مشكلتَنَا بعد الآن.. قالت وجوهُ الضباطِ اليونانيين.

شكراً على لا شيء.. الردُّ الساخر لوجهي الضابطَيْنِ التركيَّين.

أفرغاً غضبَهُما على اللاجئِينَ، أمسكا أذرعَهُم ودفعاهم إلى
 شاحنةٍ تنتظرُ أمام الميناء. تخبطت أقدامُهُم وأكتافهم. توجد
 نافذةٌ صغيرة في مؤخرة الشاحنةِ تبذل وسعها لتهوية المساحةِ
 المكتظة بلاجئِينَ ظلوا في زنزانيةِ الحجزِ اليوناني أياماً وأسابيع
 وشهوراً.

كان سليمٌ في كل خطوةٍ من طريقه يُقسم أنهم لو أطلقوا سراحه سيفادر اليونان على الفور. غرقتَ توسلاته في بحر توسلاتٍ أخرى سمعتها السلطاتُ سابقاً من مهاجرين آخرين كثيرين في أثناء ترحيلهم.

أراد أن يكونَ الاستثناءَ الذي يكسرُ القاعدة. أراد أن ينظرَ خلفه إلى تلك اللحظةِ ويرى كيف أوشكَ على ترحيله، إبعاده تماماً عن أسرته. لكن كلَّ شيء؛ المقعد الذي يجلسُ عليه، الروائح التي تحيطُ به، الأشخاص الذين يقفون أعلاه، كل هذا يخبره بأنه لا يختلفُ بأدنى قدرٍ عن أيٍّ من الركاب القذرين من حوله.

كان أغلبهم أفارقةً. قليلون من أوروبا الشرقية (خمنَ سليم من هيتلهم ولغتهم غير المألوفة)، وبعضهم من الأتراك حتى. لم يكن هناك أفغانٌ غيره، ما أشعره بالوحدة والارتياح في آنٍ. لم يكن في مزاجٍ للتحدُّث وهو يعرفُ أنه عديم النفع.

أين تظنُّني مادر جان الآن؟ هل يمكنها العثور على محل الرهونات؟ ربما ذهبوا إلى محطةِ القطار لينتظروني هناك، ربما استقلوا القطارَ حتى، على أمل أن أظهرَ، قد يكونون في أيِّ مكانٍ الآن. مادر جان، لا بد أنكِ مذعورةٌ الآن! كيف سألقاك مجدداً؟ ماذا سأفعلُ وحدي؟

كان ذهنه عاصفةً، قاطعت لحظات سلامٍ صواعقُ كهربيةٌ من الذعرِ وسيولٍ من الندم.

خيرٌ كثيرٌ جداً.

لمس بأصابعه ساعة. مضى يومانٍ منذ القبض عليه.

ليتَكَ تَوَجَّلْ مَحَلَّ الرهوناتِ إلى الغد، يمكننا المرور به في طريقنا إلى محطة القطار، يمكننا الذهاب معًا.
إن اختبأنا في غرفةٍ كلما قلقتنا لن نصلَ إلى إنجلترا أبدًا ما در جان.

أطرق برأسه وذهنه يعيد المحادثةَ للمرة الألف.
لماذا عارضتها؟ أرجوك يا ربّي، لا تجعلْ هذه آخرَ محادثةٍ بيننا.

تذكر ليلته الأخيرة مع بادر جان. جمعَ ذكريات الندم معًا كحبات المسبحة.

كانت الرحلةُ طويلةً، شاقةً. شعرَ براحةٍ وهم يدفعونه ليترجلَ من الشاحنة نحو مبنى كئيبٍ آخر. أدخلوا كلَّهم إلى غرفةٍ كبيرةٍ وحاول كلٌّ منهم إيجادَ موطنٍ قدم له على أرضيتها الأسمنتية.
اصطفَّ مع الآخرين بحذاء جدار من الطوب الرمادي. لمس كاحله، يتمنى ألا يراه أحد، ما زالت لفة النقود هناك، حيث وضعها، دعا الله ألا يفتشه أحد، لو صادروا نقوده، سيصيرُ بلا شيء حقًا.

مرت ساعات. يوجد مرحاضٌ في الركن حيث قضوا حاجتهم. يتحرق الهواءُ برائحة الأمونيا. أجهشَ رجلانٍ بالبكاء، لم يعنيا بإخفاء وجهيهما. فقدت الكرامة منذ وقتٍ طويلٍ مضى.
أغمض عينيه. كانوا يُخرجونهم من الغرفةِ واحدًا أو اثنين كل مرة ويقودونهم إلى الغرفةِ المقابلة، بعضهم يعود وآخرون لا يعودون. لم يعرف ماذا يرجو، حين أشار الحارسُ إليه تبعه عبر الرواق، أمره أن يجلسَ إلى طاولة صغيرة. نظر ضابطُ شرطةٍ إليه ثم إلى ورقةٍ على الطاولة.

تذكّر ما قلته في اليونان لتكون إجاباتك واحدة.

بدأ التحقيق. صار الأمر مألوفاً لديه.

من أين جئت؟ لماذا غادرت تركيا؟ ماذا كنت تفعل في اليونان؟

من كان معك؟ كم عمرك؟ الحقيقة... كم عمرك؟

أنا من أفغانستان، لا أريد اللجوء في تركيا أو في اليونان، أنا

وحددي، عمري خمسة عشر عامًا.

أمكنه الإجابة على أغلب أسئلتهم بالتركية، مع ملء الفراغات

بالإنجليزية. بدا أن الضابط يتسلّى بهذا.

خمس عشرة؟ همف. السخرية المتشككة نفسها.. لماذا تركت

بلدك؟

قرر أن يكون صريحاً معهم، بشكل انتقائي.

أريد الذهاب إلى إنجلترا، في بلدي يوجد طالبان، إنهم

خطرون، لم يكن لدينا مال، لا مدرسة، لا عمل، إنهم يقتلون

الناس.

هل يفكرون في إعادته؟ لا يمكن.. لن ينجو هناك وحده لو

أعادوه.

هل أنت جندي؟

جندي؟ لا! كنت تلميذاً، كان أبي مهندساً، أخذوا أبي و...

وقتلوه.

انكسر قلبه لقوله هذا. بدوا مرتابين. لقد عرّوه وأعادوه إلى

هنا كالماشية وما زالوا يريدون المزيد.

لا تريد أن تكون في تركيا؟

هز رأسه نفيًا .

لكنك تتحدث التركية .

أوماً برأسه، لا يعرف هل يفيد هذا أم يضره .

هل تعرف أحدًا هنا في تركيا؟ هل عشتَ هنا؟

تلك أسئلة أكثر التفافًا . أخبر الضابط بأنه قابل بعض الفتية

لكنه لا يعرف مكانهم وأنه عاش في قرية صغيرة وعمل في

مزرعة لكنه لا يتذكر أين تلك القرية، لا يريد العودة إلى هناك،

أكد للضابط .

غادر الضابط ثم عاد برفقة آخر، وقفا خارج الغرفة يتحدثان

بهدوء، لم يستطع سماع ما يقولانه ولم يتمكن من الاستنباط من

تعبيرات وجهيهما المبهمة . هل أخطأ في إحدى الإجابات؟ هل

يظنانه يكذب؟ عن ماذا يتناقشان؟

آلمه رأسه، سبب له المزيج بين روائح عرق البشر والجوع

ودخان السجائر صداً نابضاً . كان منهكاً وشعر بالكرسي يؤلم

عظامه .

دخل الاثنان معاً .

يجب أن تغادر تركيا .

أوماً سليم برأسه .

لا تُعد إلى تركيا أبداً، وإن ألقى القبض عليك في مكان آخر،

لا تخبرهم بأنك ذهبت إلى تركيا قط، لا تتحدث التركية، أنت

تتحدث الإنجليزية قليلاً، يكفيك هذا .

لم يكن متأكداً من معنى تحذيراتهم، بدا أنهم سيعصّبون

عينيه، ويديرونه مرات عدة ويدفعون به نحو المجهول . هل

سيعيدونه إلى اليونان؟ إلى إيران؟ لم يسر الضابط تردده، ربما أخطأ فهمه.

اقترب منه خطوةً واسعةً واحدةً ولطمه على صدغه.
تملّك سليم خوفٌ شديدٌ فجأةً.

لو رأيناك في تركيا مرةً أخرى ستكون تجربةٌ مؤلمة.
لطمة أخرى. ألمته أذناه، أبقى رأسه مطرقاً.

أتفهم ما أقوله؟ أنت تتحدثُ التركية، لا؟ لماذا لا تتحدث الآن؟
أفهم.. استطاع أن ينطق أخيراً.

أمسكه الضابطُ من مرفقه وقاده بسرعةٍ عبر الأروقة وخارج
باب.. تعثر سليمٌ وهو يحاولُ ملاحظته.

لسع ضوءُ الشمس عينيه. رفع يديه يظللها تلقائياً. شعر
بلكمةٍ قويةٍ في جانبه فسقط أرضاً. ركلة حذاءٍ أخرى في الجانب
الأيسر من قفصه الصدري وتراب يندفعُ في فمه.
ربما تكونُ في الخامسة عشرة من عمرك حقاً. لكنك تسقطُ
كفتى، ليس كرجل.

ضحك الضابط.

إياك أن نجدك في تركيا مجدداً، غادر ولا تعد.

نهض سليم ببطءٍ وأوماً برأسه. لقد أطلقوا سراحه. صفق
الضابطُ الباب. سليم في الخارج. توقف، ظنّ للحظةٍ أنه فخٌ
أو اختبارٌ ما. مرت لحظةٌ ولم يفتح الباب، لم يأت أحد من
المنعطف.

سار خطواتٍ قليلةً بعيداً عن المبنى. لم يحدث شيء. انطلق
بدفقة من الأدرينالين في الركض على الفور. أمكنه الهرب، ركض

في الشوارع الهادئة متخفياً بجانب المباني، لا يعرف أين كان ولا إلى أين يذهب، لكنه يريد أن يبتعدَ عن قسم الشرطة قبل أن يغيروا رأيهم.

لهث وهو يمسكُ ركبتيه بيديه. كان فمه جافاً وخشناً وهو يحاول بصقَ التراب الملتصقِ بلسانه. تقيأ عصارةً صفراءً إلى جانب جدار. شعر بألم شديد في جانبه الأيسر، تنفس بعمق وانتظر أن يهدأ.

لا صوتَ خطواتٍ خلفه، لا صوت ركضٍ ولا ضباط يلاحقونه. لن يبحثوا عنه لكنهم أوضحوا له أنه ينبغي ألا يجدوه، يجب أن يغادرَ هذه المدينة بأسرع ما يمكنه، لديه نقود. هل يمكنه العودة إلى اليونان من دون جوازِ سفر أو أي وثيقة؟

«ماذا أفعل مادر جان؟ أرجوك أخبريني ماذا أفعل!»

حاول أن يهدأ، شعر بأفكاره تدور بعيداً عنه شيئاً فشيئاً. ركز، فكر، يمكنك هذا.

هدأ تفكيره، سمع صوتَ أمه وفوضى ذهنه تتحسّر.

تناول شيئاً، وبحثَ عن مكانٍ آمنٍ للمبيت، ثم عد إلى اليونان.

نظر حوله. لا محلات ولا أكشاك. لا يوجد مارة ليسألهم. صار أحد فتية ميدان أتيكي الآن، خرج من قصّته ودخل قصّتهم، لم يعد لديه امتياز جوازِ السفر والأسرة، ليست لديه أساورٌ لبيعها لكن لديه النقود التي ظل يخبئها. لاحقته الرحلات التي سمع عنها في أتيكي من الناجين الذين قابلهم.

بدأ ضباباً رأسه ينقشع، مسح فمه بظهر يده.

لا بد أنني أبدو مزرئياً.

سار في الشوارع يبحث عن المناطق المزدحمة وما يحتاج إليه؛ طعام ومأوى وطريقة للعودة إلى منفن.

منفن المكان الوحيد الذي يمكنه التفكير فيه. يمكنه هناك اللجوء إلى هاكان وسينام لِيُساعداه في العثور على أمّه. أراحته فكرة العودة إلى بيتيها مجدداً.

أمر الطعام سهل إذ كان بائساً ومرهقاً بما يكفي ليدفع مقابله. إنه بحاجة إلى قوته ليواصل. عبس صاحب المحل باشمئزاز لكنه تقبل اليوروهات المبللة بالعرق التي سحبها سليم من جوربه.

هدأ الخبز المحمص بالسّمسم، أرخص ما استطاع شراءه، من غضب معدته. كان الوقت ظهراً. شعر بأعين تنصب عليه وتخيل أصابع تشير إليه نحو طريقه. آلاف الطبول الصغيرة في ذهنه تتوسل إليه أن ينام.

وجد حماماً عمومياً وغسل القذارة عن وجهه ما أمكنه، كور الماء في كفيه وغسل جسده جزءاً تلو آخر، حرك ذراعَه اليسرى ببطء، جانبه يؤلمه.

كان بعض فتية أتيكي قد تحدثوا عن رحلتهم إلى اليونان، أخذ بعضهم قوارب صغيرة يقودها مهرّيون. وتسلل آخرون في شاحنات تنقلها السفن. كلتا الطريقتين خطيرة. يعرف الجميع قصصاً عمّن تجمّدوا وغرقوا في المياه أو دُهبوا أسفل شاحنات النقل. لا يعرف حتى كيف سيجد مهرّياً، الأفضل العودة إلى منفن، ليستعيد نفسه ويخطط جيداً.

كان اختياراً مؤلماً لكنه خرج من الحمام بقلب نصف عازم. سأل المارة وعثر على محطة الباص. سيفادرُ باص إلى منفن خلال ست ساعات. اشترى تذكرته وانتظر.

سقط في النوم على مهمة محرك الباص الهادئة، على الأقل لا توجد نقاط تفتيش في الطريق إلى منفن، لا ضباط شرطة. يمكنه التحدث بلغة هذه البلدة قليلاً. يرتطم رأسه في المسند الخشن مع كل نتوء في الطريق. حلم أنه على متن باص مع مادر جان وسميرة وعزيز يجلسون في المقاعد المجاورة له. كانوا في طريقهم إلى منفن معاً، تحت مقاعدهم حافظة حلي ذهبية مع بقية متاعهم.

كانت الرحلة أطول مما يتذكر لكن منفن بدت كما هي ومُرَّجة. رأى المسجد حيث اقترب من هاكان أول مرة، انتابه شعور جيد. مر بالمحل الذي كان هو وكمال يسرقان منه السجائر والحلوى للتسلية، كان ظهر البائع لشباك البيع وهو يرصّ علب الحلوى، دس سليم يده في جيبه وواصل سيره.

كان الوقت بداية المساء. رأى ضوء منزل هاكان وسينام من بعيد. أراد أن يركض إلى الباب وينهار على الشرفة لكنه لم يرغب في إقلاقهم. سار بخطوات متمهلة، يفكر في ما سيقوله. تسارعت أنفاسه، ارتعشت أصابعه وهو يطرق الباب. فتح هاكان الباب، جحظت عيناه حين رأى فتى بالكاد تعرّف عليه.

«سليم!»

«مستر يلماز...» قال سليم، «ليس لدي مكان آخر لأذهب

إليه...»

«ادخل، ادخل!» مدّ هاكان عنقه نحو الشارع، «ماذا عن...؟»

«إنهم ليسوا معي». أوضح سليم.

زَمْ هاكان شفْتِيَه وقاد سليم إلى المطبخ، صاح ينادي سينام التي ذُهلَتْ أكثر لرؤية سليم. أَلقت بذراعيها حوله. أغمض عينيَه. شعر بارتياح للوجود بينهما لكنه تذكر قذارته، كاد أن يدفعها عنه من أجلها هي. تركته لتعد شايًا ساخنًا وتسخن بعض الطعام، جلس هاكان وسليم إلى مائدة المطبخ.

«أين أمك العزيزة؟ وأخوك؟ أهم بخير؟»

«لا أعرف، ظني أنهم بخير لكنني لا أعرف، ربما استقلوا القطارَ أو ظلوا ينتظرونني في اليونان لكنني لا أعرف كيف أعود إلى هناك».

كانت ردودُه متقطعةً ومحيرة، وبدا منهكًا كما يشعر. تبادل هاكان وسينام نظراتِ اهتمام.

«تأولُ شيئًا ما بنِّي العزيز، تبدو كأنك لم تأكلَ منذ أيام!» اعتتت به سينام فيما يحاول هاكان أن يفهمَ منه ماذا حدث منذ أن غادروا منفن.

«لقد ركبتم السفينةَ إلى أثينا، جميعكم؟ أين مكثتم؟»

كان سليم مرهقًا جدًّا لينتقي ما سيخبرهما به، حكى لهما عن الفندقِ الأول ثم عن الأفغان الذين قابلهم في ميدان أتيكي. عن قرارهم تركَ الفندق وادخار يوروهاتهم لسفرهم وعن الليالي الباردة التي قضوها في الملعب.

انكشَتْ سينام لسماعه يحكي عن قريبها والطفلين الصغيرين ينامان تحت المطر البارد. واصل سليم، تحدث عن الفندق الأصفر وتذاكرِ القطار التي اشتروها. ثم وصل إلى محلِّ الرهوناتِ والشرطة. بدأ صوته يختنق. وضعت سينام يدها فوق

يده. قسم الشرطة في اليونان، قسم الشرطة في تركيا ثم المكان الوحيد الذي يمكنه التفكير في الذهاب إليه، بيت آل يلماز في منغن. شعر في تلك اللحظات، على نحو غريب، بهاكان وسينام أقرب إليه من جميع حالاته وأخواله. إن عرفت مادر جان أنه معهما، سيريحها ذلك كثيراً.

مال هاكان إلى الخلف في كرسيه. كوالدين، فكّر هاكان وسينام في الفكرة نفسها، الحل الوحيد أن يتصلوا بالفندق الأصفر لكن سليم ليس معه رقم الهاتف.

«ربما وجدنا الرقم لكننا سنحتاج إلى كمبيوتر»، قال هاكان.

«كمبيوتر؟ أسرة كمال! لديهم كمبيوتر!»

«سليم، لقد انتقلت أسرة كمال من هنا بعد ذلك الزفاف، ذهبوا، لكن لدي صديق آخر بالقرب من هنا ربما يستطيع المساعدة. سأذهب إلى بيته لأرى إن كان بإمكانه إيجاد شيء ما. لكن أولاً، أخبرني بكل ما تتذكره عن هذا الفندق».

كتب سليم اسم الفندق واسم الشارع بأفضل ما أمكنه تذكرهما. غادر هاكان للبحث عن رقم هاتف الفندق، وحضرت سينام لسليم حماماً كان في حاجة ماسة إليه.

هدأ الماء الدافئ من توتر رقبته لكنه لم يهدئ ذهنه. لا يمكنه البقاء هنا إلى الأبد، عليه العودة إلى اليونان.

ارتدى الملابس التي وضعتها له سينام، بنطالاً وقميصاً صغيراً على ابنيها من قبل فتركاهما. عاد هاكان بأخبار جيدة. استطاع الوصول إلى رقم هاتف الفندق عن طريق الإنترنت. كان سليم على وشك السقوط في النوم على أريكتيهما لكنه استيقظ مسروراً فجأة.

«يجبُ أن أتصل! يجب أن أتصل بهم الآن! ربما كانوا هناك!»
«أعرف»، ابتسم هاكان لكنه بدا مترددًا. «لدي بطاقة اتصال،
يمكننا محاولة الاتصال الآن لكن... لكن سليم، تذكر أنه من
المحتمل أن يكونوا قد غادروا بالقطار، قد لا يكونون هناك وهذا
ليس سيئًا».

أوماً سليم برأسه. كان سعيداً أنه لن يتصل بنفسه، سواء
وصل إليهم أم لا، سيكونُ بحاجةٍ إلى شخصٍ ما بجانبه حين
ينهي الاتصال.

قرأ هاكان التعليماتِ على ظهر البطاقةِ وضغط الأرقامَ حتى
أجرى الاتصال أخيرًا. ناول سليم السماعة، الذي ابيضت مفاصلُ
أصابعه وهو يستمعُ إلى رنين الجرسِ على الطرف الآخر.
تكة.. نحنحة تليها غمغمة ما.

ميز سليم صوتَ الرجل العجوز.
«أرجوك! أريد أن أتحدثَ إلى أمي، هل أمي موجودة؟» كانت
كلماته مزيجًا من الإنجليزية والتركية والفارسية. انفصال عاطفي
بين أفكاره ولسانه.

«من المتحدث؟» سأل الصوتُ بحيرةٍ وشك. وضع هاكان يده
على مرفق سليم، تحدثُ ببطء، أشار إليه. أخذ سليم نفسًا
عميقًا وركّز ليتحدثَ بالإنجليزية.

«من فضلك، أنا اسمي سليم، كنتُ أقيم في الفندق مع أمي،
أريد أن أتحدثَ معها، إنها هناك مع أخي وأختي!»
«آه، الفتى! إن أمك تبحثُ عنك، إنها في الغرفة، ربما يمكنك
الاتصال لاحقًا، أنا الآن مشغول».

«لا، أرجوك، لن أستطيع. أُمي، يجبُ أن أتحدثَ معها الآن!»
ميز العجوزُ اليأسَ في صوت سليم.

«حسنًا، حسنًا»، غمغم بشيء ما باليونانية لم يفهمه سليم.

كان الصمت طويلاً. راقب هاكان وسينام وجهَ سليم بقلق.

جاء صوت قريباً متقطعاً عبر الهاتف، قفز سليم على قدميه،

كحيوانٍ مربوط، ابتعدَ بقدر ما سمح له سلك الهاتف.

«سليم؟ سليم، باجم؟» قالت بصوتٍ مرتعش.

«نعم، مادر جان»، قال. «هذا أنا».

«باجم، أين أنت؟ أوه، الحمدُ لله! كنتُ قلقة بشدة!»

«أنا في منغن، مادر جان، مع كأكه هاكان وخالة جان. قبضتِ

الشرطة عليّ وأعادتني إلى تركيا».

«الشرطة؟ أوه يا الله، أنتَ في تركيا!» تسارع ذهنها ليستوعبَ

عواقب الخبر. «أأنت بخير؟ هل تأذيت؟»

«أنا بخير، مادر جان. سأجدُ طريقةً للعودة إلى اليونان لكنني

لا أعرف متى».

لم يكن عليهما اتخاذ القرارِ المؤلم بقدر ما كان القرارُ المؤلم

قد اتُخذ لهما بالفعل. تحدث سليم أولاً.

«مادر جان، لديكِ جوازاتِ السفر وتذاكرِ القطار. خذي سميرة

وعزيز وتوجهوا إلى إنجلترا بأسرع ما يمكنك. سيكون عليّ أن

أجد طريقةً للعودة لكن هذا لن يكون قريباً لأن أوراقِي ليست

معي. لكن إن انتظرتُموني قد تسوءُ حالة عزيز».

«يمكنني إرسال جواز السفر إليك بالبريد، يمكنني إرساله إلى

عنوان سينام جان». كان صوتُ مادر جان محملاً بالذنب. «لكن

سليم جان، ماذا عن النقود؟ هل أخذتِ الشرطة كل شيء منك؟
«لا، معي النقودُ من محلّ الرهونات، إن أرسلتِ إليّ جواز السفر سأخذ المسار نفسه من هنا مرة أخرى وقبل أن تلاحظني سأكونُ في إنجلترا». أراد بجزءٍ منه أن تقول لا، أن تخبره بأنهم سينتظرونه في اليونان ليذهبوا إلى إنجلترا معاً. بالطبع أرادت أن تنتظره لكنهم عليهم التفكير في قلب عزيز الضعيف.

«أوه بني، ليحفظك الله من كل سوء. سليم جان، أخبرني بعنوانيهما، سأرسل إليك جواز السفر بالبريد. إن صديقتك، روكتشانا، جاءت إلى محطة القطار، رأتا وعرفتا، إنها عطوفةٌ جداً وقالت إنها ستعود مجدداً إلى هنا اليوم، يمكنها مساعدتي في إرسال جواز السفر إليك».

هل قابلتِ مادر جان روكتشانا؟ عاد يجلسُ على المقعد وأراح جبينه على يده، رأسه مطرق، أغمض عينيه وترك الشعور بالامتنان يغمره.

شكراً لك، روكتشانا، شكراً لك.

نقر هاكان على ساعته، سينفذُ رصيذُ بطاقة الاتصال سريعاً.
«مادر جان، ليس لديّ المزيدُ من الوقت على هذه البطاقة».
استدار إلى هاكان وسأله عن العنوان. رده على مسَمعِ مادر جان بسرعةٍ وهاكان يكتبه على ورقة.

«سليم جان، باجم، سأرسلُ إليك تذكرةَ القطار وجواز السفر. سامحني بني، سنستقلُ نحن القطار، ربما غداً، عزيز بحاجةٍ إلى طبيب. لكن أنت انتبه لنفسك جيداً، أرجوك! صلُّ لله في كل خطواتك وأبقِ عينيك مفتوحتين حبيب قلبي، صدقتني كان بوذي أن...»

انقطع الاتصال.. وضع سليمُ السماعَةَ. بانقطاع صوتِ أمه
تغيرتُ رحلته، صار وحده الآن، ستكون الليلةُ أولَ ليلةٍ يمكنُ فيها
لأسرة حيدري أن تنامَ بهدوءٍ نسبي، وهم يعرفون مكانَ كلِّ فردٍ
منهم وأنهم بخير. قابلتُ روكسانا أسرته وسوف تكونُ معهم في
الخطواتِ القليلة المتبقية. تشعرُ فريباً بالراحة لعلمها أن سليم
عند سينامُ وها كان. الليلة، إن استطاعوا ألا يفكروا في الغد،
سينالون جميعاً قسطاً من الراحة.

زحف إلى مرتبةِ المألوفة وسقطَ في النوم خلالِ ثوانٍ.
استيقظ في الصباح، نظر إلى شقوقِ الجدار التي ظلُّ ينظرُ
إليها عدة أشهر، سار بنظره مع خطوط الصدع، حيثُ تساقطَ
الطلاءُ وبدا السقفُ عارياً. مرَّ أصابعه في شعره، ثم أسفل
ذراعيه. لمس جانبه وطرفَ بعينه المأ حين لمسَ ضلوعه، كان
يلمسُ الشقوق المشابهة في جسده هو، حيث بدأ حملُه يشقُّه
ويعرِّيه.

تساءل كم لبث نائماً. انثال ضوءُ الصباح الباكر من الستائر
القطنية الرقيقة. انقشع ضباب ذهنه، ظل نائماً لأكثر من نصفِ
يوم واستيقظ بذهنٍ صافٍ.

سينتظرُ وصولَ جواز سفره بالبريد، قد يستغرقُ هذا أسبوعين
بلا دخل. لا يوجدُ سوى شيء واحدٍ لفعله، نهضَ وزررَ قميصه.
سيعودُ إلى المزرعة!

بصقَ مستر بولات وابتسمَ بخبثٍ لكنه كان بحاجةٍ إلى
المساعدة. أشار بيده له أن يتوجَّه إلى الحقلِ ويبدأ العمل.

فهتبت المرأة الأرمنية حين رآته كأنها كانت تعرف أنه سيعود.
هزت رأسها وواصلت عملها وهي تغغم بشيء ما من بين أسنانها
لم يكن ليفهمه حتى ولو صاحت به لأعلى نحو السماء.
مع ذلك فهمه.

ما جدوى كل هذا؟ حزمت حقايبك وركبت السفينة ودعوت
الله بماذا؟ لم يتغير شيء لأن لا شيء يتغير، حاولت التحرر من
تلك النباتات لكنها ستنمو لتضيّق عليك الخناق مجدداً.
لم يقل لها شيئاً لكنه وقف للحظة وظهره للشمس، ظلّه مكتنز
وشجاع بين صفوف نباتات الطماطم. كانت مخطئة، لقد تغير كل
شيء منذ أن كان هنا آخر مرة. صار لاجئاً حقيقياً الآن لكنه لاجئ
رأى المحيط. سمع صوت موجه وشم رائحة هوائه المالح. غيرته
كل خطوة في الرحلة وعدلته على نحو لا رجعة فيه. لقد عبر
المحيط مرةً وسيعبره مجدداً، ليس برفقة أسرته وإنما برفقة
الطفرات الضئيلة في كينونته التي تمنحه القوة ليفعلها وحده.

فريباً

35

أدعو الله ألا تواجه أيُّ أمِّ الخيارِ الذي كان عليّ مواجهته. لا شيء أصعب منه.

أشعرُ بذنبٍ ثقيلٍ جداً يستنزفُ كل طاقتي لأضع قدمًا أمام الأخرى وأواصل مسيرتي.

كيف عاد سليمٌ إلى منغن، لن أعرف حتى أراه مجدداً. لم يكن لي أن أتركه يغادرُ غرفة الفندق تلك أبداً. كان عليّ أن أتصرفَ كأُم وأرفع صوتي وأتمسكُ برأيي. اقشعر جلدي ذلك اليوم حينَ تحدثتُ عن ذهابه إلى السوق. أوجدُ ذنبٌ قد تقترفه أمُّ أكبر من تجاهلِ حدسها؟ لقد نحيْتُ حدسي جانباً لأنني أردتُ منحَه مجاله الذي يريده، المجال الذي كان أبوه يرى أنه يحتاجُ إليه ليصيرَ رجلاً.

لم يكن محمود محقاً دائماً. يمكنني رؤية ذلك من هنا، بوضوح كالسماء الصافية الزاهية. كان يتخذُ القرارات بعقله، يدافعُ عمّا يؤمنُ بأنه الصوابُ والمنطقيُّ والمعقول، كلُّ تلك المفاهيم المثالية التي خذلتنا. كابول ليست المكان المناسب للتفكير العقلاني، كنتُ أعرفُ هذا، أخبرته به، كان علينا الرحيلُ قبل وقتٍ طويل، كان علينا اللحاقُ بأخواتي إلى الأماكن الأكثر أماناً حين كان عددنا كاملاً. تركته يسقط حدسي، فأدرنا ظهرنا لنُذّر الله.

كُرهُهُ، مع ذلك، يُعدُّ إحدى درجات الكفر.

مع أنه ليس هنا، لكنني لا أستطيع تغيير محادثة دارت بيننا. لا يمكنني تغيير مسار اتخذناه معاً. وقفتُ بجانبه لأنني كنتُ أحبُّه وأثقُ به وأحترمُ القرار الذي نتوصلُ إليه معاً. جذبتُ طيبة قلبه، الرحيقُ الذي يفرزه للعالم، نحلةً، ثم اثنتين، ثم جاء السربُ كله ليحيطَ به بطنين، حتى حانت اللحظة وأطلقتُ جميعاً سمَّها. حتى بعد مماته، ما زال بإمكانني سماعُ الطنين، يحومُ حول أسرتي. لكن، هذا كان قراري، أنا من تركتُ سليم، ابني البكر، يخرجُ من البابِ إلى العالم القاسي والآن أبكي لأنه لم يعد. أنا الأم التي أقسمتُ ألا أكونها أبداً.

لديّ أعذار. عزيز يبدو في حالة مُزربة. لا يزدادُ وزنه ويبدو الإجهادُ على وجهه الشاحب، الأوردةُ الزرقاءُ الضئيلةُ في جبينه، فقراتُ ظهره التي تبدو كخرزاتٍ في خيط، يجب أن أعرضه على طبيبٍ إن أردتُ أن يعيش ليَرى أخاه مجدداً. وزنه خفيفٌ جداً بين ذراعَي، طفلي الأخير الذي سأحمله أطول فترة ممكنة، لأنه سيجعلني أمًّا لهذه الفترة. حين يستيقظُ أراقبُ حركاته، أرى فيه سليم أيضاً. يشبه أخاه الأكبر كثيراً، عنيدٌ ومثابر. كلُّ منهما يكافحُ بطريقته الخاصة لكن سليم يمكنه الوقوف على قدميه. أخبرني صوته، أمناً في بيت هاكان وسينام، أنه يستطيعُ إيجاد طريقته.

اتخذتُ القرار. استقللنا القطارَ من أثينا. أكان بوسعي فعلُ أيِّ شيءٍ آخر؟ كنتُ كذلك. لكن حدسي أخبرني بأنَّ عزيز لن يمكنه. سامحني، سليم، لكننا لا نستطيعُ انتظارك. علينا من أجل أخيك، أخوك الذي أعرفُ أنك غاضبٌ منه وتعشقه، أن نمضي قدماً.

لا شيء أسوأ من الاختيار بين طفلين، إن خيَّرتُ بين ذراعِي
اليمنى أو اليسرى سأختار ذراعاً. لكن إن خيَّرتُ بين اثنين من
أطفالي سيتمزق قلبي إلى آلاف القطع. الأطفال متّصلون بالجنة،
كلُّ نفسٍ لهم، كلُّ ضحكة، كلُّ لمسة، بمثابة رشفة ماءٍ لرحالٍ
في الصحراء. لم أكن أعرفُ هذا وأنا طفلة، لكنني عرفته كأم،
حقيقة تعلمتها وأنا أشعرُ بقلبي ينمو ويتمايلُ ويرقصُ وينكسرُ
لكلِّ طفلٍ من أطفالي.

راقبتني سميرة بصمت، لم تعد فتاةً صغيرة، بدا على جسدها
الانحناءات الرقيقة لشابة. الحمد لله، تبدو أكثرَ حكمةً مني حين
كنتُ في سنّها. كنتُ ساذجةً، أتذكرُ كيف كنتُ أصدّقُ الناس؛ الفتى
في البستان وكوكوكل. ظنني أن ابنتي صامتةٌ لأنها تعرفُ أن الكلام
لا يعني شيئاً، لا يحقق شيئاً. ظلت رابطة الجأش كامرأةٍ كبيرةٍ منذ
أن غادرنا كابول. اعتنتُ بأخيها الصغير بقدر ما اعتنيتُ به، ظلتُ
تهدهده في أثناء نوبات الارتعاش والتعرّق، تحايله بصبرٍ لتطعمه
حين يدفعُ بالطعام بعيداً عنه، وتحملُ حقائبنا بدلاً مني حين لا
أستطيع. كان ذلك أكثرَ بكثيرٍ من أي كلماتٍ قد تنطق بها رغم
اشتياقي إلى سماع صوتها، وأكثرَ من كل شيء، إلى سماع ضحكها.
إنها تفتقدُ سليم، تشعرُ بالنقص في غيابه ولن تتحدّث حتى
يعود، حتى تستعيدَ شيئاً من عالم ظلَّ يسلبها ما لديها فقط.
قلبا كمرأةٍ لقلبي ومن أجلها فقط يمكنني حبسُ دموعي. لقد
نالني ما يكفي من الخوفِ والقلقِ والفقْدان. سئمتُ الشعورَ
بالحصار. أستيقظُ كل صباحٍ لأجدَ أن لا شيءَ تغيّر، فأشعرُ بأنني
انتهيت.

لولا أطفالي لكنتُ قد انتهيتُ بالفعل. من أجلهم، لا يمكنني
الانتهاءً بعد.

قد أجد سليم مرةً أخرى. قد أعانقَه وأسمع صوتَه وأراه بيننا
مجددًا. حتى وإن حالفتي الحظُّ لأفعلَ هذا، لن أعود الشخص
نفسه، سأظلُّ دائمًا الأمُّ التي تركتِ ابنها ومضتْ. هذه جحيمي
التي أعيشُ فيها الآن وسأبقى فيها إلى الأبد.

خرج القطارُ من المحطة، نحن في طريقنا إلى إيطاليا، ينظر
الناسُ إلينا لكن تذاكرنا لا ريب فيها، وكذلك أوراقنا، حالفتنا
الحظ حتى الآن. ظلَّ الله معنا.

تُحدقُ سميرة إلى الخارج من النافذة، يرتاحُ رأسُ عزيز إلى
جانبها. تفكّر في أخيها، بلا شك، وتتساءلُ إن كانت أمُّها قد
اتخذت القرارَ السليم. لا أستطيعُ شرح الأمر لها. إذ تصعبُ
صياغته في كلمات.

ظلَّ سليم كلَّ يومٍ يعودُ إلى البيتِ بسرعةٍ ليرى إن كان جوازُ السفرِ والتذكرةُ قد وصلا أم لا . بعد أسبوعٍ من عودته إلى منفن، اقترب من هاكان بخجلٍ شديدٍ وقدم له ورقاتٍ نقديةً قليلةً مقابلَ إقامته . هزَّ هاكان رأسه وأخبره بالأمرِ المذكورِ مجدداً .

عض سليم شفتيه وأوماً برأسه إيماءةً شكرٍ عاجزةً لكنها مفهومة .

مرت عشرةُ أيامٍ ولم يصله شيءٌ من أمه . ساء مزاجه أكثر حين لاحظت إكين عودته . كانت تقفُ خلف المنزل تتظاهرُ بالقراءة أو العناية بالأعشاب التي تزرعها أمها خلف مطبخها . تبدلُ جهداً لتظلَّ مرتئيةً، تراقبُ سليم من زاوية عينها . كانت تقولُ أشياء لا يريدُ سليم سماعها .

«أين ذهبت؟ ظل أبي يسبُّ مدة يومين حين لم تأتِ، أنت محظوظٌ لأنه سمحَ لك بالعملِ مجدداً» .

كان بولات من وقتٍ إلى آخرٍ يأمرها بالعودةِ إلى المنزل لكنه لم ينتبه لاهتمامها بسليم . كانت محادثاتها غيرُ متوازنة . هي تتحدثُ وهو يستمع، يخشى قولَ شيءٍ قد تسيءُ فهمه . يعضُّ لسانه وهي تتحدثُ عن المدرسةِ والراديو وأشياء لا يمكنه معرفتها .

مر ستة عشر يوماً وما زال جوازُ سفره لم يصل. كان ينامُ بصعوبةٍ. اتصل هاكان بالفندقِ مجدداً فأخبره المالكُ بأن الأسرةَ قد غادرتْ منذ وقتٍ طويل. تمنى سليم أن يكونوا قد استقلوا القطارَ بنجاح، وغالباً بمساعدة روكسانا. ربما وصلوا إلى إنجلترا الآن رغم أنه لا يعلمُ شيئاً عن خطةِ مادر جان للسفر من إيطاليا إلى إنجلترا.

كان جوازُ السفر سبباً آخر للقلق، لا يعرفُ إن كان قد فُقد في البريد أم صادروه أم أنهم أخطؤوا كتابةَ العنوان. سينتظر. فذلك الدفترُ الصغير الثمين، بصورةٍ فوتوغرافية لوجهه مُتجهماً وتاريخ الميلادِ المخترع، هو سبيله الوحيدُ لتجنبِ شِراك الموتِ التي تحدثَ عنها فتيةُ أتيكي. تذكرُ المهريينِ الفظيينِ اللذينِ عبرا بهم الحدودَ إلى إيران. سَمِعَ أن المهربَ قد يبيعُ أمهَ مقابلَ المزيدِ من المالِ وقصصاً أسوأ من ذلك من آخرين. العالمُ السفليُّ بلا قوانين ولا أخلاقياتٍ ولا شبكاتِ أمان. البعضُ يمرُّ منه بنجاح. وآخرونَ يفشلون تماماً. لا أحد يعرفُ شيئاً عمّا يحدثُ حقاً في العالمِ المُظلمِ للتهريبِ خلفِ القصصِ الطافيةِ على السطح.

ذات ظهيرةٍ أحد أيام الاثنين، سارت إكين ببطء خلف المنزلِ حيث كان سليمٌ يقلِّبُ التربةَ لبذورٍ جديدةٍ ويتساءلُ عمّا سيفعله إن لم يصلُ جوازُ السفر في نهايةِ الأسبوع.

«كلّما رأيتك، أجذك غارقاً في الطين حتى ركبتيك، أراهنُ أنك في المساء حين تستحمُّ يسيل منك الماءُ أسود». قالت بابتسامة. أبقى رأسه منخفضاً وضربَ الفأس في الأرض بقوة. لم تعرفُ لماذا لم يضحك.

«أنت لا تتحدثُ كثيرًا، لا أعرفُ لماذا أنتَ هادئٌ هكذا، أكنتَ تعملُ في مزرعةٍ في بلدك؟ لقد عشتُ في هذه المزرعة طوال حياتي لكنني أراهن أنك تقطف طماطمَ في اليوم أكثر مما قطفْتُ أنا طوال حياتي».

لو كان في حالةٍ مزاجيةٍ مختلفة لأدركُ أن بعضَ ما قالته تقصدُ به الإطراء. لكنه شعر بكلامها يحكه كورقِ الصنفرة. كانت ترتدي بلوزةً وتورةً بكُسرٍ تصلُ إلى سمانتيها. مالت إلى قضبان السور وبدأت تلعب بطرفِ جوربيها، تشدُّ واحدًا إلى ركبتيها ثم الآخر. فكَّر في روكسانا. فتاتانِ مختلفتان.

«هل تعملُ أمك أيضًا؟»

«لا».

«وماذا عن أبيك؟» قالت تستفزّه. قبضتُ أصابعه على يد الفأس بقوةٍ عصبية. هزَّ رأسه.

«لديّ عملٌ لأنجزه»، قال بكلماتٍ تتمددُ بشدةٍ على وشك الانفجار. لم تنتبه إكين لشيء.

«أعرفُ، أنتَ عاملٌ جيدٌ ولهذا سمحَ لك بابا بالعودة، قال إنك على الأقلّ لستَ كالأخرين». قالت وهي توارى فمها بيدها. «سمعتُ أن بعضَ المهاجرين يجلبون مخدراتٍ معهم، يقول بابا إنها تصيبُ الكثيرَ منهم بالكسل والخمول».

«إكين، دعيني وشأني! أنا أعملُ!» صاح فيها. لم يعدَ يحتملُ جملةً واحدةً أخرى منها. سقطَ فُكها.

«ليس لك أن تأمرني بالعودة إلى البيت»، قالت تعتدلُ في وقفنها.

«أنتِ لا تعرفينَ شيئاً عن أسرتي أو عن سبب اضطراري إلى العمل هنا في هذه المزرعة، وقد سئمتُ من الاستماع لك!»
«أنا أعرفُ أكثرَ منك!» صاحت بدفاعية، «أنتِ لا تعرفُ كيف تتحدثُ مع أحدٍ يحاولُ أن يكونَ صديقك. لا تعرفُ سوى الطماطم وروث الحيوانات! على الأقل أنا أذهبُ إلى المدرسة ورائحتي ليست رائحةً روث! ربما عليك أن تتعلمَ أشياءً قليلةً قبل أن تصيحَ كرجل مجنون!»

«أنتِ تعرفينَ الكثير؟ أنتِ لا تعرفينَ شيئاً! لقد ذهبتُ إلى المدرسة أيضاً لكن المدارس أُغلقتُ حين سقطت الصواريخ على بيوتنا، غادرنا وجئنا إلى هذا البلد وأنا أعملُ هنا مقابلَ لا شيء تقريباً، أعملُ لأعيلَ أسرتي... لأطعمها. أتعرفينَ الشعورَ بالوحدة؟ أن لا يوجد أحدٌ لمساعدتك؟» اضطربَ صوته. ما زالتِ الفأس في يده يُحرّكها في التربةِ بغضبٍ مكثف. نسيَ وجودَ إكين تقريباً، لم يُعنَ بها.

«لا أعرفُ أين أسرتي»، همس بكآبة. «يظنُّ أبوك أنه يعطي الكثير جداً من ماله لكنني أعملُ أياماً كثيرة مقابلَ لا شيء. وقد عدتُ للعمل هنا لأن لا خيارَ آخر لدي».
سكتت إكين.. أخيراً.

جمع غضبه وركّزه في عمله الذي عليه إنجازُه. لم يُعنَ برفع بصره ورؤية تعبير وجهها. لم يرَ عينيها تدمعانٍ أو كيف عضتُ على شفّتها وابتعدتُ وهي ترتعش. اضرب، اسحب، ارفع.. ظل يحركُ الفأس لأن هذا كلُّ ما يمكنه.

لم يرها مدةً أسبوع بعد ذلك. أبعدها انفجاره. لم يأسف. كانت عصبية تزدادُ بمرور كلِّ يوم. مرت ثلاثة أسابيع الآن منذ أن تحدّث مع أمه، لا يعرفُ إلى متى سيظلُّ يأملُ في وصولِ جواز السفر.

عادت إكين.. كان الوقتُ في الصباح الباكرِ وسليم في الحظيرة بعد أن أوماً برأسه بتحيةٍ سريعةٍ لبولات الذي كان بدوره على ظهر محراثٍ متوجّهاً إلى حقْلٍ بعيد. مستر بولات في العادة صامتٌ، يعملُ أوقاتاً طويلةً لكنها لا تقارنُ بأوقاتِ سليم أو المرأة الأرمنية.

دخل سليم الحظيرةَ وتفقدَ المذاود، بحث عن دلوٍ ليغلب ماءً نظيفاً.

«سليم».. كان صوتها همساً خجولاً.

«ممم»، نخر يُجيبها. لم يُعنَ بالالتفاتِ إليها وهو يبحثُ في كومة الأدواتِ عن دلو.

«أنا.. أنا آسفة».. كانت خلفه الآن. بعيداً عن ظهره ببوصاتٍ قليلة، شعر بأصابعها تلمسُ كتفه فتوتّر. اعتذاره؟ هذا ما لم يتوقعه.

«لم أقصدُ أن...»

أوماً برأسه، كردّ هادئٍ على اعتذارها. بدت صادقةً وكان منهاكاً بشدةٍ ليغضب. عنت له كلماتها أكثر مما توقع. جعلته يشعر بإنسانيته بقدر أكبر قليلاً مما شعر به منذ وقتٍ طويلٍ مضى. هدأ مزاجه.

تحركت أصابعها من كتفيه إلى مؤخرة عنقه ببطءٍ وعمد،
شلت حركته، لا يعرفُ ماذا تفعل. خشي أن يتحرك. كانت لمستها
رقيقةً على نحوٍ أدهشه، أرقَّ كثيرًا من كلماتها. اقتربت منه. شعر
بأنفاسها الدافئة على مؤخرة عنقه.

ماذا تفعل؟ يجب أن أتحرك. يجب...!

مررت أصابعها في شعره الداكن، هرشت فروة رأسه ثم عادت
إلى عنقه وكتفيه، لمست يدها الأخرى كتفه وتلكأت على ذراعه،
لم تكن واثقةً لكنها، حين لم يبتعد، مالت إليه وضغطت بوجهها
في المساحة بين كتفيه. تحرك بداخله شعورٌ ما، أغمض عينيه.
دفعته برفقٍ إلى ركنٍ في الحظيرة بعيداً عن ضوء الشمس.
تكسّر القشُّ تحت أقدامهما. تحركت قدماهُ تتبعانها دون أن يلتفت
إلى وجهها. لم يستطع مواجهتها، كان الضوءُ خافتاً، يتسللُ من
فتحاتٍ صغيرةٍ بين ألواحِ السقف.

لماذا تفعل هذا؟

«أردت أن أتحدث معك فحسب»، همست له بهدوءٍ شديدٍ حتى

أنه لم يكن متأكداً إن كان سمعها حقاً أم يتخيل.

استدار ببطء، يدفع جسدهُ فضول بلا تفكير، تواجهها لكن
الظلمة كانت متسامحةً. لمست خده، وجد سهولةً في نسيان
المحادثات المربعة التي دارت بينهما، مال بوجهه وتقابلت
شفاههما، شعرَ بجزءٍ آخرٍ منه يمتدُّ إليه القلق، ما دامت عيناه
بقيتا مغمضتين، يمكنه تجاهلُ العالم.
تحركت أقدامهما في القش.

«سليم...» همست. فتح عينيهِ وتراجعَ فجأةً كمن لمسَ موقداً
ساختناً .

جالت بخاطره آلاف الأفكار، ماذا لو دخلَ مستر بولات؟ لماذا
يلمسُها حتى؟ تراجعَ خطوةً إلى الخلف واصطدمَ بجدار. استعادت
إكين وعيها، مدهوشةً من تحوله المفاجئ.

«يجبُ أن... يجبُ أن تذهبي»، قال ببساطة. وقفتَ لحظةً ثم
دارتَ على عقبِها وخرجتَ من الحظيرة بسرعة. تركتهُ وحده
يتساءلُ أيَّ عاقبةٍ يتوقع إن اكتشفَ أبوها أو أمها... ضجّت دقاتُ
قلبه لمجرد التفكير في الأمر.

ظل يذرغُ الخطى في الحظيرة متسائلاً إن كان عليه الرحيل
من هنا قبل أن يأتي بولات ليطرده. انتظر وأصاخَ السمع لصوت
مستر بولات الغاضبِ يقتربُ من الحظيرة. لم يسمع شيئاً. اقترب
من باب الحظيرة ونظر إلى الخارج بتوجّس، رأى مستر بولات
ما زال بعيداً على محراثه. كانت مسز بولات خلفَ المنزل، تعلق
ملاءات على حبل الفسيل. ولا علامة على وجود إكين.

عاد إلى عمله بحذر لكنه استغرقَ ساعاتٍ قبل أن يعود نبضه
إلى طبيعته. ظلت عيناهُ تندفعانِ هنا وهناك وهو يعمل، لا يريدُ
أن يفاجئه أحد. غربت الشمسُ وتركته منهكاً ومتعرقاً من يوم
مُرهِقٍ بشكل استثنائي.

في الصباح التالي تساءلَ وهو في الشاحنة إن كان يتجّه إلى
فخ ما. اقترب من المزرعة بحذرٍ وتوجّس، لكن بولات، كعادته،
بالكاد انتبه لظهوره. بقي على حذره طوال اليوم وكان ممتناً لعدم
ظهور إكين. ظلَّ يفكر في تلك اللحظات في الحظيرة حائراً في
تفسير تصرفاتها وعاجزاً عن فهم دوافعها.

أي فتاة تلمسُ فتى؟ باللعار.

لكنه تساءلَ أيضًا لماذا تقرّبتُ منه؟ نبرتها المتعالية وتعليقاتها الخبيثة... أكان كلُّ هذا واجهة؟

حارٌّ أكثرَ من ردِّ فعله، لم يبتعدُ عنها؟

تفاعلَ معها بإرادته الخاصة، ما زال يشعرُ بلمسها على أطرافِ أصابعه، بمنحنياتِها نصفِ الناضجة. الليلة الماضية، رقدَ على مرتبته وتركَ أصابعه تتحركُ على رقبتِه، كما فعلتُ إكين. فشعرَ بإثارة.

تساءلَ إن كانت قد ابتعدتُ غضبًا أم لشعورها بالعار.

من حينٍ إلى آخر، يظنُّ أنه لمحها تراقبُ من النافذة الخلفية أو تمرُّ من الباب الجانبي. ظلتُ مختفيةً. كان ممتنًا لذلك. ليس لديه ما يقوله لها.

صار أكثرَ قلقًا في انتظارِ الظرفِ الذي وعدتُ أمه بإرساله، إلى حد أن سألَ الجيرانَ في حال وصلهم الظرفُ بالخطأ. مضى شهر ولم يصله شيء. بقدر ما كان هاكان وسينام يحاولان أن يبدوا متفائلين، لاحظَ أنهما بدأا يفكران في أن الظرفَ لن يصلَ أبدًا.

كسرتُ إكين صمتها أخيرًا. كانت الشمسُ على وشك المغيب، وقد فرغَ لتوه من زرعِ كيس بذورٍ أعطاه له بولات. حان الوقت لريزاعة محاصيل الشتاء وأراد بولات أن يزرعَ شمندر السكر. أعاد الأدواتِ إلى ركنها في الحظيرة، ووجدَ هناك يمددُ ظهره، سمع خشخشة القش فاستدارَ ليجدَ قامةً إكين النحيلة عند باب الحظيرة. لم تقتربَ منه.

«هل انتهيت؟» قالت بهدوء. كانت تنظر بعيداً، إحدى قدميها خلف الأخرى في وضعٍ خجِلٍ. شعرَ سليم بارتباكها وغمرته موجة عطف.

«نعم»، أجاب، ظلَّ في مكانه. المسافةُ بينهما حماية.

«أنت لا تحبُّ العمل هنا». كان ذلك استنتاجاً وليس سؤالاً. أيًا كان ما ستقولهُ فقد تدرَّبْتُ عليه، تخيلُها تقريباً، تراقبُه من بعيدٍ وتفكِّرُ في ما ستقولهُ.

«ظننتُ أنك ربما تحبُّ أن... أنا لم أقصد أن أتسببَ في غضبك أو حزنك، لم أكنُ أعرف، أريدك أن تأخذَ هذا وألا تعودَ مجدداً، الأفضل ألا تعودَ إلى هنا». مدَّت يدها بشيءٍ ما ملفوفٍ في ورقة.

«ما هذا؟»

«خذه فقط، وارحلْ أرجوك... ارحلْ فحسبَ أرجوك». بدا صوتُها متكسراً كطفلٍ على وشك الانفجار في البكاء. تقدمت خطوات قليلةً بيدها الممدودة، ظلَّت على مسافة. كأن ناراً ستحرقُها لو اقتربتَ منها.

صار ما تمسكُه في متناول يده. فأخذه. لا يمكن التنبؤ بتصرفاتها لكنها تغيرت. شعر بأنها لا تلاعبُه وأن أيًا كان ما تقدمه له ليس قراراً سهلاً.

قبضتُ أصابعه على الورقة. استدارت إكينا وركضت خارج الحظيرة. راقبها تذهب قبل أن يفضَّ الورقة المطوية بحرص. وجد بداخلها لفة نقودٍ تركية سميكة. اتسعت عيناه. كانت النقودُ أكثرَ مما يمكنه تقديره، وورقات نقدية بفئاتٍ مختلفة.

ذُعِر ، طَوَى النُقُودَ ودَسَّها في جيبه،أصاخ السَّمْعَ لصوت خطواتٍ تقترب فلم يسمعَ شيئاً. من أين حصلتْ على تلك النقود؟ حين لم يرَ أحداً يقترب من الحظيرة، تتحَّى جانباً وأخرج النقودَ من جيبه. مرر أصابعه في الورقاتِ النقدية، تسارعت دقاتُ قلبه وتعرَّق، ظلَّ يسألُ سؤالاً واحداً.

هل آخذها؟

بعد شهرٍ من العمل الشاقٍ مقابلَ كلِّ ليرة، وبيعه أساورَ مادِر جان الذهبيةً مقابلَ يوروهآتٍ قليلة وسرقه الخبز لإطعام أسرته، لم يجد حلاً آخر. كان بحاجةً إلى تلك النقودِ ورأى أنه يستحقُّها. دسَّ اللفة في جيبه وغطَّى بقميصه بروزها. أخذ نفساً عميقاً وخرج من الحظيرة وسار عبر الفناء نحو طريق فرعي. لم يستدر ولم يتوقف ليرى إن كانت المرأة الأرمنية خلفه.

جلس على ظهر شاحنةٍ وضغط جيبه في جانبها، أبقى رأسه مطرقاً ولم ينظر إلى أحدٍ من الركاب وهم يقطعون الطريق المتربة للعودة إلى القرية.

في جيبه عالمٌ من الإمكانيات. يمكنه الدفع لمهربٍ ليحمله عبر المحيط إلى اليونان. في الأسبوع الأخير، أدرك تماماً أن جواز السفر الذي ينتظره لن يصل. وأن كلَّ يوم يقضيه في منغن يوم ضائع. وأن عليه أن يلحق بأسرته الآن. دفعته النقودُ في جيبه إلى أخذ القرار الذي يعلم أن عليه اتخاذه.

يعرف أيضاً أن إكين سرقَت هذه النقودَ من أبيها. لا سبيل لعودته إلى مزرعة بولات الآن.

أنا بحاجة إلى هذا، ظللتُ أفعلُ كل شيء بناءً على أوامر مستر بولات، ثم أفعله مجدداً لأنه لم يكن جيداً بما يكفي. كنت

اللاجئ الذي لا يمكنه المعارضة. هذه النقود ستخرجني من هنا
وتعيدني إلى أسرتي، فيم بهمّ لماذا فعلت هذا؟

اتخذ قراره وهو يدخل البيت من الباب الجانبي، سمع سينام
في المطبخ، لن يخبرهما بشأن النقود، لن يستطيع توضيح الأمر
لهما. سيذهب إلى الميناء لبحث عن قارب متجه إلى أثينا. هذه
هي الطريقة الوحيدة.

حين تأكد من إيواء هاكان وسينام إلى فراشهما، ظلّ يعدّ
النقود مرارًا حتى اقتنع أنها حقيقية وكافية لإعادته إلى مساره،
كان المبلغ أكبر بكثير من المبلغ الذي حصل عليه من محل
الرهونات مقابل أساور أمه الذهبية.

لم ير أمّه بلا تلك الأساور من قبل. يعرف أنها أساور جدته،
هدية منها للابنة التي لم ترها. تحسّن ساعة يده على معصمه،
لا بد أن مادر جان كانت تشعر بالمثل نحو الأساور. صلتها
الوحيدة بأمها.

مع أنه لم يكن يعرف أين أمّه، لكن يمكنه الآن رؤيتها وسماعها
بوضوح أكثر من أي وقتٍ خلال الأشهر التي ارتحلا فيها معًا.
يتخبط أحدهما بالآخر على متن الباصات والسفن، ينامان معًا
في الغرفة نفسها ويسهران على سميرة وعزيز. انقشع الضباب
وتجسدت أمّه أمامه كشخصٍ حقيقي. أغمض عينيه في الظلام
ولفّ نفسه بعناق أمه الحاني. دعا الله من أجل فرصة أخرى.

سليم

37

كان وداعُ هاكان وسينام أصعبَ هذه المرة، فرغم نقوده وعزمه، لم تكن لديه أيُّ وثائق تسهّلُ عليه عبور الحدود.

فوجئ مُضيفاه العطوفانِ بقراره المفاجئ لكنّهما لم يحاولا إقناعه بالعدول عن السفر. شغلت سينام نفسها بجمع بعض الطعام، زوجي جوارب من الصوف، ثلاثة قمصانٍ ومعطفٍ ثقيلٍ لسليم. لفّ الملابس ودسّها في حقيبة الظهر الصغيرة التي يحملها على كتفه، كانت الرياح الباردة تبشّر بشتاءٍ قاسٍ والملابسُ الإضافيةُ قد تنقّذه.

ظلت لفّة النقود في جيبه حيث الشعورُ بضغطها على وركه يُطمئنه. لو ألقى القبضُ عليه سيجدونها، لكنه لم يستطع إخفاءها في أيِّ مكانٍ آخر.

استقل الباص المتجه إلى الساحل. اقشعرّ جسده والباص يقترب من قسم شرطة أزمير حيث أطلقوا سراخه بوداعٍ فظ. تعرفت راحتاه، لم يستطع استجماع شجاعته وهو وحيد. لاذ بكلماتٍ سمع والداه يهسان بها في لحظات القلق، ولحظات الأمل ولحظات استجداء راحة البال.

بسم الله الرحمن الرحيم

فَكَرَّ مَلِيًّا فِي الطَّرِيقَيْنِ اللَّذَيْنِ يَعْرِفُهُمَا لِلْوَصُولِ إِلَى الْيُونَانِ.
يَعْرِفُ أَنَّ بِإِمْكَانِهِ الْبَحْثُ عَنْ مُهْرَبٍ لِيَنْقُلَهُ عَبْرَ الْمَحِيطِ. سَيَكْفِيهِ
هَذَا الْكَثِيرَ مِنَ النُّقُودِ، خُصُوصًا لَوْ شَمَّ الْمَهْرَبُ رَائِحَةَ يَأْسِهِ. وَإِنْ
كَلَفَهُ هَذَا كُلُّ مَا يَمْلِكُ فَلَنْ يَبْقَى مَعَهُ شَيْءٌ لِلسَّفَرِ مِنَ الْيُونَانِ إِلَى
إِيطَالِيَا.

تَحَدَّثَ فَتِيَّةً أَتَيْكِي عَنْ أَشْخَاصٍ عَبَرُوا فِي سَفْنٍ شَحَنٍ بِضَائِعَ
تَفَادَرُ مِنْ تَرْكِيَا إِلَى أَثِينَا. تَحْمَلُ السَّفْنُ الشَّاحِنَاتِ لِنَقْلِهَا. أَخْبَرَهُ
جَمَالَ بِتَفَاصِيلِ هَذَا الْأَمْرِ، لَمْ تَكُنْ صُورَةً جَمِيلَةً تَلِكُ الَّتِي رَسَمَهَا.
فِي الْبَدءِ، تَتَسَلَّلُ إِلَى خَلْفِيَةِ الشَّاحِنَةِ دُونَ أَنْ يَرَاكَ أَحَدٌ. الْمَوَانِي
مَزْدَحْمَةٌ لِذَلِكَ عَلَيْكَ فَعَلْ ذَلِكَ وَالسَّائِقُ وَالْحَرَسُ مَشْغُولُونَ. ثُمَّ
عَلَيْكَ الْبَقَاءُ هُنَاكَ، بِإِلْحَاقِ حَرَكَةٍ حَتَّى تَصْعَدَ الشَّاحِنَةَ إِلَى السَّفِينَةِ.
حِينَ يَحْدُثُ ذَلِكَ يَجِبُ أَنْ تَظُلَّ سَاكِنًا وَهَادئًا تَمَامًا مَهْمَا طَالَتْ
مُدَّةُ الرَّحْلَةِ. الْجِزْءُ الْمَهْمُّ يَأْتِي بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْمِينَاءِ الْأَخِيرِ حَيْثُ
يَجِبُ عَلَيْكَ مَفَادَرَةُ السَّفِينَةِ دُونَ أَنْ يَلْحَظَكَ أَحَدٌ.

فِي مَكَانٍ مَا بَيْنَ مَنَعِنِ وَالْمِينَاءِ قَرَّرَ سَلِيمٌ أَنْ يَحَاوَلَ شَقَّ
طَرِيقَهُ بِنَفْسِهِ. الْمَهْرَبُونَ مَخَاطِرَةٌ كَبِيرَةٌ وَلَا يُمْكِنُهُ إِهْدَارُ نَقُودِهِ
كُلِّهَا وَمَا زَالَ طَرِيقَهُ طَوِيلًا.

تَرَجَّلَ مِنَ الْبَاصِ وَتَوَجَّهَ بِسُرْعَةٍ إِلَى شَارِعٍ صَغِيرٍ لِيَحْدَدَ
اتِّجَاهَاتِهِ. جَالَ بَعَيْنِيهِ بِحَذَرٍ بَحْثًا عَنِ الزِّيِّ الرَّسْمِيِّ. عَلَيْهِ التَّوَجُّهُ
إِلَى الْمِينَاءِ. كَانَ الْوَقْتُ ظَهْرًا وَقَدْ لَا يَسْتَطِيعُ التَّسَلُّلَ إِلَى خَلْفِيَةِ
شَاحِنَةِ الْيَوْمِ، الْأَفْضَلُ أَنْ يَعْثَرَ عَلَى مَكَانٍ آمِنٍ قَرِيبٍ لِقَضَاءِ اللَّيْلِ.
سَأَلَ صَاحِبَ مَحَلٍّ عَنِ اتِّجَاهِ الْمِينَاءِ فَنَصَحَهُ بِرُكُوبِ بَاصٍ
آخَرَ. أَوْصَلَهُ الْبَاصُ الْمَحَلِّيَّ الْأَصْغَرَ بِكَثِيرٍ، إِلَى نَقْطَةِ التَّقَاءِ الْبَلَدَةِ

بالمحيط. رأى السفن الضخمة نفسها راسيةً وأخرى أصغر تطفو بجانب أرصفة الميناء، ومجموعات من الناس يروحون ويجيئون، والحرس وأطقم العمل والركاب يجوبون في كل مكان. الاندفاع الجنوني نحو المنحدر خضةً غير قابلة للتفيز.

كن ذكياً، كن حذراً جداً.

كان الميناء مزدحمًا. وقف سليم أمام طريق رئيسٍ يفصل بين البلدة والميناء. رأى خلف البوابات عددًا من الحاويات الضخمة، صناديق شحنٍ مستطيلة عملاقة بمختلف الألوان والكتابات على جوانبها، راقب نقل عددٍ منها إلى السفينة.

لكن كيف تعرف حين ينقلون الحاوية إلى أين تذهب؟

قضى المساء يراقب السفن، يدرس العمل فيها وأنماطها، ويسجل ملاحظاتٍ بخصوص أرصفتها. عليه تحديد المكامن، الأماكن التي يمكنه الاختباء فيها دون أن يلاحظه أحد.

في مكان بعيد، يوجد مرفأ سفن الركاب. سافرت أسرة حيدري من هناك لتعبر المحيط إلى أثينا. كانت تلك الرحلة البحرية مختلفة! تملكهم الرعب من القبض عليهم لكنهم كانوا معًا، راحة في حد ذاتها، ابتهجوا يومها حين رأوا البحر وسمعوا صوته.

لم تكن لدينا فكرة كم كان الأمر سهلًا حينئذ، ليته يكون سهلًا هكذا مجددًا.

ظل يسير حتى وصل إلى منطقة معزولة مكسوة بالعشب أمام الميناء على الطريق السريع، خلفها مباشرة موقع بناء. رأى عمال البناء يجمعون أدواتهم ويتوجهون صوب الطريق. لديه من

هنا مشهدٌ جيد للميناء، توسّد حقيبته بعد أن أسندّها إلى جذع شجرة ورقد يفكّر. الوقتُ متأخّرٌ ومن الصعب معرفة ما يحدث بعيداً هناك لكنه انتبه جيداً في جميع الأحوال. ركز جيداً ليرى ما يمكنه رؤيته. خلال ساعة، تألّقت السماء بغروبٍ رائعٍ بدرجاتٍ من البرتقالي والبنفسجي. بعد ذلك بدقائق، خيم الظلامُ وصار وحده تماماً.

حمل حقيبته وسار بحذرٍ إلى مبنى صغير قريب ما زال تحت الإنشاء. اختلس النظرَ من نوافذه المتربة ولم يرَ أحداً في الداخل سوى مواسير مكشوفة وطوب وأدوات في كل مكان. الأبواب موصدة. تسللَ من الخلف وحاولَ الدخول من النوافذ، حالفه الحظ. عبر من نافذةٍ غير موصدة وسقط بضجةٍ مكتومة داخل غرفةٍ بهيكلها الأساسي فقط، دون جدران. اقشعرَّ جلده لكل صريرٍ وعواء. ارتدى قميصاً إضافياً وأغلقَ سحاب سترته ومدد قدميه على مشمّعٍ رماديّ مطوي.

استيقظ على أصواتٍ رجال قادمين من بعيد. فتح عينيه ببطء.

عمال البناء! كان الوقتُ صباحاً وقد عادوا لبدء يومٍ عملٍ جديد. أخذ حقيبته وخرج من النافذة قبل أن يدخلوا الغرفة. سمعهم يصيحون من خلفه لكنه لم يتوقف ولم يلتفت. ركض، اندفع بين السيارات لعبور الطريق السريع، واختبأ خلفَ بنايةٍ سكنية. كان يلهث، لسانه سميكٌ وجافٌ كأنه مغلفٌ بالتراب الأبيض الذي ظل ينفُضُه عن ملابسه وشعره. بعد أن تأكّد أن لا أحد يتبعه، سار نحو محلٍّ لشراء زجاجة عصيرٍ ثم عاد إلى العمل.

تُحْمَلُ الحَاوِيَاتُ أَوْلًا عَلَى الشَاحِنَاتِ، ثُمَّ إِلَى السَّفْنِ. اقْتَرَبَ سَلِيمٌ قَلِيلًا مِنْ فَنَاءِ الشَّحْنِ فَوَجَدَ الحَاوِيَاتِ كُلَّهَا مَوْصَدَةً وَمَنْعِيَةً عَلَيْهِ، لَيْسَ مِنَ السَّهْلِ اقْتِحَامُهَا. كَانَتْ هُنَاكَ شَاحِنَاتٌ نُقِلَ، ثَمَانِي عَشْرَةَ شَاحِنَةً تَتَرَاوَعُ بِظَهْرِهَا إِلَى السَّفِينَةِ بِيْطَاءٍ فِيمَا يَسِيرُ الرِّكَابُ فِي صَفِّ وَاحِدٍ أَعْلَى الْمُنْحَدِرِ عَلَى مَسْتَوَى الرِّصِيفِ، بَدَأَتْ خُطَّةَ سَلِيمٍ فِي التَّبْلُورِ.

زَهَبَ إِلَى شَبَاكِ التِّذَاكِرِ وَسَأَلَ عَنِ جَدْوَلِ مَوَاعِيدِ السَّفْنِ. نَاوَلَتْهُ الْمُؤَمَّلَةُ مَطْوِيَةً أَخَذَهَا إِلَى خَارِجِ الْمِيْنَاءِ لِيَقْرَأَهَا. بَحَلُولِ الضُّحَى، كَانَ قَدْ رَاقِبَ ثَلَاثَةَ سَفْنٍ تَرَسُو وَتَتَطَلَّقُ بِحَمُولَةٍ جَدِيدَةٍ مِنَ الرِّكَابِ وَالشَّاحِنَاتِ. كَانَ قَدْ بَدَأَ يَشْعُرُ بِالْجُوعِ حِينَ لَفَتَ نَظْرَهُ شَيْءٌ مَا. شَابُّ أَسْمَرٌ بَدَأَ أَكْبَرَ مِنْهُ بِسِنَوَاتٍ قَلِيلَةٍ، يَتَجَوَّلُ بِشَكْلِ طَبِيعِيٍّ عِنْدَ السُّورِ الْمُحِيطِ بِفَنَاءِ الشَّحْنِ. يَدَاهُ فِي جَيْبَيْهِ. مَبْهَمٌ بِقَدْرِ مَا يَحَاوِلُ أَنْ يَبْدُو، كَانَ بِطُولِ سِتَّةِ أَقْدَامٍ تَقْرِبًا وَيَمِيلُ بِرَأْسِهِ يَمِينًا وَيَسَارًا كُلَّ عِدَّةِ دَقَائِقٍ. مَيِّزَ سَلِيمِ الْمَشِيَّةَ الْمُرْتَبِكَةَ لِلْأَجَى عَلَى الْفُورِ.

رَاقِبَهُ يَقْفُزُ بِخَفْةٍ وَسُرْعَةٍ أَعْلَى السُّورِ الْمَعْدَنِيِّ إِلَى الْمِيْنَاءِ، مَدَّ عُنُقَهُ لِيَرَاهُ بِشَكْلِ أَفْضَلِ. شَقَّ الْإِفْرِيْقِيُّ طَرِيقَهُ مَارًا بِالحَاوِيَاتِ وَوَقَفَ عِنْدَ مَنْطِقَةِ تَرَاوَعِ الشَّاحِنَاتِ إِلَى السَّفْنِ. تَوَارَى خَلْفَ حَاوِيَةٍ حَمْرَاءَ، انْتَضَرَ دَقَائِقَ قَلِيلَةً قَبْلَ أَنْ يَتَعَلَّقَ فَجَاءَ بِشَاحِنَةٍ تَنْتَظِرُ دَوْرَهَا لِلرُّجُوعِ إِلَى السَّفِينَةِ. انْدَفَعَ إِلَى الْفَجْوَةِ بَيْنَ مَقْصُورَةِ الشَّاحِنَةِ وَالْمَقْطُورَةِ، مُحَاوِلًا إِيجَادَ مَسَاحَةٍ لِلزَّحْفِ أَسْفَلَهَا. حَبَسَ سَلِيمٌ أَنْفَاسَهُ.

رَكَضَ رِجْلَانِ نَحْوَهُ. عُبِّرَ عَلَيْهِ!

اقترب سليم خطواتٍ قليلةً يريد أن يعرفَ ماذا سيحدثُ، سمع الإفریقی الصياح وهب سريعاً. اندفع في المتاهة بين الحاويات، ينعطفُ يميناً ويساراً فيها.

عض سليم لسانه:

«كان من الممكن أن أكون أنا من يطاردونه.. بسهولة».

قفز الإفریقی بحركةٍ رشيقةٍ أعلى سور الميناء وركضَ يعبر الطريق السريع، على مقربةٍ أمتارٍ قليلةٍ من حيث يقفُ سليم. فيما يقترب، رأى سليم الدمَّ يسيل من يده، لم يبدُ على الشاب أنه لاحظ جرحه.

«هي!» صاح سليم. «مرحباً!» نظر الشابُ حوله وهو يُبطئ ليلتقطَ أنفاسه، نظر إلى سليم بشك.

«يذك!» كان على بُعد عشرين قدماً الآن، جبينه يلمع، بدا مذهولاً لكنه قرر سريعاً أن سليم ليس خطراً حقيقياً. ربما ميّز هو الآخر حالَ سليم المشابهة لحاله.

«يذك!» كرر سليم وهو يشيرُ إلى راحته اليسرى.

نظر الرجلُ إلى أسفل، لم يُدهش. أوماً لسليم وسارَ في الشارع، حريصاً على إخفاء يده.

زاد خوفُ سليم، كان سماعُ قصص فتيةٍ أتيكي شيئاً والوقوف في الميناء ومراقبة مطاردة الأشخاص شيئاً مختلفاً تماماً. لا يتخيلُ ما كان سيحدثُ لو وقع الإفریقی بين أيديهم.

في الليلتين التاليتين نام سليمُ في موقع البناء القريبِ وغادر مبكراً قبل وصول العمال في الصباح. أنفق أقلَّ ما يمكنه على الطعام، ما يكفي ليسدَّ جوعه فحسب. قضى النهارَ في دراسةٍ

الميناء. رأى الإفريقي يعودُ ليمسحَ المشهدَ بعينيه مرةً أخرى، يده مربوطةٌ بضمادةٍ من قماشٍ وبقيةً قريبةً من جسده. لم يقم بأي محاولاتٍ جريئةٍ كما لم يبدُ مهتمًا بالتحدثِ مع سليم.

في اليوم الثالث، قرر سليم أن يشقَّ طريقه إلى الرصيف. ستصلُ سفينةٌ متوجِّهةٌ إلى أثينا في الظهيرة، قبل وصولها بثلاثين دقيقة، اصطفتُ ثلاثُ شاحناتٍ عند المنحدرِ على استعدادٍ لصعود السفينة، ترحل منها السائقون، للدردشةِ والحصولِ على بعض الطعام.

بدأ سليم لعبتهِ الخطرة، علقَ حقيبته على كتفه وسار نحو الشاحناتِ بشكلٍ طبيعي. بدأ الركابُ يقفون صفًا، يجرون خلفهم حقائبَ سفرٍ صلبةً على عجلاتٍ أو يحملون على أكتافهم حقائبَ قماشية. تمنى سليم أن يذوبَ بينهم.

حادَ عن صفهم وسار نحو الشاحنات، يتصاعدُ دخانٌ كثيف من أنابيب العادم. اقترب أكثر بعد أن تأكَّد أن لا أحد يلحظه. يقف سائقان أمام شاحنة، يديران إليه ظهرَيهما. كان على بعدِ ثلاثين قدمًا منهما، إن استطاع الوصول إلى خلفية المقصورة، سيمكنه القفزُ في تلك الفجوة ومنها إلى أسفلِ الشاحنة. عليه أن يتحرَّك بسرعة.

أشار أحد السائقين إلى شيء ما بعيد، تحرك سليم قبل أن يفكر في الأمر مرتين. اندفع نحو الشاحنة بخفة ما أمكنه. ما زال السائقان على الجانب الآخر يتحدثان. بحث خلف المقصورة عن شيء ما ليمسك به، وجد أنابيبَ وأسلاكًا متشابكةً لكنه لم يجد مساحة لينزلق إلى الأسفل ويتشبثَ بشيء، جلس القرفصاء وتمسك بشيء ما ساخنٍ جدًا فتراجعت يده لا إرادياً.

وجد قضيباً يمتد من خلف الإطارات الأمامية إلى أسفل بطول الهيكل، كان رفيعاً لكنه قد يستطيع التثبيت به. قلب حقيبة ظهره ليريحَ عليها بطنه، بينما يمسكُ القضيب انفكَّ جزء منه وسقط على الأرض محدثاً ضجّة. انتبه السائقان لصوت ارتطام المعدن بالرصيف، دارا خلفَ الشاحنة في اللحظة التي اندفع فيها سليم في الركض.

مكتبة

t.me/soramnqraa

اركض.. اركض فقط.

كانا خلفه يصيحان ويسبان.

اركض.

كان الفتية في وطنه يراهنون عليه عداءً، يراهنون على أنه أسرع من السائقين وأنه سيهربُ منهما دون أن يستطيعا الاقتراب منه. كان بتلك السرعة في ملعب كرة القدم، سريعاً جداً على قدميه إلى حد يمكنه فيه إدارة رأسه إلى الخلف والابتسام للفتى الذي يلاحقه، وهو يلهث ويرفع يديه.

لكن ذلك سليم مختلف. كان ذاك الفتى لديه أمٌ وأبٌ في البيت ليعود إليهما. كان بطنه مشبعاً بطعام أعدته أمه وينتعل حذاءً رياضياً. ذاك الفتى ليس هنا.

كان من يركض هرباً من السائقين جائعاً ووحيداً ولا قوة لديه سوى لاقتطاف ثمار الطماطم وتنظيف الحظيرة فيما يراقبه شخصٌ ما من أعلى كتفه.

كان هذا أسهل كثيراً في إمساكه.

أمسكاه من ياقته وسحباها، طارت قدماه في الهواء وما زالتا تحاولان الاندفاع إلى الأمام. طرحاه أرضاً.. ارتطم وجهه بالأسفلت، مزق فكّه ألمٌ حاد.

سيتذكر بقية ما حدث على هيئة شذرات ومقتطفات، تذكارات تركها على جسدهِ رجلان ضجرا من استغلال اللاجئين ومن تفتيش رجال الجمارك شاحنتيهما مراراً، أحذية عالية الرقبة وكلمات غاضبة.

حاول النهوض على قدميه. ترنح.

دفقة أدرينالين أخرى.

اركض.

صاحا من خلفه.

خفت صوتاهما بنجاحه في قطع مسافة بينه وبينهما.

تضربُ حقيبة ظهره صدره بعنف. اختبأ خلف مبنى من الطوب، بعيداً عن الأنظار. انحسر الأدرينالين، بدأ يشعر بجسده مجدداً. ألمته ضلوعه وشعر برجليه مشوهتين. تمزق قميصه وتلطخ بنطاله بالطين، ضج نبضه في أذنيه، لكن ليس بما يكفي ليغطي على صياحهما.

تجول بشفتيه تنزفان في الشوارع الجانبية الضيقة، بعيداً عن المارة، يريد أن يختفي.

وصل إلى مستودع خالٍ وانتظر حتى اعتادت عيناه الظلمة. تكور بجوار الجدار، أغمض عينيه لينسى جروحه.

أرجوك ربي دعني أرتاح هنا.

كان كسيراً، لا يعرف إلى متى سيمكنه التحمل.

ليومين تقريباً، ظلَّ سليم نائماً، فقد الشعورَ بالليل والنهار، كلما أراد النهوض، يخذله عقله بعجزه عن جمْع قواه لمواجهة يوم جديد وتجاهلِ جوعه.

ففي اليوم الثالث، طالبت معدته بالطعام، سئمت من زجاجة العصير التي أخرجها من حقيبته. لمس شفته وعرف أن تورمها قد ازداد. يمكنه التحرك قليلاً، لم يعد الألمُ كما كان. غيرَ ملبسه ووقف. رأسه يدور.

لقد أخطأ في حساباته. لم يكن حذراً. لا يعرف ما يكفي عن الشاحنات وهيكلها وهذا ما جعله يخفق. شعر بالفشل.

تجوّل في الخارج، بقي بيديه عينيه من الشمس الساطعة. سار إلى السوق واشترى رغيف خبزٍ وزجاجة لبن من أحد المحلات. راقبه البائعُ بحاجبٍ مرفوع لكن سليم أبقى رأسه منخفضاً ودفع له بهدوء، يرجو ألا يلفت الأنظار.

تلوّت معدته وهو يأكل لكنه شعر بالقوة تعاوذه وبذهنه يصفو. عاد إلى موقع البناء والشمسُ تبدأ رحلةً مغيبها، اشترى في طريقه المزيدَ من الطعام ووجد ملجأه المتربّ المألوف.

لا خيارات أخرى، عليه المثابرةُ وإلا سيتعفن في هذه البلدة، بعيداً عن أسرته. ستشفى جراحه، عليه التعلمُ من أخطائه.

عاد يراقبُ أرصفةَ الميناء من مسافةٍ كافيةٍ لئلا يراه أحدٌ من سائقي الشاحنات. حدّق في السفن وحاولَ إيجادَ منفذ لها. يرتدي أفرادُ طاقم العمل زيًّا موحدًا باللونين الأبيض والأزرق ويرشدون الركّاب إلى السفن. لا سبيل للمرور بينهم إلى سطح سفينة.

يمكنه المحاولةُ مع الشاحنات مجددًا. ربما يذهبُ إلى مؤخرة الشاحنة هذه المرة، مع أنه يتذكّر أن أحدَ فتية أتيكي أخبره عن صديقٍ مات من تنفسِ دخان العادم فترةً طويلةً.

عاود النظرَ إلى الحاوياتِ المنيعة، تضاءلتْ آماله، بدأ يفكّر في البحث عن مُهرّب، مع أنه ليس لديه أدنى فكرةٍ عن أماكنهم. غدًا، وعدّ نفسه، سيتجولُ في البلدة بحثًا عن لاجئين، لا بد أن أحدًا منهم يعرف مُهرّبًا. عاد إلى أرصفة الميناء لجولةٍ استكشافيةٍ أخرى قبل حلول المساء.

ستنتقل آخرُ سفينةٍ شحنت متجهةً إلى أثينا خلال ربع ساعة. رأى وهو يقتربُ من السفن سائقًا يترجّلُ من شاحنته ويسير إلى منطقة التحميل حيث تقفُ شابتان في الزيِّ الرسمي الأبيض والأزرق تدرّشان.

حين تأكد أن لا أحدَ يلاحظه، ذهب إلى خلفيّة الشاحنة وجثم على الأرض لينظرَ إلى الهيكل السفلي. لم يجد شيئًا يمكنه التعلّق به دون أن يكرّر خطأ الأسبوع الماضي. عاد يقف وحدّق في قفل الباب الخلفي للشاحنة، لا سبيل للدخول. تفقّد أسفل الباب ولاحظ شيئًا آخر.

توجد منصّةٌ، والأهمُّ من هذا، يوجدُ مزلاجٌ صغيرٌ في جانب الباب.

صعد إلى المنصّةِ وتمسّك بجانبِ الشاحنة. تدبّر أن يضع قدمه اليمنى على المزلاج الصغير. أحكم قبضة أصابعه على حافةِ الشاحنة، تسارعت أنفاسُه واضطربت. دفع نفسه إلى الأعلى مستنداً بوزنه إلى المزلاج الصغير، كادت قدمه تنزلق من فوقه، مد نفسه إلى أعلى ما أمكنه ليصل إلى حافة سطح الشاحنة لكن أصابعه لم تصل. سمع أصواتاً تقترب. سيعود السائقون. عليه أن يتحرك إلى الأسفل أو إلى الأعلى.

بدفعةٍ عازمةٍ واحدةٍ أخيرة، رفع وزنه على قدمه اليمنى وأرجع اليسرى إلى الأعلى. أمسكت يده الحافة المعدنية. استقرت قدمه على حافة السقف بضجةٍ مكتومة، جاهد ليسحب بقية جسده إلى الأعلى.

تحرقت عضلات ذراعيه من المجهود لكنه نجح، رقد على بطنه مسطحاً وساكناً ورأسه مائلٌ جانباً، يأملُ ألا يلمح أحدٌ حقيبة ظهره من أسفل. اقتربت الأصوات لكنه ميّز من نبراتهما العادية أن لا أحد لاحظَه في ستر الليل.

بعد ذلك بدقائق، ارتجت الشاحنة بدوران محرّكها. كان يتحرك في اتجاه السفينة. ارتجاجٌ آخر والشاحنة تعود إلى الخلف على المنحدر. التصقَ خدّ سليم بالمعدن البارد. استعد للمزيد.

صفّ السائقُ الشاحنة في موقعها بجانب شاحنات أخرى. جاءت شاحناتٌ أخرى بعدها وصار الهواءُ ساخناً ومعيباً بالأدخنة. رفع سليم قميصه إلى فمه وأنفه. سمع صوتَ بابٍ ينغلق ثم صوتَ

خطواتٍ تبتعد. ترددت أصداًءُ أصواتٍ في المساحة التي تصطفُ فيها الشاحناتُ وكان من الصعبِ تحديدُ الاتجاهات التي تأتي منها. رفع رأسه قليلاً ورأى شخصين يعبران المنحدر ويفادران السفينة. جاء دور ركوب المسافرين، يمكنه تخيلهم يصعدون إلى السفينة وهم يجزّون أمتعتهم. منذ فترةٍ ليست طويلةً صعد هو وأسرته إلى السفينة بتلك الطريقة المتحضرة نفسها.

لا يصدّق ما آل إليه أمره.

خلال دقائق، صدرَ نفيِرُ البوق، رُفعتِ المنحدراتُ وأغلقتِ الأبواب. تشبّت بسطح الشاحنة في بطن السفينة، يخشى الفرح بهذا النجاح الصغير. حين تأكّد أن لا أحد يسيرُ في المكان، جلس ببطءٍ وحاول أن يميز ما حوله. كان المكانُ مظلمًا ولم يستطع تحديدَ الكثير، ما طمأنه، لأنه هو أيضًا لا أحد يراه. المحطة التالية خيوس، يتذكّر أنها مسافةٌ قصيرة، ساعة تقريبًا. ثم منها إلى أثينا، رحلةٌ أطول، تسع ساعاتٍ ربما. ظلّ يفكر في طريقة لمغادرة السفينة بعد أن ترسو في أثينا. كان قد راقبَ تفريغَ شحناتِ السفن القادمة من أزمير مرارًا وتكرارًا. كلُّ ما يأمله أن يبقى على سطح الشاحنة دون أن يلاحظه أحد حتى اللحظة التي يمكنه فيها الهبوط على الأرض والركض.

حين سمع تغييرًا في ماكينات السفينة، خمّن أنهم يقترّبون من خيوس، رفع نفسه قليلاً وهو يرقدُ على بطنه لينظرَ إلى ساعته. لقد وصلتُ حتى هنا، بادر جان.

بعد ذلك بدقائق، صدرَ نفيِرُ البوق مجددًا وواصلت السفينة الإبحار. كان الوقتُ ليلاً والركاب في الغالب يغفون على مقاعدِهِم

المبطنّة. فتح حقيبة ظهره شاكرًا لأنه اشترى كيسَ شرائح بطاطس وزجاجة عصير في وقتٍ مبكرٍ اليوم. سيحتاجُ إلى قوته في بيرايوس.

تذكّر أسرته وتساءلَ أين قد يكونون. على متنِ قطار. في مقرِّ احتجاز. ينامون في حديقة. وثائقهم مزورةٌ جيدًا وسوف تمرّهم. قال لنفسه.

تحسّسَ لفّة النقودِ في جيبه. إكين! تذكّر طريقتهما في تحريك مشاعره بداخله، مشاعر بالذنب والفضولِ في الوقت نفسه. ربما كان عليه إطلاقها.. لمجردِ العلم، لم يفهمها ولم يفهم شيئًا مما حدث.

وروكسانا، سيجدها حين يصلُ إلى أثينا، ستكون على علم بما حدث لأمه وأخوته. أغمض عينيه وتخيلَ وجهها. يفتقدها، يفتقدُ التحدثَ مع أحد. طفا على سطح نومٍ خفيف، يمزجُ ذهنه بين الحقيقي والخيالي. كانت روكسانا وليست إكين، من لمست خده بأنفها. كانت يداؤه على خاصرتيها، أيقظه إحساسٌ برعشةٍ كهربيةٍ غريبة.

كانت السفينةُ هادئةً ما عدا طنينَ المحرك. تلكأ حلمه. حاول تركيز ذهنه على ذلك الشعور، قربه من روكسانا. حاول منعه من التبخّر في يقظته كما يحدثُ للأحلام السعيدة دائمًا. فقد إحساسه بالزمن في الظلام. لا يعرفُ كم تبقى من الوقت قبل الوصول إلى بيرايوس. أغمض عينيه مجددًا وحاول النوم. فتح عينيه فجأةً على أصواتٍ في منطقة البضائع. انقلب على بطنه على الفور وسطح نفسه. كانت الأصواتُ قريبة.

بيرايوس، كان السائقون يعودون إلى شاحناتهم استعداداً للانطلاق. الركاب في طريقهم إلى الباب حيث سيستعيدون أمتعتهم. رأسه يؤلمه، ظلّ يتنفسُ هواءً معبأً بالأدخنة السوداء لساعات، تجاهل الصداع وحاول الاحتفاظَ بتركيزه.

ألقت السفينةُ بمرساتها وتوقفتُ في الميناء. اصطفت الشاحناتُ في مواجهة المنحدر. حين أزيحت البواباتُ كلّها وتسَلَّ منها نور هلالٍ مفعم بالأمل، سمع سليم باب مقصورة الشاحنة ينفتحُ وينغلق. عادت المحركاتُ إلى الحياة بصخب، شَعَر بحركاتِ التروس أسفلَه والشاحنة تنطلقُ.

كان الوقتُ قبل طلوع الصبحِ بقليل. تحرّكت الشاحنةُ إلى الميناء وواصلت.

رفع رأسه قليلاً. يسير الركاب بأعينٍ ناعسة، يشقّون طريقهم إلى الطريق الرئيسي أو موقفِ سيارات الأجرةِ على مقربةِ أمتار قليلة. ظلّ على حذره من الزيِّ الرسمي، أي شخصٍ قد يحاول إيقافه. ما زالت أرصفةُ الميناء قريبة، لاحظ ذلك وعاد يخفضُ رأسه مجدداً، يأملُ أن تتوقفَ الشاحنةُ في مكانٍ ما قبل أن تتجّه إلى أيِّ طريقٍ رئيس.

بعد ربع ميلٍ من الطريق، توقّفتِ الشاحنة، كان توقّفها إشارةً حمراء وفرصته الفضلى. أمسك حقيبته، علقها على كتفيه وانزلق من فوق سطحِ الشاحنة بسرعة، يتحسّسُ بقدمه بحثاً عن المزلاج ليساعده على الهبوط. وجده في اللحظة التي تحرّكتُ فيها الشاحنةُ مجدداً.

شعرت قدمه اليسرى بالمنصة. احتكت يداه بجانب الشاحنة، صر المعدن لاحتكاكه بجلده. انصبت أضواء كشافات على ظهره، تلاها نفير أبواق. قفز على الأرض، كاحلاه يصرخان. تقدم سائق الشاحنة على الطريق، لم يلاحظ الأبواق والصياح من خلفه، فيما اندفع سليم إلى أحد الأزقة قبل أن يستطيع أحد ملاحقته. أشرقَت الشمس قبل أن يتوقف عن الحركة. مر بأماكن مألوفة، أول فندق نزلوا فيه، المطعم الذي اشتروا منه بعض الطعام يوم وصولهم ومحطة المترو التي استقل منها المترو ليستكشف أثينا. ظل على حذره. كانت هيئته مزرية، لم يستحم بشكل لائق منذ أسبوع. شعره ملتصق برأسه وملابسه متربة وممزقة. المبيت في مواقع البناء وعلى أرصفة الميناء ليس سهلاً.

روكسانا، عليه أن يصل إليها. إنها الشخص الوحيد الذي سيخبره بمكان أسرته وماذا حدث لجواز سفره. لكنه لا يريد رؤيتها وهو على تلك الهيئة. بحث عن حمام عمومي. غسل جسده في الحوض جزءاً تلو آخر وارتدى ملابس نظيفة. استقل المترو إلى أثينا، كان يوم عمل وقد تذهب روكسانا إلى ميدان أتيكي بعد مدرستها. ليست لديه طريقة أخرى للوصول إليها.

غادر المترو في أقرب محطة لفندق كاتارينو وسار على قدميه. أعصابه على حافة الانهيار. توقّع بنصف عقله أن يرى أمه أو سميرة. كانت زوجة المالك تخرج من المطبخ حاملة سلة خبز، عرفته على الفور.

«أهلاً» صاحبت مبتسمة.

اندفع نحوها .

«أرجوك، هل يمكنك إخباري، أمي... هل هي هنا؟»

«أمك؟» سألته مرتبكةً. «أمك ذهبَتْ، ليست هنا». لوَحَّت بيدها

نحو الباب.

تهدّل وجهه.

بالطبع لم تعدّ هنا، لقد مر ما يزيدُ على شهرٍ منذ أن تحدثت إليها. كان سعيداً من أعماق قلبه الأكثر نبلاً لسَماعه أنها ليست هنا حتى الآن. تمنّى أن يكونوا قد اقتربوا من إنجلترا.

سألته المرأة عن شيء، لم يفهمها ولم يستطع تجميع كلمات سؤالها عن شيء آخر. رفعت كتفَيها اعتذاراً وعادت إلى شأنها. عاد إلى ميدان أتيكي، وجدّ جمال وعبد الله، حكى لهما عن إعادته إلى تركيا وافتراقه عن أسرته. هزا رأسيهما تعاطفاً لكنهما لم يُدهشا. حين كان هنا آخر مرة كان يشعرُ باختلافه عنهم. بأنه أفضلُ منهم. ذهبَ كل هذا الآن. وحده، صار واحداً منهم الآن. يرى نفسه في وجوههم، في ملابسهم الرثة وأكياسهم البلاستيكية التي يحتفظون فيها بمتاعهم التافه.

بات ليلته في أتيكي، لكنه تذكّر قربه من صبور اللص، فدرّس نقوده في سرواله التحتي ولف رباط حقيبته حول معصمه. بعد الأيام والليالي الكثيرة التي قضاها وحده في أزمير، شعر براحة لوجوده وسط أشخاص يعرفهم ولسماعه مزاح الفتية واستفزاز بعضهم لبعض.

في اليوم الثاني بعد عودته. أراد أن يبحث عن طعام لكنه خشي أن تفوته رؤية روكسانا. أسند ظهره إلى جذع شجرةٍ يستمعُ

لعبد الله وهو يحكي عن طفولته؛ كيف كان يبصقُ بذور البطيخ في جدول الماء خلف بيتهم، ويخيف أبناءَ عمومتِه الصغارَ بحكاياتِ عن الجن. رسم عبد الله صورةً لأفغانستان لم يكن ليغادرها أحد أبداً. كان يستعيدُ الأشياءَ الجيدة فقط، يعرف سليم هذا جيداً. كلهم يعرفون هذا جيداً.

ثم جاءت! هبَّ ناهضاً على قدميه حين رأى «تيشيرتات» بنفسجية. انفجر عبد الله ضاحكاً وضربَ سَمَانْتِيَه.
«آه، السبب الحقيقي لعودتك! تظنُّها ستتقدُّك وتمنحك الحقَّ في اللجوء، صحيح؟»

«عبد الله، لا تقل هذا، الأمر ليس هكذا».

كان مرتبكاً. اقترب منه أربعة متطوعين، فحبس أنفاسه، رأى روكسانا تحمل صندوقاً كبيراً.. سار إليها، أراد أن يركض لكنه لم يرغب في لفتِ المزيد من الأنظار إلى روكسانا من أجل سلامتهما هما الاثنان.

ناداها باسمها بهدوء.

اتسعت عيناها دهشةً.

«سليم؟»

وضعت الصندوق على دكةٍ ووضعت يدها على ذراعه.

«سليم، أين كنت؟ ماذا حدث لك؟» نظرت إليه من أعلى إلى أسفل

بسرعة، فقد وزنه بشكلٍ ملحوظٍ خلال الأسبوع الماضي فقط.

«أأنت بخير؟»

«نعم، أنا بخير»، قال، واعياً لمُستها. توتّر جسده فتراجعت،

خفتت دهشتها، قاوم رغبتَه في عناقها ودفن وجهه في شعرها.

«أخبرني»، قالت وهي تجلس على درجٍ أسمنتيّ وتتطلعُ إليه
ليجلس بجانبها. سألها هو أولاً:

«روكسانا، أمي... أين ذهبت؟ هل استقلوا القطار؟»

غادروا في اليوم التالي لمحادثته أمه. ذهبت روكسانا إلى
محطة القطار وتعرفت عليهم مع أنها لم ترهم من قبل ورغم
عدم وجود سليم معهم. خمنت أنهم هم، حسبما قالت، من نظرة
وجوههم. بدوا كمن ينقصهم شيء ما... أحد ما. لم تخبره
بالكثير عن أمه، أخفت كيف بدت مادر جان حقاً بكلماتٍ بسيطة.
ساعدتهم روكسانا على ركوب القطار المتجه إلى إيطاليا، ثم لم
تعرف عنهم أي شيء بعد ذلك. كان ذلك منذ شهر.
«ألم يصلك شيء عنهم؟» سألته.

«لا.. أرجو أن يكونوا مع خالتي الآن». أجابها بتهيدة
«هل يمكنك الاتصال بخالتك؟»

لم يكن معه رقم هاتفها، لم يكن لديه لا الوقت ولا التفكير
السليم ليسأل أمه عن رقم الهاتف في محادثتهما الوجيزة
الأخيرة. ليست لديه طريقة للاتصال بأسرته ولا للعثور عليهم
حين يصل إلى لندن.

أرادت روكسانا أن تعرف كل ما حدث. أخبرتها مادر جان
بشيء ما عن الشرطة، لكنها لم تزدد عن هذا.
حكى لها سليم القصة كاملة وهي تستمع إليه بانتباه. عضت
شفتها وهزت رأسها وهو يصف كيف ظلوا يركلونه قبل إطلاق
سراحه في تركيا. شعر براحة أخيراً بعد التحدث عن هذا مع
شخصٍ مثلها، شخص يستمع دون أن يردد أنه كان يعرف أن هذا
سيحدث.

«سليم، هذا سيئ. عليك فعل شيء ما. لن يمكنك البقاء عالقاً هنا مثل هؤلاء الآخرين»، حذرته وهي تنظرُ إلى بقية الأفغان الذين يتجولون بلا هدف في المتنزه. «يجب أن تجد طريقة أفضل، ليت معك جواز السفر ذاك الذي أرسلته لك بالبريد، أنا واثقة من أنه سُرق، لا يمكنك الوثوق بوصول ظرفٍ لعينٍ حتى من هنا إلى هناك دون أن يفتشه أحد».

«لقد ضاع. عليّ أن أذهب إلى إيطاليا بلا جواز سفر، لن يكون الأمر سهلاً».

«لا، سيكون ذلك خطيراً جداً». فكّرت قليلاً، «ربما يمكنك الحصول على جواز سفر آخر. لكن... لكن هذا يتضمن أخطاراً قليلة».

«جواز سفر؟ من أين؟» نظر إليها بفضول. هل تعرف هذا النوع من المعلومات حقاً؟

«لكنه مكلف، جوازات السفر الأوروبية... مئات اليوروهات ربما»، قالت بصوتٍ غير واثق. «ربما أمكنني سؤال أحدٍ ما، ظني أنه سيعرف».

أخبرها بأن لديه مالا، كان جاداً بخصوص شراء أوراقٍ ثبوتية ويثق بها بشدة.

«ساعديني أجد ذلك الرجل».

«احتفظ بنقودك مخبأة جيداً سليم، لا تنطق كلمة عنها للفتية هنا»، حذرته وهي تشيرُ برأسها نحو الآخرين.

خطر له أن فتاةً مثلها يجب ألا يكون لها أدنى صلةٍ بميدان أتيكي، غابة الأسمنت والعشب، تحفها المباني والأشجار الساكنة

المخادعة. يرقدُ فيها الرجالُ العاطلون على فرشٍ من الكراتين.
بدت المنطقة كأفغانستان منكوبة أكثرَ منها بلدًا أوروبيًا مستقرًا.
كان عليها الركضُ بعيدًا عن هنا لكنها لم تفعل. أثار هذا فضوله.
«لماذا تفعلين هذا روكسانا؟» سألها بشرود. لم تقل شيئًا،
تركت سؤاله يذوبُ في الصمت بينهما.

نظر إليها. ماذا ترى؟ أترى ملابسَه أم شعرَه الملبد؟ أترى
صديقًا أم لاجئًا؟ لم يعرفَ ماذا يتوقع من أوروبا لكن بالتأكيد
ليس هذا. لم يتوقع أن يصيرَ مهددًا بالخطر في كلِّ خطوةٍ من
طريقه. لو كانت روكسانا تحاولُ إصلاح ما حدث له ولأسرته
حتى الآن فأمامها طريقٌ طويل.

أشار إليها أحدُ المتطوعين من بعيد، يريدون مساعدتها.
«سوف أسأل مَنْ أعرفُه عن جواز السفر». عادت نبرتها
الجادة العملية. «أين ستبيتُ الليلة؟ أتريدُ العودة إلى الفندق؟»
هزَّ رأسه. ربما هي هنا لأنه يجعلها تشعر بكونها محسنةً
ومعطاءة. ربما يتعلق الأمرُ بها هي فقط وليس له أدنى صلة به.
شعرَ بشيء ما مرَّ يضربُ جذوره بداخله مع أنه لا يعرفه ولم
يكن فخورًا به.
«لا. سأبقى هنا».

أومأت برأسها، وقفتُ ورفضتُ بنطالها بيديها. لم يعرف كم
مرةً سألتُ نفسها هذا السؤال، لماذا تُعنى بالمجيء إلى هنا؟
لماذا تُعنى بفعل شيءٍ واحدٍ للاجئِ واحدٍ في حين يوجد الآلافُ
منهم في طريقهم إلى هنا؟

كان يمكنها الابتعاد عنه. يمكنها وضعه في الفئة نفسها مع الآخرين. لكنها لم تكن تراه كما ترى الآخرين وكانت تعرف أنه صار مختلفاً بعد أن غادرت أسرته.

أسفت لأنها لا تعرف ما الذي حدث لأسرته. كانت قد راقبت القطار يخرج من المحطة لكن بعد تلك اللحظة، قد يحدث أي شيء لفريبا والصغيرين.. أي شيء.

فريباً

39

اصطحبتُ طفليّ من سكةٍ حديدٍ إلى أخرى، من بلدٍ إلى أخرى. عند كلِّ نقطةٍ تفتيشٍ، كلُّ هيئةٍ جوازاتٍ، أتوقّع القبضَ علينا. أسوأُ مخاوفي مثل أعلى آمالي، فراقُ طفليّ، أتساءلُ إن كان فراقُ سليمٍ أبدياً أم إنه الوحيدُ الذي قد يفلح. سميرةُ فتاةٌ صغيرة، توقيتُ خطرُ لتكونَ فيه وحدها، عزيز هشٌّ كزهرةٍ ستذبلُ سريعاً إن سقطت من غصنِها. أدعو في بعض نقاطِ التفتيش أن يُمنح أطفالنا حقَّ اللجوءِ حتى وإن أعادوني أنا من حيث جئت. في نقاطِ تفتيشٍ أخرى، أدعو أن يرسلوننا معاً. الأمهاتُ في المَحَن تخطرُ لهن أفكارٌ غريبة.

حين كانت الهجماتُ الصاروخية في الوطن على أشدها، كانت إحدى زميلاتي المعلمات تتخذُ قراراتٍ مخبولةً كلَّ ليلة. ذات ليلةٍ، أرقدت أطفالها معها وزوجها، جميعهم في غرفةٍ واحدة. ليلةٍ أخرى، جعلتُ كل طفلٍ ينام في غرفةٍ منفصلةٍ وحده. كانت كلُّ ليلةٍ رهاناً، أن ينجوا جميعاً أو يلقوا حتفهم معاً. أو يمكنهم الرهان على نجاةٍ واحدٍ أو اثنين منهم. كانت كلُّ ليلةٍ، بلا كلل، تدعو الله من صميم قلبها أن يأخذها إن أخذ أحداً من أطفالها. تلك دعواتٌ لا تُدعى إلا سراً لأنها إذا نُطقت قد تُسوّد اللسان.

في العام الأخير، فيما كنتُ أجاهدُ لمنح أطفالِي حياةً آمنة،
نما لديّ شعورٌ بأنني مجرمةٌ أكثر من أي شيءٍ آخر. حتى التقوى
أمرٌ غامض.

من اليونان إلى إيطاليا، من إيطاليا إلى فرنسا، نحنُ الآن في
المرحلةِ الأخيرةِ من رحلتنا، من باريس إلى لندن على متن قطارٍ
فضّي أصفر يبدو كصاروخٍ يمرقُ في نفقٍ تحت الأرض. هذه هي
الرحلةُ الأخيرة، أتركُ عزيز في رعاية سميرة وأجمعُ جوازات
سفرنا البلجيكية. أضعها في حقيبةِ يدي الجلديّة السوداءِ
وأخذها معي إلى حمّامِ عربّةِ القطار، مربعٌ ضيّق من الفولاذ
المقاوم للصدأ. أمزّقُ كلّ صفحة منها إلى قطعٍ صغيرة، واحداً
بعد الآخر، وألقي بها في التواليت كندفِ الثلج التي سنراها في
لندن. أمزّقها لأمحو هوياتنا المزورة. عدتُ فريبا مجدداً، عاد
طفلاي سميرة وعزيز مجدداً.

حذّرتني كلُّ مَنْ قابلتهم حتى الآن.

يجبُ ألا يروا أيّ جوازاتِ سفر. لا تخبريهم كيف وصلتُم إلى
هناك. قولي لهم إنكم تريدون اللجوءَ فحسب. أخبريهم لماذا
اضطرتتِ إلى الهروب. وكيف جاؤوا لأخذ محمود؛ ما حدث له
قد يكونُ الشيء الوحيدَ الذي سينقذك.

تفتيشُ الجوازات في لندن مختلفٌ تماماً عن أي جوازاتٍ
أخرى، هذه المرة سنكونُ صادقين وفي أشدّ حالتنا ضعفاً. ظللنا
حتى الآن، نتخفّى ونُخفّضُ رؤوسنا لنختبئَ كلما مررنا بشخصٍ
بزيّ رسمي، خلال أقلّ من ساعة، سيتغيرُ هذا.

ارتعشتُ يداي وأنا أقفُ بجوار التواليت أراقبُ القطعَ الصغيرة
تختفي تمامًا في دوامةِ المياه، استندتُ إلى الحائط، وأسندت
يدي إلى حافةِ الحوضِ المعدني. ملمسه باردٌ ومنعش.

المعدنُ في كلِّ مكان؛ القطارات، القضبان، المحطات. كلُّ
محطة وحشٌ من الفولاذ، شُيِّدتْ بعقلانية وبلعمةِ الحداثة.
الساحةُ، الممراتُ، الأسقف، هذا هو الفرقُ بين عالمِ الأفغان
وهذا العالم. هذا العالمُ يقفُ راسخًا ولامعًا وقادرًا. أما نحنُ
الأفغان فقد شَيِّدنا بيوتنا، وحتى أُسرنا، من الطين والتراب،
هشةٌ جدًا حتَّى ليسهلَ القضاءُ عليها بالعطس فقط. وقد حدث،
وما زالوا يعطسون، مرارًا وتكرارًا.

أريدُ حياةً لا تتسربُ فتاتًا من بين أصابعي، يومًا ما سأعود
إلى التراب لكن حتى ذلك الحين يجبُ أن أناضلَ أنا وأطفالي.
أفكّر في أبي، وحده في بستانهِ الداوي، ينامُ في غيضةٍ من
الأطلال العضوية، لا أعرفُ إن كان حيًّا أم ميتًا. مضى وقتٌ طويل
جدًّا منذ أن سمعتُ صوته. أعرفُ لماذا رفض الرحيل. لقد تعلمَ
أن يحب تحول كلِّ شيءٍ، قبولٌ نتمتعُ به فقط حين نقترُبُ من
نهاية الطريق. لا يعنيه إن حانتِ النهاية اليومَ أو غدًا، إنه على
استعداد للعودةِ إلى الأرض، من وإلى الأرض، سيظلُّ يتنفسُ ترابَ
البستان المتهالك كل يوم حتى تمتلئ به رثاه مثل ساعة رملية.
حينها سيتوقف الزمن.

يسهلُ عليَّ حبُّه من بعيد. من هنا لا أرى ضعفه أو فشله. لا أرى
سوى تلك اللحظاتِ البهيةِ حين نظر إليَّ كفتاته العزيزة الغالية،
حين تحدثَ عن أمي وجعلني أشعرُ بالكمال. بقية طفولتي...
حسنًا، ربما من الأفضل حقًا أن تتفتتَ إلى لا شيء.

نظرتُ إلى وجهي في المرأة، أبدو أكبر سنًا بكثير مما أتذكّر.
المسُّ جلدَ وجهي. خشنٌ. لكنني سعيدةٌ تقريبًا. لم أكن مخلوقًا
رقيقًا من قبل، كلُّ يوم يزدادُ جلدي سُمكًا وأجدني أفعل أشياء
لم يخطر على بالي قَط أنني سأفعلها، ولا حتى بمساعدة زوجي.
كلما ازددتُ خشونةً ازدادتْ فرصنا في النجاة.

تركتُ طفلي وقتًا طويلًا جدًا. أنا بحاجةٌ إلى هذه الدقائق مع
ذلك، يمكنني خلالها جمعُ أشلائي والعودة إليهما أمًا.
لكن الثواني تمرُّ وعليّ العودة إلى طفلي. اقتربت اللحظة التي
ظللنا ننتظرها.

سليم

40

بعد ذلك بنصف أسبوعٍ عادتُ روكسانا . حار سليم في ما يقوله لها . لم يكن مرتاحاً لطريقة انتهاء آخر محادثةٍ بينهما . تمنى ألا تلحظَ لمحة الحقد القبيحة بداخله . أجرت التوزيعاتِ المألوفة مع زملائها قبلَ أن تتجه إليه .

«هل يمكنكِ مقابلي في الملعب الذي بتَّ فيه مع أمك؟ في وقتٍ لاحقٍ الليلة، قرابة الثامنة مساءً؟» وافق سليم، همَّ أن يعتذرَ منها لكنها سارت في طريقها بسرعة، قبل أن يحاول فتح محادثةٍ أخرى، غادرت هي والمتطوعون الآخرون .

لم يرد تفويتَ مواعده معها، قضى الظهيرة يستمعُ إلى عبد الله وحسن يحكيانِ نكاتِ المُلَّا الأحمق نفسه التي حكيها آلاف المرات من قبل . واحدة عن المُلَّا واليقطينة، وأخرى عن المُلَّا وحمارٍ أعور . يعيش الأفغانُ السخريةَ من رجال الدين .

يرى الشبابُ وهم يسرونَ على ضفَّة النهر المُلَّا على الضفة الأخرى فيصيحون عليه: «يا رجل، كيف نعبُرُ إلى الجانب الآخر؟» فيجيبهم الملا: «أنتم حمقى؟ أنتم على الجانب الآخر بالفعل!»

ضحك حسن . الضحكُ على نكتةٍ ضحكَّت عليها من قبل في أفغانستان يعني تذكُّر الأوقاتِ الطيبة . كان في نكاتِ المُلَّا المملة تلك حينٌ حلُّوا إلى الوطن . وكان سيستمعُ بها أكثر لولا قلقه بشأن الوقت .

أدار ساعته حول معصمه. بالنظر إلى السماء، الساعة قرابة السابعة مساءً.

«يا شباب»، قال متثائباً وهو ينهضُ ببطء، أراح يديه على ركبتيه، قوَّس ظهره وأطلق نخرة صغيرةً إلى حد ما «ظهري متخشَّبٌ... ظني أنني سأسيرُ قليلاً في الأنحاء».

«أتريد السيرَ حقاً، إن شئتَ طلبتَ من سائقي توصيلك!».

ابتسم سليم مرغماً وأجابه: «المرّة القادمة ربما».

في الملعب، تدفَعُ ثلاثُ فتياتٍ أنفسهن على الأرجوحات، يمددْنَ أرجلهنَّ ويعدنَّها وهنَّ يملنَّ إلى الخلف. يتسلقُ صبيانٌ في سن المدرسة سلماً خشبياً ويعبرانِ نموذجَ جسرٍ. يراقبهم والداهم، يختلسانِ نظراتٍ جانبيةً إلى سليم.

أيقلقُهما؟ ربما سيُدْهشان إن عرفا أنّهما يُرعبانه.

جلس بظهره لهما متعمداً على دكةٍ بعيدة، وشرّدَ ببصره بعيداً في الأفق. فكّر في المغادرةِ والعودة حين يأخذانِ أطفالهما. لكنه لم يشأ المخاطرةَ بتفويت موعِدِ روكسانا. هي من تجعله يشعرُ بإنسانيته مجدداً ولم يكن ليستهينَ بهذا. توجدُ صحيفةٌ على دكةٍ قريبة. التقطها وعاد إلى دكته، يتظاهرُ بقراءة اليونانية.

جاءت أخيراً، وقفت خلفه دون أن تتطوَّق بكلمة. كان الأطفالُ قد غادروا حينها، أخذهم والداهم وهما يحدجانه بنظرةٍ أخيرة. جاءت متأخرة، ربما تعرفُ أن سليم سيظلُّ في انتظارها طوال الليل.

«سليم».

التفتَ لسماعهِ صوتها. لماذا يشعرُ بشيءٍ ما خطأً في لقاءهما على هذا النحو؟ لماذا يشعرُ بإحراجٍ شديدٍ من هذا؟ شيءٌ ما سرِّي في الزمانِ والمكانِ.

«هاك، جرِّب هذا»، قالتُ وهي تناوُلُه لفةً ورقٍ شمعي. جلستُ بجواره على الدكة.

«ما هذا؟» سألتُها وهو يفضُّ اللفة.

«كباب.. أمي تعد كباباً رائعاً. أردتُك أن تتذوقه أنت أيضاً». انزلتُ في جلستها على الدكة، أزاحت الصحيفةَ وجلست بجانبه. الكبابُ لا يزال دافئاً، سال ريقه لمذاق اللحم الأحمرِ والتوابل. «تعلمتَ قراءة اليونانيةِ إذن، صحيح؟»

ابتسمَ وهو يمضغُ اللحم. ذابت القضمَةُ الأولى في فمه بمذاق أفضل من أي شيءٍ يمكنه تذكره.

«هل أعجبك؟»

«ممم، طعمُه كال... كالوطن». لعقَ شفَتَيْه وأغمضَ عينيه. «شكراً لك!»

ضحكتُ.

«على الرحب. حمّنتُ أنك ستستمتعُ به»، قالتُ.. «أردتُ أن أتحدث معك لأرى إن كان لديك أيُّ أفكارٍ بشأن الوصول إلى أسرتك، أتعرف؟»

تهدّد. «لا أعرف».. لا يزالُ جزءٌ منه يحملُ ألمَ وكدماتِ الرحلة من أزمير.

قالت: «لقد سألتُ من أعرفهم ولا أحد منهم يعرفُ شيئاً عن إصدار أوراقٍ ثبوتية، ظني أنهم يخشون إخباري، أنا آسفة جداً سليم، كنت أتمنى أن أساعدك».

شعر بالإحباط، لكنه صار معتادًا على هذا الشعور.

«أعرف أنك تحاولين، لا بأس، عليّ إيجاد طريقةٍ أخرى».

نال منه العمل في المزرعة، والحياة في الشارع والجوع والضرب. لم يكن جسده ينمو بقدر ما يتقدم في السن تحت الضغط. إنه متأكدٌ من أن هذا ما تراه روكسانا حين تنظرُ إليه. «لديّ فكرة، كنتُ أفكر في خالتك وزوجها. حين تصلُ إلى إنجلترا، أين ستذهب؟ إنها بلدٌ كبيرٌ وقد تنوّه فيها بلا عنوان. أخبرني بأسمائهما، ربما يمكنني مساعدتك في العثور عليهما؟ سأبحثُ على الإنترنت، لا أعدك بشيء لكنّ المحاولة جيدةٌ على الأقل».

«ستحاولين؟».. مسحَ الدهن عن شفّتيه بالورق الشمعي.

«خالتي في لندن، يعيشون في شقة».

أخرجتَ قلمًا وورقةً من حقيبتها، «اكتب لي أسماء خالتك وزوجها وأبنائهما. اكتب كلَّ شيء وسأرى ماذا سأجد».

«خالتي اسمها نجيبة، إنها أخت أمي، زوجها حميد حيدري، وهو قريبُ أبي. هذه هي الأسماء التي رأيتها في الخطابات التي أرسلها لنا في أفغانستان».

«جيد»، قالت وهي تضعُ الورقة في حقيبتها الصغيرة، «وشيء

آخر سليم».

أي شيء، فكر في نفسه، لتجلسي هنا وتواصلِي الكلام فقط.

كان يسرّه الاستماعُ إليها، رؤية شفّتيها تتحركان، مشاهدتها وهي تبعد خصلات شعرها عن وجهها، ورمش أهدابها.

«أعرف أن العيشَ في أتيكي ليس سهلاً». كلمة أتيكي مرادفٌ جيدٌ لكلمة الشارع. «وفكرتُ في أن... أردتُ فقط القول إنه لو شئتُ، يمكنكُ المجيء إلى بيتي نهاية هذا الأسبوع لتستحمَّ جيداً. ففكرتُ أن هذا قد يجعلك بشعورٍ أفضل».

أشرقَ وجهه. التفتَ لينظرَ إليها مباشرة تحت ضوءِ مصباح الشارع، رأى وجهها يحمّر.

«سيكونُ أبي وأمي خارجَ المنزل فترةً من الوقت خلال العطلة الأسبوعية. إن شئتَ يمكنكُ المجيء مدة ساعةٍ لتحظى بحمامٍ دافئ». تساءل إن كان عليه قبولُ عرضِها. لن يعرفَ والداها شيئاً عن زيارته. ماذا لو عادا إلى البيت فجأة؟ هل يستحقُّ الأمرُ المخاطرة؟ نظرَ إليها مجدداً. استدارةٌ شفيتها التامة، التمردُ الهادئ في عينيها، نعم، بالقطع يستحقُّ المخاطرة.

أجابها: «هذا كرم شديد منك، نعم من فضلك». أومأتُ وأشارت إلى بنايةٍ في نهاية الشارع. أخبرته أن يبحثَ عن مظلةٍ خضراء أعلى الواجهة. عليه الذهابُ يوم السبتِ ظهرًا. كتبتُ رقمَ الشقة على ورقةٍ أخرى وناولته إياها، نهضتُ لتفادر.

«تأخرَ الوقت». استدارت له مجدداً، كأنها تذكرتُ شيئاً. «سليم، لن نخبرَ الآخرين في أتيكي بشيء، أليس كذلك؟ نحنُ... أعني متطوعي المنظمة... ليس من المفترض أن نتواصل مع... يجبُ أن يقتصرَ عملنا على أتيكي فقط. هل تفهمُني؟»

أوما لها برأسه. لم يكن لديه أدنى نية المشاركة في هذا مع الشباب في أتيكي. النفسُ السيئةُ تصطاد دائماً في المياه العكرة وهذا تحديداً هو ما ستجذبه إلى السطح.

راقبها تعدلُ حزام حقيبتها الصغيرة وتسيرُ مبتعدة. لم يستطع
إبعاد نظره عن التمايل المتناغم لشعرها وردفها، أنوثة رقيقة.
السبتُ بعد ثلاثة أيام. رقد في أتيكي ليلاً، يتخيل نفسه يسيرُ
إلى بيت روكسانا. أغمض عينيه وراح يحلم.

في حلمه، كان في الحمام، ينهمرُ الماء الدافئ على وجهه
وكتفيه. يشعر جلده بانتعاش. جمع الماء في يديه المتكورتين
وشرب. جفف نفسه بمنشفة، خرج إلى غرفة كبيرة وخالية،
مظلمة إلى حد أنه لم يرَ جدرانها. اقتربت منه روكسانا بينطالها
الجينز الذي يحتفي بكل ثنية يافعة. ابتسمت، لمست كتفيه
المبللتين ومسحت قطرات الماء عن صدره، جذبتة إليها.

استيقظ فجأة. هبَّ ينهضُ جالساً. كان الظلامُ حالكاً. تذكر
أنه في أتيكي على سلم مبنى قديم وعبد الله على مقربة أقدام
قليلة منه يشخر. كان حلمًا، راوده الشعورُ المألوف وغيرُ المريح
مع ذلك بالاستثارة، انتظر أن يبارحه.

لكنه حينها أحسَّ بشيءٍ ما آخر.

رأى حين اعتادت عيناه على الظلمة قامةً ممتلئةً لرجلٍ يجثم
عند قدميه. ميّز سليم من خيال الظل أنه صبور.

«ماذا تريد؟» صاح فيه فجأة.

«لا بد أنك كنت تحلم حلمًا جيدًا». همس صبور بلؤم.

اعتدل سليم في جلسته. امتدت يده بسرعة إلى جانبه ليتأكد
من وجود نقوده في أمان. كان قد لفها في قطعة قماشٍ ودسها
في سرواله التحتي، أأمنُ مكان أمكنه التفكير فيه. شعر بكتلتها
في حقوه.

«ماذا تريد؟» سأله مجدداً.

واصل عبد الله شخيرَه بلا انقطاع.

انبعثت من صبور رائحة عرقٍ قديم. شعر سليمٌ بيدهِ السمينهِ على ذقنه، ثم انزلتْ إلى ركبتهِ. جعلته لمستُه يهب واقفاً. وقف الاثنانِ أمام أحدهما الآخر.

«أردتُ أن أتأكدَ من أنك تتألم جيداً فقط، يا فتاي العزيز»، قال صبور ضاحكاً. «يمكنك الآن العودةُ إلى أحلامك وسأعود إلى أحلامي أنا أيضاً».

راقبه سليم وهو يبتعدُ بهدوءٍ في الظلام، بين متاهةِ الأجساد، عائداً إلى خيمته المرتجلة.

استحال النومُ بعد ذلك. حدَّق في الظلام يصيخُ السمع لصوتِ خطوات. لعنَ عبد الله لنومه طوال الوقت. ظل يفكرُ منذ متى وصبور هنا؟ هل وضعَ يدهُ عليه وهو نائم؟

جعله هذا الخاطرُ عصبياً وخائفاً. لقد سمع عن سرقاتِ صبور ولا شيءٍ أكثر من هذا. كان الأمرُ مخيفاً حتى تخيل أنه من نسج خياله. لكن حتى تحت عباءة الظلام، كان حقيقياً، حدث لتوّه وجعل جسده يقشعر.

ثقل جفناهُ عند الفجر، في الأمان النسبيِّ لضوءِ النهار، كان من الصعبِ مقاومة إغماضهما.

استيقظ عبد الله ليجدَ سليم يطرّفُ بعينه ببطء.

«ماذا؟ هل استيقظت بالفعل؟ صباح الخير يا صديقي! مرحباً بيوم جديد في أتيكي. أتمنى لو كان بإمكانني تقديمُ إفطار لائق لكنني لن أفعل لتحظى بالخبرة الأتيكية الحقيقية»، قال عبد الله ساخرًا.

سليم، بوجه متجهم، عاوده صحوه فجأة؛ زال نعاؤه سريعاً
بالحاجة إلى مشاركة أحد في ما حدث الليلة الفائتة.
«عبد الله، حدث شيء غريب ليلة أمس».. قال بتوتر، ليس
متأكدًا من ردة فعل صديقه. ربما بدا الأمر كله مختلفًا.
«هذا ليس غريبًا في الحقيقة، هذا يحدث للجميع. مرحبًا
بك في عهد الرجولة يا فتى». جلس عبد الله ومد ذراعيه أعلى
رأسه.

«اسمعي لدقيقة، أيمكنك هذا؟ لقد استيقظت في منتصف
الليل وكان صبور يجلس هناك، عند قدمي مباشرة». أشار سليم
إلى المكان الذي وجد فيه صبور جاثمًا.
«ابن الحرام، كان يحاول سرقة أشياءنا!» التفت عبد الله حوله
وبحث عن كيسه البلاستيكي الذي يحتوي على أشياءه. ارتاح
حين وجد كل شيء في مكانه.

«لا أعرف لماذا كان هنا، لا أظنه كان يسرق أي شيء، كان
يتصرف... كان يتصرف بغرابة».

«بغرابة؟ ماذا تقصد؟»

«أقصد أنه... حسنًا، حين استيقظت كان... كان جالسًا هناك
فحسب يراقبني». فرك الضباب عن عينيه، يصعب عليه صياغة
الكلمات. «ثم لمس رجلي».

اعتدل عبد الله في جلسته، تجهّم وجهه بقلق.

«لمس رجلك؟ لماذا لم توقظني؟»

هز سليم رأسه. لا يعرف لماذا.

«لقد سألته مرتين ماذا يريد وظننت أن هذا سيوقظك لكنه
نهض ولا أعرف ماذا فعل».

شعر سليم بقذارة استثنائية هذا الصباح. كره وجوده على مسافة ياردات قليلة من صبور.

سكت عبد الله، فرك عينيه بخشونة وأخفض صوته قائلاً: «كان هنا ولدٌ صغير الشهر الماضي. أتذكره؟ طفلٌ صغير في سن المدرسة، كان معه أخوه الأكبر. عموماً، استيقظ هذا الولد ذات ليلة مذعوراً كأن الجن يلاحقه، حين استيقظنا في الصباح كان يتقيأ. حين حاول أخوه التحدث معه، أخذ يصرخ بأعلى صوته. لم تكن لدينا أدنى فكرة عما حدث له لكنني لاحظته ينظر في اتجاه صبور مرتين. وكان صبور ينظر إليه ببرودٍ لم أراه قط. أربني، حقاً. بعد ذلك بيومين، ركض الولد في شارع مزدحم وصدمته سيارة. لقي حتفه هناك على الطريق».

هزَّ عبد الله رأسه للذكرى.

«كانت مصيبة، جن جنون أخيه تماماً بعد ذلك، جاءت الشرطة وأخذته دون أن يقول أحدنا شيئاً. لم يكن ليعيش طويلاً بحاله التي كان عليها»..

أطلق عبد الله تهيدة عميقة.. تُزعجه الذكرى.. «لا أعرفُ ماذا حدث لكنني منذ ذلك الحين وأنا أتساءل إن كان لصبور صلةٌ بالأمر. كان الولد ينظر إليه نظرة غريبة حقاً. وبدا صبور على الجانب الآخر كأنه يُسكته بنظرته فقط».

شعر سليم بحلقه ينقبض.

جلس عبد الله بركبتيه مضمومتين إلى صدره. تنقر قدمه اليمنى بالإيقاع المتسارع لقصته.

«يكفيننا سوءاً احتجازُنا هنا لكن أن نُحتجَرَ معه، رحمتك يا الله. سأحذِرُ حسن وجمال على الأقل. إن رحنا نخبرُ الجميع لا ندري ما قد يفعلُهُ هذا الحيوان. علينا أن ننتبهَ لأنفسنا جيداً سليم، وأحدنا للآخر. هذه هي الطريقةُ الوحيدةُ للنجاة في مكان كهذا».

أوماً سليم برأسه، إنه بحاجة إلى وسيلةٍ لحماية نفسه. أدرك الآن أنه وحده وبلا دفاعاتٍ حقاً. في الأشهر السابقة لاختفائه كان بادر جان يحتفظ بسكينٍ تحت مرتبته. ظن أن طفليه لم يلاحظا لكن سليم رآها وتساءلَ ممَّ يخافُ بادر جان ليخاف منه هو الآخر. لكنه، بامتياز الطفولة، كان يستطيعُ إغماض عينيه مطمئناً لأن أباه سيدافعُ عنهم ضدَّ أي شيء. ربما تلك هي اللحظةُ التي يكبرُ فيها الطفل، فكَّر، حين لا تعدُّ سلامتك مسؤولية أحد غيرك.

عليه الانتباهُ لنفسه الآن، كما قال عبد الله.

سيعثرُ على سكينٍ مثل بادر جان. سيجد شيئاً ما ثقيلًا ومميتًا، ليس للزينة.

كان بإمكانه النوم لكنه سار مبتعداً بدلاً من ذلك، شق طريقه بين المحلات في السوق، تفقّد نوافذَ العرض وتجوّل في محلاتٍ قليلة تبدو واعدة. وجد سكاكين مطبخٍ قليلة، وخنجرًا عتيقًا بغمدٍ معدني مزخرفٍ، ومطواةً عليها العلم اليوناني. لا شيء من هذا سينفعه.

في محلٍّ صغيرٍ في أحد الأزقة، وجد ما يبحثُ عنه تحديداً. كانت نافذةُ العرض مكدسةً بأشياء، وتبشّر بالفوضى في الداخل.

كان هناك ماكينةُ خياطةٍ وكرسيٌّ وكتبٌ مكدسة، وأدواتُ طبخٍ وملابسُ أطفالٍ وحذاءٌ عملٍ برقبةٍ عاليةٍ وكرةٌ أرضيةٌ قديمة. دخل، أعلن رنينُ جرسٍ عن دخوله. لا بد من وجود سكينٍ معقولةٍ في مكانٍ ما في هذه الكومة من الأشياء. كان محققًا. صاحبُ المحلِّ رجلٌ كبيرٌ في السن بنظاراتٍ بإطاراتٍ سلكية، يُمسكُ مفكٌ براغي مصغرٍ في يده ويحرّكه داخلَ ساعةٍ عتيقةٍ برزت دواخلها وانتشرت على السطح الزجاجيِّ أمامه. يقبعُ خلفه صفٌّ من الساعاتِ القديمة بمختلف الأعطال، أمّا سليمٌ للرجلِ وراح يتجولٌ بين ثلاثةٍ ممراتٍ ضيقة.

صحونٌ أعلى وسادات، ترموس محاطٌ بأجهزةٍ كاسيت، نظاراتُ قراءةٍ مُستخدمةٍ بجوار صندوقٍ لمبات. لا منطقٌ ولا زمنٌ في هذا المحل. ظلت عيناه تمسحانِ المكانَ حتى وقعتا على رفٍّ سفلي، وجد أسفلَ كومةٍ من مفارش المائدة مقبضًا برونزيًا مدفونًا. سحبه سليمٌ ووجدَهُ خنجرًا في جرابٍ برونزي مزخرف. سحبه من الجراب ووجدَ النصل بطول ستِّ بوصاتٍ مبقّع بالصدأ. كان قديمًا ومهملاً. مع ذلك كان أجملَ من أيِّ سكينٍ رآها سليمٌ من قبل.

هذا بالضبط ما يريده، لمس النصل بحرص. شعرَ بقوةٍ ورهبةٍ وهو في راحته. لا يزال الطرفُ حادًا بما يكفي ليحزَّ إصبعه وهو يضغطُ عليه. أعاد الخنجرَ في غمده وعلّقه عند خصره. يناسبُ بنطالَه الجينز، ثقيلٌ لكن يمكنُ إخفاؤه. عاد إلى العجوز فوجدَهُ لا يزال مشغولاً بتروس الساعةِ القديمة.

«أريد أن أشتري هذا من فضلك، كم ثمنه؟»

رفع العجوزُ بصره، نظاراته تكادُ تسقط عن طرفِ أنفه، نظر إلى الخنجرِ ثم إلى سليم.

«عشرونَ يورو»، أجابه وعادَ إلى ساعته. تلملَّ سليم في وقفته يفكر في ما يمكنه دفعه.

«مستر، سأعطيك عشر يوروهات، لا مشكلة.»

«عشرون يورو.»

«مستر أرجوك، عشر يوروهات.» رفع الرجلُ بصره مجددًا لينظر إلى سليم جيدًا، خلع نظاراته ووضعها على المائدة. «ثمانية عشر.»

سكت سليم قليلًا، تذكر ليلة أمس واليد التي لمست ركبته. «خمسة عشر، أرجوك»، قال أخيرًا.. تنهد الرجلُ وأومأ برأسه. مدَّ راحته وسليم يعدُّ نقوده، دسَّ سليم المقبضَ في حزام خصره. همَّ بمفادرة المحل لكنه توقفَ وسأل الرجل: «مستر، هل تصلح هذه الساعة؟»

«ممم»، كان صاحب المحلِّ قد عاد بالفعل إلى عمله ولم يعن برفع بصره.

«هل لك... هل لك أن تنظرَ إلى ساعتِي؟»

ارتفع رأسُ الرجل حين سمعَ كلمة ساعة. مدَّ يده، فكَّ سليم رباط ساعة عن معصمه بسرعةٍ ووضعها في راحة الرجل. قلبها الرجل، هزَّها برفق وقربها من أذنه. غمغم بشيء ما وبحث في سلة بلاستيك حتى وجدَ الأداة المناسبة. فتح ظهر الساعة وأخرج مجموعةً من التروس الرقيقة، لمس التروس برقة ونكزها ونقرها. أجزاء الساعة صغيرة جدًا، لم يستطع سليم

رؤية ما كان يفعله. بعد عدة دقائق، أغلق الرجل ظهر الساعة مجدداً، قلبها وأعاد ملأها.

ثم أعادها وقد عادت إلى الدوران إلى سليم بفتور قائلاً:
«إنها سليمة الآن، يمكنك ضبط الوقت».

أخذ سليم الساعة، قفز قلبه فرحاً وهو يرى عقرب الثواني يدور، ساعة أبيه تدور مجدداً!

«شكراً لك سيدي! شكراً جزيلاً لك! شكراً!» مال سليم على المنضد وأحاط بذراعَيْه صاحب المحل المذهول.

«نعم، نعم»، ابتعد الرجل عن ذراعَيْ سليم ولوّح له بيده بصرفه. انطلق سليم مجدداً بمعنويات مرتفعة ووجد قطعة قماش خارج محل ملابس لفّ بها مقبض الخنجر وربطه حول خصره، ثم عقدها بإبزيم حزامه ليثبت الخنجر مكانه.

إلى يساره طريق يؤدي إلى الفندق. نظر إلى يمينه توجداً لافتات تشير إلى سوق الأطعمة التي سرق وجباتهم الأولى منها. عض شفته ندماً حين تذكر كل ما سرقه. لن يكرر هذا أبداً، أقسم على هذا.

على الرجل، كما فكر، أن يكسب عيش أسرته بشرف. صار من الضروري ألا يشعر باليأس ولا بكونه مجرماً.

ثمّة شيء آخر عليه فعله من أجل لمّ شمل أسرة حيدري. كانت أمّه ستحدّره من التسرع في هذا لكن عدم وجود مجال للأراء الجريئة أو الرومانسية هو تحديداً ما جعله يقرر، في ومضة فكر واحدة، أن يتجه شرقاً. لم يكن ليناقدش هذا الأمر معها في جميع الأحوال. ربما كان البقاء مفلساً ما منحه الجرأة

ليتصرفَ بشكلٍ غيرِ عقلاّني.

استمعَ إلى تكاتِ ساعتهِ المُطمئنِّة، فابتسمَ راضيًا عن خطتهِ
وتحركَ بخطواتٍ واثقة.

سليم

41

«أسرع». قالت روكسانا وهي تمسكُ مرفقه. «لدينا جيرانٌ يدسّون أنوفهم في كلّ شيء».

دخل سليم إلى بيتِ روكسانا متوتراً. لم يمكنه تخيّل ما قد يحدث إن عاد والدّها إلى البيتِ ليجدَ لاجئاً أفغانياً يجلسُ في غرفةِ المعيشة. غمغم قائلاً: «ربما يجبُ أن...»
«لا بأس، ادخلْ فقط».

أغلقت البابَ بعد أن ألقت نظرةً أخرى سريعةً إلى الرواق لتتأكدَ من أن أبوابَ الشققِ الأخرى كلّها مغلقةٌ. اطمأنت وقادتهُ من الردهة إلى غرفةِ المعيشة.

جالت عيناه في الغرفة، مسحها كلها في نظرةٍ واحدة. أرائكُ بيح أنيقة تحيط بطاولةٍ واطئةٍ بلون القهوةِ عليها عدة كتبٍ. على الحائط صورٌ فوتوغرافية قديمةٌ معالجةٌ بحبر السبيدج. تضيئ ستائرُ الكتانِ في خلفية الغرفة شعوراً بالهدوء. شقّتهم في حجم بيتِ آل حيدري في كابول تقريباً لكنها تبدو أكثر حداثةً وأوسع بكثير.

قالت روكسانا: «خرجَ والدي فترة الظهيرة فقط، لذلك علينا أن نسرّع، أردتك أن تستخدم حماماً لائقاً فحسب».

صوتها مختلفٌ، ليست هادئةً كعادتها. بل تتململُ وتتنظر بعيداً. لم يكن متأكداً إن كانت قلقةً لوجودها معه وحدهما أم تخشى عودةَ والديها مبكراً على نحو غير متوقع.

«روكسانا، ربما سأغادر...»

«لا»، قالت مدركةً سوء ترحابها، أخذت نفساً عميقاً وبدأت مجدداً: «لا بأس. كلُّ شيء بخير». ابتسمت، استعادت رزانتها. انبهر سليم وحسدها بينه وبين نفسه، شعر أن قلقه يهزمه هو. قادتُه من غرفة المعيشة إلى رواقٍ ضيقٍ وأشارت إلى باب قائلة: «هذا هو الحمامُ وهاكُ منشفة، يوجدُ في الداخل شامبو وصابون.. سأنتظركُ في الغرفة الأخرى، حسناً؟»

كان أكثر من ذلك، كان رائعاً، لم يرَ مثل حمامهم من قبل. جعلت الجدرانُ الصفراءُ بلون الليمون الحمامَ ساطعاً ومبهجاً. الحوضُ إناءٌ زجاجيٌّ مثبتٌ بالجدار. على رفٍ وحيد يوجد صفٌّ من الأواني الخزفية الصغيرة بلونٍ أخضرٍ داكنٍ يبرز من كلِّ منها فرعٌ صغير من زهورِ أنفاسِ الطفل. وللدوش بابٌ من الزجاج المصنَّف.

شعر سليم بحرجه وغرابتِه في أجمل حمامٍ رأته عيناه. أدار الصنبورَ، خلع ملابسه ووضع خنجره وحافظته على بنطاله الجينز. دخل تحت الدوش وترك الماء الساخن يغمره. تكونت عند المصرف دوامةٌ قاتمة، ظل يدعكُ جسده حتى سال الماء منه نظيفاً. غسل شعره ثلاثَ مرات ثم أغلق الصنبورَ على مضض. وقف لحظةً، الحمام دافئٌ ومعبأً ببخارِ الماء.

الماء، ففكر في تقدير جديد، خيرٌ بالتأكيد.

جفف نفسه بالمنشفة، ارتدى ملابسه وخرج إلى الرواق. إلى يساره أبوابٌ فرنسية نصفُ مفتوحةٍ تؤدي إلى غرفة مكتب. في منتصفِ الغرفة مكتبٌ خشبيٌّ كبيرٌ منحوت بلون كرزي. جوانبُها الثلاثة مشغولة بأرفف خشبية باللون الكرزي نفسه ومكدسة بالكتب، كتبٌ كثيرة جداً! ذكّرتُ سليم حين أخذه والدُه إلى عمله في إدارة الماء والكهرباء. زارا حينها مكتبة الإدارة التي كانت مكدسةً بكتبٍ سميكة بصفحاتٍ مهترئة وأغلفةٍ مترية. كان سليم على علم تام بأنهم لن يسمحوا لولدٍ في الخامسة من عمره بالتجول بين صفوفِ الكتب، وبأن هذه الحقيقة أكثرُ أهميةً من أي كتابٍ في المكتبة الضخمة.

لسنوات بعد ذلك، ظل والدُه يضحكُ وهو يذكّره بأهم جزءٍ من ذلك اليوم.

«ثم جاء كبيرُ المهندسين وسألك إن كنتَ تحبُّ أن تعمل في مبنى كهذا حين تكبر فأجبتُه: لا سيدي، أمي تفضبُ أحياناً لأنها تقول إن أبي يتوه بين الكتب. ولا أريدها أن تفضب مني أيضاً.»

تعجّب سليم من كيف لم يمل بادر جان من تذكّر ذلك التعليق الطفولي البسيط. لكنه، في جزءٍ منه هو الآخر، لم يكن يمل من سماعه.. عاد إلى الحاضرِ بتهيدة.

لا بدّ أن هذه غرفة مكتبٍ أبيها، ففكر.

تقدم في الغرفة ثلاثَ خطواتٍ لينظرَ عن قربٍ إلى الكتب المرصوصة بدقة حسب طول كعوبِها. لمسَ جاكثات الأغلفة الملساء. كثيرٌ منها بالإنجليزية، وبعضها باليونانية. توجد كتبٌ

عن الطب والفلسفة، مما فهمه. استدار إلى الرف خلف المكتب، جذبَ شيءٌ ما في الرف السفلي نظره؛ حروفٌ فارسية على كهوبٍ صف كامل من الكتب.

انحنى ليلقي نظرةً أفضل. بالطبع، عناوين مثل «أفغانستان، تاريخ أمة»، «أفغانستان: الإمبراطورية المنهارة»، «مختارات من الشعر الأفغاني». لماذا لديهم كتبٌ كثيرةٌ هكذا عن أفغانستان؟ هل يتحدثُ والد روكسانا الدارية؟

تذكر حين كان الفتيةُ في أتيكي يلقون بتعليقاتٍ ساخرةٍ، وبذيئةٍ أحياناً، بشأنها، نظراتها الباردة التي كانت تسدُّها نحوهم، كأنها تعرفُ ما يقولونه تقريباً. نظر حوله في المكتب، مرتبكاً. على رفٍ آخر في الغرفة يقبع تمثالٌ صغير، لا يزيد طوله عن خمس بوصات، نسرٌ منحوت من حجر اللازورد اللامع، حجرٌ أفغاني لا تخطئه العينُ تماماً مثل البراقع الأفغانية ذات اللون نفسه. «هل انتهيت؟» قالت روكسانا وهي تقفُ على عتبة الباب.

استدار سليم متفاجئاً وخجلاً من تجاوزه.

«آسف، فقط رأيت الكتبَ وأردت أن أرى... يوجدُ كثيرٌ جداً لكن... روكسانا، أبوك، هل يتحدثُ الدارية؟»
«ماذا؟!» تفاجأتُ بشكل ملحوظ.

«توجدُ كتبٌ كثيرةٌ عن أفغانستان بالدارية، وهذا الطائرُ، هذا الحجرُ من أفغانستان. لماذا...؟» تعثرتُ أفكاره نصفُ المتضحة وهو يحاولُ فهمَ الأمرِ كلّه. «أمي. هل تحدثتِ مع أمي؟ هل تتحدثين أنتِ الدارية؟ أبوك... هل عملتِ في أفغانستان؟»

هزّت رأسها، تنهدتْ وابتسمتْ بارتباك.

«هيا سليم، إن أبي... أبي لم يعمل في أفغانستان»، صوتها

همس حانق.

«لماذا إذن...»

«لقد عاش هناك، وُلد هناك، أبي أفغاني!».

سقط فكّه. نظر إليها وهو يضيّق عينيه، كأنه يراها للمرة

الأولى. إن كان أبوها أفغانياً، فستكون هي الأخرى...

«نصف أفغانية نصف يونانية»، أوضحتْ وإحدى يديها على

صدرها. «أمي يونانية، جاء أبي إلى هنا في شبابه لدراسة الطبّ

لكنه أكمل على نحوٍ مختلف. تزوج أمي وظلّ هنا منذ ذاك الحين.

تعلمتُ منه بعض الدارية، ليس بقدرٍ كبير لكنّه يكفي للمحادثة».

صَفَّق بيديه وأشرق وجهه بابتسامة.

«أنتِ أفغانية!» صاح بالدارية، تنزلقُ الكلمات من لسانه بلا

مجهود. «عرفتُ أن ثمة شيئاً ما بشأنك! كنتُ فقط لا أعرفُ ما

هو! ألهذا تفعلين ما تفعلينه؟ لكن والدك، في الغالب لن يعجبه

وجودك مع فتیانِ أفغان، خصوصاً أمثال...»

أنقذته من قول ما لم يستطع قوله.

«والدي لا يعرفُ كيف أقضي وقتي. لن يعجبه الأمر، لكن

ليس للأسباب التي تظنّها تحديداً. الأمرُ أكثر تعقيداً من ذلك،

أنا لا أخبر أحداً لأنني أعرفُ أن الأمر سيُسببُ مشكلات. أريد

أن أساعدَ لكن يمكنك أن تتخيلَ كم سيكون الأمرُ صعباً لو عرف

هؤلاء الصبية أن أبي أفغاني».

تفهم ذلك تمامًا. طالما ظلت يونانيةً، سينظرون إليها طبقًا للمعايير اليونانية فقط. لن يحكم الرجال في أتيكي على ملابسها وسلوكها بالمعايير الأفغانية. لكن إن عرفوا أنها أفغانية، لن يتسامحوا معها كثيرًا. وإن تسامحوا، فقد يحاولون ملاحظتها. قد يحاولون التقرب إليها لشتى الأغراض الخاطئة. مجرد تخيل هذا جعله يرغب في إبعادها عن أتيكي.

«أنت محقة، لن أقول شيئًا».

«شكرًا لك. لنأكل شيئًا ثم نغادر».

تبعها إلى المطبخ حيث كانت قد سخنت فطيرةً سبانخ رقيقة، وبعض الدجاج المدخن، وشيئًا ما بأوراق خضراء. أكل حتى كاد بطنه ينفجر. ضحكت حين رأته يميل إلى الخلف وينخر بتعب.

«كيف كان الطعام؟ يبدو أنك استمتعت به».

«أوه نعم، أعجبتني جدًا! أكلت ما يكفيني لثلاثة أيام»، أجابها ضاحكًا وهو يربت على بطنه.

«جيد. الآن دعني أنظف الأطباق ثم سنغادر. يمكنك الانتظار في الغرفة الأخرى إن شئت».

«لا، أريد أن... سأبقى معك، سأساعدك». قال بخجلٍ لمعت عيناها وراحا معًا يحوان آثار غدائهما السري. ثم أخذت روكسانا سترتها وخرجت.

«اليوم سنذهب إلى أكروبوليس، هل ذهبت إلى هناك من قبل؟»

«أكرو... ماذا قلت؟!»

«أكروبوليس»، قالت ببطء. «اتبعني. سأريك».

في هذا اليوم الوحيد، كان سليم سائحًا، سائحًا مفتونًا
بمرشدته الخاصة. تجولًا في شوارع أثينا المزدهمة ومناطقها
بمختلف نكهاتها حتى وصلا إلى أسفل السلم المؤدي إلى
أكروبوليس، أطلال قديمة أعلى تلة تُشرف على منظرٍ خلّابٍ
لأثينا. كان قد رآه من بعيد لكنه لم يغامر بالاقتراب منه مطلقًا.
اليوم، حدّثه روكسانا عن معبد أثينا، كيف تغيّر عليه الحكم
كثيرًا على مدار التاريخ، وكيف حكّمه العثمانيون في وقتٍ ما.
أرتّه المسرح الروماني وشرحت له كيف كان مركزًا مجتمعيًا ذات
يوم.

كان مذهولًا.. جلسا يستريحان على جدارٍ واطئٍ يشكّل سورًا
للمبنى، ركل بقدمه حجرًا بشرود.

«فيم تفكر سليم؟»

«مم؟ أوه. أفكر في أن هذا المبنى قديم جدًا، منذ سنواتٍ
كثيرة، لكنه يبدو أفضل من أحدث مبنى في كابول».
ما أراد قوله إن ألفي عام من السلام قد تزول في شهرٍ واحد
من الحرب.. فهمته روكسانا.

قالت: «نعم، حسنًا، البشرُ بارعون تمامًا في تدمير الأشياء،
الأشياء الجيدة».

قال: «كابول في حالةٍ مزرية حقًا، الجميع يُغادرون.. حتى في
كابول، يعيش الأفغان لاجئين». نظر إليها سريعًا ثم عاد ينظر
إلى الأرض وأضاف: «هذا كل ما يراه الناس حين ينظرون إلى
الأفغان».

«سليم»، قالت برقة.. «أنا لا أرى لاجئاً حين أنظرُ إليك، بل أرى صبيّاً يجبُ أن يكونَ في فصلي الدراسي، نتبادلُ الكتب ونلعب معاً رياضاتنا المفضلة، ونجلسُ معاً في المقهى.. أراك أنت.»

لمستُ أصابعها يده وعصرتها بشكلٍ خاطفٍ قبل أن تتركها.

سألها: «هل يفتقدُ والدك أفغانستان؟ لقد ظلَّ بعيداً عن الوطن مدةً طويلة جداً، لا أعرف، ربما سأعودُ يوماً ما، أحياناً أفتقد بيتي.»

«لا، أبي لا يفتقدُ أفغانستان. إنه يحبُّ وطنه لكنه يقولُ إن أفغانستان مثل امرأةٍ جميلة جداً إلى حدٍ ليس في صالحها، لن تأمنَ أبداً، حتى من شعبها. لقد غادرها حين كانت الحياةُ لا تزالُ طبيعيةً لكنه صار مختلفاً على ما أظن. بعد الحرب، قال إنها لم تعد البلد نفسه. إنه يستمعُ للأخبار ويتحدثُ مع عائلته هناك لكن هذا يُحزنه أكثرَ فحسب.»

«لكن أن تُقيمَ فترةً طويلة جداً في بلدٍ مختلفة... لا يوجدُ مسجدٌ للذهاب إلى الصلاة فيه...»

«مسجد؟ إن والدي ليس رجلَ دين. إنه يرى أن الناسَ يدمرون الدين وأن الدينَ يدمّر الناس.. يقول إنه يؤمنُ بالله لكنه لا يؤمنُ بالناس.»

ربما كان أبوها محقاً، لكن سليم لم يسمعَ من قبل عن أفغاني لا يعتبرُ نفسه مسلماً.

سألها كيفَ تعلمتِ التحدثَ بالدارية.

«من أبي وجدتي. عاشتُ معنا سنواتٍ قليلة قبل وفاتها. أبي يحبُّ اللغةَ والشعرَ. الأشياء الأخرى هي ما تفتقرُ قلبه، ظنني أنه

سعيدٌ هنا في اليونان لكنني أحياناً... أحياناً أجده يقرأ كتبه أو ينظرُ إلى صورٍ قديمة. ظني أن قطعةً من أفغانستان ما زالت في قلبه وهي ما تُحزنه».

نهضتُ ونفضتُ الترابَ عن بنطالها الجينز. لم تحبذ مناقشة أفكار والدها مع سليم. «تأخر الوقت»، قالت تغيّر الموضوع. «عليّ العودةُ إلى البيت».

كان يخشى من هذا، لحظةً أن تتركه.

«روكسانا، شكراً لك... على كل شيء، كان يوم جميلاً». وقف وعلّق حقيبته على كتفه.

«على الرحب والسعة». أجابته وتوجّها ليهبط السلم، يحاولان ألا يفقد أحدهما الآخر في زحام السائحين والمرشدين السياحيين الذين يتحدثون بمختلف اللغات. حين وصلا سفح التلة، التفتت إليه فجأة قائلة: «شيء ما آخر، أخبارٌ جيدة لك»، أخرجت من حقيبتها ورقةً صغيرة. «ظنّني أنني وجدتُ عنوانَ خالتك في لندن!» اتسعت عيناه.

«وجدتُ اسمَ زوجها على الإنترنت. ظنّني أن هذا هو العنوان، لم أجد رقمَ الهاتف لكن على الأقلّ ستعرفُ إلى أين تذهب حين تصلُ إلى هناك».

أخذ منها الورقةَ وحدّقَ مذهولاً في الرقمِ واسمِ الشارع المكتوب فيها. شعر بأنّه اقتربَ من أسرته بشكلٍ مؤكد، منحه روكسانا وجهةً حقيقية.

«روكسانا، لقد ساعدتني. وساعدت أُمي. شكراً لك حقاً».

بدا على حافة البكاء، تلممت ونظرت بعيداً، مرتبكة.

«أراك لاحقاً».. قالت وهي تضغط على كتفه برفق: «انتبه لنفسك سليم».

عاد إلى أتيكي مجهداً من يومه سائحاً. بدأ عبد الله يغيظه ما إن رآه. إذ بدا منتعشاً بسبب الاستحمام رغم ملابسه الرثة نفسها.

«حسناً، حسناً، حسناً، أهذا هو سليم أم نجم سينمائي؟ حفل زفافك اليوم أم ماذا؟ كيف صار شعرك نظيفاً هكذا؟» عبث بشعر سليم ليتأكد جيداً، مال سليم برأسه وابتسم.

أجابه كاذباً: «وجدت زجاجة شامبو، أخذتها وذهبت إلى حمام عمومي ودست رأسي في الحوض، كان يجب أن ترى كيف كانوا ينظرون إليّ هناك».

«بالتأكيد سينظرون إليك!»

جاء الليل. تكوّر أغلب الشباب في الأركان لينالوا قسطاً من الراحة. كان سليم وعبد الله وحسن وجمال في ركن واحد، رصوا كراتينهم جنباً إلى جنب، دواعي الأمن أهم من الخصوصية. القاعدة التي يفهمها الجميع هنا ضمناً. ظلّ صبور بعيداً طوال اليوم وبدا مرهقاً حين عاد. كان أول من أوى إلى ركنه أسفل شجرة.

جيد.. فكّر سليم بينه وبين نفسه. نم فحسب ودعنا وشأننا.

حلم بروكسانا مجدداً. كانت تسير في حديقة مع مادر جان وسميرة وعزيز. كان عزيز يسير، خداه سمينان وورديان، قدماه المقوستان بالكاد تلاحقان سيرهن. كنّ يضحكن ويثرثرن. كانت

سميرة سعيدةً جدًا، يدها في يد روكسانا. ثم التفتت روكسانا إليه بعينين تلمعانِ بفرام.

استيقظ فجأةً. ظلامٌ حالك. لم ير أي شيء. توترت حواسه كلها. شم رائحةً ما... عرق؟ حاول أن يثبت تمامًا. لم يسمع شيئاً ولم ير شيئاً.

أنت تتخيلُ أشياء.. قال لنفسه، عُد إلى النوم.

أغمض عينيه يتمنى أن يعاوده حلمه. حين أوشك على السقوط في النوم، شعر بيد على فخذه. انتفض مرعوباً. كتمت يدٌ أخرى فمه. أمسك معصم اليد بكلتا يديه يحاول إبعادها عنه لكنها كانت قويةً وصلبةً. أنفاسٌ ساخنةٌ في أذنه.

«اثبت يا فتاي العزيز. اثبت. اهدأ فقط وسنكون أصدقاءً جيدين». كان يعبثُ في إبزيم حزام سليم. حاول سليم التملص من قبضته لكن وزن صبور الثقل كان كفه عليه. بالكاد يمكنه التنفس. «اهدأ وإلا ستندم».

لا، لا، لا حاول إزاحة اليد عن فمه وأنفه. ساقاه تركلان دون جدوى، حاول إزاحتها بيديه لكنها كانت ثقيلةً وراسخةً. لا، لا، لا انقلبت معدته حين امتدت اليد الأخرى إلى خصره.

مدَّ يده إلى جانبه وعبث حتى وجد المقبض أسفل ظهره. ظل يحرك يده حتى شعر بالمقبض يستقرُّ بين أصابعه أخيراً. كان بالكاد يرى خيال الظل أعلاه لكنه يشعرُ بالأنفاسِ القذرة على وجهه.

أمسك المقبض، وبحركة واحدة، نزع النصل وطعن الكيان المظلم أعلاه. سمع شهقةً وتراجع الكيان عنه. ابتعدت اليد عن

فمه، وانسحبت الأخرى من بين فخذيه.

«دعني! دعني! دعني!» صاح سليم بصوت عالٍ.

رأى الكيان يتحرك، يترنح وهو يبتعد في الظلام. كان الآخرون

قد استيقظوا.

«ماذا يحدث؟»

«من يصرخ؟ هل الجميع بخير؟»

«ماذا يحدث هنا؟»

كان سليم واقفًا على قدميه. اعتادت عيناه الظلمة، ميّز قامته

صبور وهو يبتعد مترنحًا، ممسكًا جانبه الأيسر. شعر سليم

بأحدهم يمسك ذراعَه فقفزَ متراجعًا.

«هيي، هيي، سليم! إنه أنا، عبد الله! ماذا حدث؟»

ماذا حدث؟ ليس متأكدًا. أكان هذا حقيقيًا؟ ماذا فعل لتوه؟

شعر بخدرٍ، ودوارٍ. نظر إلى أسفل ورأى السكّين، ما زالت في

قبضته المحكمة.

«أوه ربي، أوه ربي. أوه ربي.» كادَ يجن «لقد كان هنا! كان جاثمًا

علي!»

«هيي، إنه صبور! لقد جرح صبورًا» صاحت الأصوات في

الظلام.

«إنه ينزف!»

«ماذا حدث له؟ من فعل هذا؟»

كان عبد الله واقفًا بجوار سليم. أخرج من جيبه قداحة

وأشعلها. لمع النصل الصدئ في يد سليم. سقطت قطرة دم من

طرفه.

«هل طعنته؟» همس عبد الله مذهولاً.

«أنا... أنا... كان جاثماً عليّ! كانت يداه...»

واصلت الأصوات البعيدة الصياح، كانوا مرتبكين ومرعوبين.

«لقد جُرِحَ، ليفعل أحدٌ ما شيئاً!»

شعر سليمٌ بأصابعه رطبةً ولزجة، نظر إلى يده اليمنى.

«سليم، توقّف! أين تذهب؟ سليم، انتظر!»

ظَلَّتْ قدما سليم تضريان الأرض وهو يركضُ في الشوارع الجانبيّةِ الصغيرةِ وينعطف يميناً ويساراً في الأزقة الضيقة. تعثر وسقط على حصى الشارع في الظلام. لا شك في الدم الذي جفّفه الهواء الآن على يده اليمنى، يشعر به، يشمُّ رائحته، الرائحة المعدنيّة للحياة؛ تذكر منغن، حين رأى شقيقَ العروس، ملابسه الدامية ووجهه يتلوّى الماء.

تمنّى أن يُلقى بنفسه بين ذراعيّ أمه، أن يدفنَ وجهه في كتفها ويسمع صوتها الهادئ يخبره أنه فعل الصواب. تمنّى لو كان أبوه نائماً بجواره، لم يكن صبور ليجرؤ على الاقتراب منه. لكنه كان ممتناً لأن أحداً من والديه لم يكن معه في تلك اللحظة، ليرى ابنه، هارباً ليلاً، ويدها ملطّختانٍ بالدم.

وضع سليم الإبريقَ الألومنيوم على الموقدِ المرتجل. طوبُّ مرصوصٌ على شكلٍ مربعٍ واللهبُ الصغير في منتصفه. مقبضُ الإبريق ساخنٌ ويزدادُ سخونةً، تلعقُ ألسنةُ اللهبِ قاعَه المسودَّ. اقترب من النار، برودةُ الهواء اليوم تحديداً تجعلهُ يشعر بسترته خفيفةً.

مكتبة

t.me/soramnqraa

بدأ الماء يغلي.

«هل غلا؟» صاح علي من الداخل.

أجابه سليم: «نعم، للتو». خرج علي ونظر إلى الإبريق، فتح كيسَ شاي وأسقطَ نصفَه في الإبريق بحرصٍ شديد. «ارفعه الآن من فوق النار، سأجلبُ الخبز لنتناول إفطارنا. يبدو أنها ستمطرُ اليوم. ما رأيك؟»

شد سليم كُمه على يده واستخدمه ليُمسك مقبضَ الإبريق. تجاهل تعليقَ علي الأخير، إذ ظلَّ يرددُه كلَّ يومٍ خلال الأسبوعين الماضيين، بغض النظر عما تبدو عليه السماء بالفعل. لم يلحظ سليم الأمرَ في اليوم الأول، لكنه في اليوم الثاني، حين كانا في الداخل وزخاتِ المطر تضربُ بالفعل المشمَعَ أعلاهما، وتبأ علي مجدداً بأنها ستمطرُ اليوم، ظنَّه سليم يمزحُ، لكنه حين التفتَ إليه رأى وجهه متجهماً ومتأملاً.

كان علي في سنّ سليم تقريباً لكنه أقصرُ منه بكثير. تعرّف عليه سليم حين وجدَ مخيم اللاجئين الأفغان في باتراس وانجذبَ إليه تحديداً لأنه بدا صغيراً وهادئاً. كان من «الهزارة»، قومٌ مختلفون عن قومِ سليم. لو كانا في كابول لشكّل ذلك فرقاً كبيراً، لكن في مخيم اللاجئين بباتراس، حيث الجميعُ يأكلون وينامون في القذارةِ نفسها، الأمرُ لا يهم كثيراً.

كان مخيمُ اللاجئين في باتراس مختلفاً تماماً عن ميدان أتياكي الذي يعتبر ركناً مهماً من المدينة، محددًا بالمباني وعلى مقربةٍ أمتارٍ قليلة من الحياة العادية. أما باتراس فكانت مدينةً من العِششِ الصغيرة، أفضلَ من أتياكي بشكلٍ ما وأسوأ بشكلٍ آخر. بدلاً من الكراتين في أتياكي، تُستخدمُ هنا البطاطينُ الخفيفة وعرباتُ التسوّق جدراناً وأسقفًا. حتى أن أحدهم فتحَ صالونَ حلاقةٍ مُرتجل، إذ وجدَ كرسيًا ومقصدًا. يستخدمُ البعضُ المشمّعَ الثقيلَ سقفًا حين لا يجدون موادَّ أخرى أكثرَ صلابة. والمئاتُ ممن يعيشونَ هنا، أغلبهم أفغانٌ إلى جانبِ بعض الروم والأفارقةِ التائهين، يصنعونَ مواقدَ صغيرةً من الطوب والحجارة لإعداد وجباتٍ بسيطة. كانت ظروفُ السكن أفضل، لكنّ المخيمَ أكبرُ ويشدّ انتباهَ المناطقِ المحيطة به أكثر. كان وصمةً عارٍ في جبين المدينة، مكانٌ يتجمع فيه النازحون واللاجئون في حالٍ من البؤس والقذارة، لم يعرفِ اليونانيون ماذا يفعلون بباتراس، هل يسوّونه بالأرض أم يطوّرونه، لأن اللاجئين سيعودون إليه حتمًا. المفترضُ أن باتراس محطةٌ انتقالية. حتى قبل الأفغان، كان لاجئون آخرون يصلون إليها في طريقهم إلى إيطاليا وبقية

أوروبا. من المعروف أن بها طرقًا كثيرة للتسلل إلى إيطاليا،
إما بالشاحنات، أو بسفن الشحن. سليم جزء من هذا التاريخ
المشترك.

كان قد غدا رحالةً مخضرمًا حين وصل إلى باتراس. قضى
فيها أشهر الآن، بالتأكيد مرّ عيد ميلاده في وقت ما لكنه كان من
الصعب أن يعرف ومن الأصعب أن يهتم. تفتشت حساباته للأيام
والأسابيع خلال أسفاره.

يجب أن أغادر باتراس.. فكّر وهو يراقب الشاي يترسّب،
يرشح اللون العنبري من الأوراق في الماء الساخن.
عاد بذهنه إلى أتيكي، كما يفعل أحيانًا كثيرة في النهار
وعلى نحو لا مفرّ منه ليلاً. تذكر ليلته الأخيرة هناك، ويدّ صبور
المعروقة على فمه، وذهول عبد الله حين رأى السكين، وركضه
ليلاً ليبتعد عن هناك بأقصى ما يمكنه. غسل الدم عن يديه
المرتعشتين وتكوّر على نفسه في أحد الأزقة حتى طلوع الصبح.
لم يودّع أحدًا، ولا حتّى روكسانا. لم يهتم بالعودة لأخذ حقيبة
ظهره، لم يكن بها سوى ملابس إضافية قليلة. استقلّ أول باص
استطاع إيجادَه إلى باتراس، حيث لم يصعب عليه العثور على
مستعمرة اللاجئين.

تساءل إن كان صبور قد ظلّ حيًا، لم يكن تساؤله لأنه قد يندم
على قتله، بل لأن الأمر يغيّر تعريفه لنفسه. أكان الجرح سطحيًا
أم مميتًا؟ سيظلّ السؤال بلا إجابة. رغم ابتعاده عن أفغانستان،
ظل ملاحقًا بالحرب والدماء. اللاجئين لا يهربون من مكان واحد
فقط، عليهم أيضًا الهرب من أنفسهم ومن آلاف الذكريات مرارًا

وتكراراً حتى يمضي وقتٌ كافٍ ويقطعون مسافةً كافيةً بينهم وبين
بؤسهم. حينها، يمكنهم الاستيقاظُ على يوم أفضل.

كانت لياليه عذاباً، يستيقظ كثيراً ويرى ظلالاً، عادَ إلى
طفولته، إلى الوقت الذي ينمو فيه المخُّ بما يكفي ليشكّل من
الظلام مخلوقاتٍ وأخطاراً. قلقه يزدادُ ويشعرُ بشخصيته تتغير.
كان الناسُ إما يستفزونهُ أو يخيفونهُ، نادراً ما يمكنهم فعلُ شيءٍ
آخر.

«أرأيتَ ساقَ وحيد؟» سأله علي.. «لقد خيَّطوها كجِوال أرزٍ!
ظلَّ يعرُجُ في الأنحاء ويخبرُ الجميع أن الجرحَ لا يؤلمه لكنني
سمعتُ أنه بكى كالطفل وهم يخيَّطونه».
«نعم، رأيتُهُ».

كان وحيد قد تعرّض للملاحقة وهو يحاولُ التعلُّقَ بإحدى
الشاحناتِ المتجهةِ إلى إيطاليا. جرح السورُ المعدنيُّ الذي
اضطُرَّ إلى القفز عليه قصبَةً ساقه. اعتنى به طاقمُ إسعافٍ تابع
لمنظمة إنسانية لها مركزُ خدمةٍ قريب من المخيم. لم تكن حالة
وحيد فريدةً من نوعها.

«أتعرفُ في أيِّ يوم نحن؟» سأله علي.. «إنه دا محرم.. ظللتُ
محتفظاً ببعض السكر والأرز لهذا اليوم. سأعدُّ «شيربرينج»
الليلة. وسنصلي جماعة».

دا محرم هو الذكرى السنويةُ لاستشهادِ حفيد النبي محمد
في معركة. تحتفلُ عائلةُ علي بهذا اليوم، مثل أغلب العائلات
الأفغانية، بإعداد الشيربرينج أو حلوى الأرز، وتوزيع الطعام على
الفقراء، والصلاة.

«اليوم؟ حقاً؟» كان الوعدُ بالشيربرينج أهمّ من الحدثِ نفسه. سال ريقُ سليم وهو يتذكّرُ طراوةَ وروعةِ الحلوى التي كانت تعدّها مادر جان، وعليها بعضُ الفستقِ المطحون، وكيف كانت تذوبُ في فمه. سأل علي: «أتعرفُ كيف تعدّه؟»

بالفعل، يعرفُ علي جيداً جداً كيف يعدُّ حلوى الأرز. تناولوا الشيربرينج تلك الليلةَ مع ثلاثةِ شبابٍ آخرين يعيشون في عِشّةٍ مجاورة. تجمّعوا في الداخل، يضحكون ويغيظُ أحدهم الآخر. قضوا دقائقَ قليلة في الصلاة. لم ينلُ أحدٌ منهم أكثر من ملاعق قليلة لكنها كانت كافيةً لتحلية أفواههم.

«تعرفون ما يقولون؟» قال علي مازحاً.. «حتى أقدم نعلٍ نعمة كبرى في الصحراء».

بعيداً عن هذا الاحتفال، كان سليم منطوياً على نفسه. لا يهتمُّ كثيراً بتكوين صداقات هنا. ظلّ هادئاً ويستمعُ. لكلِّ شخصٍ في المخيم قصةٌ لكنه لم يحبّذُ حكي قصته. ليس من شيم الرحالة عقد علاقات مزيفة، أخبر نفسه.

تذكّره باتراس بأزمير على شواطئ اليونان. نقطة خروج فيها السبلُ المخادعةُ نفسُها للوصول إلى البرّ التالي. حاول كثيراً التسلل إلى الشاحنات لكنه فشل فشلاً ذريعاً وكاد يُلقى القبض عليه. ظلّ يُراقب المتشردين الآخرين وحاول الاستفادة من أخطائهم.

ظل طوال الوقتِ يحتفظُ بوسيلتي حمايته حول جسده، نقوده وخنجره. يحرصُ ألاّ تراهما عينُ مخلوق ويحتفظُ بهما في متناول يده حتى وهو يستحمُّ في منطقة الاستحمام المرتجلة. كان يرمقُ

الجميع بنظراتِ الشك. مع ذلك كان بحاجةٍ إلى المأوى الذي يوفرهُ المخيم وكان علي الطيّب خيرَ شريكٍ سكن له في تلك الظروف. يحبُّ علي التحدُّثَ ونادرًا ما يطرحُ أسئلةً. كان اتفاقًا مناسبًا.

كان سليم يتوق إلى المغادرة قبل أن يحدث أي شيء. حتى أفراد الطاقم الطبيّ اليوناني كانوا عُرضةً للملاحقة في النزاع المتصاعد لنقدهم الحكومةَ علانية. كان اللاجئون على حافة هاوية. ازداد وجود الشرطة لتوقيفهم وسؤالهم عن أوراقهم. كلُّ يوم تكررُ لليوم السابق. يستيقظُ ويتحسُّ نقوده وسكّينه، يقوم بجولةٍ على المخارج محاولًا العثورَ على فتحةٍ يمرُّ منها إلى إيطاليا.

الصباحُ مجددًا، سمع علي سيرُ في الخارج ويقضي حاجته خلف عُشّتهما، ثم عاد مبتسمًا.

«استيقظتُ؟ صباحُ الخير. رأيتُ حلمًا جيدًا ليلة أمس. كنا نسير، أنا وأنت، في تلك الشوارع ذات المباني الكبيرة، مثل التي في الأفلام. حولنا أناسٌ في كلِّ مكان يرتدون ثيابًا فخمةً ويقودون سياراتٍ فارهةً. سألناهم عن تلك البلد وخمّن ماذا قالوا... أمريكا! أتصدقُ هذا؟ ظنّيتُ أنك لو سرتَ مسافةً كافية، ستصلُ إلى أمريكا في النهاية، صحيح؟» قال علي ضاحكًا.

«انسَ أمريكا».. غمغم سليم بعينين ثقيلتين بالنوم. «يصعبُ علينا بما يكفي الوصولُ إلى إيطاليا».

«حقيقي».. قال علي ضاحكًا. «اليوم لا يبدو مناسبًا للسير وقتًا طويلًا في جميع الأحوال. يبدو أنها ستمطرُ اليوم». فتح البابُ مجددًا، أخرج رأسه منه ونظرَ إلى سماءٍ ساطعةٍ زرقاء.

لم يرغب سليم في التلكؤ في هذا الصباح الباكر. أسرع يغتسل بماء بارد بسبب هواء الليل. كان المخيم حياً مهلهلاً، عشش لصيقة بعضها ببعض. تتدلى حبال الغسيل من عشة إلى أخرى كخيوط العنكبوت. لم يكن فيه إمدادات حقيقية للكهرباء أو الماء لكن بعض اللاجئين استطاعوا توصيل ماسورة مياه من مبنى سكني قريب. فكانت ماسورة مياه وحيدة تمد المستعمرة كلها بالمياه بشكل متقطع يتقبله اللاجئون بسرور.

عاد إلى الميناء والرقصة المعتادة للشاحنات والسفن والركاب. شاهد قليلين يحاولون الهرب، يقيسون الأسوار المعدنية ويقتربون من الشاحنات بحرص، يتفحصون هياكلها بحثاً عن موطن قدم، يحركون المقابض ليروا إن كان بإمكانهم الصعود إلى المقطورات. نظر حوله، على مسافة أمتار قليلة منه توجد ثلاث شاحنات في صف واحد ولا يوجد سائق واحد في مجال الرؤية. دفعته قدماه دفعا ليَجْرَبَ حظه.

مسح بعينيه المنطقة مجدداً، جعلت إمكانات اللحظة دقائق قلبه تتسارع وحلقه يجف. اندفع يعبر الشارع ويقفز من أعلى السور، على أرض الجانب الآخر. هرول إلى الشاحنات المتروكة. عدد قليل من شباب المخيم هناك، يفكرون في أفضل السبل للصعود إلى شاحنة.

حاول أحدهم فتح قفل إحدى المقطورات. انزلق اثنان منهم أسفلها بالفعل ليتفقدوا هيكلاها. شاهد أقدامهما تتدلى على الأرض وهما يستعدان للرحلة القصيرة على متن سفينة الشحن.

مال برأسه إلى الأسفل ليرى بماذا يتشبّثان. رأى فتى في مثل سنّه تقريبًا، بالحكم من شاربه. وجهه أحمرٌ وهو يجاهدُ لرفع جسده كله عن الأرض. التقط نظرةً سليم فقال: «ابتعد يا أخ، لا مكانٌ سوى لشخصٍ واحد هنا!»

أوماً سليم برأسه متفهمًا. نظر حوله يبحثُ عن شاحنةٍ أخرى، جحر فأر آخر يزحفُ إليه، لكنه لم يجد. خائبو الأمل، عاد هو وأربعةٌ آخرون إلى السور.

«الشرطة! الشرطة! اهربوا يا شباب!» صاح صوتٌ مذعور.

استدار سليم فرأى عربةً شرطةٍ قادمةً على الطريق. أسرعوا في ركضهم وقفزوا من أعلى السور بأسرع ما أمكنهم، توقفت السيارة على مسافةٍ يارداتٍ قليلةٍ وانفتح باباها، ترجل منها ضابطان.

قفز سليمٌ مع الآخرين، تألم كاحلاه من السقطة، هب واقفًا وركض في اتجاهٍ مختلفٍ عن الآخرين. تفرّقوا جميعًا، ألقى الشرطيان القبض على شابين بعد مطاردتهما بفتور لأمتار قليلة. بقدرٍ ما يثبتُ قوة الشرطيين فقط. انعطفَ سليم في أحد الشوارع ليختبئَ خلف سلةٍ قمامةٍ أمام بنايةٍ سكنية، يلهث، صدره يتحرّق.

بعد مضي عشر دقائق عاد سيرًا إلى المخيم. كان علي يجلسُ خارجَ العشةِ مع أربعةٍ شبابٍ آخرين، على دلاءٍ وصناديقٍ من الخشبِ الرقائقى مقلوبة.

«أين كنتَ يا سليم؟» صاح علي.

«كنتُ في الميناء»، أجابه وهو يجلسُ مع الآخرين. لم يُدهش أحد. لا يمكنهم الذهابُ إلى مكانٍ آخر في باتراس، خصوصًا مع العداءِ المتزايد نحوهم.

«حظٌ سيئٌ، صحيح؟» كان قد قابلَ هؤلاء الشبابَ من قبل لكنه لا يتذكرُ أسماءهم، أكان هذا فريد؟ أم فيصل؟
«نعم. جاءت الشرطةُ وهربنا».

هز حارسُ رأسه. كان في الثلاثينياتِ من عمره، من كبار السن حقًا في مجتمع القاصرين هذا. آراؤه مختلفة قليلًا عن الآخرين. «أيمكنك لوْمهم؟ ألا ترى المخيم؟ لقد ظللنا لاجئينَ وقتًا طويلًا لكن ليس بما يكفي لننسى كيف يجبُ أن تبدو المدينة حقًا، الناس لا يريدون النظرَ من نوافذهم لرؤيةِ هذا المنظر». ساد صمت. كان حارس محققًا، لكن الغضب أفضل. الاستياء شعورٌ يوحد بين اللاجئين، تشعر أفضل حين تجلس مع الآخرين وتتفقُ معهم، لديكم عدوٌّ مشتركٌ وكفاح واحد. تشعر أفضل حين يفهمك آخرون. منطلق حارس لن يمنحهم القوة التي يحتاجون إليها للمواصلة.

نظر علي إلى السماء وقال: «يبدو أنها ستمطرُ اليوم حقًا».

«ماذا بالله عليك بينك وبين المطر!» انفجر سليم كزجاجة كوكاكولا مرجوجة.

حوّله الحديثُ عن المخيم ومحاولة الهروبُ من الميناء هذا الصباح إلى قبيلةٍ انفجرتُ في وجه علي في تلك اللحظة. «طوال الوقت، كل يوم!»

ساد صمتٌ، أدهش انفجاره الآخرين. جمد وجهه علي وظهرت عليه بقع حمراء. ندم سليم على كلامه على الفور لكن بعد فوات الأوان، نظر في الأرض، خجلاً من النظر إلى وجه علي. وقف علي وذهب إلى الداخل.

«أنت لا تعرف شيئاً عنه، أليس كذلك؟» سأل حكيم بنبرة تأنيب.

رفع سليم بصره.

«أليس لديك أي احترام لشابٍ شارك في سكنه؟»

«لم أقصد...»

«أتريد أن تعرف ما حدث له؟ كان علي يسكن في شارعنا في كابول. كان هو وأخوه خارج البيت حين نادتهما أمه ليعودا إلى الداخل. أخبرتهما أن السماء قد تمطر وأن عليهما الدخول. أطاعها أخوه ودخل، وظل علي في الخارج. قال إنه سيجد آخرين ليلعب معهم، ثم ركض بعيداً في الشارع، حينها سقطت الصواريخ على بيتهم مباشرة، قتلت أسرته كلها. عاد ركضاً ليجد أخاه يترنح وهو مشتعل بالنيران ويسقط على الأرض في الشارع. حاول إخماد النار لكنه لم يستطع.

«كسره هذا. صار كل ما يتذكره تحذير أمه له بأن السماء قد تمطر. لا يسمع سوى صوتها يتردد في رأسه مراراً وتكراراً. ظني أنه يتمنى لو كان قد عاد إلى البيت وسُحق مع أسرته تحت تلك الصواريخ بدلاً من العيش بذكرى رؤيتهم يموتون.»

حدق سليم إلى الأرض. وجهه يتحرق بالندم.

«لذا دعه وحديثه المجنون لشأنه.»

«لم أعرف أنه...»

«بالطبع لم تعرف. لكن أتظنُّ أن أحداً هنا لديه قصة سعيدة؟»
لاذ سليم بالصمت. وقف حكيم وتتهَّد ببيأس. وقف الآخرون
أيضاً وإنما لسبب مختلف، بدأ زحامٌ ما يتجمّع بالقرب منهم.
شبابٌ يهرولون ويصيحون وينادون الآخرين.
شعر سليم بغربةٍ شديدة في تلك اللحظة.
«ماذا يحدث؟» صاح حكيم. مكتبة سُرْمَن قرأ
«نادوا أكبر»، صاح أحدهم. «إنه نعيم! لقد قتل في الميناء
اليوم! إنهم يعيدون جثته!»

لم يكن أكبر مُلاً حقيقياً، لم يدرس الدين رسمياً، لكنه كان أحد الكبار في المخيم ويتمتع بسمعة جيدة لحفظه سور القرآن، والأهم من هذا وذاك نبرته الهادئة المقنعة التي تسد فجوات مؤهلاته.

حين أعادوا الجثة إلى المخيم، أدرك سليم أن نعيم هو الفتى الذي كان أسفل الشاحنة وأخبره أن يبتعد.

كاد نعيم يصل إلى السفينة بالفعل قبل أن يفقد قبضته وينزلق تحت الشاحنة. في الغالب أصابه دخان العادم بالدوار. شعر سائق الشاحنة وهو يقودها نحو السفينة بارتطام بشع تحت إطاراته وصياح أصوات من بعيد. صرخ السائق نفسه صرخة تجمد الدم في العروق حين وجد جسد نعيم المضرج بدمائه تحت إطاراته الملطخة بالدماء.

رأى الأفغان القليلون الذين وقفوا يراقبون من بعيد الفتى وهو يسقط ويتدحرج تحت الإطارات. كانوا بعيدين تماماً فلم يسمعهم سوى أن خروا على ركبهم وصاحوا باسم الله. حين وصلوا إلى الشاحنة، لم يكن بوسعهم سوى جمع جسده.

تدلى جسد نعيم بلا حياة، يحمله رجلان. بدأت التفاصيل البشعة في الاتضاح وهما يقتربان. كان وجهه وجسده قرمزين بكدمات مربعة. تدلى مرفقه الأيسر بشكل غير طبيعي.

أشاح سليم ببصره بعيداً . شعر بمعدته تنقلبُ وأغمض عينيه .
سار ببطء، ثم بسرعة، ثم ركضَ إلى المراحيض في ركنٍ خارجِ
المخيم . أفرغ معدته مرةً، وثانيةً، وثالثةً . تنفّسَ بعمق وتذكّر
النظرةَ العازمةَ على وجه نعيم، كاد ينجحُ .. كاد .

أصدر أكبرُ التعليماتِ، سيُدفنُ نعيم مساء اليوم نفسه . السرعةُ
ضروريةٌ طبقاً لقواعد الإسلام وكذلك للقلق المكتوم من تدخلِ
السلطة المحلية . غسلوا جثمانه الهامد وكفّنوه بملاءةٍ بيضاء،
كما يفعلونَ في وطنهم . قرروا دفنَه في غابةٍ قريبة من المخيم،
كثيفة الأشجار .

دار الهمسُ بين اللاجئين عن احتمال مجيء الشرطةِ إلى
المخيم، لكن شيئاً لم يحدث . لا يهتمُّ رجالُ الشرطة بالسير بين
عششٍ مغطاةٍ بالمشمّع، يهتمّون فقط حين تخرجُ الفوضى إلى
بقيةِ أجزاء باتراس .

أمر أكبرُ الرجال بالوقوف جنباً إلى جنب . ولّوا وجوههم
صوب مكة، أمامهم جثمانُ نعيم . انضمَّ سليم إليهم، مع أنه تمنى
لو كان في أيِّ مكانٍ آخر . وقفَ علي إلى جانبه، تسيل الدموعُ
على وجهه . اصطفّوا خلف أكبر بحزنٍ وتضامن . شكّلوا ثلاثة
صفوف، قرابة خمسين شاباً، رؤوسهم مُطرقةً وأيديهم متشابكةً
أسفل سررهم مباشرة، مرافقهم إلى جانبيهم . صاح عبد الرفيق
بالتكبيرات .

لم يكن سليم قد صلى منذ وفاة والده، لكن الدعاء ينزلُ الآن
على لسانه بسلاسة . همسُ رده آلاف المرات وهو طفل، أصواتُ
تعلن عن خبرةٍ مشتركة، دربٌ مشترك للنجاة . شعر بدعمٍ يصله

من الواقفين بجواره. كانت الصلاة رحلةً في حد ذاتها، أخذته إلى الوطن بكلمات هادئة. حين صلى فهم، ما كان يفصلهم عن نعيم سوى نفسٍ واحد. لحظةً واحدة قاتلة قد تُعيد أيًا منهم إلى التراب الذي جاؤوا منه. كان نعيم قريبًا بما يكفي ليمد يده ويلمسه.

صلى سليمٌ على جثمان الفتى بمشاعر الاحترام والذنب والخوف، كان من الممكن أن يكون هو من سحقته الشاحنة. وأن يكون جثمانه هو من يُصلي عليه الرجال هنا.

فقد مكانه. جاهد لسمع همس جاره يعلو على بكاء علي.

لم يحظَ أبي بجزاة كهذه.. الله وحده يعلم كيف عاملوا جثمانه. لم يفسله أحد، ولم يُصلِّ عليه أحد، ولم يحملهُ أحد إلى لحدهِ بأدنى قدر من الشعائر. كان يجبُ أن أحمله أنا. كنتُ سأفعلُ له كلَّ هذا لو كنتُ أعرف. كنتُ سأعتني أنا بجثمانه. لن أستطيع الصلاة على قبره أبدًا.

فقد تركيزةً مرات عدة. شردَ ذهنه في اتجاهات بائسة، فكّر في الحرب، وفي أبيه وأسرته وإلى متى سيظلُّ معلقًا في الهواء، عند نقطة ما، سينهار.

تحولَ بكاءُ علي إلى نواح، كان يُنادي نعيم ويغطي وجهه بيديه. يتحدث باكيًا. توتر جسد سليم كله، تلملم في وقفته وحاول تجاهل صوت علي، حاول سماعَ صلاته هو.

خرج حكيم وابن عمّه من صفِّ الرجال وأخذوا علي من مرفقيه. اصطحباه بعيداً بهدوء ليواصل الآخرون صلاة الجنزة دون تشتيت. خفت صوته وهم يبتعدون.

فهم سليم الأمر الآن، فهم أن بإمكان البشر التحمل لدرجة معينة فقط قبل أن يجد العقل طريقته الخاصة للنجاة من العاصفة.

حملوا جثمان نعيم. أراد الرجال جميعاً حملَه فوق أكتافهم. لاحظ أكبر سليم يقف في الخلف فناداه لينضم إليهم. «من الواجب حملُ إخواننا باجم.. تعال وشارك».

باجم، سمع سليم، بُني، ارتخت كتفاه، لم يدعه أحدٌ ببني منذ أشهر، لا بد أن روحه تتضورُ جوعاً لها.

«لهذه الأعمال ثوابٌ كبير».. تقدم سليم إلى الأمام، ربما أفاده ثوابُ العمل الصالح، فعلَ كما أخبره أكبر. كان صفان من الرجال يحملون الجثمان. حشر سليم نفسه بين الرجال ورفع يده اليمنى، كان يلمسُ ركلة نعيم. ارتعشت يده وركّز بصره على قدمي الرجل الواقف أمامه.

لا تفكّر.. نفذ فقط.

مع ذلك، كان من الصعب ألا يفكّر. شعر بالاختناق والرجال يلتصقون بعضهم ببعض لحمل الجثمان. ضاق صدره، كأنهم سحبوا الهواء من مساحةٍ صغيرة. نفسٌ واحد. نفسٌ واحدٌ يفصله عن نعيم.

تقدم آخرون لأخذ دورهم في حمل الجثمان، تلهف سليم على ترك مكانه لأحد، وقف على حافة الزحام. نظر إليه أكبر وأوماً له برأسه استحساناً، شعر سليم بالامتنان لوجود أكبر.

أرقدوا الجثمان في الحفرة التي حفروها بأيديهم، وبأدوات معدنية وشعور بالأخوة. لا نعش، قطعانٍ من ورق الكرتون المقوى

فحسب، هذا أفضل ما أمكنهم وأفضل ما يأملون فيه حين ينتهي بهم الأمرُ مكان نعيم، قبرٌ مرتجلٌ كمحطة النهاية لحياةٍ مرتجلة.

رغم استغراقه وقتًا أطول مما يمكنه حسابه، عاد سليم إلى الميناء. كان الآخرون متخوفين بالقدر نفسه ليحاولوا مجددًا. عرفوا من معاونين الطبيين والنشطاء في باتراس أن لا أحد في الميناء يعرف شيئًا عما حدث لنعيم. قال البعض إن الفتى سار بعيدًا عن مكان الحادث وزعم آخرون أن أصدقاءه حملوه. لم يثر الأمر الكثير من الأسئلة.

كان يائسًا، لكنه ليس أمامه خيارٌ آخر. ظل يتسكع ويراقب الشاحنات والركاب من بعيد. حين يغمض عينيه يرى وجه نعيم. فكّر في العودة إلى المخيم، لكنه لم يبقَ لديه سوى ثلاثمئة يورو وعليه المخاطرة إن أراد الذهاب إلى إيطاليا والتمسك بالأمل لاستكمال طريقه.

ظل يراقب ويدرس ويحاول فهم مواعيد وعمل سفن الشحن والشاحنات. قد تأتي الفرصة في أي وقت، ظل يذكر نفسه. أبقى عينيه مفتوحتين وتذكر ما فعله في إزمير، الأمر ممكن. حين جاءت الفرصة، كانت لحظة عادية وغير متوقعة كأي لحظة أخرى.

قفز من أعلى السور وظل يقترب من الشاحنات شيئًا فشيئًا. كان خلف بعض حاويات البضائع حين سمع شاحنة تتوقف وتطلق

عموداً كثيفاً من دخانٍ أسودٍ نحو السماء. هبط منها سائقٌ ضخماً
الجثة، يكسو ساعديه شعرٌ كثيف، وفتح الباب الخلفي. زحف
سليم على الأرض وراقب بتركيز.

استغرق ما حدث بعد ذلك ثواني قليلة، دقيقةً فارقةً بشكل
خاص. رن هاتف السائق المحمول، نغمةً عالية وحادة. أجاب
السائق بسعادة. أبطأت المحادثة السارة خطواته وقادته بعيداً.
كان سليم على مسافة قرابة ثمانية أقدام من الرصيف. ظلَّ
يراقبُ السائق، الهاتفُ على أذنه وعلبة مياهٍ غازية عند شفتيه،
يسير متمهلاً نحو كابينة القيادة.

لم يتوقف سليم ليفكر، لو توقف لن يغادر باتراس أبداً. فتح
باب الشاحنة فقط بما يكفي ليمر بجسده النحيل.

صار في الداخل. انحشر في الظلام الدامس بين ما بدا
كراتين مقدسة. تحسّن بيديه ينتظر أن تعتاد عيناه الظلمة. لا
ضجة في الخارج، حتى الآن على أي حال. انزلق بين عمودي
كراتين مرتفعين وجلس متكوراً، حرك الكراتين ليضعها أمامه
ليصنع حائطاً. قبع ساكناً ومتوتراً، ينتظر.
سال العرق على ظهره.

في تلك اللحظات لم يفكر في أمه ولا سميرة ولا عزيز. لو
فكر في مدى حاجته إلى الوجود بينهم مجدداً، في لحظة عناقهم
ورؤية لمعان أعينهم لرؤيته، فقد يُفسد اللحظة. ركّز تفكيره في
الشاحنة والسائق والبقاء ساكناً.

اقترب صوتُ السائق. عاد إلى باب الشاحنة، ما زال يتحدث في
الهاتف. أُلصق سليم ذقنه بصدره، ضم ركبتيه متكوراً ما أمكنه.

انفتح البابُ على وسعه. تدفق الضوءُ فحبس سليم أنفاسَه.
فتح السائقُ أحد الصناديق، عبثَ بمحتوياته ثم أغلقه مجددًا.
صلصلتْ قواريرُ زجاجية لاحتكاكها معًا. ضحكُ السائقُ، لا تزال
المحادثةُ السارة تشتتُ انتباهه. انغلق البابُ وسمع سليم تكَّة
القفل.

ظلامٌ دامس.

صار وحده.

تنفّس.

فريباً

45

تركتُ أفغانستانَ وبين يديّ ثلاثةُ أطفال، الآن أمسكُ يدَ ابنتي. أنا وسميرة لا نحتملُ النظرَ إحدانا إلى الأخرى، ولا نحتملُ أن نتركَ إحدانا الأخرى. يوجد كوبُ شاي باردٍ على الطاولة أمامي، وبعضُ المجلات وعلبة مناديل ورقية. لا يمكنني أخذ ولو رشفةٍ شاي واحدة ونحن ننتظر. المجلات ليس فيها سوى صور لأشخاصٍ بيتسمون لا يشبهونني في شيء ولا يعرفون شيئاً عن حياتي. لا يتبقّى لي سوى علبة المناديل. يبرز منها نصفُ منديل كأنه يدعوني إلى أخذه، لكنني أرفض.

لونُ طلاءِ الجدران أزرقُ فاتحٌ، لون برقع أفغانيّ ترك في الشمسٍ ليَجفّ. أتساءلُ متى سأرى هذا اللونَ فأفكرُ في ريش الطيور أو المياه المتلألئة تحت الشمس. حتى الآن ما زال يأخذني إلى الخلف، وليس إلى الأمام.

يدا سميرة دافئتان، ترتدي سترةً كانت قد صغرت على ابنة نجبية. تبدو فيها فتاةً جديدة. بدأ وجهها في الامتلاء بالفعل. جمعتُ خصلات شعرها للخلفٍ بمشبكٍ على شكل سلحفاةٍ أهدتها إياها خالتها، أحدثُ ذلك فارقاً كبيراً. التفكيرُ في الشعرِ والملابس رفاهيةً. تذكرتُ ملابسني في سنواتي الأولى مع محمود، الآن أفكرُ في عدم أهميةِ الملابس... ومع ذلك في قدرتها على تغييرِ الحياة.

قد تكونُ الحقائق متناقضةً تمامًا، الأكثرُ سوادًا والأكثرُ بياضًا
معًا في وقت واحد.

مرت الآن ساعتان. الوجوهُ حولنا عطوفةٌ ومتسامحة. يتحدثون
ببطءٍ وأناة. تبتسمُ الممرضاتُ لسميرة وهي تبادلهنَّ الابتسام.
هذا يجعلُ الأمرَ أسهلَ عليّ، أن يُؤخذَ مني أصغرُ أنبائي، وأراه
وهم يجزّونه بعيدًا، يثني أصابعه فتتشبُّ في نياط قلبي. وضعتُ
ممرضةٌ يدها على ذراعي وشدّت عليها برفق، تقول بلا كلماتٍ
إنها أمُّ هي أيضًا، وإنهن سيفتتين بابني جيدًا.

إن أمكنهم إصلاحُ الخللِ في قلبه سيكون لديّ أملٌ.

حدث الكثيرُ في الأسابيع القليلةِ الماضية منذ أن وصلنا.
كان الجزءُ الأصعبُ هو الخطوةُ الأولى — الاقتراب من ضابط
الجوازاتِ بلا شيء سوى الحقيقةِ العارية لسبب وجودنا، رايةٌ
بيضاءٌ تتوسلُ الرحمة. عبسَ الضابطُ وتأفّفَ وقادنا بعيدًا في
حين يراقبُ الآخرون، مُمتئين لأنهم ليسوا في موقفنا ويمدّون
أعناقهم ليسمعوا ما يُقال. كنا موضوعًا مثيرًا للفضول. ثبتتُ
عينيّ على الضابط، عاجزةٌ عن مقابلة نظراتِ المحدثين.

قضينا ساعاتٍ في غرفةٍ قبل نقلنا إلى غرفةٍ أخرى. عند
نقطةٍ ما، جاء رجلٌ إيراني، ترجمَ لهم كلامي إلى الإنجليزية
ليفهمني الضباط، لم يبتسمَ لي، ولم يتفوه بكلمةٍ واحدةٍ غير
المطلوب منه إخباري به. لم يكن صديقًا أو حليفًا، وكان حريصًا
على توضيح هذا.

بدأت الإجراءاتُ. أرسلونا إلى مأوى، مبنى بغرفٍ صغيرة
وحماماتٍ مشتركة. كان هناك لاجئون آخرون، جميعهم يمرّون

بالإجراءاتِ نفسها. أشخاصٌ من الأجناسِ واللغاتِ شتى. عاجزون عن التواصل، كنا ينظرُ أحدنا إلى الآخرِ بحدَرٍ وريبة، كأننا يحسدُ بعضنا بعضاً على فرصةٍ وحيدة، كأنَّ واحداً فقط من بيننا من سيمكثه الفوز. نتساءلُ من منا صاحبُ أفضلِ قصة. من منا الأجدر بتعاطفِ هذا البلد؟ منافسةٌ مزعجةٌ وصامتة.

أُجريتَ معنا مقابلاتٌ أخرى. قلتُ كل شيء بالتفصيل. حكيت لهم عن زوجي وعمله والأعداءِ الذين صنعهم لنفسه بشكلٍ ما. حكيت لهم عن الليلةِ التي جاء فيها الرجالُ إلى بيتنا وأخذوه بعيداً. حدقت سميرة في الأرضِ وهي تستمعُ، لم نتحدثُ عن تلك الليلةِ منذئذٍ. كرر المترجمُ القصةَ على امرأةٍ كانت تسجّلُ الملاحظات، أو مأت المرأة برأسها، وقلبت الصفحةَ إلى الأسئلةِ التالية. حكيتُ لهم عن سليم وكيف اختفى في الطريق، حكيتُ لهم عنه ليسجلوه في دفاترهم إلى حين عودته. تأكّدوا من الأسماءِ وتواريخِ الميلادِ وأسماءِ الأقاربِ وعناوينهم والتفاصيلِ كافة. سألوني مراراً وتكراراً عن المعلوماتِ نفسها، مراتٍ كثيرة جداً حتى خشيتُ أن أتعثَرَ في إجاباتي، رغم أنها حقيقية.

سمّحوا لأختي نجيبة بزيارتنا، ألقىتُ بنفسي بين ذراعيها. أن توجدَ مع عائلتك يعني أن تشعرَ بإمكانيةِ نمو جذورك مجدداً. حين سألتني عن سليم هوى قلبي. كنتُ أمل، إلى حد ما، أن يكون قد سبقني إلى إنجلترا ووصلَ إلى بيت خالته بالفعل، في انتظارنا. عانقتني أختي بقوة. جاءت معها أسرتها، حميد والأطفال، كان لمُ الشمل حلواً ومرّاً، يلقفه ضبابٌ وفاة محمود. مسح حميد دموعه لرؤيتي بلا زوجي، ابن خالته. للحظة، زال كلُّ

ما كان بيننا، الطريقة الملتوية التي تزوج بها من أسرتنا. انتابني قلقٌ آخر أكثر إلحاحًا، سليم لا يزال مفقودًا، بذلتُ أختي قسارى جهدها لطمأننتي.

سيأتي قريبًا جدًا قريبًا جان. لطالما كان ماهرًا، إنه ابن أبيه. نعم، هو كذلك.

نعيش الآن في شقةٍ صغيرةٍ بغرفةٍ نومٍ واحدةٍ ومطبخٍ صغير. متواضعةٍ ورائعةٍ في آن. منحونا، إلى أن ينظرَ في التماساتنا، بطاقاتٍ هويةٍ وبضعةَ جنيهاًٍ كلَّ أسبوعٍ للطعام. الأهم من هذا وذاك، أنا ممتنةٌ لأنهم اهتموا بمرض عزيز. كان الطبيب التركي العزيز محققًا، عزيز لديه ثقبٌ في القلب ويحتاجُ إلى جراحةٍ عاجلة، كما قال الأطباء هنا. سيعالجونه إلى أن ينظر في التماسنا. ب مترجم أو دون مترجم، كنتُ عاجزةً عن التعبير عن امتناني حين سمعتُ بهذا.

ليتني أستطيعُ إبلاغ سليم بهذا. أبحثُ عنه في كلِّ مكانٍ نذهبُ إليه. أنظرُ إلى الفتيان بنفسِ طولهِ ولونِ شعرهِ وأدعو الله أن يأتي أحدهم نحوي ركضًا. أسمع صوتَه في الزحام من حين إلى آخر فألتفت فجأة، أتساءلُ إن كنتُ قد مررتُ به دون أن ألحظه. ماذا لو كان هنا لكنه لا يستطيعُ إيجادني؟ تعرفُ سميرة سبب تصرفاتي هذه ولا تُدهش، هي أيضًا تفعلُ هذا. الأصعبُ من أي شيءٍ ألا أعرف أين هو.

أجرؤ على التفكير في عالمٍ كامل، على الحلم بأن المرأة التي تكتبُ تلك القصة في تلك الصفحات الكثيرة ستخبرني بأن ولدًا اسمه سليم حيدري هنا ويبحثُ عن أسرته. أحلم بأن أخبره بأن

أخاه بخير، أحلمُ باستلامنا خطاباً يؤكد أننا لن نُطردَ من هنا وأنه مسموحٌ لنا بالعملِ والذهابِ إلى المدرسة والبقاء في هذا البلد حيث الهواءُ النقي والحياة أقربُ إلى المعدن منها إلى التراب. وفيما أفكّر في كل هذا تقتربُ مني امرأةٌ في زي المستشفى الأخضر. رأسها مغطى بقماشٍ أزرق، الأزرقُ الفاتح نفسه لطلاء الجدران. نزعَتْ كِمَامَتَهَا وهي تقتربُ. حدقتُ إلى وجهها، لا أطيق صبراً لأعرف الأخبار التي تحملها عن ابني. لا يمكنني معرفة شيءٍ من عينيها. لا أجرؤ على النهوض لئلا أنهار، لا يمكنني فعل شيءٍ سوى الانتظار والاستماع. لن يطولَ الأمرُ أكثرَ من هذا الآن.

مرة أخرى، لغة جديدة. مرة أخرى، أناسٌ جدد.

لكن كل شيءٍ متشابه، الشعورُ المألوف بالتيه. الأشياءُ نفسها التي تجعله يتعرقُ وتجعلُ حلقة يجفُّ: الزيُّ الرسمي واللاجئون ونقاطُ التفتيش والقطاراتُ ورؤية الطعام.

بعد وقتٍ بدا بلا نهاية، شعر سليم بالسفينة تتوقفُ عن الحركة والشاحناتُ تبدأ انطلاقَها. سارت الشاحنةُ ببطءٍ على المنحدر، إلى الميناءِ في باري، على ساحل إيطاليا الشرقيّ. الهبوطُ من الشاحنةِ هو الجزءُ المهم. انتظرَ سليم أن يتوقفَ السائق ويفتحَ الباب. حين حدث هذا، ألقى سليم بنفسه على الرصيف، كاد يُسقطُ السائق أرضاً. كفأر اكتشفه أحدهم في حفرة، نهضَ على قدميه وانطلق يركض.

اركض.. اركض فحسب.

لسع ضوءُ الشمس عينيه اللتين اعتادتنا الظلمة. ركض نحو طريق، سمع صياحاً خلفه. ركض أسرعً وانعطف يساراً حين رأى فتحةً بين مبنيين. كانت ركنًا في شارع. حين قطع مسافةً معقولة، ألقى بنفسه بين سلّتي قمامةٍ وانتظر.

عاود السير مجددًا وقت الغسق. سار بهدفٍ لكن بلا وجهة، مذهول من نجاحه في الوصول إلى هنا. رفع عينيه إلى المباني

العالية. لقد وصل إلى العاصمة، لم يرَ مثلها سوى في كتب أبيه فقط.

«هنا».. ففكر بخوفٍ وأملٍ معاً «قد أتوه».

تجول في الشوارع الضيقة بعيداً عن زحام المرور. مرّت به أسرة، تدفعُ الأم عربةَ طفلٍ ويحملُ الأبُ ولدًا صغيرًا على كتفيه. أشاح بنظره بعيداً. حتى بعد شهورٍ وأميالٍ بينه وبين كابول، ما زال الجرحُ يؤلمه، أقربُ له من الدم في عروقه. متى سيمكثه النظرُ إلى أبٍ وابنه دون أن يشعرَ بسم يسري في جسده؟ حتى الليلة التي أخذوا فيها بادر جان، لم يكن قد لاحظَ أبًا وابنه من قبل. الآن يجذبُ نظره لهما. جلدُ ذاتٍ لا يمكنه مقاومتهُ لأنه في كلِّ مرةٍ يأمل، بذلك الجزء منه كفتى يابى أن يهزم، أن تكون هي المرة التي يتحولُ فيها الخُل إلى عصير.

ثم الأمهات. وفتياتٌ في سن سميرة. ورضعٌ بصحة جيدة. ظل يشيح بنظره بعيداً عن العالم كثيراً جداً. كان وحيداً أكثر مما يتخيل.

استجمعَ شجاعته ليدخلَ إلى محلِّ صغير. اشترى ساندويتش وعصيراً ببضعةِ يوروها. وضع البائعُ وجبته في كيسٍ ورقي وعاد إلى عمله. تنهَّد سليم بارتياح.

وجد متنزّرةَ أطفالٍ معتمًا قليلاً. مرّ بالأرجوحاتِ والزلاّقة وصندوق الرمال. سار إلى دوّامة الخيل، قرصٌ مطليّ بالألوان الأساسية. دفع سليم القضبانَ الحديديةَ فدارت الدوامة. تحركت ببطءٍ وصريرٍ يسببُ قشعريرة. يحوّلُ الليلُ ملاهيَ الأطفال إلى مدنٍ شبحيةٍ خاليةٍ من الأصواتِ البريئة لضحكِ الأطفال ولعبهم.

عاشَ في تلك الفجوات، في الأماكن المهجورة ليلاً، والأماكن الخالية من وجوه مشرقة ومبتهجة. في الأركان التي لا يلاحظها أحد، بين الأشياء التي يرميها الناس من الأبواب الخلفية. نام ليلته خلفَ دوامة الخيل متكوراً على نفسه واستيقظ عند شروق الشمس. عادت الأبواقُ وحركة الحياة إلى المدينة مجدداً. نفصَ عن نفسه التراب وسار إلى شارعٍ جانبي. اليوم، سيخطط للخطوة التالية.

تسير النساءُ بأكياس بقالة وأطفال صفار. بدت المحلاتُ مألوفةً. اللغةُ أجنبية. الأشياءُ مختلفة لكنّها متشابهة. ظلّ حذراً لرؤية الزيِّ الرسمي. عليه أن يجد أفضلَ السبل للوصول إلى وجهته، إنجلترا. كان قد نجحَ في ركوب الباصات في تركيا وفكّر أن يحاول هنا. استجمع شجاعته ليقترّب من امرأة عجوز، أحنى الزمن ظهرها. سألها بمزيج من اليونانية والإنجليزية عن محطة الباص. انزعجت منه فلوّحت له بيدها وسارت وهي تنقرُ بعصاها على الأرض. واصلَ سيره ويداه في جيبه.

رأى رجلاً عجوزاً بشعر رمادي يجلس وحده خارج مقهى. طوى الرجل جريدته ووضعها تحت ذراعه حين اقترب منه سليم وهو يبذلُ جهداً ليكرر سؤاله ثانية.

أوماً الرجلُ برأسه، وجهه مغطى كله تقريباً بحافة قبعته العريضة. لصوته بحّة ناعمة، تشي بطحن السنين.

«دوفي لا ستازيون؟ سي، سي.»

بسلسلةٍ من إشارات اليد، أشار لسليم إلى طريق رئيس ومنعطف إلى اليسار. ثم كرر الإشارات وهو يتحدثُ ببطء وصبر حتى تأكد أن سليم فهم عموماً الاتجاه الذي عليه السير فيه.

وضع سليم يده على صدره وأطرق برأسه شكراً، شعرَ بشبهه
بيادر جان بتلك الحركة. أمامه طريق، أخيراً.

لم تكن لافتات الطريق مُعينةً. وصلَ إلى مفترق طرقٍ وتساءل
إن كان عليه الانعطاف يساراً من هنا. سار دقائق قليلةً فرأى
مبنى واسعاً؛ واجهته صفٌّ من المداخلِ ومقوسة، ونوافذه
مزخرفة. انعطف باصان في الطريق الذي يحيطُ بالمبنى. رأى
أمامه ضابطاً شرطةً يرشِفُ قهوته. فانعطف في شارعٍ جانبي
بسرعة، مذعوراً، سار مسافةً مبنيين قبل أن يعود إلى الطريق
الرئيس مجدداً، صار ضابطُ الشرطة خلفه بمسافةٍ جيدة الآن،
فتوجه إلى المحطة مباشرة.

في الداخل، كانت المحطةُ عاصمةً مزدحمةً في حد ذاتها، شق
طريقه بين زحام المسافرين حتى وجدَ حائطاً عليه أربعُ خرائطٍ
كبيرةٍ بمقاييسٍ مختلفة. نظر إلى مساراتِ الباص المحلي. ثم
إلى خريطةٍ لإيطاليا.

لكن أين أنا الآن؟!

في مكانٍ ما بالقرب من الساحل، في مكانٍ ما بالقرب من
اليونان. التقطت عيناهُ النقطة الحمراء على الساحل الشرقي
لإيطاليا.

حسناً، أنا هنا. كيف سأصلُ إلى إنجلترا إذا؟

التفتَ حوله ليتأكدَ من أنه لا يلفتُ نظرَ أحد. عاد ينظرُ
إلى الخريطة، أقصر مساراً للوصول إلى إنجلترا سيكون عبورَ
فرنسا.. «كيف سأفعلُ ذلك؟»

فكّر في رحلته حتى الآن.

كُلُّ خُطوةٍ فِي وقتها، الاختباءُ أسهلُّ فِي المَدنِ الكَبيرةِ، لا تسقطُ فِي فِخِ البَلداتِ الصغيرةِ.

روما.. شمال غرب من حيث يقف، اسمها مكتوبٌ بحروفٍ كَبيرةٍ والمساراتُ التي تُؤدِّي إليها واضحة. من روما، سيكونُ عليه الاتجاهُ شمالاً ليعبرَ فرنسا ثم إلى القنّاةِ الإنجليزيةِ.

تحسّنَ الحبلُ عند خصره وحافظتُه، دسَّ فِيها الورقةَ التي كتبتُ فِيها روكسانا العنوانَ الذي وجدتهُ له، وجهته، كل ما لديه، لا رقمَ هاتف، ولا خريطة، ولا صورة، عنوان فقط.

سار نحو مكاتبِ موظفي التذاكرِ خلف نوافذٍ شبكية. تقدم امام امرأةٍ كَبيرةٍ فِي السن بالكاد نظرتُ إليه، لم يفهم شيئاً مما قالته.

«من فضلك؟ تذكرةٌ باصٍ إلى روما؟» سألتها وهو يدعو الله أن تفهم إنجليزيتَه.

«روما؟» سألتُه وهي ترفعُ بصرها عن حاسوبها. نظرتُ إليه من فوق نظارتها.

حاول قراءة وجهها والاستعداد للهرب.
«روما؟ الأفضل أن تستقلَّ القطار، لا.» أوماً سليم برأسه. بدت طبيعية، ليست متشككة. «الباص بنقود أكثر، القطار المحلي أفضل.»

تتبعَ إرشاداتها نحو محطة القطار، ليست بعيدة. كرّر هناك جولاته الحذرة نفسها وانتظرَ حتى تأكّد من خلوّ المكان من ضباط الشرطة قبل أن يقتربَ من شبّاك التذاكر. استطاع شراء تذكرةٍ إلى روما على متن قطارٍ سيفادرُ بعد ساعتين، واستقله حين رأى الآخرين يستقلونه.

كانت قرابةَ العاشرة مساءً حين توقف القطارُ في محطة روما. استغرق لحظةً لاستجماع قواه قبل أن يترجّل من القطار إلى الليل. لقد تقدّم خطوةً إلى الأمام، لكنه يعرفُ جيداً جداً أنه قد يتراجعُ خطوتين إلى الخلف بسرعةٍ أكبر.

أعاد ضبط ساعة أبيه طبقاً لساعة المحطة، سار في ليلٍ
مألوف وفي روما غير مألوفة يبحث عن مكانٍ يبيت فيه حتى
الصباح. كان يتلهّف لإيجاد أفضل طريقٍ إلى فرنسا لكنه حذر
نفسه من الاندفاع في عبور حدودٍ أخرى.

الطقس بارد.. دسّ يديه في جيبيه، أبقى رأسه مطرقاً وعينيه
مفتوحتين.

يتدافع الناس من مخارج المحطة الشبيهة بعنق الزجاجة وهم
يجرّون أمتعتهم. اختار شارعاً مضاً جيداً وزحامه أقل.

كان قد سار قرابة عشرٍ أو خمس عشرة دقيقة حين رآهن.
ثلاث نساء يقفن بالقرب من واجهات المحلات، يرتدين تنانير
بالكاد تغطّي أردافهنّ وبلوزاتٍ بدت ملتصقةً بأجسادهن. كانت
اثتان منهن إفريقيّتين سمراوين، يعكس شعراً إحداهما البرتقاليّ
ضوء عمود الإنارة. للثالثة بشرةٌ أفتح من سليم وشعرٌ كستنائيّ.
كنّ يتمايلن في سيرهن أمام المبنى روحةً وجيئةً وأذرعهنّ معقودة،
يبدلن جهدهن ليبقيّن دافئتين. أبطأ سيره وراقبهنّ.

تبطئ السيارات وهي تمرّ بهن. يضعنّ قدمًا أمام الأخرى وهن
يملن برؤوسهنّ ليتفحصن السائق. راقب سليم ذات البشرة الأفتح،
نظرت من أعلى كتفها إلى سيارةٍ مقتريةٍ ومررت يدها في شعرها.

التقط سليم رائحة اليأس المألوفة لديه تمامًا تتبعته منهن.
توقفت سيارة هاتشباك صغيرة. سارت إليها إحدى الإفريقيتين
ومالت إلى النافذة المجاورة للسائق. وضعت يدها على وزكها،
هزت رأسها فانطلقت السيارة على الفور، بالكاد انتظرها
السائق لتُخرج رأسها من سيارته. صاحت بغضب، وضوء كشافيه
الخلفيين يبتعد.

كان الشباب في المخيم يتحدثون عن مناطق في باتراس حيث
يمكن للرجل شراء نساء ليكن معه. ابتسم سليم وضحك وهم
يمزحون بشأن هذا، لكنه لم ير ذلك المكان ولا هؤلاء النساء
قط. كان واضحًا، حتى لعينيه الساذجتين، أن هذا ما كانوا
يتحدثون عنه. لكن هؤلاء فتيات صغيرات. فكّر بأنه ربما يكون
مخطئًا. سار نحوهم، ليسأل عن الطريق ولفضوله بشأنهن أيضًا.
استعاد سرعة سيره واقترب من ذات الشعر الكستنائي. رآته
يقترّب فتراجعت إلى الخلف خطوات ومالت على واجهة المبنى.
نظرت إليه الفتاتان الأخريان شزراً وثرثرتا معاً على مقربة أقدام
قليلة.

لم يسعه سوى أن يحدّق فيها. بدأت عيناه بحدائها ذي الكعب
العالي السميك بطول أربع بوصات، ثم ارتفعت إلى ساقها ثم
فخذها إلى حيث يبدأ فستانها الأسود أو ينتهي، حسب زاوية
النظر. يحدد فستانها قوامها النحيل، وتحيطُ بصدرها وظهرها
شبكة من الشرائط تشبه المعكرونة الإسبغيتي.

«بونا سيرا».. قالت. سقط ضوء عمود الإنارة على ملامحها
الرقيقة ملقياً بظلالٍ متراقصة على وجهها. أنف رفيع، عينان

خضراوانٍ لامعتانٍ وشفَتانٍ بطلاءٍ أحمرٍ صارخٍ. بدت -رغم وجهها المطلي بالمساحيق- لا تزيدُ على السابعة عشرة من عمرها.
«آلو» أجابها بخجلٍ. يبحثُ عن كلماتٍ. بدت متبرمة.
«آلو»، قالت تحثه. شعرتُ بأنه ليس زبوناً محتملاً فاخفت
ابتسامتها المتصنعة.

«أنا... أنا في حاجةٍ إلى مساعدةٍ، كيف أصلُ إلى إنجلترا؟»
كان هذا أقصى ما يمكنه قوله في تلك اللحظة.
قلبت عينيها ودارت على عقبيها.

ألح قائلاً: «أرجوكِ، يجب أن أذهبَ إلى إنجلترا»، توسّل إليها،
«مكان يمكنني المبيتُ فيه ليلةً؟ أتعرفين؟»

«لا أستطيعُ مساعدتكِ»، قالت فجأةً. تتحدثُ الإنجليزية بلكنةٍ
أغلظ وأثقلَ من لكنته. «إن كنتَ لا تريدُنِي، فابتعدِ». سارت تبتعدُ
خطواتٍ قليلةٍ فيما تقتربُ سيارةً، أبطأتِ السيارة، ثم ابتعدت.
نظرت الفتاةُ نحو سليمٍ منزعجةً..
«ابتعدِ»، قالت بحنقٍ «لا تقفِ هنا!»

«أرجوكِ! لقد جئتُ من أفغانستان. أتعرفينَ كيف أجدُ أفغاناً
هنا؟»

«لا أعرف».

«من أين أنتِ؟» ألحّ.

«ألبانيا»، قالت وشردتُ عيناها جزءاً من الثانية. «اذهبِ الآن».
لم يسمع عن ألبانيا من قبلُ قط. ألحّ في سؤاله. كانا قريبين جداً
في السن، ربما كان تفكيرُهُ في روكسانا ما جعله يأملُ أن تساعدَه هذه
الفتاةُ أيضاً رغم علمه جيداً أنهما لا تتشابهان في شيء.

أدارت له ظهرها بعدائية. استسلم أخيراً. تجول في المنطقة المجاورة ساعات. اقترب منتصف الليل ولن يمكنه فعل شيء حتى الصباح. انعطف في ركن فوجدها عند المبنى نفسه. رمقته الفتاتان الأخريان من بعيدٍ وعبرتا الشارع، وهما تهزان رأسيهما. نظرت الفتاة الألبانية نحوه سريعاً وألقت برأسها إلى الخلف بتأفف.

«أنا آسف، أريد فقط أن أسألك... أرجوك، أريد أن أنام، مكان آمن، لا شرطة.»

«أرجوك.. أنت تسبب لي مشكلة، ابتعد!» لاحت من بعيد الأضواء الزرقاء الدوارة كأنه استدعاها بذكرها. تفرقت الفتيات. «شرطة؟» سألتها سليم وهي تركض بقوامها النحيل في الشارع.

«نعم»، أجابت دون أن تلتفت إليه. اقترب سليم من المبنى، ظلت الأضواء بعيدة. راقبها وهي تركض، ساقاها شاحبتان في الظلام. حركتها السريعة غريبة بالكعب العالي، فجأة التوى كاحلها، فارتفعت ذراعاها في الهواء. تعثرت خطوة أو اثنتين قبل أن تسقط على الأرض. ركض إليها. خدشت ركبتيها خدشاً سيئاً وكانت تمسك كاحلها، وجهها متألم. حاولت النهوض لتقف على قدميها لكنها لم تستطع تحميل وزنها على قدميها اليمنى، فأطلقت شهقة.

أمسك مرفقها وهي تخلع حذاءها. انكسر الكعب. بدت على وشك الانفجار في البكاء. بدأت تقفز في الشارع وحداؤها في يدها. ترك ذراعها لكنه كره رؤيتها تكافح. فلحق بها بسرعة.

«سأساعدك»، قال بهدوء وهو يمدُّ يده لها. نظرتُ إليه باستسلام وأومات برأسها.

«من هنا» قالت ببساطة. انعطفا مراتٍ قليلةً في أزقة رمادية. قادتته إلى سيارة سيدان صدئة في ساحة انتظارٍ خلفية. أخرجت المفتاح من حقيبتها، فتحت الباب وجلست في المقعد الخلفي.

«اجلس»، أشارت له إلى المقعد بجانبها. جلس، يحرصُ ألا يقترب كثيراً. صارت أقلَّ تجهماً الآن لكنه شعرَ فجأةً بعدم الارتياح لوجوده معها في سيارة وحده.

«ما اسمك؟» سألته بفتور.

«سليم. وأنتِ؟»

«ميمي».

مرت فترةٌ صمت، تلملت في جلستها وفركتُ كاحلها، نظرت إلى سليم وعقدت حاجبها.

«لماذا جئتِ إلى هنا؟»

«هنا؟»

«إيطاليا، لماذا جئتِ إلى إيطاليا؟»

«أريد أن أذهبَ إلى إنجلترا، أسرتي في إنجلترا».

«أسرتك؟»

«أمي وأختي وأخي».

نظرتُ إلى النافذة، بدأت قطراتُ مطر تسقط على الزجاج بصمت.

«أين أسرتك؟» سألها سليم. مسحتُ ذراعها واعتدلتُ في جلستها.

قالت فجأة: «لا أسرة».

«أوه».

أثارت إجابتها فضوله أكثر لكنه تردّد في السؤال عن هذا الأمر.

«متى جئتِ إلى إيطاليا؟»

«منذ عامين».

«أتريدين البقاء فيها؟»

زمت شفتيها ومدتّهما إلى الأمام بغضب. «لا يوجد شيء هنا».

«أين تريدان الذهاب؟»

رفعت بصرها كأنها لم تفكر في هذا السؤال من قبل.

شيء ما في الظلام جعل محادثتهما المجهولة سارة على نحو

أكبر مما تبدو عليه بالفعل.

«لا أعرف». بدأ المطر يتساقط بغزارة، يضربُ سقف السيارة

بصوتٍ صفيحي متقطع. هدأها الظلام والمطر، بدأت تخبر

سليم بقصتها بإنجليزية متكسرة لم تفها حقها.

جاءت من أسرة فقيرة في ألبانيا، كانت الفتاة الثالثة ويليها

فتاتان أخريان. حين أتمت خمسة عشر عامًا، دبر لها أبواها

الزواج برجل بضعف عمرها تقريبًا، رفضت لكن ذلك لم يحدث

فارقًا. عاشت معه ثلاثة أشهر تقريبًا، تجمع الزجاجات الفارغة

وتعاني نوبات غضبه وسُكره. حين عادت إلى أبويها رفضا أن

يأويها مجددًا. ذهبت للعيش مع خالتها.

أحبت فتى محليًا طلب منها مرافقته إلى إيطاليا حيث

سيتزوجان ويبدأن حياة جديدة. رتب أمر سفرهما بقارب بخاري

من ألبانيا إلى الساحل الإيطالي. لم تخبر خالتها ولا أي شخص آخر بقرارها الرحيل. وصلا إلى إيطاليا وأقاما في شقة صغيرة، ولأسبوع أو اثنين ظننت أنها تبدأ تلك الحياة الذهبية التي وعدها بها. لكنه بعد وقت قصير بدأ يشكو من حاجتهما إلى المال. قال لها إنه لا يجد عملاً وأن جمالها قد يفيدُهما في كسب ما يكفيهما، وعدها أن الأمر لن يطول وأن ما بينهما لن يتغير. لم يقاطعها سليم.

كان صاحبها يأخذ كل نقودها. ينفقها على المخدرات وخروجه مع أصدقائه حين تكون هي في العمل. في يوم ما، أخذها إلى شقة وقايض عليها مع رجل آخر ببرود. توسلت إليه، ذكّرته بوعوده لها وبكل ما فعلته له لكنه أدار لها ظهره ولم تره بعد ذلك قط. أرادها الرجل الآخر أن تعمل. حين رفضت ضربها وحبسها في غرفة مع فتاتين أخريين حتى استسلمن وخضعن. كان ذلك منذ سبعة أشهر. عرفت من الفتاتين أن الرجل ليس من النوع الذي يُمكن الهرب منه.

«لا مكان أذهبُ إليه، لا أوراق، أسرتي لا تريدني، وإن رحلت سيعثر عليّ».

ليس لديه ما يقوله، لا كلماتٍ لتهدئ الأمرِ عليها أو لتشجيعها. كان ممتناً للظلام لإخفائه تعبيرات وجهه. كانت فتاةً مستخدمة، عارٌّ من النوع الذي لا يتحدثُ عنه الناسُ المهذبون في كابول. دُهِش لأنه لم يرَ ذلك فيها.

لديه سؤال واحد فقط، أجابته هي دون أن يضطر إلى سؤاله.

«لا أعرفُ لماذا أخبرك، تقولُ إنك في حاجةٍ إلى المساعدة، لكنك فتى، أنت حرٌّ لست بحاجةٍ إلى المساعدة».

أغضبه افتراضها، أراد أن يكرهها، جزءٌ منه فعل، كرهها لأنها أخبرتهُ بفظائع جعلت مشكلاته تبدو هيئة، جعلتهُ يشعر بالحزن لشخصٍ ما غيره، جعلتهُ يشعرُ بعجزه التام. عاجزٌ عن مساعدة نفسه أو مساعدة آخرين.

نظر إليها نظرةً جانبيةً مطولة. ليس من الصعب تخيلُ أسرتها ترفضها، فتاة تترك زوجها ثم تهربُ مع فتى آخر، لينتهي بها الأمرُ عاهرة. في أفغانستان كان أحدهم سينهي بؤسها ويمحو العار الذي جلبته على عائلتها.

نظر خارجَ النافذة، تابع قطرةً مطرٍ واحدة من بين الكثير وهي تهبطُ إلى الأسفل على الزجاج وتختفي في الليل. لا يمكنه أن يكرهها. رغم فظاظتها ومظهرها المبهرج، كانت مجرد فتاة. أفضل ما يستطيع فعله أن يسكت.

«أليس لديك أوراق؟» سألته.

«لا».

«مم».

تحسَّسَ ساعته. تساءل إن كان البقاء معها آمنًا لكنَّ المطر كان قد اشتد الآن ولم يرغب في البحث عن غطاءٍ آخر.
«ساعتك... إنها جميلة».

توقف عن تدويرِ رباط الساعة واعتدل في جلسته على المقعد. بعد دقائق قليلة سمع نفسه يكسر الصمت.
«كانت ساعةً والدي».

حكى قصته بوضوح وإيجاز وهو يراقب عقارب الساعة تعدُّ الثواني والدقائق. فاجأه فائض الأيام والسنين غير المهم على الإطلاق. حكيت قصته، لبه، في ثوانٍ أو دقائق قليلة. كان أغلبها طريقاً خالياً، مدى شاسع يطول فيه السفر من نقطة إلى أخرى. حكى لها عن والده. عن الرحيل ومزرعة بولات في تركيا. لأن صوته وهو يتحدث عن مخاوفِ مادر جان وصمتِ سميرة وقلبِ عزيز العليل. تحدث عن أتيكي لكنه لم يذكر صبور ولا طعنه له، ما زال عاجزاً عن تقبُّل تلك اللحظة. حكى لها عن باتراس وعن جسدِ نعيم المشوّه.

«أنت فتى».. قالت أخيراً: «أسرتك تنتظرك. اذهب إليهم».

«لكن كيف أذهب إلى فرنسا؟»

فكرت قليلاً ثم قالت: «ربما أستطيع مساعدتك، لكنها قد تكون فكرة سيئة».

«أخبريني».. طالبها سليم، أي فكرة قد تكون جيدة.

«الناس يسافرون إلى فرنسا يومياً، بعضهم يحمل معه صندوقاً، عمل سهل، أهم شيء ألا تقبض عليك الشرطة وتأخذك إلى السجن».

«لحمل صندوق فقط؟ يمكنني هذا»، قال بأمل.

«لا أعرف، سأخذك إلى رجل، سأسأله».

اتفقا أن يلتقيا في الليلة التالية. حين توقف المطر أخبرته بأن الأفضل أن يغادر ويجد مكاناً آخر للمبيت فيه حتى الصباح. فهمها وسار في ظلام الليل، ممتاً لأنه قابل ميمي، الفتاة، المرأة.

قضى النهار يتجول في شوارع روما. يراقبُ السائحينَ
بكاميراتهم تتدلى من أعناقهم، ومطويات لامعة في أيديهم، يميّز
سيرهم إيقاعٌ خاص. توقّف، ركّز، التقط الصورة.

رسم في ذهنه خريطةً للعودة إلى مكان اللقاء. أغرقتُ أبوابُ
السياراتِ وصخبُ المدينة أفكاره الكئيبة.

في أحد الانعطافات رأى أمامه مبنى بلون التراب، أثر قديم
أعلى الشوارع المزدهمة. مبنى مائلٌ مفتوحٌ للسماء ويبدو مألوفًا
على نحو غريبٍ لفتى لم يقض في المدينة سوى يوم واحدٍ
فقط. سار صوبه، عاوده فيض الذكريات وهو يحدّق إلى المبنى
مشدوهاً.

لم يكن حينها أكبر من ثمانية أو سبعة أعوام، يجلس بين
عائلته في غرفة الجلوس في بيت خالته. كانوا من القلائل الذين
لديهم جهازٌ فيديو، وكان أحد أبناء خالته قد استعار من صديقٍ
نسخة قديمة من فيلم كونغ فو، ماذا كان اسم الفيلم؟ شيء ما
عن تين. كان هذا المبنى موقع أحد مشاهد القتال، مشهدٌ جعله
يضرب بقبضتيه في الهواء ويمرّن عضلات ذراعيه الصغيرتين
لأسابيع.

اقترب من الكولوسيوم، تسارعت خطواته بالحنين والفضول. سار مع الناس الذين يدورون حول المبنى، طابورُ شراءٍ تذاكر الدخول. عاد إلى دكةٍ على الجانب الآخر من الشارع. لا يمكنه إنفاق نقوده على تذكرة، ولا يمكنه الابتعاد، تخيل أبطال الفيلم عراة الصدور يلمعُ العرقُ على عضلاتهم المفتولة، يضربون بمهارةٍ وينحنون ويطيرون في الهواء.

فكر في سائقي الشاحنات، ضباط الشرطة، صبور.. معاركه لا تشبه معارك الفيلم في شيء.

تساءل ماذا تفعلُ روكسانا في هذه اللحظة. تجلسُ في الفصل ربما، تستمعُ للمدرس بأذنٍ متشككة. تذكرُ يوم أن أدخلتهُ بيتها وهي تقوده إلى غرفة الجلوس، وهي تتحدث في أثناء الغداء، يدها الناعمة تناوله عنوانَ خالته. تذكرُ كيف يضيقُ تيشيرتها عند خصرها.

قفز ذهنه إلى ميمي، فتاةٌ مختلفةٌ جداً، إن جاز اعتبارها كذلك. بشرتها، ساقاها، صدرها. كان ذلك أكبر قدر رآه من امرأةٍ في حياته كلها. امرأة ذات براءةٍ وعار. خلفَ ظلال الجفونِ الملطخ المستقر بين التجاعيد، ورائحة دخانِ السجائر في ملابسها ونظرة الحيرة في وجهها، يمكنه رؤية جمالٍ ما فيها. طريقتهُ في دسّ شعرها خلف أذنها أو جلوسها وإسنادها ذقنها إلى راحتها.

لم يعرف فتياتٍ مثلها، مجرد التفكير فيهنَّ يجعله يشعرُ برجولته أكثر، رغم لا منطقيّة هذا الأمر.

خيم الليلُ وعاد سليم إلى الشارع الخافتِ الإضاءة. حين لم يرها دار حولَ المباني، رأى فتياتٍ أخرياتٍ بمختلفِ ألوانِ البشرة، يرتدينَ بناطيلَ قصيرةً أو تنانيرَ منفوشةً، يُخفينَ ضجرهنَّ بوقفاتٍ مائلة. ظل على مسافةٍ منهن.

جلس على السلمِ الأمامي لمبنى مهجورٍ. ساعته تشير إلى التاسعة، مرت سياراتٌ قليلة ببطء. يرى من حيث يجلسُ عمود الإنارة الذي التقى بها تحته، قرر الانتظارَ قليلاً قبل أن يعاود التجول مجدداً.

بعد مرور نصفِ ساعةٍ توقفتُ سيارة. انفتحَ بابُها وخرجتُ ميمي بساقيها الشاحبتينِ واحدة تلو الأخرى. أغلقتُ البابَ خلفها فانطلقتُ السيارةً على الفور. عدلتُ تنورتها وعادت تسير على الرصيفِ بحذر. لا يزال كاحلُها يؤلمها.

ترتدي بلوزةً خضراء وتورةً بيضاء تلمعان تحت ضوء عمود الإنارة. وقف وسار نحوها، رآته يقتربُ من بعيدٍ لكنها تصرفتُ ببرود.

«ميمي».. قال بارتباك. احتفظ بيديه في جيبيه، لا يعرفُ ماذا يفعلُ بهما.
«لقد عدت».

من طريقة قولها خمن أنها لم تتوقع عودته وأنها ليست سعيدةً بها.

«نعم، هل قدمك بخير؟»

أومات برأسها، ربما ندمت على اتفاقها معه.

تحدت بسرعة قبل أن تطلب منه المغادرة. «أيمكنك أخذي إلى الرجل الذي يمكنه مساعدتي في السفر إلى فرنسا؟»
«إنها فكرة سيئة، آسفة. ربما الأفضل أن تجد طريقة بنفسك.»

كان بصيص الأمل الذي أشعلته فيه الليلة الماضية قد نما إلى نار كاملة. كانت مترددة، لكنه لم يكن كذلك.

«أرجوك. أنا بحاجة إلى المساعدة. ليس لدي أوراق أو نقود. يجب أن أذهب إلى إنجلترا... إلى أسرتي. إلى أمي وأختي وأخي.»

طرفت عيناها لذكر الأسرة، وضعت يدها عند خصرها ونظرت خطفًا خلفها.

«أنا لا أعرف ماذا يحدث. هؤلاء الناس يوجدون في أماكن خطيرة أحيانًا. لقد جئت إلى إيطاليا وحدك، ظنني أن عليك أن تذهب الآن وتجد طريقك بنفسك مثل الجميع، يُمكنك هذا، لا أحد يراقبك أو يُبقيك هنا قسرًا.»

«ميمي، أرجوك.. توصل إليها.

«ليست فكرة جيدة.. قالت بهدوء.

«ليس لدي شيء.. قال ببساطة: «أنا بحاجة إلى هذا.»

لديه أكثر مما لديها، تعرف هذا، كانت تحسده على فرصته، الفرصة التي لا تتسنى لها، هي الطير الحبيس. استسلمت، لقد حذرته كثيرًا. ما سيحدث بعد ذلك ليس مسؤوليتها.

«سأريك، لكن لا تذكر اسمي.»

وافق على الفور. رنّ هاتفها المحمول. أسرعَتْ تُخرجه من حقيبة يدها الصغيرة. تحدثتْ مع شخصٍ ما باقتضاب وعيناها تدوران في الشارع، بدت مرتبكة وخاضعة.

«علينا أن نذهبُ سريعاً».

تبعها. أخبرته بأنها ستقوده إلى مبنى سكني، ومن هناك سيكونُ عليه هو الذهاب إلى الرجلِ وطلبُ مساعدته في العبور إلى فرنسا.

أخيراً.. فكّر سليم، سأذهبُ إلى مكانٍ ما .
لم يطل ارتياحه.

سارا دقائقَ فقط قبل أن تظهرَ عند المنعطف سيارةً رماديةً مسرعة توقفتُ أمامهما بصرير، وكادت ترتطمُ بالرصيف. تراجعاً إلى الخلفِ وكادت ميمي تسقط، ما زالت قدمُها غير ثابتة، مد سليم يده لها ليسندَها فأخذتها.

«أنت زبون»، همستُ بسرعة، صوتُها يرتعش.

«ماذا؟»

لكنها لم تستطعِ التوضيح. اندفعَ من السيارة رجل يرتدي سترةً جلدية سوداء، أغلقَ باب السيارة بقوةٍ وسار نحوهما. أمسك ذراع ميمي وجذبها بعيداً عن سليم وسألها عن شيء ما بلغةٍ لم يفهمها سليم. لم يرضَ الرجلُ عن إجابتها فشدد قبضته على ذراعها وهزها يحاولُ إخراج الحقيقةِ منها.

توسّلتُ إليه.

«ما شأنك بهذه الفتاة؟» زمجر الرجلُ يسأل سليم وهو يضيق عينيه الداكنتين الباردتين. كان أطولَ من سليم ببوصات ويزيدُه وزناً بما لا يقل عن ثلاثين رطلاً. زاد وجهه غير الحليق من خوفٍ سليم.

«كنت... كنت... كنت أتحدثُ معها». تلعثمَ سليم يجيبه قبلَ أن يتذكّر ما قالتَه له ميمي.

«تتحدثُ معها عن ماذا؟»

«كنتُ أسألها... لأنني أريدُ أن...» سكت مرتبكا.

«أتريدُها؟» قال الرجلُ بهدوء.

«ننعم»، قال سليم بقناعةٍ ما أمكنه. نظرتُ ميمي بعصبيةٍ من

سليم إلى الرجل.

«جيد. أرني نقودك».

ذُعرَ سليم. نقوده في حافظته المربوطةٍ بخصره، لن يستطيع إخراج ورقاتٍ عدة دون أن يُري الرجلَ كل ما لديه ولا يمكنه المخاطرةُ بخسارة كلِّ شيء.

«ليس... ليس معي...»

ترك الرجلُ ميمي وعصرَ ذقنَ سليم وخذّيه بيدٍ واحدةٍ قوية، قبضةً شديدة الإحكام.

«لا نقود؟»

«بلى»، صرَّ سليم من بين شفّتيه المهروستين، ضاقت قبضةُ

الرجل.

«لا نقود، هاها؟» التفت إلى ميمي وصرخَ فيها بشيء ما. قبل

أن توضّح له، صفعتُ يده وجهها، تراجعت إلى الخلف. امتدّت يدا سليم نحوها لكن الرجل حول انتباهه له.

«أنت تضيّع وقت فتاتي؟» قال الرجلُ وهو يلكمه بالقبضةِ

الوحشية نفسها، ترنّح سليم وحاولَ أن يحتفظَ بتوازنه لكنه تلقى اللكمتين الثانية والثالثة بسرعةٍ شديدة.

لا جدالَ مع هذا الرجل وهو غاضِبٌ.

نالت ركلاَتُ حذائِهِ المدبِبِ من ظهره، وبطنهِ وضلوعه. سمع صراخَ ميمي. حاولَ التكوُّرَ على نفسه ليقِيَ بطنه الركلاَتِ، تلاحقت أنفاسه، شعر بخدّه يرتطمُ بالرصيف البارد الصلب. ثم توقّف الضرب.

زحف بعيداً على ركبتيه، يسعلُ ويبصقُ، خفتَ صراخُ ميمي. جرّ نفسه إلى ركنٍ ورقد خلفَ كومة كراتين.
أرجوك ربي أنه كل هذا.
أغمضَ عينيه واستسلمَ للظلام.

سليم

49

لماذا لم أقاتله؟ ماذا دهاني؟

كان سليم غاضباً من نفسه بقدر ما كان غاضباً من قواد ميمي. جاء الصبح، صرخ جسده احتجاجاً وهو يعرجُ إلى محلٍ قريبٍ ليشتري شيئاً يمكنه رشفه بشفتيه المتورمتين المشقوقتين. ظنّه البائعُ أحد الصبية المشاغبين وأخذ منه النقود بازدياء وهو يهز رأسه بياسٍ من بلد الفتى الذي لم يستطع منع هؤلاء المشاغبين من الخروج منه.

شق طريقه نحو محطة القطار ونظرَ إلى الجداول والخرائط التي قد تأخذهُ إلى فرنسا. شعر بعيني ضابط شرطة على ظهره، فتدبّر في لحظةٍ أن يذوبَ في الزحامِ بمهارة، تاركاً الضابط يهزُ رأسه ويعود إلى الجانب الآخر من المحطة.

كان يفكرُ يومياً في احتمال أنه لن يصلَ إلى إنجلترا أبداً. جعله ما مرّ به خلال الأيام القليلة منذ وصوله إلى إيطاليا، يشعر بالياس من محاولة أي شيء آخر.

كان مرهقاً مثقلاً كأن ما يسري في عروقه رصاصٌ وليس دماً. أرهقه عدم الأكل والقلق بشأن النقود. أرهقه الاستيقاظُ بأحلامٍ عن رجال ميّتين ومطارادات ليلية. قد يكون الرحيلُ عن كابول خطأ رغم كل شيء. لربما كانت الأمور ستتحسّن هناك.

لم يسمع نقراتِ الكعبِ تقتربُ منه . كان قد غفا بظهره مستنداً إلى جدارِ أحدِ المباني في شوارعِ عاصمةِ إيطاليا الجانيية، تعرفُ أحدهم على وجههِ المتورم .
«سليم» .

فتح عينيه ليرى ركبتيين أعلى حذاءٍ بكعبٍ عالٍ . جلستِ ميمي بجانبه، وقالت بهمس: «أأنت بخير؟»
«أنا بخير» .. صوته خفيضٌ وكاذب، نظر حوله .
«أأنتِ وحدك؟»
«نعم»، قالت «بوريم ليس هنا» .
اسمه بوريم .

«هل جُرحتَ جرحًا سيئًا؟ أوه، فمك!»
«أنا بخير.. إنه بخير الآن» . اعترف لنفسه أنه كان خطأه أن رآهما بوريم تلك الليلة وأنه كان السبب في أن تُجرَّ ميمي بعيداً . يبدو من منظرها أن بوريم لم يتركها بسهولة . كان ثمة لونٌ أزرق أسفلَ عينها اليسرى وخدشٌ صغير على شفثها .
«أنا... أنا آسف ميمي»، قال . «لم أقصدِ التسبب لك في هذا» .

«أعرف . إنه رجل مجنونٌ، أنا أعرفه، لا شيء جديد في هذا» .
«يجبُ أن تهربي منه» .
بدا له الأمر بسيطاً، لماذا تبقى هنا وهو يأخذ كل ما تكسبه وهي تعيش في خوفٍ دائم؟ لماذا لا تغادر؟
«لا يمكنني فعلُ شيء، ليس الآن، يوماً ما ربما، لكن الآن... الآن ليس لديّ خيار» .

جلسا صامتَيْن. هو يتساءلُ لماذا لم تبتعدْ عنه اليوم وهي تعرفُ أنه لن يفهم.

«سأخذكُ إلى الرجل الآن».. قالت، «ربما يمكنكُ المغادرة، إن فرصتكُ أفضلُ مني».

«لكن بوريم؟ ماذا لو وجدنا مجدداً؟»

«إنه بعيد الآن، لديه فتاتانِ جديدتانِ بعيدتانِ عن هنا، ذهب ليقابلهما، لدينا وقت».

أوماً برأسه وتبعها، رغم عدم توقعه الكثيرَ من هذا اللقاء لكنه كان يتحرَّق لمغادرة روما. قادتُه ميمي في الشوارعِ نفسها، تراقبه لتتأكدَ من أنه يلحقُ بها، وصلاً إلى بنايةٍ سكنيةٍ لها مقبض بابٍ مخلوع، ونوافذُ الطابقِ الأولِ مغلقةٌ باللاصق. هزَّ سليم رأسه، يعلم أنه بدخوله يتجاهلُ ما يمليه عليه حدسه.

«في الداخل باب، اضغط زرَّ شقة 3ب».. قالت، «سيجيئكُ رجل ويسألكُ من أنت، قل له إن ميمي من أرسلتكُ. قل إنك تريد السفرَ إلى فرنسا وربما كان لديه عملٌ لك».

«هل أخبره باسمك؟»

«نعم. هذا الرجل ليسَ صديق بوريم، قم بكلِّ ما يقوله لك، كل شيء، هل تفهمني؟ إنه رجلٌ خطير لكنَّ بإمكانه إرسالكُ إلى فرنسا. تعال إلى هنا بعد يومين من الآن». أكدتُ عليه.

ارتاح لوجودِ متسعٍ من الوقت قبل أن يقابلَ الرجلَ رغم شعوره بإحباطٍ لأن عليه الانتظارَ يومين آخرين قبل أن يغادرَ هذه المدينة. «ما اسمُه؟» سألتها. كانت تقوده في طريقِ العودة من حيث

جاء، لم تجبه، سألتها مجدداً: «ما اسم هذا الرجل؟»

«لا أسماء».. قالتُ بصرامة. «لا تسأل.. إنه لا يحبُّ الكلام».

«كيف تعرفينه؟»

«عمل مع بوريم سنة، لكنهما تعاركا على النقود، هما الآن لا يتحدثانِ لكنني أعرفُ أنه يرسلُ الأشخاصَ إلى الخارج. سيخبرك بما عليك فعله».

أوماً برأسه، فهم بعض ما قالته وليس كله. كانت غارقة حتى عنقها في عالمٍ من الشخصيات البغيضة. تساءلَ إن كان هو نفسه أحدهم.

ربما كنت مثلها. مثل من تعرفُهم. ربما لم أعد فتى بريئاً هارباً، ربما ستتحسنُ أموري إن تقبلتُ هذا.

سارت أمامه، شعرها المعقوص في ذيلِ حصانٍ رفيع يشير إليه أن يتبعها. ما زال جسده يؤلمه فاقتراح أن يجلسا ويتاولا ساندويتش معه في جيبه، أشارت برأسها إلى الأمام قائلة: «تعال معي»، وسارت فتبعها.

قادته إلى شقةٍ معتمةٍ بغرفةٍ واحدةٍ في بنايةٍ قريبة من المكان الذي وجدته فيه. يوجد فيها سريرٌ معدنيٌّ بمرتبةٍ كبيرة وملاءات بسيطة، ومصباحٌ على كرسيٍّ خشبيٍّ وكرسيان آخران عند الحائط المقابل. تآكل طلاء الحوائط الذي كان ذات مرةً أصفر رائقاً. المطبخ الصغيرُ بمساحةٍ أقدام قليلة، يفصله عن الغرفة نصف جدار. بدت أدوات المطبخ صدئةً وغير مستخدمة. بابُ الحمام نصف مفتوح، رأى منه حوض بورسلين متهاك ومكاناً صغيراً للشد وجداراً من الجص المسود.

كانت غرفةً بائسةً لو رآها قبلَ رحيله عن كابول لشعرَ بالقرفِ
منها على الفور. لكنَّ زاويةَ نظره تغيرتْ. كما درج بادر جان على
القول، الأعورُ وسطَ العُميانِ ملكِ.
كانت فكرتهُ الأكثرَ إلحاحًا إن كان آمنًا هنا أم لا. نظرت إليه
ميمي وقرأت أفكاره.

«لن يأتي، بوريم لديه فتاةٌ جديدة، سيبقى معها ويعود في
الصباح، الليلة الأولى سيئةٌ، سيئةٌ جدًا». جلست على الفراش
وسحبَ هو كرسياً ليجلسَ قبالتها، أخرج الساندويتش المسطح
من جيبه وفضَّ غلافه وعرض عليها نصفه، أخذته منه بامتنانٍ
هادئٍ.

«أتعيشين هنا؟»

هي كذلك، تدلّت ملابسُها القليلة وبلوزاتها الشبكيةُ برثاءة في
الدولاب، تبدو مرهقةً مثلها. ملأت كوب ماءٍ من صنبور المطبخ،
أخذت منه رشفةً وناولته إياه.
لا يوفرُ المصباح إضاءةً جيدةً والنافذةُ الوحيدة تواجهُ بنايةً
أخرى، ولا تسمحُ بدخول قدرٍ كبيرٍ من ضوء الشارع. اعتدل في
جلسته، لمستُ ركبته ركبتهَا.

«أنا آسف ميمي لفضبِ بوريم لأنه رآني معك. ولأنه ضربك
أيضًا. لقد طلبتِ مني الابتعاد لكنني... أنا آسف».
حدقت ميمي إلى الأرض.

«لا بأس، انس الأمر، إنه لن يتغير، يخبرني بأنه سيتركني
وشأني إن استطعتُ جمعُ مال، جمعُ مالٍ لشراء تذكرةٍ إلى ألبانيا
لأعود إلى وطني، لكن ها قد مرتُ سبعة أشهر الآن ولم يحدثُ

شيء. ظلت فتياتٌ أخريات يعملن سنّين أو ثلاث. لم تجمَعُ أيُّ منهن ما يكفي لشراء حرّيتها. هذه حياتي الآن سواء أكنت معي أم لا، لا فارق».

رفعت بصرها، سألت على خديها المطلّيين بالمساحيق دمعتان مثل قطرة المطر التي رأها تنزلق على النافذة.

«لكن أنت... بإمكانك الرحيل من هنا. أسرتك تنتظرك وحين يرونك سيبتسمون ويضحكون». اتسعت عيناها وهي تتخيل الأزرع المفتوحة ترحاباً بسليم. مسحت دموعها وابتسمت بوهن.

أراد أن يشجعها مثلما تشجّع، أن يبادلها العطف، تلعثم، ثم مد يده ووضعها على ركبتيها.

«أنت قوية يا ميمي، ستجدين طريقة، سيحدث لك شيء جيد أيضاً. لقد ساعدني أناس على الوصول إلى هنا. أنت ساعدتني. سيساعدك الله بالمثل. سيساعدك شخص ما». شعر بكلماته جوفاء.

«لن يساعدني أحد، إنه يأخذ نقودي، أعرف أنه لن يتركني أذهب أبداً، إنه سيطر على كل شيء».

شعر سليم بجسده كله يتوتر، ما زالت ميمي، بكل هشاشتها، تجد طريقة للمشاركة. يمكنه هو أن يصير أكثر مما يتوقع. الجيوب الفارغة لا تعني أرواحاً ميتة.

«إنه لا يسيطر عليّ» قال.. «ساعديني على إيجاد، ميمي. أريد أن أراه ثانية، يمكنني أن أغير هذا».

غطت يده بيدها ونظرت إليه. تريد أن تصدّقه، أن تصدق كل كلمة مما يقوله ولو حتى لدقيقة واحدة فحسب. لمست خده،

هوت معدته لشعوره بأصابعها الباردة النحيلة على وجهه. لمست خده الآخر فأغمض عينيه. تخيل ميمي التي كانت منذ أمد بعيد، فتاة صغيرة تبسم وتضحك مع أخواتها، تخيلها فتاةً وديعةً كما كانت قبل أن يسحقها العالم.

جذبت يديه. جلس إلى جانبها على السرير. ترك أصابعه تتشابك بأصابعها قبل أن تصعد إلى ذراعيها. وجد كتفيها. بشرة عنقها بيضاء كالجليب. جذبت يداها وجهه إلى وجهها، داعبت أنفاسها بشرة خديه.

قادت هي، وتبعها. كان متردداً ومتوتراً لكنها طمأنته بهمساتها وخفة لمساتها. شعر بنفسه يصيرُ شخصاً مختلفاً، شخصاً بإمكانه التواصل مع شخصٍ آخر ليخلقاً معاً شيئاً ما. لمس الكدمات على ضلوعها برقة، طرفت عيناها، توجد كدماتٍ أخرى، كدمات أخفتها ملابسها. أراد أن يكرر أسفه آلاف المرات. لم يبدُ أن جهله يزعجها، كانت ترحب به، جعلته يفكر أن بإمكانه الشعور بشيء ما آخر غير الوحدة والإساءة.

ميمي، الفتاة التي تحتاجُ إلى مَنْ ينقذها، أنقذته. ترك عينيه ترتفعان إلى وجهها، خالياً من التعبير وسلبياً. أدرك حينها أن ميمي المشرقة الواعدة التي تخيلها حين أغمض عينيه لا توجد وربما لم توجد قط.

انتظرَ في الظلام. يتواصلُ بنظراتٍ خاطفةٍ مع ميمي التي تقف على الجانب الآخر من الشارع. راقبها سليم منتظراً أن تشدّ تنورتها، الإشارةُ المتفق عليها. وقفت بعيداً عن الأخباريات، تتجاهلُ السيارات التي تمر بها، ليس الليلة. بعد ساعتين، جاءته الإشارة.

كانا قد خططنا للأمر الليلة الماضية. يجبُ التنفيذُ بسرعة، وكلُّ تحركاته، يجبُ أن يتم الأمر ليلاً في ستر الظلام. الإشارة. سرتُ دفقة أدرينايين في جسده. جاء بوريم، يسيرُ في الشارع متبخترًا نحو ميمي. انتظر سليم، ثم دار خلف المبنى، هرّول بخطواتٍ خفيفةٍ وعبرَ الشارع، صارَ خلف بوريم بنصفِ مبنى.

أتذكّر كيف ضغطتُ بكعبِ حذاءي على صدرك؟ أنت لست جباناً. ظل يرددُ لنفسه مراراً وتكراراً، يشجّع نفسه. كانت فكرته هو ولا تراجع عنها. سيجعلُ هذا يحدث. سئمٌ من حدوث الأشياء له، كأنه شيء وليس رجلاً، حانت اللحظة. تماماً كما خمنتُ ميمي، جاء بوريم ليتفقدها.

كان سليم خلفه، بعيداً عن عواميد الإنارة بالقرب من مدخلِ بناية. كان بوريم يتحدثُ مع ميمي التي تتلملُ في وقفها، تنتظرُ بعيداً بعصبيةٍ وكتفاها مضمومتان.

ثار غضبُ سليم.

بدوتَ أمامه ضعيفًا هكذا، ليس بعد الآن.

تسلل خلف حاملِ جرائدِ خالٍ. تقبضُ أصابعه على ماسورةٍ معدنية صدئة أتى بها معه. سمع بوريم يتحدثُ إلى ميمي. علا صوته. إنه غاضبٌ منها، غمغمتُ ميمي بإجابة، زمجر بوريم.

أخذ سليم نفسًا عميقًا وخرج من خلفِ الحامل، رفع الماسورة وهوى بها على ضلوع بوريم. تراجع بوريم وتعثر للإمام. لاحقه سليم بضربةٍ أخرى قبل أن يستدير، ركل خلفية ركبته اليسرى بقوة أسقطته وهو يصيحُ بغضب.

انكشمت ميمي في ركن، ظهرها للحائط وتعبيرٌ وجهها بارد. انقلب بوريم على ظهره يتأوه. نظر إلى الأعلى ليرى سليم فوقه يمسك ماسورة بـكِلتا يديه، على أهبة الاستعداد. صدره يؤلمه مع كل نفس. اقتربت ميمي ووقفت بجانب سليم.

«أنتِ... أنتِ... عاهرة»، قال بوريم وبصق.

رأى سليم وجه بوريم الغاضب وهو يمدُّ يده اليمنى في جيب سترته. أخرج شيئاً صغيراً، مسدس أسود لكنه هوى بالماسورة على يده قبل أن يمكنه التسديد فطار المسدس بعيداً. سبّ بوريم وهو يمسك يده بالأخرى. قال لسليم:

«أنتِ ميّتٌ... لقد أخطأت...»

تعثر يحاولُ النهوض على يديه وركبتيه رفع نظره إلى ميمي، ردد شيئاً ما بحنق بالألبانية جعل وجهها البارد يتحول إلى الغضب.

«انتظري ما سأفعله بك!» كان منحنياً يحاول النهوض على قدميه.

لم يرَ سليم ما كانت ميمي تمسكه بيديها، رأى ذراعيها الممدودتين فحسب، قالت كلماتٍ قليلة وبصقت نحو بوريم، صوتها مرتعش.

اندفع بوريم نحوها وهو يصيح، أدرك سليم ما يحدث وسقطت الماسورة من بين أصابعه، ارتطمت بالأرض بصوتٍ عالٍ. «ميمي!» صاح سليم.

صوتُ انفجار. توقف بوريم عن سيره ونكصَ على عقبه فالتقت عيناه بعيني سليم المذهولتين.

قفز سليم متراجعاً. نقل نظره من بوريم إلى ميمي.

كانت ترتعش، أسقطت المسدس وغطت فمها بيديها، نظرت إلى سليم.

لا أحد في الشارع. أقرب سيارة على مسافة شارعين. ظهرت الأضواء من عدة نوافذ في البناية، بدأ من استيقظوا يتحركون، استعادت ميمي وعيها أولاً. جثمت على بوريم وفتشت جيوبه، أخذت محفظته ونزعت السلسلة الذهبية من عنقه السميك. أن بوهن لكنه لم يقاوم.

نظرت خلفها بسرعة وقالت:

«هيا بنا».

انطلقا، دارا حول المباني وانعطفا في الشوارع المظلمة ليبتعدا ما أمكنهما عن بوريم. جابا المنطقة صامتين، يلهثان، ينظران خلفهما.

«انتظر».. قالت أخيراً، مالت إلى الأمام ووضعت يديها على ركبتيها تحاول التقاط أنفاسها «يجب أن أتوقف».

بدت شاحبةً بشكلٍ مروع تحت الوهج الأصفر لضوء الشارع، عرف أنه لا بد يبدو مثلها. سارت الأمورُ على نحو سيئٍ جداً. لم يكن من المفترض أن يرى بوريم مَنْ يهاجمه. كان عليها أن تبدو مدهوشةً ولا علاقة لها بما يحدث. لكن بوريم رأى وجهيهما، وعرف أنهما خدعاه، تأمرا عليه.

«ميمي، يجب أن نختبئ».

ذهبا إلى شقتها. جمعت كومةً ملابس مطوية على الكرسي في حقيبة قماش.

أدرك أنها لن تبقى هنا بعد الليلة.

انتظر سليم وميمي حتى الظهيرة ليذهبا إلى البناية التي أشارت له إليها من قبل.

«سأنتظرك هنا». قالت تشير إلى دكة قريبة. سحبت طرفي كمّيتها لتغطّي يديها ونفخت فيهما. لا تُدْفِئُها الشمسُ سوى قليلاً. دخل البناية. كانت قدرة ومتهالكة من الداخل؛ أعقاب السجائر ملقاة في الأروقة، سقطت قطع من الدرايزين على السلم، ويوجد مصباحٌ على الحائط يضيء وينطفئ. تأتي أصواتٌ مذياع وتلفاز من خلف الأبواب المغلقة لكنه لم يرَ أحداً.

تأكد من رقم الشقة، أخذ نفساً عميقاً وطرق الباب. تراجع خطوةً إلى الخلف بتوتّر وانتظر. سمع حركةً ورأى غطاء العين السحرية يفتح. بعد لحظة، انفتح الباب قليلاً، وقف أمامه رجلٌ بسيجارة تتدلّى من شفته السفلى، يرتدي قميصاً أسودَ أزواره مفتوحة وبنطال جينز، أبزيم حزامه الفضي وسام شرفٍ على خصره. كان في أواخر الثلاثين، تفحص الفتى الواقفَ أمامه جيداً وقرر أنه ليس مهتماً.

بلع سليم ريقه قبل أن يتحدّث.

«أنا أبحثُ عن عملٍ من فضلك».

«من أنت؟»

«أريد أن أذهبَ إلى فرنسا، يمكنني العمل».

مَجَّ الرجل من سيجارته وهو يمسكها بأصبعيه، ثم ألقى بها في الرواق. طرف بعينه نحو سليم وهو يطلق دخانها.

«من أرسلك؟»

«ميمي»، قال سليم بهدوء. لقد أخبرته أن يذكر اسمها، خوفاً من ألا يهتم به الرجل لو لم يذكره.

«ميمي، هه؟»

«نعم». عمل سليم بنصيحة ميمي وأبقى إجاباته مقتضبة. انفتح الباب أكثر قليلاً، وأشار الرجل له برأسه أن يدخل.

شقته أكبر من شقة ميمي وأقذر بكثير، ملابس في كل مكان، أغلفة وفتات أطعمة، وطاولة قهوة عليها أطباق طعام وعدد من

الهواتف المحمولة، صوت التلفاز عالٍ. ذكّر سليم نفسه ألا يحدق. انغلق الباب خلفهما.

«من أين أنت؟»

«أفغانستان».

«أفغانستان؟» سأل بحاجبيه الكئيبين يرتفعان دهشة. «لماذا

تريد أن تعمل؟»

«عائلي في لندن، أريد أن أذهب إليهم».

تردد سليم قليلاً، تسارع نبضه، لمح لتوه مسدساً صغيراً مدسوساً بين وسائد الأريكة، ركّز نظره على الرجل أمامه.

«ألديك أوراق؟»

«لا أوراق».

«أنت تعرف ميمي؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

«نعم».

«كل الرجال يعرفون ميمي» قال الرجل ضاحكاً بمزاج رائق.
قرص عضلات ذراع سليم بسبابته وإبهامه وغمغم لنفسه بشيء
ما. انزلت يده إلى أسفل، ربت على جذع سليم ثم حول خصره،
توقف حين شعر بجراب الخنجر الصلب، نظر إلى سليم.
«إنه سكين»، أوضح له سليم. لم يجرؤ على التحرك. أبقى
ذراعيه مرفوعتين، خلع الرجل الجراب من الحبل المربوط بخصر
سليم، لم يلحظ الحافظة الصغيرة تحت سرواله التحتي. ما زالت
حافظته في أمان حتى الآن.

سحب الرجل النصل من غمده وصفر منبهراً.

«رائع. هدية لي، صحيح؟»

هم سليم بالاعتراض لكنه أجابه: «نعم».

ابتسم الرجل بخبث، ألقى الخنجر على الأريكة.

«هذه مشكلة».. قال بيروود. «تريد أن تذهب إلى لندن وليس

لديك أوراق، أليك نقود؟»

هز سليم رأسه.

«لا نقود».. ابتسم الرجل بدهاء «وأخبرتكم ميمي أن تأتي إلى

هنا».

«نعم، أريد أن أساعدك».

«أوه، تريد أن تساعدني؟» قال بمرح وهو يحني رأسه بامتنان

ساخر. انكمش سليم أمامه.

«أنت لن تساعدني، بل ستعمل عندي».

أوماً سليم برأسه.

خرج رجلٌ آخر من الغرفة المجاورة، أكمّام قميصه مشمرة
أعلى ساعديه الملتصقين بالحبر، نظر إلى سليم بفضول وقال
شيئاً ما لشريكه في السكن قبل أن يجلسَ على الأريكة.
سأل الأول سليم: «تريد أن تعملَ عندي إذن مستر أف-غان-
ستان؟» ينطقُ المقاطع بدراميةً.
«نعم».

«ما رأيك فيزار؟» سأل الأولُ الجالسَ على الأريكة.
رفع فيزار كتفيه الضخمتين، لاحظ السكّين على الأريكة،
التقطها وقلّبها يتأملها، أُعجِبَ بها تماماً مثلما فعل سليم حين
وجدَها أول مرة.
«أتعجبك فيزار؟ إنها هدية من الفتى».

أشار لسليم أن يجلسَ إلى طاولة المطبخ. جلس سليم وانتظر.
أخرج الرجلُ صندوقاً مربعاً من إحدى خزانات المطبخ وألقى به
على الطاولة.
«افتحه».

نزع سليم اللاصق وفتح الصندوق. يوجد داخله دبٌّ محشو
كبير، لعبةُ أطفال بحجم مولودٍ حديث. قلّبها بين يديه، مرتبكاً.
«ستأخذُ هذا إلى فرنسا. سأعطيك أوراقاً وتذكرةَ قطار من
روما إلى باريس. لا تتحدث مع أحد حتى تسافر. في باريس
سيكونُ هناك رجلٌ في انتظارك، أعطه هذا، أتفهم؟»
«نعم، أفهم».

«جيد، الآن انظر هنا».. أشار الرجلُ إلى عدسةٍ مستديرة
صغيرة على الطاولة ومدَّ يده إلى حاسوبه المحمول. حدّق سليم

في الكرة، لا يعرفُ إلامَ ينظرُ أو لماذا. ضغط الرجلُ عدةَ أزرار،
نخر وحرك العدسةَ بعيداً عن سليم.

«سيغادرُ القطارُ في الثامنةِ مساءً الليلة من تيرميني، غيرِ
القطار في ميلان ثم إلى باريس. ألدَيْكَ حقائب؟»
هزَّ سليم رأسه. ليس لديه شيء.

وقف الرجلُ وذهب إلى دولا ب في الرواق، أخرجَ حقيبةَ ظهرٍ
فارغة ودسَّ فيها ثلاثةَ قمصان، بنطالاً ومجلة من الفوضى
المنتشرة في الشقة.

«خذ هذا، يجبُ أن تحملَ حقيبةً كالسائحين، ضعهُ بداخلها»،
قال وهو يأخذ الدبَّ المحشو من سليم ويضعه في الحقيبة.
«اذهب من هنا الآن، عُد بعد ساعتين لتأخذَ أوراقك والحقيبة،
لا تتأخر».

«قلتُ لك اذهب الآن».

أطاع سليم. سجل الوقتَ في ذهنه ليعرفَ متى سيعود؛ لا
يريد أن يأتي متأخراً ولا مبكراً. خرج إلى ضوء الظهيرة الباردة.
لم تكن ميمي على الدكة كما وعدت. دار حول البناية ينظرُ في
الأزقة وفي مغسلةٍ خدمةٍ ذاتيةٍ صغيرة في ركن، لقد ذهبت!
«هل خططتُ لهذا؟» تساءل. حدثُ الكثير جداً بينهما في
اليومين الماضيين. ظلت على مسافةٍ منه منذ ليلة أمس، صامتةً
بشأن ما حدث، لم تبدُ مصدومة ولا ذاهلة، بل كئيبةً وهادئةً.
على الأقل لديها نقود.. فكر. حين توقفاً أخيراً عن الركض،
أخرجت ميمي النقود والسلسلة الذهبية من حقيبتها، عدت
أربعمئة وعشرين يورو. نظرتُ إلى سليم.

خذيها أنتِ .. قال لها . لقد أخذ ما يكفي منك .

نظرت في عينيه مباشرة، كأنها تقيس مدى صدقه . حين لم يطرف بعينه، دست النقود في حقيبتها وأبقت يدها عليها . لا تنتظرها أسرة، لا أحد سيبتسم لها حين تدخل غرفةً ما، إلى أين قد تذهب؟ هز رأسه إذ صار يعرف أنها الآن بحرّيتها وأربعمئة يورو لن تنجو .

كما اتفقاً، عاد إلى الرجل في السابعة والنصف . لم يُعن فيزار بدعوته للدخول . ناوله ظرفاً بلاستيكيًا وحقيبة الظهر .

«هيي يا فتى! سيفادر قطارك خلال نصف ساعة، لا تتأخر.»

«أوك»، أجاهه سليم .

هم فيزار بإغلاق الباب لكنه أمسك سليم من عنقه، غرس أصابعه في لحمه وقال بنبرة باردة كالثلج، «إن لم تكن في باريس حيث سينتظرك الرجل، سيعثر عليك ويقتلك، هل تفهم هذا؟» بلع سليم العقدة في حلقه وأوماً برأسه .
تركه فيزار .

سار مسافةً بنائيتين قبل أن يدرك أنه يسير في الاتجاه الخاطئ . نظر في ساعته . أمامه عشرون دقيقةً ليلحق بالقطار . فتح الظرف وأخرج منه جواز سفر يوناني يبدو أصلياً بصورته واسم مزور . أعاده إلى الظرف بسرعةٍ ونظر حوله ليتأكد أن لا أحد يراقبه . تذكره القطار في الظرف أيضاً، واصل سيره مجدداً، لا وقت لتضييعه .

دخل المحطة برعبٍ جديد، جرد ما معه، لديه أوراق تبدو رسمية ليُظهرها إن طلب منه ذلك ضابط شرطة، مجموعة

ملابس، ولعبةٌ محشوةٌ بمادةٍ غير قانونية بلا شك. إن أوقفه ضابط ليفتشه، بالتأكيد سيلفتُ الدب الانتباه. خمس دقائق.

بذل جهده ليناسبَ التذكرة في يده مع أرقام البواباتِ المدرجة على لوحات العرض.

شعر بتربيته على كتفه، التفت فجأة ليجد ضابط شرطة ينظرُ إليه بعبوس، هَوَّت معدته، تحدث الضابط قبل أن يستطيع سليم الهرب.

«إلى أين تذهب؟»

«لدي تذكرة» قال سليم فجأة.

«أرني إياها»، أخذ الضابط التذكرة من يد سليم المرتعشة ونظر إلى اللوحة، أشار يسارًا قائلاً «بوابة رقم 7 ، أسرع».

غمغم سليم بشكرٍ مرتبكٍ وبذل جهده ليسيّر دون ركض إلى البوابة. كان متأكدًا من أنه سيسمع صياحًا من خلفه يستوقفه. لم يجرؤ على النظر من أعلى كتفه.

واصل السير. واصل الحركة. ابحث عن البوابة رقم 7.

وجدها والتفت خلفه خطفًا. لا أحد يتبعه.

دقيقة واحدة.

استقل القطار ونظر إلى رقم مقعده في التذكرة، في الوقت المناسب تمامًا.

أخرج الدبَّ المحشو من حقيبته. لمحته امرأة تجلس على الجانب الآخر من الممر وابتسمت بعطف. لا بد أنه بدا بريئًا جدًا؛ فتى كبير يسافرُ بحيوانه المحشو المفضل. ضغط سليم

على الدبّ، يوجد شيءٌ ما صلب في حشوه. له شكلٌ مربع، أعاده إلى الحقيبة وحذّر نفسه من فضوله.

انطلق القطارُ. بدا القطارُ المجاورُ من النافذة كأنه يتحركُ إلى الأمام. ثم ظهرت الأشجارُ والأنفاق. أخضر ورمادي. حي وميت. كان في أمانٍ بقدر ما كان في خطر.

ناول المحصّلُ تذكّرتَه منتظرًا نظرةً اتهاميةً أو سؤالاً حتى. لكنه، بحقيته، كان يبدو واحداً من الطلبة الكثيرين في عربة القطار نفسها. جلس الطلبة الآخرون خلفه يضحكون بصخبٍ ويتبادلون المجلات. تحركَ المحصّلُ إلى العربةِ التالية، ووضع كل طالبٍ واحداً بعد الآخر سماعاته في أذنيه أو سقط في النوم برأسه على كتفِ الجالس بجواره. لا صوتٌ سوى همهمة.

تذكّرُ أصدقاء طفولته في أفغانستان. لو كانوا كبروا معاً دون الهجماتِ الصاروخية، بالطبع كانوا سيمرحون ويصخبون مثل هؤلاء، لكنّ للحرب تأثيراً انعزالياً ومخيفاً. لم يبقَ أطفالُ كابول أطفالاً وقتاً طويلاً.

روكسانا ليستَ مثل هؤلاء، بدت كأنها ورثتَ بعضَ رصانةٍ من أهلها الأفغان حتى وإن لم تطأ قدمها البلد قط. غرسَ فيها تحفّظٌ والدها التزاماً بالخوض في معاناة ناسِها. أعجبه هذا فيها، شك في أنه كان سيشعرُ بالميل نفسه لو كان في موقفها. لا يعرف ماذا كان سيفعلُ لو كانت لديه حياةٌ كحياة روكسانا. أبوان، مدرسة، بلدٌ ينعم بالسلم، لم يكن ليصيرَ سليم هذا، كان سليم هذا نتاجَ سلسلةٍ لحظاتٍ مربعة.

أدار الساعةً حول معصمه. توجد خدوشٌ قليلةٌ أخرى على زجاجها، من ليلة أمس ربما.. انظر ماذا يحدث لنا، بادر جان. لو لم يتأخروا في الرحيل عن كابول، لربما نالوا فرصةً أفضل، لربما كانوا يعيشون الآن حياةً هادئةً في لندن، بالقرب من أسرة خالة نجبية. كان هو وسميرة سيكونان في المدرسة الآن، يتلقيان دروسهما وينجزان واجباتهما المدرسية، ويتعلمان لغة جديدة. دارت في ذهنه صورةٌ كاملةٌ وخياليةٌ تمامًا مثل الرسوم المتحركة. لكن بادر جان فضّل أن يبقى وأسرته في كابول على أمل مجيء أوقاتٍ أفضل، رغم ازدياد التوتر والقتل والفقر.

لماذا اخترت لنا هذا؟ بماذا عاد علينا البقاء هناك وقتًا طويلاً بعد أن غادر الجميع؟

استيقظ بدفعةٍ. توقف القطار. نظر حوله ورأى ركابًا يستقلون القطار وآخرين ترجلوا بالفعل. رأى رجلاً يضع حقيبته على الرف العلوي.

سأله سليم: «معذرة... ميلان؟» وأشار إلى النافذة.

«سي»، أجاب الرجل وهو يومئ إيجاباً.

حمل سليم حقيبته واندفع ليغادر القطار، كاد يُسقط زوجين من كبار السن. رفع يديه إلى أعلى كاعتذار سريع. لديه ثلاثون دقيقة فحسب، كما أخبره الرجل، ليجد القطار الآخر إلى باريس. تمنى أن يلحق به، أخرج التذكرة من الظرف وحاول مجدداً مطابقة ما فيها مع المعلومات التي تعرضها الشاشات المضئية. باريس. بوابة رقم 4، عشر دقائق.

ركض.. إنه عند البوابة رقم 17 الآن، ظل يراوغُ بين المسافرين
وأمتعتهم التي يجرونها، دعا الله ألا يوقفه أحد.

سليم

52

توقف القطارُ في محطةِ باريس في الساعات الأولى من الصباح. نجح سليم في الوصول إلى فرنسا، لكنّ عليه قبل أن يواصل رحلته تسليم الطرد للأيدي الصحيحة. دعا الله أن يجد الرجلَ بسهولة.

بحث بعينيه في المحطةِ عن الزي الرسميّ أو شخصٍ يشبه الرجلَ الذي قابله في روما.

أمسكت يدُ ذراعه. حاولَ الابتعاد عنها لكنها كانت محكمة. استدار وبنظرةٍ واحدة عرف أن الرجلَ قد وجده.

لديه أسنانٌ صفراءٌ وعينان داكنتانٍ ثاقبتان. يرتدي سترة بوليستر سوداء وتيشيرت أسود لامعاً على صدره كتابة جرافيتي مائلة. بنطاله الجينز بالٍ وضيق.
«أنت الفتى.. جئت من روما».

أوماً سليم برأسه، رجح أن القواعد نفسها تنطبق هنا، فأبقى فمه مغلقاً.

«جيد. ألدك شيء ما لي؟»

ترك ذراعَ سليم، أخفض سليم الحقيبة من فوق كتفه وبدأ يفتحها.

«ليس هنا! أيها الأحمق! تعال».

تركه سليم يقودُه وسط الزحام، يغمغمُ مكبر صوتٍ في الأعلى بإرشادات للركاب المتدافعين في مساراتٍ متداخلة. سارا إلى دكّة قريبة من حائط خزانات، جلسا جنبًا إلى جنب، كأنهما ينتظران وصول صديقٍ في القطار القادم.

«افتح الحقيبة». وضع سليم الحقيبةَ على حجره، فتحها ببطء وأخرج منها الدبّ المحشو السخيف، وسلّمه للرجل.

ضغط الرجلُ على الدب بقوة، يتحسّسُ محتوياته، تفقّد عنقه وقدميه ليتأكد أن الخياطة لم تُمس. أخذ حقيبة الظهر من سليم راضيًا ووضع الدب فيها.

«أين جواز السفر؟»

مد سليم يده إلى جيبه الخلفي وأخرجَه. أخذه الرجل، فتح صفحة الهوية بصورةٍ سليم. ألقى بالحقيبة على حجرِ سليم. «انتهى الأمر. اذهب».

«لكن، جواز السفر... أرجوك...!» قال سليم بعصبية.

«ماذا؟» قال الرجل، كان قد نهض بالفعل واستعدّ للهرب من محطة القطار.

«أنا في حاجةٍ إلى جواز السفر».

«جواز السفر؟» لكنّه غليظة وثقيلة كأصدقائه في روما، أجاب بتهقئة عالية. «أتريد أن تدفعَ مقابله؟»

«ليس لديّ نقود. لكنني أحتاج إليه لأسافرَ إلى عائلتي»، توسّل إليه. كيف يساوم رجلًا كهذا؟ جواز السفر في جيب الرجل بالفعل، قريب جدًا إلى حد أن شعر بالرغبة في مدّ يده ونزعه منه.

«ثمانيمئة يورو»، قال الرجل بابتسامة، «بخصم خاص لك».

ليس في حافظته المخفية هذا المبلغ، كان بها ما حصل عليه من صفقةٍ أخرى عقدها في أثينا قبل مغادرته لكنه لم يرغب في فقدانه.

«مستر، أرجوك، لدي نقود قليلة. ثمانيمئة كثير جداً، سعر

أقل؟»

«كم معك؟»

أيجرؤ على إجابة هذا السؤال؟ إن هذا الدفتر الصغير بصورته واسم مزيف يمكنه مساعدته في الوصول إلى لندن، إلى أسرته. إنه يستحق كل ما لديه، قرر سليم.

«لديّ مئة وخمسون يورو».

«مئة وخمسون؟» قال الرجل مستكراً، «أأنت مجنون أيها

اللاجئ!»

ذهب جوازُ السفر. استدار الرجل بالفعل وسار خطواتٍ قليلة فناداه سليم.

«مستر، أرجوك، أخبرني كيف أذهب إلى لندن؟»

أمعن الرجل في سليم دقيقةً ثم تأفف وتقدم نحوه خطوة.

«لندن؟»

أوماً سليم برأسه.

«اذهب إلى كاليه. اللاجئون جميعاً يذهبون إلى هناك، من

كاليه يوجد نفق»، ضحك علامةً على أنه يرسلُ سليم إلى طريق

بأمل قليل في النجاح.. «ربما يحالفك أنت الحظ».

بمساعدة امرأة عجوز لها وجهٌ طيبٌ حدد سليم موقعَ كاليه على الخريطة. تقع على ساحل فرنسا الشمالي الغربي، في مواجهة إنجلترا مباشرة. تصل قناة مائية بين البلدين. اشترى تذكرةً إلى كاليه على الفور، لا رغبة لديه في استكشاف باريس ويتلهف على مواصلة طريقه. في الصباح التالي، ودون أحداثٍ كان في كاليه.

تجول هناك ساعات، ذاب في زحامها المختلط. ترك محطة القطار خلفه وجاب الشوارع يبحثُ بهمة عن الميناء. في طريقه، مر بمبانٍ شاهقة لها أعمدةٌ بهو سميكة وطويلة ونوافذٌ بشرفات. حتى المباني الأصغر لها شرفاتٌ مزخرفة، بوجوه ممتلئة معلقة على إطاراتها.

كان المألوف في كاليه رائحة البحر. تشمَّ سليم الهواء الثقيل المالح طوال الطريق إلى الميناء. أراحته رؤية رصيف الميناء، إذ كان يعرفُ جيداً جداً أسس وإيقاع نفير أبواق السفن وحركة مرور الركاب والشاحنات.

كان هذا الميناءُ جميلاً بشكلٍ خاص. تمتدُّ أصابع الساحل إلى مياه القناة الإنجليزية. تتشابك صواري المراكب رأسياً في المدى الشاسع للمياه والسماء. في الأبعد قليلاً ترسو سفنٌ عملاقة تستعد، مثل سليم، للرحلة التالية.

ترك الشارعَ وسار في دربٍ مفروشٍ بالحصى ليقترِبَ من السفن. لاحظَ رَجُلَيْنِ دَاكِنِي الشَّعْرِ يتجولانِ من بعيدٍ.. ميز الوجوهَ الطفيفَ المهزومَ للاجئينِ.

في الغالبِ أبدو مثلَهما، أنا فقط لا أَعترفُ لنفسي بهذا.

كان حدسُه صائبًا. إنهما أفغانيان، رَحِبًا باصطحابه إلى المخيم. بدأ يشعرُ بارتياحٍ بالفعل، سار معهما إلى مخيم اللاجئين الشهير في كاليه المعروف باسم «الغابة».

كانت الغابةُ كأنها باتراس نبتت في مكانٍ آخر، أرضٌ بياب قريبة من الساحل، عند حدودها يمكنُ للمرءِ رؤيةَ إنجلترا ومنحدراتِها البيضاءِ الشفافة التي تبدو من عصورٍ ما قبل التاريخ.

كان اللاجئينُ في الغابةِ ضعافًا، أعينُهُم مثبتةٌ على الأفق والوعد بحياةٍ أفضل. الغابةُ ليست مكانًا لضرب الجذور فيه. المخيمُ فسحةٌ في الهواء الطلق محاطةٌ بأشجارٍ باسقة، ومحددةٌ بأسوارٍ معدنية. دخل سليمٌ من ممشىٍ قذرٍ يحرسه ثلاثة رجال أمن. رغم تخوفه منهم، لاحظَ أن الآخرين ليسوا كذلك. رأى أحدُ الأفغان، يُدعى أكمل، الفضولَ في عينيه وأوضحَ له بهدوءٍ من يرحبُ بالمشاركة في حكيمته.

«إنهم لن يزعجوك، إنهم هنا فقط لمنع الجريمة، نحن نروح ونجىء كما نشاء، لكن الأمر مختلف في الميناء وعند النفق. هناك، يبحث عنا الضباط ولن يترددوا في جرك من قفاك إن أمسكوا بك».

«النفق؟» كان سليمٌ قد رتبَ ذهنه على ميناءٍ، لكن أكمل يتحدث عن نفق، النفق نفسه الذي ذكره الرجلُ في باريس.

«نعم النفق. أوه، أنت حديثٌ جدًا هنا!». ضحك. «النفق يمتدُّ من هنا إلى إنجلترا، مسافة قرابة خمسين كيلومترًا، عبره الكثيرون، أحيانًا بالشاحناتِ أو في حقائب السيارات أو سيرًا على الأقدام حتى، لكن يوجدُ هناك الكثيرُ من رجال الشرطة. أعرفُ رجلًا سار فيه مرتين، وفي المرتين أُلقي القبضُ عليه بمجرد خروجه من الجانب الآخر! هل تتخيلُ سوء حظه؟ مرتين!» ضحكَ معه الأفغانيُّ الآخر.

يرى سليم المخيمَ الآن. مستعمرة من أكواخٍ مرتجلةٍ بأسقفٍ من الصفيح وجدرانٍ من المشمَّع الأزرق، محاطة بأكوام من النفايات، لطمتُهُ الرائحة وهم يقتربون. يعيش هنا المئاتُ من الأفغان مع بعض العراقيينَ والiranيين، كما أوضحا له. يأتي نشاطُ الدعم مرةً يوميًا لتوزيع وجباتٍ بسيطة. تدبَّر بعض الرجالِ عملَ أفرانٍ سفلية رغم ندرة وجود شيء ما لخبزه. كان الوضع أسوأ من باتراس.

واصل أكملُ تعريفه بالأوضاع المزرية. المراحيضُ في أماكن متفرقةٍ لاستخدام الرجال، تفيضُ بالفضلات البشرية وتعلوها سحبٌ أسراب الذباب. لافتاتٌ عدة بالإنجليزية هنا وهناك.

نريد الحرية.

لا حياة في الغابة.

احترموا البشر.

« تريد الحكومة الفرنسية إخلاء المخيم لكن أغلبنا يطالبون بالحق في اللجوء. نأمل ألا يعيدونا. هل لديك أقارب في إنجلترا؟ »
« أسرة خالتي وأمي وأخت وأخ هناك أيضًا. أعني، أمل أن يكونوا هناك. »

« تأمل؟ »

« لقد افترقنا في طريقنا من اليونان إلى لندن. »

« واصلت أمك وحدها بطفلين؟ »

« نعم، لكنهم معهم أوراق، أوضح سليم. « أمل ألا يكونوا قد أوقفوا في طريقهم. »

« جئت إذن كما جاء بقيتنا، قال أكمل وهو يومئ برأسه تفهيمًا، أشكر الله أن لدى عائلتك أوراقًا، الطريق إلى هنا قبيح ولا يناسب أمًا مع طفلها وحدها بالتأكيد، ليحفظ الله أمهاتنا. »

ترك سليم كلمات أكمل عالقة في الهواء فترة قبل أن يتحدث.

« ألدريك أنت أقارب في إنجلترا؟ »

« نعم، أختي تعيش هناك مع زوجها وأطفالهما، وعدد من أبناء عمومتي أيضًا. ظللت هنا خمسة أشهر. جئت عبر إيران وتركيا، لكنهم قبضوا عليّ في اليونان وأرسلوني إلى مقر احتجاج. أخبروني أنهم سيعيدونني إلى إيران ما لم أغادر اليونان خلال ثلاثين يومًا، لكنني لم أكن لأعود إلى هناك أبدًا، بعد كل ما دفعته وكل تلك المسافة! لكنني الآن عالق هنا مع الجميع. »

« هل حاولت العبور؟ » طرح سليم السؤال البديهي.

« الميناء محاط بأسوار معدنية عالية. كما رأيت اليوم، ألم تر؟ النفق هو أفضل الطرق، لكنني ألقى القبض عليّ مرتين، الأمر ليس سهلًا. »

فهم سليم. لاحظ سور الميناء المرتفع بالفعل، كما لاحظ أن الميناء تحت حماية أكبر بكثير من المواني الأخرى التي مر بها. عليه وضع خبرة أكمل والآخرين في حسابنه. نفق بطول خمسين كيلومتراً فقط يفصل بينه وبين إنجلترا. ابتسم سليم لفكرة وجوده على هذا القرب، أخيراً.

«يمكنك المبيت معي الليلة، نحن خمسة نعيش معاً لكننا سنفسح لك مكاناً. وغداً نبحث عمّن لديه مكان مناسب. نحن نتشارك في كل شيء هنا. هكذا نعيش. مرحباً بك في الغابة يا صديقي!» مدّ أكمل ذراعيه بفكاهة ليقدم لسليم المخيم بكامل بهائه. ضحك سليم. حمل حقيبته وتبع أكمل إلى كوخه.

كان يتضور جوعاً لكنه لم يجد شيئاً ليأكله، وكان مرهقاً جداً ليذهب بعيداً للبحث عن طعام. كان شركاء أكمل في السكن صغاراً وودودين، تتراوح أعمارهم ما بين ثلاثة عشر عاماً وحتى واحد وعشرين. أكمل في سنّ وسط بين هذا وذاك، الفترة الانتقالية بين المراهقة والبلوغ. تحركوا وعدلوا أنفسهم لإفساح مكان لسليم، ومنحوه قطعة بالية من ورق الكرتون المقوى ليرقد عليها. حظي بنوم مريح تهدده جوقة شخيرهم.

في الصباح التالي، انشغل قاطنو المخيم بأخبار من الخارج. «سوف يزيلون المخيم! هذا ما يقولونه، سوف يأخذون الجميع.» «ماذا نفعل؟»

«علينا أن نذهب من هنا، علينا أن نترك المخيم قبل أن يأتوا ويعيدوننا جميعاً إلى أفغانستان.»
«أأنت مجنون؟ أين سنذهب؟»

«يمكننا أن نعبّر النفق جميعاً. إن ذهبنا معاً دفعةً واحدة، لن نستطيعوا إمساكنا كلنا، ستكونُ فرصنا أفضل. يجب أن ننفذَ هذا الليلة، ليلة العطلة الأسبوعية. في الغالب سيكون هناك رجالُ شرطة أقل.»

«كأن شخصاً واحداً لا يلفت الانتباه بما يكفي! تظنُّ أن علينا السير كلنا معاً لنلقِي بأنفسنا بين أحضانِ الشرطة؟»
استمر الجدُّ لساعتين، تماماً مثلما ضجَّت مدينة باتراس من مخيمها، سئمت كاليه من الغابة. انجذب نظرُ سليم وهو يستمع لجدالهم إلى رجلٍ عجوزٍ يجلسُ على دلوٍ مقلوبة يراقبُ الآخرين يتجادلون دون أن يشارك. غريب، فكَّر سليم، إذ كان من النادر أن يتركَ رجلٌ في مثل سنه أفغانستان. كان قدرُ الرجال من مثل سنّه، ما لم يتوفر لهم الخروج الآمن من البلاد، أن يُدفنوا في ترابِ أفغانستان المشبّع بالدماء.

بدا الرجل مألوفاً على نحو غريب، مع ذلك لم يستطع سليم التعرفَ عليه. حدِّق فيه منتظراً أن يشكِّل ذهنُه رابطاً ما، نظر إليه الرجلُ وأمال رأسه قليلاً. نظر سليم بعيداً لحظةً، لكنه عادَ ينظر إليه بابتسامةٍ موجزة في المقابل.

هل يعرفني؟ أم لاحظَ تحديقي إليه فحسب؟

أبقى سليم رأسه مطرقاً وحين رفع بصره مجدداً كان الرجل قد اختفى.

ذهب عددٌ من الرجال لاستكشاف جزءٍ جديد من المدينة، قد يزيلون الغابة لكنهم لن يوفروا مأوى بديلاً للاجئين. يقول البعض إن الشرطة في انتظار التوقيت المناسب للاقتحام وإزالة اللاجئين. لم يكن ليصل في توقيتٍ أسوأ من هذا.

أكلوا أرزًا مسلوقًا بالطماطم. لم يكن مذاقه جيدًا لكنه أذفأ جوفهم.

في بداية المساء، قرر اثنانٍ من شركاء أكمل في السكن مغادرة الغابة وإنشاء مخيم في مكانٍ آخر. صدقًا من يقول إن أيام الغابة معدودة. لمَما طاساتهما الصدئة، وأكوابهما وملابسهما الإضافية في أكياس بلاستيك وانطلقا. حزنَ أكمل لرؤيتهما يغادران، لكنه عرضَ على سليم البقاء مكانهما، فقبل سليم عرضه شاكرًا.

في الصباح التالي، سار سليم إلى المراحيض الموبوءة، كان المخيم هادئًا، بالكاد أشرقت الشمس ولم يستيقظ سوى القليل من الشباب. اصطدم وهو يمرّ بتجمع من الخيام بالرجل العجوز نفسه الذي لاحظته بالأمس. ندتُ عنه شهقةً خافتة! ابتسم الرجل.

«صباح الخير يا بني».

«صباح الخير، معذرة... لم أرك تقف هنا».

«من تتقدمُ به السن تسهو عنه الأنظار بأسرع مما يتخيل»، قال الرجل مبتسمًا.

«لا سمح الله، إنه خطئي». قال سليم بتهذب. لا بد أن الرجل في السبعين من عمره على الأقل، ببشرة زيتونية رقيقة ولحية وشارب بيضاوين تمامًا. تغضنت زاويتا عينيه وهو يبتسم. بدا حاجباه الثلجيان ثقيلين جدًا على عينيه. يرتدي قميصًا طويلًا بلون بيج وبنطالًا من درجة أفتح قليلًا.

«لقد وصلت حديثًا؟» قال الرجل.. «ما اسمك ومن أين أنت؟»

«اسمي سليم حيدري. أسرتي من كابول».

«أتعرفُ أن الجميع هنا يقولونَ إنهم من كابول؟ لكنني أعرف من لهجتكَ أنك من هناك بالفعل، سر معي قليلاً أريد أن أتعرّف إليك أكثر.»

أطاعه سليم، مفتوناً بوقع صوته الهادئ المحبّب. سارا على مهل مارّين بكوخ أكملَ نحو الطرف القصيِّ للمخيم، حيث يمكن رؤية منحدرات إنجلترا الطباشيرية.

أشعر بأنني أعرفك. أراد سليم أن يقول، لكنه ظلَّ صامتاً وتبع الرجل. سارا في الدرب الرئيس الممتدّ عبر الغابة.

«عائلة من كابول. ما اسم أبيك؟»

«محمود حيدري». أجابه وهو يتحسّس رباط الساعة البالي حول معصمه.

«حيدري. محمود حيدري؟ هذا الاسم يبدو مألوفاً جداً، دعني أرى، أتقصدُ محمود حيدري، المهندس؟ الذي يعملُ في وزارة المياه والكهرباء؟»

شعر سليم بدغدغةٍ في صدره.

«نعم، نعم! أكنت تعرف أبي؟» سأله وقد توقّف عن السير ينظر إلى وجه الرجل. انفرجت شفتا الرجل الرفيعتان عن نصف ابتسامة.

«ألا ترى هذا الشيب يا صديقي؟ أنا مسنٌّ بما يكفي لأعرف أكثر من مجرد عدد قليل من الرجال. أنا أعرف أجيالاً من الرجال، إن جاز القول، يوجد قدرٌ كبير من تاريخ كابول في رأسي هذا.»

ابتسم سليم.

«بالطبع أعرفُ أباك، ليس هنا معك». بيان هادئ أكثر منه سؤال.

«لا، لقد أخذوه و... قتلوه». قال سليم بسرعة لا يرغب في الإطالة في هذا الشأن.

«عار، عازٌ حقيقي، سُنْكَ قدرٌ كبيرٌ جداً من دمائنا على مدار السنوات. وأمك؟ كانت معلمةً. أين هي؟»

«إنها مع أختي وأخي الصغيرين، ظني أنهم في لندن. افترقتنا خلال أسفارنا».

«آه، فهمت. عسى أن يكونوا بخير في لندن وفي انتظار عودتك إليهم. أنت شجاعٌ لعبورك البحار وحدك، أتمنى ألا تكون قد واجهت صعوبات كثيرة في طريقك إلى هنا».

«ليس بأكثر ولا بأقل من الآخرين»، قال سليم، يفكر في علي، فتية أتيكي، باتراس، باجاني، من انتهت رحلتهم في المياه الصخرية، ومن لم يسعهم الخروج من كابول قط.

«حكمةٌ منك أن تعرفَ هذا، نحن جميعاً عبرنا مئات القمم الجبلية لنصل إلى هذا الحد، وأمامنا المزيد قبل أن ننجح في الوصول إلى أي وجهة يقدرها لنا الله».

«أنا قلقٌ بشأن ما قدره الله لأخي الصغير»، اعترف سليم، وهو يحفرُ في الأرض بطرفِ حذائه. «إنه يعاني من مشكلةٍ في قلبه. استطعنا شراءَ بعض الأدوية له في تركيا، لكننا بعد ذلك لم نستطعُ أخذه إلى أطباء مرة أخرى».

«ثمة أمور خارج سيطرتنا، لكن ثمة حكمة في ما يحدث، سواء آمنّا بهذا أم لا.. لنجلس». قاد سليم إلى صخورٍ صغيرة

قريبة، «لنتحدث عن أشياء سارة أكثر من مصير الغابة. سليم جان، أعرف والدك من سمعته. كان مهندسًا ذكيًا، أحد مواهب كابول الواعدة، أكنت تعرف الكثير عن عمله؟»

«لا يا عمي»، أجابه سليم باحترام. احمرَّ وجهه خجلًا من جهله بمشروعات أبيه. «أعرف فقط أن عمله كان يتعلق بالمياه». قال الرجل بسماحة «كنت صغيرًا بلا شك. كان مجال عمل أبيك توصيل المياه إلى المناطق النائية في كابول. كانت لديه مشروعات ربي عبقرية حاول الدفع بها أعلى جبال البيروقراطية، حين كانت جبال البيروقراطية هي العائق الوحيد.

«فيما بعد، ظهرت في طريق مشروعاته عوائق أكبر بكثير. لم تكن هناك جدوى من محاولة تحقيق أي شيء في كابول في تلك الأوقات. كان الناس مذعورين، لم يكن شيء يتحقق. كانوا يحاولون البقاء على قيد الحياة فحسب. حين قُتل أبيك، هل تركك أنت وأمك وحدكما للعناية بالصغيرين؟»

«نعم. لم يكن لدينا مال. وكنا خائفين من أن يأتوا لأخذنا نحن أيضًا. كان علينا مغادرة كابول.»

«ليس من السهل أبدًا أن يترك المرء وطنه، خصوصًا حين تتغلق جميع الأبواب الأخرى في وجهك.»

«لم يترك لنا أبي شيئًا. ولم يكن من فائدة لبقائنا هناك. كان معظم أقاربنا قد غادروا بالفعل. خالتي وزوجها يعيشان في لندن، حياة عادية، ليست مثل... ليست مثل هذه، لم يرَ أبناء خالتي سوء الأوضاع في كابول. كان من الممكن أن تكون تلك قصتنا نحن أيضًا.»

لم يقصد أن يبدو حاقداً كما بدا، كان يحاول إبقاء شعوره هذا مدفوناً لكنه ظل يطفو على السطح من وقتٍ إلى آخر، خصوصاً حين يغلبه التعب من رحلته.

«من الجائز بالطبع أن تختلف قصتكم لو كان والدك قد غادر بكم من كابول في وقت مبكر. لربما كنت تعيش الآن في مكانٍ ما في أوروبا لاجئاً شرعياً، فقط لو كان الله قد قدر لكم ذلك. عليك فهم شيء ما آخر، أنت تظن أن بقاء والدك في كابول ليواصل عمله كان بلا جدوى، لكن هناك مئات الناس يخالفونك رأيك هذا.»

«ماذا تقصد؟ أي ناس؟»

«أي ناس؟ مئات الناس الذين وصل إليهم الماء بسببه، مئات الناس الذين بقوا على قيد الحياة بسببه. كان الشخص الوحيد الذي أصرَّ على تلك المشروعات، طالب بها. فيما بحث الآخرون عن مصالِحهم الخاصة، نقود وأسلحة ليملؤوا كروشهم بدلاً من المساهمة في إطعام شعب كابول. هذا هو الفارق الذي أحدثه أبوك، غير حياة الناس، لم يزر وجوههم مطلقاً، لكنه أنقذ حياتهم.»

«لم أكن أعرف»، قال سليم، صوته مكتومٌ لشعوره بالذنب.

«كنت صغيراً»، أجابه العجوز برقة.

حدق سليم إلى حدائه وطرف بعينه ليحبس دموعه. يستغرق الأمر حياةً بكاملها لتتعرفَ على والديك. بالنسبة إلى الأطفال، الوالدان أكبرُ من الحياة نفسها بأذرع ترفعهم بلا عناء وحضنين دافئين حين يحبُّون إليهما. كأنهما وُلدا يوم ولادة الأطفال، لم يوجدوا من قبلهم قط.

فيما ينمو الأطفالُ نحو سن المراهقة، يتغيرُ الأبُّ، يصير سلطنة، أحد مصادِر الإجابات وصوت التويخ. وبمرور الوقتِ وحسبَ الظروف، ربما صار محلَّ كره أو منافسة أو استجواب أو هزيمة.

فقط حين يكبرُ الأطفالُ يمكنهم تصور آبائهم بشكلٍ مكتمل، كزوج، كأخ أو كابن، حينها فقط يرى المرء كيف يتعاملُ والده مع العالم خارج بيتهم. لدى سليم شذراتٌ متناثرة عن أبيه، أغلبها ذكرياتُ طفل صغير، يعرف أنه سيقضي بقيةَ حياته في إعادة تركيب أبيه من تلك الشذراتِ التي يمكنه تذكُّرها أو جمعها من أمِّه.

لكن أولاً، عليه أن يعترفَ بما شابَ ذكرياته خلال العام الماضي من غضبٍ مكتوم نحو بادر جان لإبقائهم في كابول في حين كان عليهم الهروب. لكنه فعل ذلك لأنه يدركُ أهمية عمله. حين أحسَّ بأن أسرته في خطر، وضع خطةً للهروب بالفعل، لكن الوقت كان قد تأخَّر حقاً.

يجب أن تفخرَ بأبيك يا بني.

قال سليم متلعثمًا، «كنتُ... كنتُ أحبُّ أبي جدًّا».

«بالطبع كنتَ تحبه، أنت تسأل فقط، تريدُ أجوبةً، هذا طبيعي.

هذا بالضبط ما كان أبوك سيفعله».

تذكَّر سليم ما قاله العجوزُ من قبل فسأله: «أكنتَ تعرفُ أمي

أيضًا؟» يحاولُ استعادة نبرةِ صوته الطبيعية.

«أمك، اسمها... أوه، يا لذاكرتي الشقية... ما اسمها؟»

«فريبًا».

«آه، نعم، فريباً جان».. قال، لكنه بدا لسليم أنه يعرف الاسم بالفعل. «شابة رائعة، كما قلت لك، أتذكر حين كانت معلّمة، كانت تمنح كل تلميذ وكل درسٍ أهميته. أتعرف، حين كانت صغيرةً، قسى عليها العالم. لكنها لم تدع الظلم يلوثها. إن قابلت تلميذاً سابقاً لها، سيشرّفك السمع عن أي نوعٍ من المعلمات كانت».

«كيف كنت تعرفها؟»

«يمكنك القول إنني كنتُ صديقَ جدّها. كان لديه بستانٌ جميل ووارف، كانت كابول كلّها تحسده عليه. لكنني لم أرها كثيراً بعد أن صارت شابة، سررتُ حين سمعتُ خبر زواجها السعيد بأبيك. جعلني نجاحهما أشعر بالفخر. أتعرف يا بني، أنت سعيد الحظ لأنني أرى والديك كليهما فيك».

لم يكن سليم ليستخدم نعت «سعيد الحظ» ليصف نفسه. قد يكون أي شيء ما عدا سعيد الحظ في ذلك العام الماضي.

«إذاً، بني. أرى في وجهك أنك قطعت طريقاً صعباً. لكن كيف ستصل إلى إنجلترا؟»

«لا أعرفُ تحديداً لكن هذا النفق هو أفضل الطرق في الغالب. لقد ذهبْتُ إلى الميناء والأسوار هناك منيعة، مع ذلك لا أرى كيف يمكنُ هذا، الجميع تقريباً ألقى القبض عليهم وهم يحاولون».

نهض الرجل وسهمَ بعينيّه نحو القناة. تسهّل من موقعه رؤية التيارات، خيوط مائية رفيعة بدرجة لونٍ مختلفة عن سائر المحيط، كدهاليز سرية في الأعماق.

«مهما علتُ قمةً الجبل يا بني».. قال العجوز. «يوجد دائماً طريقٌ إلى الجانب الآخر».

لأسبوعين، ظل الفتية يتسكعون في المجهول، وقت أصعب بكثير من السنوات التي قضوها في التسلل لعبور الحدود. خلال هذين الأسبوعين، لم يبدُ للعجوز أدنى أثر. سأل سليمُ أكملَ عنه، لكنَّ شريكه في السكن رفع كتفيه وقال إنه لا يعرفُ كل نفرٍ من مئات الأفغان في المخيم.

كل يوم تأتي إلى المخيم سياراتٌ، يترجلُ منها رجال بستراتٍ مضادةٍ للريح وبناطيل مكوية جيداً ليمسحوا المشهدَ بأعينهم. يشيرون بأيديهم، يسجلون الملاحظات في أوراقهم ويلتقطون صوراً قبل أن يتصافحوا بالأيدي ويقودَ كل منهم في اتجاه مختلف. شيء ما يجري تنفيذه.

وضع مجموعةً من الفتية خطةً. خلال أيام قليلة ستبدأ عطلةٌ ما. كان رجالان قد حشدا قرابةً مئتي لاجئ. كانت الفكرة أن ينتهزوا فرصة العطلة، حين يكون أغلبُ حرس الحدود في بيوتهم مع عائلاتهم. سينشغلُ طاقم العمل الأساسي في ذلك اليوم بالوجبات الاحتفالية وقليل من الشرب في أثناء العمل. لا أحد في المخيم يعرفُ سبب العطلة ولا أحد يهتم حقاً. المهم بالنسبة إليهم أن يستغلوا انشغال الفرنسيين بالعطلة، لينشغلوا هم بشيء آخر.

ظلوا يتحدثون عن الأمر يوميًا، يقلّبون النظرية لتتبلور إلى خطة ملموسة.

«إن ذهبنا كلنا معًا دفعةً واحدة، كم منا قد يتم الإمساك بهم؟ قليل ربما، لكن أغلبنا سينجح في العبور».

«أترى؟! حتى أنت تقول إن القليل سيُقبض عليهم».

«كل يوم يحاول عددٌ قليل منا العبور، وكم منهم ينجح؟ ستكون فرصنا أفضل. إنهم سيزيلون الغابة. قد تكون هذه أفضل فرصنا».

قلّب سليم الفكرة في رأسه ورأى أنها خطة معقولة. لكن غزو النفق بمئات اللاجئين يبدو أمرًا لا منطقيًا. لقد ظل طوال الوقت يعبر الحدود وحده، لئلا يلفت الأنظار ما أمكنه.

استمع من بعيد، يتمنى أن يسمع رأي شخص يثق به، لكن الأصوات التي أراد سماعها أكثر من أي صوتٍ آخر كانت بعيدة جدًا ليسمعها.

قرّر، الوقت يمر، هذه النقود لن تستمر معك أطول من هذا. بدأ العمل مع شروق الشمس. تملّل الشباب، أقدامهم قلقة. راقبهم سليم وأكمل من بعيد.

«يبدون كأنهم سيتفرّقون أشتاتًا قبل البدء بالفعل».. قال أكمل. «إنهم مجانيين».

عض سليم شفّتيه وهو يسير. رغم أنه لم يقرّر بعد هل سيتبع الآخرين أم لا، لكنّ قدميه كانتا قلقتين أيضًا.

«ربما كانوا كذلك، وربما ليسوا كذلك».. قال. ثم بقرار مفاجئ ركض إلى الكوخ الذي يتشارك فيه مع أكمل، أخذ حقيبة ظهره

وعلّقها على كتفيه .

«تمنّ لي الحظ يا أخي . مَنْ يدري؟ ربما سأعودُ لكنني أريدُ أن أحاولَ على الأقل.» .

الساعة الحادية عشرة والربع ، بقمرٍ برتقالي باهتٍ يقترب من الأرض في سمائه ، بدأ الشبابُ مسيرتهم ، حشدٌ هائل من مئة لاجئٍ يتجهُ نحو النفق . تفرّقوا في مجموعاتٍ صغيرة ، يتحدثون همسًا ويضحكون من حينٍ إلى آخر لكسر الرهبة . مع ذلك ظل أغلبهم متجهّمين وصامتين .

أسرع سليم ليلحقَ بالمسيرة ، الدربُ مألوفٌ له ، كان قد جلس أعلى التلة وحدّق إلى مدخل النفقِ مراتٍ كثيرة ، لكنه لم تواته شجاعته ليقتربَ منه . وصل الشبابُ إلى حاجز الأسوار المعدنية . كانت الأسلاك مقطوعة في عدد من الثغرات تُفري بالاحتحام . كالآخرين ، تسلل سليم من أحدها ، تألّم وأسلاك الحاجز تُمسك ظهره كالمخالب .

مدخل النفق ، تجويفٌ أسمنتي في سهلٍ معشوشب ، محاط بتلالٍ خضراء . مداخلُ للقطارات في كلا الاتجاهين تشبه الأفواه المشدوهة ، تقودُ تشابكات القضبان إلى الفتحات السوداء . تفصل مساحة ضيقة في منتصفه بين مسار القطارات ومسار السيارات ، كان السهلُ في مجمله بمثابة فراشٍ للمعدن ، والرصيفُ والأسمنت ، يتوهّج بأضواء صفوفٍ من اللمبات . سياراتٌ قليلة على الطريق الليلة .

ترك سليمُ الآخرين يقودون الطريق . المسيرة طويلة ، فرك يديه معًا ليدفئهما ، كان شاكرًا للسترة الثقيلة التي منحَه إياها

أحد الشباب في المخيم. اقتربت ظللهم الداكنة من مدخل النفق، تبحث عن الحرس، أو أضواء أو صفارات الإنذار. ظل الليل ساكناً.

اذهب معهم، سيصلون إلى إنجلترا سريعاً، هذه هي الفرصة.

في مجموعة من اثنين أو ثلاثة كل مرة، دلفوا إلى النفق واختفوا عن النظر. وقف سليم خلف شجرة يراقب من موقعه متوتراً. ضرب جذع الشجرة بغضب.

كفى هذا، سوف أتبعهم.

وما إن قرر تتحيةً مخاوفه جانباً وهمّ بالمغامرة، سمع الصيحات العالية. حطمت الأضواء البيضاء الهالة البرتقالية الناعمة للقمر. ظهرت ثلاث سيارات شرطة وتوقفت عند المدخل بصرير إطاراتها. تقود كشافات أضوائها الطريق.

هوى قلبه، يوجد الكثير جداً. استمر الأمر ساعات عدة. اقتيد الشباب خارج النفق، أيديهم مقيدة خلف ظهورهم، يجرون أقدامهم بيأس. كانوا قد فكروا في إمكانية القبض على عدد قليل منهم لكن الأمر كان أسوأ من ذلك بكثير. سقط نصفهم تقريباً حسب تقدير سليم. كل ما فعلوه، كل النقود التي أنفقوها والأخطار التي واجهوها والليالي الباردة التي تحملوها.. كل هذا ذهب هباء.

في الغالب ستتولى السلطات البريطانية أمر القبض على الآخرين على الجانب الآخر. ماذا سيحدث لهم؟ هل سيمنحون الفرصة للتقدم بطلب اللجوء أم ستمّ إعادةتهم إلى فرنسا؟ ليست ليلة مناسبة للتحديق إلى القمر. حين غادر الجميع المشهد أخيراً ما عدا سيارة شرطة وحيدة، استدار سليم وعاد أدراجه إلى الغابة.

فريباً

55

تعاملنا نجيباً جان جيداً. أرى تعبيرَ وجه حميد زوجها. لا يرغبُ في شيء أكثر من رحيلنا. تمنح ألمانيا اللاجئين مزايا أفضل بكثير، كما يقول، مع أنه لا يوضِّح لماذا لا يخطط للذهابِ إلى هناك هو نفسه.

عرفتُ ببطء، حين قابلتُهما، أن أختي ليست لديها أدنى فكرة عن عدم ترحيبه بنا في إنجلترا، حتى أنها كانت تدخر لنا بعضَ النقود، ليكونَ لدينا طعامٌ وملابس، لحين استخراج الأوراق الرسمية والتقدم بطلب اللجوء.

يراني زوجها دخيلاً. يتمنى أن نختفي. لا يستطيعُ النظر إليّ في عينيّ مباشرة ويتعثّر حتى في أبسط المحادثات.

أريدُ أن أخبره بالأّ يطلق هكذا. تلكم الأيام، حين كان غزله ووعوده الرومانسية يملآن سمائي، صارت أوقاتاً يستعصي عليّ تذكرها. حدث الكثير جداً منذ ذلك الحين حتى الآن. مع أن محمود، توأم روحي، لم يعد إلى جانبي الآن، لكنّ سنيّ معه أكبر من أحلام المراهقة، أنا ممتة للوقت الذي عشناه معاً، على قصره، وللأطفال الذين أنجبناهم.

لعب حميد، فتى البستان، دوره في أن قابلتُ محمود. زال شعوري بالفدر ما أن عرفتُ محمود. لم يكن أكثر الطرق مباشرةً لكنه أوصلني إلى بيتي.

حميد لا يفهمُ هذا، ولا يمكنني توضيحه له لأنه زوجُ أختي ولا أريدُ فتح أبوابٍ أُغلقت بإحكام منذ أمدٍ طويل. قلبٌ نجيبٌ طيبٌ وواسع، لا أريدُ التقليلَ في أي نياتٍ سيئة.

حتى كوكوكل، أشعرُ نحوها بالامتنان لأنها دفعتْ بنجيبية تحت أنفٍ شيرين جان. كانت هي مَنْ فكّرت أن أجمل فتياتها، ابنتها الحقيقية، هي الأجدرُ بابن جارنا المحترم. أعرفُ أنه غيرُ خياراته سريعاً حين أخبرته أمّه بجمال نجيبية وتوقّف عن الذهاب إلى البستان. أبقى خياره سرّاً، أجبناً بكثيرٍ من أن يعترف بهذا حتى لنفسه.

بكيْتُ أياماً في حين لم يكن عليّ ذلك، نحن قصارُ النظر كثيراً لنستمع باللحظات التي تستحقُّ الاستمتاع بها.

رأتُ خالة زيبا، أم محمود الغالية، ما لم يره الآخرون. وكان زوجي يثقُ بأمه. كنتُ محظوظةً جداً لأفوز بهما هما الاثنان. لقد اختار الله لي نصيبي بحكمته الأزلية. أبدو في صورة زفافنا واجمةً وحائرة. رفعتُ خالة زيبا طرحتي الخضراء ونظرتُ إلى عيني مباشرةً بدفء كما تخيلتُ أمي تنظر إليّ.

تشابكتُ أيدينا أنا ومحمود ذلك اليوم، صلصلتُ أساورُ أمي برقةً لفرحها الخاص. نظر إليّ أبي بحزن. تشبهينها تماماً يا بنيّتي.

أتذكّرُ كيف غصّ حلقي، كيف افتقدتُ أمي التي لم أرها قط، وجدّي الذي ربّاني والعجوز الذي قابلته في البستان ووعدني بإنارة الطريق أمامي. كنتُ مرتبكةً من الرجل الواقف إلى جانبي، زوجي حديثاً، لكن كلَّ من كنتُ أفتقدُهُم حينها بشدة، تلك الوجوه

التي لم أعد أراها سوى في أحلامي، همستُ في أذني أن كل شيء سيكون على ما يرام.

ورث أطفال نجيبة ملامح أمهم الرقيقة وطبعها الطيب. ورثوا من أبيهم طبيعته القلقة فقط. أراقبهم في المتزه، يتسلقون السلالم ويضحكون وهم يسقطون بظهورهم أو يتزلقون. تشعر سميرة أنها كبرت على اللعب معهم، إنها شابة تقريبًا الآن ولم تعرف في طفولتها الملاعب سوى للاختباء فيها في الليالي الممطرة. أتساءل إن كانت تفكر في هذا وهي ترى الأطفال يتأرجحون.

تتحدث الآن عبارات قليلة لكنها تتقدم ببطء. تنتظر مثلي عودة سليم إلينا، أعرف أنها ستشعرُ بالاكتمال مجددًا حين تراه، ستغدو مكتملة ورائعة.

عزيز عصبِي جدًا ليتجول بعيدًا. يراقب الأطفال الآخرين يلعبون ويقلد حركاتهم من بعيد. سمت قدماه وصارتا تحملان وزنه جيدًا. نحيلُّ لكنه يبتسم بشفتين ورديتين وعينين مشرقتين إلى حدٍّ يجعل عيني تدمعان. شكرًا لك يا الله. شكرًا لك.

شيء ما يخبرني بأن سليم قريب. أظل أنتظره ويخطر لي أن هذه هي الأمومة، أليس كذلك؟ انتظار انقباض البطن البارز على أهبة الاستعداد، سماع صياح الجوع في الساعات المقمرة، سماع صيحة اللهفة حتى في ضجة المرور أو الموسيقى العالية أو ضجيج الماكينات. الأمومة أن أنظر إلى كل باب، كل هاتف، وكل ظل يقترب فأشعر بتلك الحركة الخفيفة، تكة بدء فرصة جديدة لأعود أمًا مجددًا.

حلمتُ ليلة أمس بسليم، يسبحُ في محيطٍ أزرقٍ صافٍ بأموج
تتلاها تحت شمسٍ دافئة. حمل النسيم رذاذَ مياه البحر المالحةِ
إلى خديّ وأنا أراقبه. كان الماءُ يحيطُ به من كلِّ جانبٍ وكان
يسبحُ بسلاسةٍ وضرباتٍ قويةٍ كأنه ابنُ المحيط. رأيتُ ابتسامته
من بعيد، النصرُ الممزوجُ بالشقاوةِ والفخرُ لفتى وجد طريقه إلى
بيته.

كان حلمًا جيدًا بالنسبةِ إلى أمّ. استيقظتُ مفعمةً بأملٍ لم
يراودني منذ وقتٍ طويل. أشكرُ الله على الماء، الماء خير، الماء
نور.

« كم نفرًا قبضوا عليه؟ هل ضربوهم؟ »

« لا أعرف، قرابة خمسين... أو ستين. ليست لدي أدنى فكرة عما حدث على الجانب الآخر من النفق أيضًا. »

كان الوقت صباحًا وسليم يخبرُ أكملَ بما رآه للمرة الثانية. مع أنه حكى له كلَّ شيء الليلة الماضية، لكن أكملَ أراد سماعه مجددًا في وضح النهار.

« كنت أعرف أنها فكرة سيئة، » قال أكملُ وهو يهزُّ رأسه. « كانوا سيقبضون عليّ. ليس لي حظ حين يتعلق الأمر بالشرطة. »
« لكننا لسنا بحالٍ أفضل. انظر إلينا. إلى متى سيمكننا البقاء هنا؟ لقد سئموا منا. المدينة تريد التخلص من الغابة. والعاملون أيضًا في الصليب الأحمر يقولون إن المشكلات في طريقها إلينا. »
« إلى أين سنذهبُ سليم؟ لا أوراق لدينا ولا نقود. »

جلس أكملُ على الأرض يضمُّ ركبتيه إلى صدره. أسند جبينه على ذراعيه المعقودتين. « لو كنت أعرف مدى سوء الوضع هنا، لا أدري أكنتُ سأتركُ أفغانستان أم لا، ربما كان الموتُ على أرضنا أفضلَ من مطاردتنا أينما ذهبنا كالكلاب الضالة. »

كانت الفكرة نفسها قد خطرت لسليم لكنّه صرفها الآن بسرعة.

«أنت تتحدث كرجلٍ عجوز، كان علينا أن نرحل، إن لم نخطط للغد فلن يأت.»

رفع أكملُ بصره. اقتصرتُ أذناه لليقين في صوت سليم. بدأت الفوضى بعد ذلك بساعة. خرج أكملُ وسليم ليعرفا ماذا يحدث، تجمعت تظاهرةٌ من الشباب الفرنسي أمام المخيم، بعضهم يهتفُ وآخرون يلوّحون بقبضتهم في الهواء، يحملون لافتات تقول. لا للحدود، لا لسجن المهاجرين، حقوق الإنسان الآن. «انظر إليهم جميعاً!» قال أكملُ مدهوشاً.

كانوا بالمئات هناك، رجال ونساء، كان هناك أيضاً ما لا يقل عن ثلاثين ضابطاً شرطةً بالزي الرسمي الأسود الصارم والخوذات النصفية، يبذلون جهدهم ليحيطوا بالمتظاهرين والسيطرة على الفوضى. كان الموقف غريباً. الشرطة هنا من أجل المتظاهرين، والمتظاهرون هنا من أجل الغابة.

«إنهم يهتفون من أجلنا نحن!»

لكن سليم رأى ما هو أكثر من ذلك حين نظر إلى الحشد. لا بد أنهم يعرفون شيئاً ما. ربما بلغهم خبرٌ ما عن شيء ما. راقبهم والمزيد من النشاط ينضمون إليهم، اثنان أو ثلاثة كل مرة.

«أكمل، هذا ليس جيداً. سيحدث شيءٌ ما. علينا الذهاب من هنا.»

«الآن؟ وقد وجدنا لتونا مئات الأصدقاء؟ أراهن أن الأحوال ستتحسن، علينا الانتظار قليلاً فحسب وسنرى.»

«أنا لا أريد أن أرى، سيُلقي القبض علينا وسط أيّا كان ما سيحدث. تمامًا مثلما في أفغانستان.»

تنهّد أكمل.

«ربما علينا إنشاء مخيمٍ في مكانٍ ما آخر في المدينة، كما فعل الآخرون.»

«لا»، قال سليم. «ظنّني أن علينا عبورَ النفق.»

«النفق؟ هل فقدتَ عقلك؟»

«أعرفُ... لكن انظر أين جميع رجالِ الشرطة الآن. إنهم هنا! قد يكون هذا هو أفضلُ إلهاءٍ لهم حقًا.»

كان أكمل يائسًا بقدر ما كان سليم. سكتَ فأعلن بصمته ما يكفي.

«اسمع، أكمل، لقد ظللتُ أفكّر في الأمر، يوجد مدخلان للنفق، دخل الرجالُ جميعًا من مدخل السيارات والشاحنات، لكن هناك المدخل الآخر.»

«أتعني مدخل القطارات؟»

«نعم، مدخل القطارات.»

«هذا موتٌ محقق، حاول البعض القفز على سطح القطار في أثناء مروره. صعقتهم كهرباء الكابلات. وهل تعرفُ مدى سرعة التدحرج من أعلى؟ إن صدمك أحدُ تلك القطارات حتى أمك لن تتعرف على جثتك.»

«ظنّني أن الأمر يستحقُّ المحاولة. ما زالت الفتحات في الأسوار ويمكننا الذهاب لنرى. أنا لا أرى أيّ حلٍّ آخر. يستحيلُ التعلّق بشاحنات النقل، وسفنُ الشحن تحت حراسةٍ مشددة. إنه ليس كالمواني الأخرى، سأحاول العبورَ سيرًا على الأقدام، بجذء قضبان القطار.»

أخذ أكمل نفساً عميقاً .

«متى ستطلق؟»

«هذا المساء، ما إن تبدأ الشمسُ في المغيب. سيساعدنا

الظلام.»

فكر أكمل في منطق سليم، أوماً برأسه موافقاً .

«هذا وقت مناسبٌ للصلاة، على ما أظن.»

توضأاً بقطرات الماء المتساقطة ببطء من صنوبر المياه الجارية في الغابة. وقفاً جنباً إلى جنب، شعراً براحةٍ ما أن بدأ معاً الحركات المألوفة، كالتلفح ببطانيةٍ في ليلة باردة. تجاهل سليم شبهةَ النفاق لأنه يصلي حين يتملكُ منه اليأسُ فحسب وتمنى ألا يؤاخذَه الله على ذلك.

حين انقضى النهار، لم يقولا أي شيءٍ للآخرين في المخيم. جمعا الطعام الموجود بالكوخ ودسّاه في جيوبهما. أمامهم رحلة سير خمسين كيلومتراً، سيكونان بحاجةٍ إلى كل كسرة من أي شيء. سارا في طريقهما على الدرب المترب وخرجا من الغابة. كان المتظاهرون يروحون ويجيئون بلافتاتهم. لم يفهم سليم هتافاتهم وتجنبَ النظر إليهم. كان هروبهما من هذا غربياً لكن الهواء كان مشحوناً .

وصلا إلى مدخل النفق وقاد سليمُ أكملَ إلى فتحةٍ في السور. لم تسدها السلطات إما لأنها لم تجدها بعد أو لعدم وجودِ وقتٍ لإصلاحها. جثما أسفل بعض الأشجار وبحثا بأعينهما عن الحرس. لا أحد في مجال الرؤية سوى تيار السيارات المألوف. لم يكن الظلام قد خيمَ تماماً فقررنا أن ينتظرا، لا داعيَ للعجلة.

خلال ساعة، لم يتبقَّ من الشمس سوى وهجٍ بنفسيّ في الأفق. زحفاً بحذاء الرصيف وسارا على أطراف أصابعهما نحو القضبان، يعبران بحذر.

أثارت نظرتهما الأولى إلى النفق الرهبة في نفسيهما. كانت المساحة بين الجدار وقضبان القطار لا تزيد على قدمين فقط في كلا الجانبين. سيوجبُ عليهما لصقُ ظهريهما بالجدار حين تمر بهما القطارات. أيّ حركة ذراع أو فقدان توازن ستُعدُّ هلاكاً. «سيكون مظلماً»، قال سليم لصاحبه يحذره. «علينا أن نبقى معاً ونستمع جيداً لصوت القطارات القادمة».

«نعم، نبقي معاً ونستمع لصوت القطارات». لاحظ سليم ارتعاش صوت أكمل.

«أكمل، ليس عليك فعل هذا إن لم ترد»، قال له بهدوء. لم يرغب في تحمل مسؤولية ما قد يحدث إن فقد أكمل أعصابه في أثناء عبورهما.

«أنا بخير، يمكننا فعل هذا يا سليم».

دخلا في الظلام، تحسس سليم عنوان خالة نجيبة مجدداً، في جيبه آمناً.

كان قد قطعاً مسافة كيلومترين من النفق حين شعرت أقدامهما بهزة خفيفة للقضبان.

«سليم!»

«تذكّر، التصقّ بالحائط ولا تتحرك! لا تتحرك!» صاح سليم. ضغط خده في جدار النفق البارد وحاول تسطيح نفسه. أغمض عينيه، مرعوباً على أكمل وعلى نفسه.

صار القطارُ أمامهما في اللحظة نفسها تقريباً، أعلنت أضواؤه القوية عن وصوله بسرعة قرابة مئة متر في الساعة، لطمهما بهبة هواءٍ قوية.

واحد... اثنان... ثلاثة... أربعة... عدّ سليم وأصابعه تتشبث بأسمت الجدار. تسعة... عشرة... أحد عشر... واستمر المرور. أربعة عشر... خمسة عشر... ستة عشر... حتى في النهاية، برحمة من الله، خفتت الضجة التي تصم الأذان وابتعدت.

أطلق سليم دون أن يتحرك النفس اليائس الذي حبسه. استرخى جسده ببطء مع إدراكه بأنه ما زال كاملاً، قد يفلح هذا! «أكمل؟»

لم يتلقَ ردًّا.

«أكمل!»

ما زال الصمتُ.

«أكمل، أنتَ بخير! أجبني!» مدَّ يدهُ خلفه في الظلام.

«نعم، نعم، أنا بخير. كنتُ فقط، أوه، سليم، لقد كان قريباً جداً!»

«لكنك بخير؟»

«نعم، أنا بخير.»

«أيمكنك المواصلة؟»

«لقد سعدتُ بالحمار نصف التلة يا صديقي، لا جدوى من إعادته.»

لمس سليم جيبيه وتحسس حافظته. تذكّر يوم أن عادَ إلى محلّ الرهونات في أثينا ودهشة صاحب المحلّ حين مدّ سليم

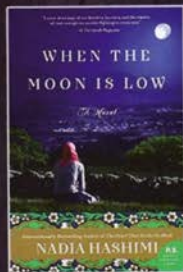
يده في جيبه وناوله النقود المستحقّة. ترددَ صدى ضحكته في
النفق المظلم. امتدت أمامه تثير طريقه كمنارة في الليل، ليس
عليه سوى أن يتبعها.

مادر جان، أنا على مقربة كيلومترات قليلة، سأعودُ إلى جانبك
وأثبت لأبي أنني رجلٌ يمكن لأسرته الاعتماد عليه... الرجلُ الذي
أريد أن أكونه. لديّ أساورك، مادر جان، ولن أتوقفَ حتى أراها
في معصمك مجددًا.

سال مذاقُ الوعدِ الحلو في حلقه، نادى صديقه غير المرئي:
«أكمل، صديقي، لنمضِ في طريقنا!»

مكتبة
t.me/soramnqraa

///kalamat



بين البطولة والخوف والانتصار، تصور رواية "حين يقترب القمر" رحلة سيدة أفغانية شجاعة لإنقاذ عائلتها.

فريباً؛ معلمة مدرسة في كابول، تنسى طفولتها المضطربة وتستعد لحياة جديدة مع زوج محب، لكن حياتها تنقلب رأساً على عقب عندما تصل طالبان إلى السلطة، وتصبح عائلتها هدفاً للسلطة المتطرفة. وبعد أحداث جسيمة، تجد نفسها مضطرة إلى الهروب خارج أفغانستان، متجهة إلى عائلة أختها في لندن.

في هذه الرواية نقرأ عن رحلة العائلة الطويلة والمرهقة في مدن أوروبية عدة، وبين عصابات تهريب النازحين، وعصابات الأتجار في المخدرات، تتقلب مصائر أفراد العائلة بين اليأس والأمل، إلى أن يصل الجميع إلى نهاية الرحلة المثيرة.

telegram @soramnqraa



kalemat
www.kalemat.com

